

أول الرواد



MUSTAFA
HISAM EDDIN

أول السرور

تأليف

أبراهيم أسعد محمد

١٩٨٠

الناشر

مؤسسة المعري للكتاب

مقدمة

يبدو أن ليبيا (افريقية) يحيط بها البحر من كل جانب، فيما عدا الجزء المتصل بآسيا. وقد كان الملك نينغار، ملك مصر، أول من أثبت هذه الحقيقة في حدود علمنا، إذ أنه حينما توقف عن حفر القنال، التي تصل من النيل إلى الخليج العربي، أرسل بعض الرجال الفنيقيين في سفن آمراً إليهم أن يعودوا بحرا من بين أحمدة هرقل (جبل طارق) حتى يأتوا إلى البحر الشمالي (البحر الأبيض) وبالتالي إلى مصر، وأبحر الفنيقيون على ذلك من البحر الأحمر إلى البحر الجنوبي (بحر العرب والمحيط الهندي) وكلما حل الحريف رسوا على الشاطئ، كل مرة وذرعوا الأرض حينما يكتفون في ليبيا كلما ارتحلوا، وانتظروا وقت الحصاد. وبعد أن يحصدوا القمح ينشروا شراعاتهم حتى أنهم بعد مضي ستين، وصلوا إلى أحمدة هرقل. في السنة الثالثة عادوا إلى مصر. ورووا أشياء ربما يصدقها غيري لكنني لا أصدقها، أعني أنهم أثناء إبحارهم حول ليبيا أضحت الشمس عن عيניהم. وهذا عرفت ليبيا لأول مرة.

هذه ترجمة حرفية لما ورد في كتاب هيرودوت عن الالتفاف حول أفريقيا في أول رحلة إستكشافية في العالم في حدود ما أعلم. والنص كما هو واضح مبسّر، شديد الاختصار، لا يفي ذلك العمل العظيم الذي قام به المستكشفون حقّه، كما أن المعلومات التي يزودنا به هيرودوت لا تفي كثيراً. فهل يمكن استخلاص شيء من هذه الفقرة القاصرة؟

دعوني أقول أولاً أن هيرودوت أثبت أنه مؤرخ صادق، فهو ناقل

غير محرف لما يرى ، ولما يسمع ، لكن الأمر هنا أنه ناقل من شخص آخر لأنه لم يشاهد الحادثة وإنما سمعها من الآخرين . فهل هؤلاء صادقون ؟

لم يقل لنا هيروودوت عن جاءه النبأ ، وعهد نخاو الفرعون الذى نسبت إلى زمنه الواقعة ، يسبق عصره بحوالى القرن ونصف ، وربما أصاب النقل بعض التحريف كما يحدث عادة فى تناقل مثل هذه الروايات . قالى أى مدى يمكن الاعتماد على ما كتبه هيروودوت مع العلم بأنه لم يرد فى كتابات الاقدمين أو آثارهم أى نص آخر فى حدود ما أعلم ؟

لنبدأ بتحليل ما يمكن أن نستخلصه من النص .

أولاً : حدثت هذه الواقعة خلال عهد نخاو فرعون مصر الذى حكم فيما بين سنى ٦٠٩ ، ٥٩٣ قبل الميلاد .

ثانياً : تمت الرحلة بناء على أمر الفرعون نفسه .

ثالثاً : إن من قام بها فينيقيون .

رابعاً : إن الرحلة استغرقت ثلاثة أعوام .

خامساً : إن من قاموا بها كانوا يرسون على الشاطئ . كل خريف يذرون القمح ويحصدونه ثم يعاودون الإبحار .

سادساً : إنهم فى إبحارهم أخطت الشمس عن يمينهم ، وهذه الواقعة هى التى ينكر هيروودوت تصديقها .

سابعاً : إن معنى هذا أنهم توصلوا إلى معرفة أن افريقيا يحوطها البحر من كل جانب فيما عدا الجزء المتصل بآسيا .

هذه هى كل المعلومات التى يستطيع الشخص أن يستخلصها من النص ، فهل تكفى لأن تحكم على الرواية بالصدق أو الكذب ؟

الواقع أن لدينا معلومات الآن يمكن أن نضيفها إلى ما سبق . تمكننا إلى حد بعيد من صحة الحكم . فتنحن نعلم مثلاً أن طوال الساحل الافريقى أكثر من ١٣٤٢٥ ميلاً ومعنى هذا أنه يجب أن يقطع الرحالة بين عشرين وخمسة

وعشرين ميلا في اليوم لكي يكملوا المسافة في سنتين وبضعة أشهر مع احتساب توقفهم مرتين كل خريف للزراعة والحصاد . . فدة الرحلة إذا معقولة .

ونحن نعلم أيضا أن من يتعدى خط الاستواء تصبح الشمس عن يمينه ، وهو الذي لم يصدقه هيرودوت مع أنه دليل الصحة القاطع بالنسبة لنا .

ونحن نعلم الكثير عن أنواع السفن التي كانت مستعملة في ذلك الوقت ، وفرة احتمالاتها ، وعدد الأشخاص الذين يمكن أن تقلبهم ، وسرعاتها ، كما نعلم كل ما يتعلق بالتيارات المائية ، ومناطق الزوايع ، والمواصف ، ومواعيدها ومناطق الساحل الأفريقي التي يمكن أن يتم زرعها بالقمح في الخريف ، ومواعيد الخريف في كل منها .

لدينا إذا حصيلة ضخمة من المعلومات يمكننا أن نطبقها على رواية هيرودوت ، ونستطيع من خلالها أن نحكم على مدى صحة الرواية . وقد حكمنا فعلا في نقطتين منها بالصحة . فدة الرحلة ثلاث سنوات هي مدة معقولة ، ووضع الشمس إلى اليمين يؤكد القيام بالرحلة . وأخيرا إنهم قطعوا بأن أفريقيا يحوطها الماء من كل جانب فيما عدا الجزء الملاصق لآسيا واقعة جغرافية صحيحة أيضا .

بقيت نقطة في رواية هيرودوت تحتاج إلى مناقشة ، تلك هي قوله إن الذين قاموا بالرحلة فنيقيون . لا شك أولا أن هيرودوت نفسه صادق فيما نقله ، لكن من روى له الحادث مجهول لدينا ، ومن الجائر أن يكون غير صادق . فالمعيار إذا هو من وزن الواقعة بغض النظر عن الراوى .

أبدا فأقول إن معظم المؤرخين يرجعون صحة ما ورد على لسان المؤرخ العظيم ، وحجتهم في هذا أن هو نفسه شخص صادق ، وأن المصريين ، كما يدعون ، شعب غير بحري ، شعب التصق بأرضه لا يحب الابتعاد عنها ، أو

المغامرة في حين أن الفينيقيين شعب لا شك أنه بحري ، وإوانه كذلك يجب
المغامرة ، والاستكشاف .

وأخالفهم الرأي . لكن قبل أن أضع أسانيدى أودان أوضع أن عصر
هيرودوت كان لاحتما على العصر الذى نسبت إليه الرواية بأكثر من مائة
وخمسين عاما ، وفي هذا القرن ونصف حدثت أشياء كثيرة ، ربما كان أهمها
أن مصر أضحت مهلبة تماما تحت نير الحكم الفارسي ، فنظرتة إليها لم تكن
النظرة التى كان يمكن أن ينظر بها إليها لو أنه عاصر الواقعة ، وهذا ما دفعه
إلى عدم التحقيق عن قام بالرحلة ، أو حتى في تفصيلاتها .

وثمة نقطة أخرى يجب أن نوضحها . تلك هى استعراض سريع لتاريخ
عصر المعاصر للواقعة . كانت البلاد تحت سيطرة الآشوريين بعد أن غزاها
أشور بانينبال ، وظهر بسماتيك الاول ، وطردهم من شمال البلاد ، كما طرد
الآثيوبيين من جنوبها . وبدأت مصر عهدا جديدا زاهيا تحت حكم الأسرة
السادسة والعشرين . التفت الفرعون بعد ذلك إلى تقوية جيشه ، ورخاء
البلاد ، وما حلت سنة ٦٤٠ ق . م حتى أحسن بقدرته على تجديد الغزوات
في آسيا فبدأ بغزو فلسطين ، وحاصر أشدود لعدة سنوات إلا أنه اضطر
أن يوقف مشروعاته ، نظراً لغزو الميديين الذين جاءوا من الشمال بعد أن
زحفوا إلى آشور ، واقتربوا من حدود مصر .

في سنة ٦٠٩ ق . م توفي بسماتيك الاول تاركا لابنه نينخاو بلدا يعمها
الرخاء وجيشا قويا . بدأ الفرعون الجديد حكمه بمحاولة تحقيق ما كان يصبو
إليه والده العظيم ، فشيد أسطولا ضخما في البحر الابيض المتوسط ، وآخر
في البحر الاحمر وبدأ يغزو فلسطين في السنة الاولى من حكمه فاستولى على
غزة ، وعسقلون ثم زحف شمالا إلى مقاطعة يهوذا . وظن ملك يهوذا المدعو
بوشيا أنه سيتمكن من التغلب على مصر لجمع جيوشه ، إلهجم على القوات
المصرية بسهل مجدو حيث وقعت أول معركة حربية منذ تسعمائة سنة تمكّن

بها المصريون من إخضاع آسيا . وانتهت هذه المعركة بهزيمة يوشيا التامة ، وتمكن نينخاو بعد ذلك من إخضاع سوريا كلها وبلغ مدينة ديلة على نهر الأورونط خلال مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر من تاريخ المعركة .

لم تدم امبراطورية نينخاو الآشورية أكثر من سنتين إذ هزمه البابليون تحت قيادة نبوخذ نصر سنة ٦٠٥ ق . م بجهة كوكيس ثم استولى على بلد المقدس سنة ٥٩٦ ق . م واضطر نينخاو أن يتراجع إلى حدود مصر . بعد هذا اكتفى نينخاو بترقية تجارة مملكته ، وتوسيع المشروعات فأعاد حفر القناة ، التي كانت توصل فرع النيل الشرقي بالبحر ، إلا أنه أوقفه بعد أن هلك في سبيل تنفيذه عدد كبير من المصريين . ثم جاءت الرحلة التي نحن بصددتها في أواخر حكمه حيث توفي سنة ٥٩٣ ق . م .

على ضوء ما تقدم أعود إلى سرد أسانيدى في مخالفة ما ورد على لسان هيرودوت أن القائين بالرحلة كانوا من الفنيقيين .

أولا : لم تكن مصر بلدا ضعيفا ، إنما كانت دولة قوية لها أسطولها في البحر الأبيض والبحر الأحمر ومعنى هذا أنها لم تعد الملاحين ، والبحارة القادريين ، اللهم إلا إذا وصلت المبالغة إلى حشد الادعاء بأن البحارة في الأسطولين كانوا من الفنيقيين ، وما نحسب أن هذا ممكنا . لم يكن نينخاو إذا بحاجة إلى أن يعهد بمثل هذه المهمة الجلية إلى الفنيقيين دون أهل بلده .

ثانيا : إن جزءا كبيرا من الرحلة كان معروفا لقدماء المصريين منذ أكثر من ألفي سنة على الأقل إذ أن الفرعون يدي الأول من ملوك الأسرة السادسة كان يرسل قائده البحري لنخت حوالي سنة ٦٠٠ ق . م . إلى بونت ، الصومال ، وبذلك فإن الملاحة في البحر كله ، والقرن الأفريقي وساحل الصومال ، كانت معروفة تماما للمصريين ، في حين لم نسمع عن دور فعال للفنيقيين في الإبحار في هذه الناحية .

وإذا أضفنا إلى هذا أن القدماء لم يذكروا بتصور دون أن الرحلة تبلغ مائة

المدى من الطول إذ أن ظنهم كان أن نهاية إفريقيا كانت منابع النيل حيث يلتقى بالاققيانوس لعلمنا أن تصورهم أنهم كانوا يعرفون معظم أجزاء الرحلة وليس جزءاً يسيراً ، إذا أضفنا هذا إلى ما سبق لوجدنا أنهم لم يكونوا في حدود علمهم في حاجة إلى طلب معونة الفنيقيين .

أما الادعاء بأن المصريين قوم فلاحه يرتبطون بأرضهم ولا يتمتعون بروح المغامرة والاستكشاف ، فهو إدعاء غير صحيح ، ويكفى هنا أن نذكر الرحلات التي قام بها حرخوف في عهد إبني الثاني حوالي سنة ٢٦٠٠ ق م إلى أواسط القارة الإفريقية ، ورحلات سنوحى ، والرحلات التي كانت ترسلها الملكة حتشبسوت وعشرات غيرها لتدل على عدم صحة هذا الادعاء .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، فإننا نعرف أن نينخواو أنشأ أسطولاً في البحر الأبيض المتوسط ، وأنه بدأ حياته الفرعونية بالهجوم على فلسطين ، وسوريا ، ولا يتصور أن الأسطول المصري كان مكوناً من فنيين أيضاً إذ لا يعقل أن يجندهم الفرعون لغزو بلدهم . فإذا كان بحارة الأسطول وجنوده من المصريين ، فما حاجة الفرعون إلى الالتجاء إلى الفنيقيين للقيام بالرحلة الاستكشافية وعنده جنوده ، وبحارته ؟

نقطة أخرى ... إن هيرودوث قرر أن نينخواو كلف الفنيقيين بالرحلة ولو أنه ضم إليهم مصريين ، ويونانيين ، مثلاً لسكان ذلك أقرب إلى المنطق أما أن يقتصر البحارة على الفنيقيين لحسب فما لا نجد معه أى سبب مع وجود مبررات قوية تعزز لإرسال المصريين على الأقل .

كانت الدولة البحرية التالية في البحر الأبيض هي اليونان ، ومن المعروف في التاريخ أن بساتيك الأول ، وتلاه نينخواو ، كانا يميلان إلى الجنود المرتزقة اليونانيين بالذات وأنهما استخدماهم في كثير من الحصون المصرية ، وأن جنائيات يونانية كثيرة عاشت في مدن الدلتا ، بل والوجه القبلي ، وأثرت ثراء كبيراً في التجارة ، وما كان من المتصور أن يقبل الجنود اليونانيون ،

أو الجماليات اليونانية أن يمهّد نيقاخو إلى الفنيقيين ، وهم منافسوهم في التجارة والبحر ، بالرحلة دون أن يكون لهم القدح الممل ، أما إذا كان البحارة المصريون هم الذين سيقومون بالرحلة فلم يكن يستطيع اليونانيون ، أو غيرهم المناقشة .

على هذه الأسس إذا سوف أبني قصتي ، أو على الأصح تصوري ، لما كان يمكن أن يحدث في مثل هذه المغامرة الغريبة ، والتي لا يضارعها فيما اعتقد أية مغامرة أخرى في التاريخ . ويمكن أن تتصور قيام جماعة مثل هؤلاء برحلتهم الاستكشافية إلى مناطق مجهولة تماماً في سفن ليس فيها الاستعدادات الكافية لأي سبل الراحة ، بل ولا تستوعب الضروريات اللازمة للحياة ، ليسكاخو الأعاصير والأمواج ، والزوابع ، والقيظ الشديد والجوع والعطش ، والإرهاق ، وليقاتلوا وحوش البحر ، والبحر ، وربما القبائل المعادية أيضاً في أراضى لا يعلمون عنها شيئاً ولمدة غير محدودة بالنسبة لهم . إن كان هنالك ما يضارع هذه الرحلة شجاعة وإقداماً فإنني لم أسمع عنه .

الفصل الأول

الاستعداد للرحلة

تقرير مرفوع إلى أعتاب جلالة فرعون مصر العظيم بسمائك الثاني له الحياة ، والصحة ، والقوة ، من عبده المطيع كين أيم حتب نائب قائد الرحلة التي تمت بحراً حول ليبيا .

هذا تقريرى أرفعه إلى جلالة الفرعون بسمائك الثاني (١) ، له الحياة ، والصحة ، والقوة ، عن أعجب رحلة قام بها بشر حتى الآن .

استقيت التقرير من مذكراتى اليومية التي كنت أسطرها باخلاص ، بعد أن استبعدت منها الوقائع غير الهامة التي لا تتعلق بموضوع الرحلة ، ولا أثر لها في سير الحوادث . وفيما عدا هذا لم أترك صغيرة ، أو كبيرة إلا نقلتها بأمانة ، حتى أعرض على جلالتك صورة كاملة ، حية لما رأيته ، ولاحظته من المخلوقات الغريبة ، والحيوانات المتوحشة ، وما لاقيته من مخاطر ، وأهوال ، ورأيت في احتمالات التجارة . والاستغلال لهذه المناطق الشاسعة المجهولة .

كما تعلمون جلالتك ولا شك ، أن جلالة والدكم العظيم ، الذي أرجو أن يكون متمتعاً بما يستحقه من نعم مع الآلهة ، كان قد كلف أمير البحر كما — لم — أور — أن يقوم برحلة بحرية تبدأ من الخليج العربي (البحر الاحمر) على أن تنتهي في البحر الاخضر العظيم الشمالي (البحر الابيض) ، وترك له

(١) ان الذي أمر بالرحلة أصلاً هو نبغاو الأول لسكن الرحلة استغرقت ثلاث سنوات ولم يعد القانون بها إلا في عهد خلفه بسمائك الثاني ،

حرية اختيار أعرانه ، وملاحيه . ولما كان كما — لم أود هو القائد الأعلى للأسطول ، وكنت معاً بأله في الحرب التي شها جلالة والدكم العظيم صد سكل كوميدى (شيا ، فاسطون) ورتنو ، والصحو (السوربون) كان من الدهى أن ينتقل تمكبره إلى احتياري معاود له كذلك في هذه الرحلة العجيبة .

جمادى رسوله عصر اليوم السادس من الشهر الأول من شهر شنبو في السنة الثانية عشر من حكم جلالة والدكم ، ورعون مصر العظيم جلالة العروون يحاو الثاني له الحياة ، والصحة ، والسعادة (١) . وكنت أكاد أفرع من تدري اليوم في تمادده بالحاجر ، فطنت من الرسول أن يلتظر قليلا . ولم انتهيت أتجهت إليه ، وسألته فأجابني بأن سيده يلتبس حصوري إلى عصره فوراً

عجبت من الطلب [دلم أكن قد رأيت كما — لم — أود منذ أكثر من خمس سنوات لئكني لا أحسب أن شيئاً من الدهشة التي اعترتني قد ظهر على وجهي ، وأنا أجمه بأنني سألحق به يوماً من الدهى أي لم أكن أعلم شيئاً عن سبب استدعائي الصجائي ، إلا أن صلاقي بكأ كانت وصيدة بالرغم من انقطاعنا عن التزاور ، وكنت أكن له كل محبة واحترام مدان كان قائدى في حلة الأسطول على بلاد رنو .

اعتذرت عن موعدى لئالى مع مدرب المصارعة ، وأسرعنا بالاغسال ، ورساء ثيابي ، ثم توجهت إلى قصر قائدى السابق . يبدو أن الخدم كانت عندهم أوامر سابقة ، إذ أنهم أدخلوني بمجرد أن ذكرت اسمي ، دون أن

(١) قسم القراء السنة إلى ثلاث مراحل كل منها ما شهر وهو شهر ، ومبدأ شهر مارس ينتهي يونيو ، وآتت على يوانو سبورى أكتوبر ، ويوت بدافى شهر سننى في دمار كما حكم . والثانى شهر نوفمبر والسنة السادسة وانسرى شدا ، من ١٩٩٠ ق م حتى وانه في سنة ١٩٩٤ ق م وذلك سكون السنة الثانية عشر من حكمه هي سنة ١٩٩٦ ق م ويكون التاريخ الشارايه هو الثاني من مارس سنة ١٩٩٦ ق م .

يعتصوا بإغلاق لودهم . والواقع أن هاتين السديتين كن في استغاري ، فلما
كدت أدخل إلى القاعة المسيحية حتى تقسم هاشا مرحباً ليتلقاني في أحضانه
كألاب الرقيق ، ثم اشعد عي قليلاً وأعد يتأملني بينما وقفت مبتسماً صابراً .
— إنك تعبرت كثيراً يا كين ، يحيل إلى أنك ارددت طولاً ، لكن
هذا أستعده . الذي لا شك فيه أنك ارددت عرصاً ، ومثلات أكدهك ،
وصدرك . ولست أحسب أن في هذا الامتلاء وطلاً واحداً من الشحم .
لابد أنك قوى كالثور .

اتسمعت الانسامة على شفتي رنخا عني .
— وأنت تعسك يا كالا لآس بك فما رلب محضها بشبابك ، وقوتك ،
كأ أنك تبدو في أحسن صحة .

والواقع أن كالا لم يبد عليه أى تعمد في العمر يالرغم من أنه قد أضفى في
حدود الحسين كان يعارنى طولاً ، ولا يقل كثيراً في عرص كنهيه ، ولم
ألحظ شعرة بيضاء واحدة في شعر صدره الكث ، أو شعر يديه ، أما رأسه
فكانت حليفاً ، لم يهر أن يصع عليه شعراً مستعاراً . وجاءني صوته قويا .
لكننا لن نقف وسط القاعة طوال الليل ، تعالى هنا إلى جاني على
الأريكة ، ودعنا نستعيد ذكريات الماضي ، وأسألك عن أحوالك .

أمسكني من ذراعي يقودني إلى أريكة خشبية ، وصعدت عينيها وسائد
مزر كشة . ولم يكد نجلس حتى دخل القاعة أحمد العبيد يحمل شراباً ،
وأفداحاً وضعها أمامنا على المائدة ، ثم انصرف صب كلاً قدحين من البيرة
من الإباء لبحارى الجميل ثم اعتدل في جلسته .

— حرنى ماذا فعلت بعسك طوال هذه السنين ؟ هل أسب متزوج ؟
— كلا .

— لماذا ؟

— ربما لم ألق الفتاة التي تناسبني .

— اسكك لابد قد تحطيت الثلاثين ، متى تعزم الزواج إذا ؟

— حينها تشاء الآلهة .

لم أخبره أبى تروحت ، وأن زوجتى هربت مع أحد زملائي السابقين في البحرية ، ولم يصر على رواحنا شهران ، وأبى كرهت الزواج بعد ذلك ، ربما كان يعلم ، وربما لم يكن يعلم ، على أى حال فإنه لم يستمر في الحديث عن النساء .

— خبرنى إذا ماذا تفعل تملك الآن ؟

— لا شئ ، أفضى وقتى في القراءة ، والصيد ، والقصر ، وممارسة الرياضة ، والتدريب على السلاح عسى أن يحتاجنى جلالة القرعون ، له الحياة ، والصحة ، والعورة ، في حروبه القادمة

قطب كما ما بين حاجبيه .

— أجل إن الحبل لا يدشر بحير ، قالوا المليون أصحاب على أعتاب نامرى (مصر) يدقون بابها بالسوف والدروع ... دعنا من هذا الآن وتناول بعض النبيذ ... ما رأيك فيه ؟ إنه ورد من مزارعى ، وأنا أعتقه شخصيا ..

بالرغم من الطريقة التى استدعيت بها ، والمعلقة التى طلب بها حضورى بعد غياب خمس سنوات ، فإنه الآن لم يكن يبدو عليه أى استعجال لأن يجرى إلى سبب هذا الاستثناء المماحى . ، ولم أكن أنا فى عجلة من أمرى ، هم يكن لدى أى ارتياح كما أبى صبور بطبعى ، وما على إن انتظرت قليلا . ولم يطل انتظارى اعتدت قائدى السابق وتعرض فى وجهى وقال وقد ارتسمت عليه علامات الجذ .

— كين ما رأيك فى معامرة مريدة لم يسبق إليها أحد ؟

بقيت نظرتى ثابتة لا تعير ولم أجب على السؤال منتظراً أن يرسق إصمحا .

— إنى كنت فى الصباح فى حصرة جلالة القرعون ، له الحياة ، والصحة ،

والقوة ، وكلفني مهمة غريبة هي أن أفهم برحلة بحرية حول ليبيا (١) فأبدأ من بحر العرب (البحر الأحمر) لأعود إلى تاجر عن صديق البحر الأحمر الشمالي (البحر الأبيض) فما رأيك أن تصحبني ؟ .

كنت أتوقع كل شيء - إلا هذه فلم تخطل لي عن مال . صحيح أنك كما تعلم بشكل ، أو آخر أن ليبيا تحوطها المياه إلا من ناحية آيا ، لكنني لم أسمع ، أو أفرا ، مطلقاً أن شخصاً ظم هذه الرحلة . كانت مجرد أحلام لا يدعمها أى دليل ، أو برهان . عني أنه إذا كانت الدهشة قد أعترتني فاني لا أحسب أن قسما وجهي أبأت كاشي . ، وحينما تكلمت جاء دور صديق في الدهشة .

— لماذا ؟ :

— انظر إلى تاجر الآب إن البابليين في الشرق ، والشمال قد استولوا على رأسو ، وكوميدى ، وقد حالهم الإسرائيليون وإلى العرب توجد قبائل الطومياح التي ما زالت تمش هجماتها المتكررة على الحدود . وإلى الجنوب توجد دولة بيا . لقوة ، وفي لبحر الأحمر العظيم الشمالي (الأبيض) جنوب سفن الأكوايوشيا (٢) بن وتوجد جنودهم في تاجر نفسها فلا نستطيع أن نغضبهم . وقد أعلقت سم فرطاحه بحر الشمال من ناحية العرب . أين نستطيع أن نتوجه ؟ إننا نرعب حيش ، وأستحوي قويا لمواجهة كل هؤلاء وهذا يحتاج إلى مال ، وساجد الذهب لدينا نصت أو كادت ، كما أنه ليست لدينا أشجار نفع لصناعة السفن البحرية . هل لدينا وسيلة لعك الحصار الذي يطبق علينا بكاد أن يرهق أعضا سوى محاولة إيجاد مصادر جديدة للذهب والأشجار ؟ وأين هذا إلا في جنوب ليبيا ، وربما غيرها ؟

أجى كما محاضرتة الطويلة ، وانتظر والواقع أنني كنت أفكر فيما قاله .

(١) كانت أفريقيا قديما تعرف باسم ليبيا

(٢) اليونانيون .

إن كل ما ذكره صحيح بل إنني شخصياً طالما فكرت فيه ، وإن لم يذهب
تفكيرى إلى حد محاولة الالتفاف بحرية حول ليديا .

- إننى أوافقك من حيث المبدأ ، ربما كان فى ذلك مخرج من المأرق
الذى نحن فيه ، لكن هل فكرت فى الصعوبات التى تعترض التنفيذ ؟

- إننى لم أفكر فى شئ آخر منذ أن كلفنى المرعون بهذه المهمة
فى الصباح ، وكلما فكرت تجلت لى الصعوبات والأخطار . لكن هل
هذا سبب كاف لأن ننعض يدينا من المهمة ؟

- كلا .

- إذا فأنت معى ؟

- أجل .

- حسنا فلنفكر إذاً سوياً فى التنفيذ . إن المرعون له الحياة ، والصحة
والقوة ، قد ترك لى الحرية التامة فى أن أختار من أشاء من الرجال ، كما
وعدى بكل ما أطلب من إمدادات سواء لأخشاب السفن اللارمة أو المؤن
أو المال أو السلاح .

- ماذا عن السرية ؟ لا أعتقد أن مثل هذا العمل يمكن أن يسبق
فى طى السكتان .

- أنت مخطئ . إننا سنبعث أننا سوف نقوم برحلة إلى بلاد بونت
(الصومال) لاستحضار بعض الأخشاب ، والحبور ، والتجارة عموماً ، وإن
يعلم أحد حقى من البحارة والعباط ، الغرض الحقيقى من الرحلة إلا بعد أن
يبحر من بونت .

كان على حق . إن اتصالنا ببلاد بونت لم ينقطع . صحيح أن الرحلات
البحرية إنىها قد توقفت منذ زمن ، إلا أن القوافل البرية كانت ما تزال
مستمرة عبر وادى (السودان) وإن كان عاقل نباتا يتقاضى رسوماً

فأخشة ليسمع لها بالمرور في أراضيها ، وربما بدت مثل هذه الرحلة كأعمال
محاولة لتعادي الرسوم

طامعا بعد ذلك شامش الخطوط المريضة للرحلة ، عدد المص ، وأنواعها ،
والرجال ، وأنواع المؤن ، والأسلحة ، وكمياتها ، وعشرات التعديلات التي
كان لابد من القيام بها ... ولم أنصرف من ذلك إلا حينما بدأ حمر (شمس
الصباح) يرسل أشعته الباهتة من وراء الأفق . عاودنا اجتماعا في اليوم التالي ،
والذي يليه ، والذي يليه ، حتى أتممتنا أسبوعاً كاملاً في المناقشات . ولم نكمل
الأمر إلى المذاكرة ، بل دونا كل ما استقر عليه الرأي .

من البدهي أن أول اهتمامنا انحصر في السفن ، نوعها ، وحولتها ،
وصناعاتها ، وعدد الرجال الذين يحفون بها في هذه النقطة كان احتلاماً
كبيرا . ذلك أن كما كان ينس إلى التمسك بكل ما هو مصري ، ويكره
الأجنبي ، ويرى أن أحسن السفن هي المصرية القديمة من التي أنتج
المصريون صانعها ، وهي التي حاصت البحار ، وانتصر بها الأسطول المصري
في كل موقعة دحنت مدخر سارج ، وهي أخف وزناً ، وأكبر حجماً من
غيرها ، وأجبراً وأياها . من حيث الرحل ، والصانع عبر بحر العرب إلى البحر
الحموي (١) وبلاذوث وهي مائة سكاك أن تعدل نصف الرحلة التي
سوف نقوم بها (٢) .

وعارضت الرأي ، وانصت حجة على أن الرحلات الماضية جميعها
كانت في عمار معتقة ، صرما أهلها منذ آلاف السنين ، في حين أن هذه

(١) كان المصريون القدماء يطلقون اسم البحر الحوي على الخليج الفندي والمتحد
المدوني ، ومن ثم يكون يعرفونه ، وربما ظنوا أن بحر أفريقيا لا يتجاوز الصومال كثيراً
ثم البحر بعد ذلك .

(٢) السبب المذكور في الملاحظة السابقة كما رأيت قد يكون أن الرحلة ليست طويلة فهي
لا تتعدى الانكاف حول أفريقيا . من الصومال مباشرة ثم رحلة العودة .

ترحة سيكون حرمه . بها في البحر الجنوبي وهو كما كان يتردد ببحر مفتوح
سكن فيه لرياح ، والأعاصير ، والأمواج ، والتسارات ، وبالتالي فإن مثل
السفينة لا يفلح بسهولة في مقاومة كل هذه العناصر الطبيعية . أصمت
الغريقين هم الوحيدون الذين اجتاروا أعداءهم مراراً (جبل طارق)
وتجروا معهم في البحر الغربي (المحيط الأطلسي) وهو المتصل بالبحر
البحري ، وهو الذي سوف نطهر لاجتيازه في طريق العودة .

وأخيراً ذكرته أن الفرعون العظيم ، رع من هو الثالث ، كان قد غيّر
من شكل السفن المصرية ، واحتدى حدود الغريقين في معركة البحرية مع
اللبست ، والتشكر ، والشكل ، والديين ، والوشش ، وأن الكثير من
من السفن الآن في بيوت نصح (منف) يحتدون هذا الحد ، وتركوا النظم
التي كانت فاضحة الجمال الثقيل ، واختفى نظام التحميل رمت ، وظهرت السارية
المستعرضة السفلية ، للشرع المستطيل ، وحبال حرم الشراع الرأسية .

مكننا ساعات سافش هذه النقطة ، ولم أمل من المناقشة فعلى قوة السفن
توفرت سلامة الركاب ، وإمكان إتمام الرحلة . كان الفارق بين السفينة
المصرية والفينيقية كبيراً . فالأولى نبتت أصلاً لتمتد عباب أيكر — عا
(الهر العظيم — النيل) وحيثما بدأت الرحلات البحرية لم يرد الأمر على
أن أضحت السفن أكثر حجماً عما كانت . لم يكن هنالك بأس في هذا إذ أن
الرحلات حتى الآن تمت في بحار مغلقة ، سواء البحر الأحمر الشمالي أو بحر
عرب ، ولم يكن الأمر يحتاج لأكثر من أن ترفع جواس السفينة قليلاً
حتى تسمى السطح نسبياً من الأمواج . لكن هذا النوع لا يصور أن يفلح
في تدمير المتوحدة كالبحر الجنوبي ، أو الغربي . صحيح أن هذا النوع كان
أحب ورأياً لفلة الاختساب الثقيلة فيه ، وبالتالي فهو أيسر على المجدفين
. لم تكن الرياح تكنى لتسير السفينة بالشراع ، لكن هذه الحيلة كان يفابلها
تحت في سلامة السفينة نفسها .

وعما كان من المستحسن أن أذكر شيئاً عن تاريخ بناء السفن في تماري

(حذر) ، كانت السفن أصلاً مجرد مراكب نهريّة ، وحيثما استقر الرأي على اقتحام عباب البحر الأخضر الشبلي منذ أكثر من ألبى عام (١) عقد المهندسون كبلا (جبل ضخيم كبير) حول أحد طرفى السفينة ثم انجهموا . ثم عبر خط المنتصف ، فوق ظهر السفينة وعقدوه حول طرفها الآخر ، ثم مروا وتدا متيناً خلال جدائل هذا الكبل عند منتصف السفينة ولووه عدة مرات ، وبذلك أمكن أن يحكموا الطاقم كله فيتوثق تماماً . هذا الكبل هو البديل الذى استعاضوا به عن سهم القاعدة ، والرواهد الموجودة فى السفن الفينيقية . كان الكبل يلبى حتى يسع القدر المناسب من قوه الحذب فيحفظ طرفى السفينة من التصدع عندما تضطر أن تشق طريقها فى المياه المضطربة . وأحبرا أضاف المهندسون شبكة عككة تتحدى أفقياً بجره الأعلى من السفينة كإجراء مساعد لتقويتها .

ولما لم يكن هنالك سهم للقاعدة يمكن أن يشت فيه الشراع بأحد إذا أن قاعدة الشراع تتطلب من جدتها وملازمها كثيراً ، فقد صمم المهندسون دعائمين لتوزيع الضغط ، وثبتوهما بضابطة عن طريق حبال من مقدم السفينة ومؤخرتها ، وعليها أقاموا شراعاً طويلاً قائم الروايا عن الساريتين . كان الشراع ينشر بواسطة ساريتين مستعرضتين إحداهما هى المعتادة عند أعلى الشراع ، والأخرى عند أسفله .

لم تتغير السفن المصرية كثيراً ، وإن كانت قد أدخلت عليها بعض التحسينات فى عهد المرعون حشمسوت . فاستبدل الشراع بأحر أكبر منه ، لم يكن أطول ، وإنما أعرض كثيراً ، وإن كان لا يزال ينشر بالطريقة القديمة بواسطة سارية مستعرضة عند قمة الشراع ، وأخرى عند أسفله . لكن لما كان الشراع عريضاً لدرجة كبيرة فقد صنعت كل سارية من

عمودين مستدقين ثقتا بالتداخل معا ، بدلا من عمود واحد ، فسمع ذلك
استمع صراخا صر كثيرا . وبالتالي فهو يتطلب فعلا رافعا أقل ، وعلى ذلك
ستمى 'سبنسون' هي طريقة المدعنتين ، واستمضوا عنها بعمود واحد .
'ما حجم السمن فقد وصل إلى مساحة كبيرة إذ بلغ طولها ١٢٠ عا (١)
وعرضها أربعون (١٨٠ قدما وستون عرضا) (٢) .

بعد مئات شات طويلة استقر رأيا أن تكون ١ من أربع من
تس كبر من تبيان على الأسس الحسنة ، والأحيرتان أصغر حجما تبيان
ضعا للسلام القديم . لكن كما أثار نقطة لها وجهاتها ، إذ قرر أن مجرد بناء
من قوية ، سوف يثير الشكوك في أهداف الرحلة ، وأنها ليست حقا كما
سيداع مجرد رحلة تجارية إلى بلاد موت ، وإنما هي تهدف إلى أبعد
من هذا .

وجدت الحل . طلبت أن لا يكون بناء السمن في بيوت نخع (منب) ،
حيث توجد جميع مصانع السمن ، وإنما كان علينا أن نأخذ الصناع والبحارة ،
والجنود ، رحلة طويلة إلى كست (التوضيحية) أو شابت (قنا) أو كيتو
(فقط) ومنها إلى ثا - عاو (القصير) حيث تبنى السفن ، ولن يعود
شخص واحد من هذه الرحلة إذ سوف يأخذهم جميعا معنا في رحلتنا
الطويلة ، وهذا يستحيل معرفة ما سوف نعوم به .

استمر رأينا على ذلك ، وعلى أن يأخذ ضريق الآهة (وادي الحمامات) من
كيتو (فقط) إلى ثا - عاو (القصير) ومعنا جميع ما يلزمنا ، ليس للرحلة
نفس ، وإنما أيضا لبناء السمن . كانت عملية صعبة إذ أنه كان علينا أن
نقل كل هذه الأشياء ، والمؤن ، والرجال عبر قرابة ١٥ يترو (ألترو

(١) انج قدر طولي كان يساوي ٦ ونصف قدما تقريبا .

(٢) هذا الوصف استلته من كتاب رواد البحار تأليف ليوبيل كلوسون وترجمة
أحمد حلال مظهر .

حوالى در ١٠ كم) فى وادى الآلهة ، لكن لم تكن هنالك طريقة أخرى إذ أن
ثا — عاو ليس بها من المؤن ، أو المواد الأولية ، أو الرجال ما يكفى لتغطية
احتياجاتنا ، أو حتى جزء منها .

دارت مناقشاتنا التالية حول أشق نقطة ألا وهى اختيار الرجال . بدأ
كأبأ شرفى أن أكون نائبه . وبالتالي قطبان سعيمة القيادة التى سيكون هو
فيها . اقترحت أن تسند قيادة سعيمة إلى صديقى ، — هو — ووافق كما عليه
إذ كان يعمل أيضا تحت إمرته ، وإن شئت فى مقدرة كسبطان ، ولم يوافق
إلا على إسماد قيادة إحدى السفينتين الصغيرتين إليه . وعرض كما أن يتولى
قيادة السفينة الكبيرة الثانية بجم أب ، وأردت أن أعرض على أساس أنه ،
وإن كان ملاحا مامرا إلا أبى أعرف أنه فاسى القلب لا يرحم من تحت يده ،
إلا أن كما أسكنى . أن قال إن الرحلة جميعها سوف تكون تحت قيادته الشخصية ،
وأه إن يسمح بسوء معاملة أحد فيها .

عرضا بعد ذلك أسماء عديدة من عرفهم واستبعدنا بعضهم ، سواء
لأحوالهم الشخصية ، أو لأمور تتعلق بكفاءتهم ، وعدم درايتهم لكافية
بتولى قيادة سعيمة فى مثل هذه المهمة الخطيرة ، وبالتالي سطرنا أسماء بعضهم
فى مراكز أقل أهمية من تولى قيادة سعيمة ، كصايط أول ، أو رئيس بحارة
أو قائد جديس . وتوالت الأسماء ، والوظائف التى اتفقنا عليها ، وتضمنت
انكشوف من مهندس إنشاء سفن ، وأطباء إلى تجارين ، وحائكى قلوغ ،
وصانعى حبال ، وغير أو شئت من الفنيين بلازمين يساهموا مهمة انتقاء
البحارة ، ومساعدتهم ، ومن إليهم من صاخين وغيرهم ، لكل فائدة سعيمة
ينتميم حجابا يرى ، وقد اتضح خطأ هذا الترتيب فيها بعد . وبقي قائد
السفينة الصغيرة الرابعة .

ذات يوم ، وكالت قد مضت عشرة أيام منذ استدعائى كما ، ذهبت كعادتى
كل صباح إلى قصر صديقى فأجبنى وكيل القصر أن الفرعون العظيم قد أرسل

يستدعى سيده ، وأبه ذهب ، ولا يتوقع أن يتأخر كثيراً وطلب أن أنظر أوتيه . لم أعر الأمر أهمية ولا بد أن الفرعون قد أطلقه مرور الوقت دون أن يسمع شيئاً من كاهن كالا بد أن صديق سوف يقنعه أن الأمر يجب أن يسير ببطء في البداية ، وأن يحسب لكل خطوة حسابها حتى يمكن الاطمئنان إلى سلامة الرحلة ونجاحها .

لم أشأ أن أصبغ الوقت هناك جلست إلى المنضدة أراجع حساباتي . كانت الرحلة في تقديرنا تحتاج إلى ألف وخمسة مائة رجل تقريباً ومن اللازم أن تكون المياه الصالحة للشرب كافية كما يلزم أن توجد مؤن تكفيهم لمدة ستة على الأقل ولم تكن هذه عملية بسيطة بل إن مجرد نقلها على الخيل من كيبوتو إلى قانا — عاصمة شافا .

يريدو أني استغرقت في حساباتي لدرجة لم ألحظ معها أن كاهن قد دخل ، وأبه وقف حلي تماماً يرقب ما أفعل حتى وضع يده برفق على كتفي . إنشعبت ثم انقسمت معتدراً لما رأيته ، إلا أنه طلب مني أن أترك ما في يدي خضات . قف معه من مكاني ، وجلسنا على الأرض . كان وجهه متجهماً لا يبشر بخير ، وجاء صوته غريباً وهو يسأل :

— كين هل فكرت في القبطان الرابع ؟

— ما رأيك في نبي ما رع ؟

— كلا لا داعي له ... هل أخطرت أحداً من القبطان الآخرين ؟

نظرت إليه دهشاً .

— لا ... ألم تنفق على الأخطو أية خطوة تمييزية إلا بعد أن نضغ

من حيلة العمل كاملة ؟ لماذا السؤال ؟

— إن الفرعون ، له الحياة والصحة ، والقوة استدعاني اليوم ، ولما ذهبت

تبي سألني عن مدى التقدم الذي أحرزته بعدد الرحلة ، فأخبرته أنني

لم أعمل شيئاً بعد سوى التخطيط المبدئي ، فطلب مني أربيعين شخصاً في وظيفة مبعوثان ...

شعرت بشيء يقبض عليّ بقوة ... إن هالك جرأ شيئاً لا يريد كما أن يروح به دفعة واحدة فأعطاني جرعة جرعة . لم أتكلم وبقيت في مكاني دون أن يخرج لي جفن .
— إن هذا الرجل هو أبوف عنج .

أحسب أنني كنت قد توقعت ذلك بشكل ما ، ومع هذا فإن صدري كاد أن يتمزق . تسمرت حيث أن لا أتكلم ، وحتى مقتلتي لم تتحرك من محجري . لاح لي خلال ظلمات الماضي وجه أري رن الجبل ، زوجتي لشهرين ، تلك التي فرت مني إلى أبوف عنج ، وعصفت أن تكون حيلته على أن تكون زوجتي . كنت ، ولعلني مارلت ، أهواها ، بكل ما في جسدي من قوة تهوى لجذات الصدمة شديدة أدهمتني ، وهزت كياني ، مرصت شهورا عديدة حتى طورا أن ملاق حنفي ، لكن جسمي القوي تعلب ، ولمساعدت إلى الحياة كانت لدى الفرصة الكافية لأن أقبض لأمر عني وجها .

قررت ألا أقدمها للمحاكمة ، وألا أعمل شيئاً حين الخائن الذي كان صديقي ، ورفيقي قتل . عبت أن في عملها داته جراء كافيا سوف تعصم عنه السنون جاءته أخبارها بعد ذلك بأشهر قليلة . لقد أسكرها أهلها فأصحت لا ناصر لها ، ولا معين إلا حليلها ، وحيما تسكرها ، ولما تعصر سنة ، تماما كما يتوقع من كل خور لم نجد من تلجأ إليه فانتحرت ، لو أنها جدهتني أو لو أرى عرفت قبل أن تقضي على نفسها لأويتها ، لكن لم تأت ، ولعلها ظنت أنني سأنهر الفرصة لأتشنق فيها .

كان ذلك منذ عشرة سنوات تزيد ، ومع هذا فلم أنمالك السموع تفرق في مقتلتي . بجهد تماسكت ، ورفعت رأسي إلى صديقي . لقد كان يعلم الحادثة لكنه لم يكن يعلم مقدار حبي لزوجتي . ظهرت على وجهه علامات الأسف والرحمة ، وتلعثم لسانه وهو يقول لصوت متهدج .

- كين إني آسف ... إن طلب المرعون كما تعلم أمر ، ولم أستطع أن أفعل شيئاً .

حاولت الابتسام .

- لا عليك ... إن الحادث مرت عليه سنوات عشرة ... وكنت أظن أنني سيقته تماماً .

- كين ... إن الأمر لا يقتصر على هذا ... إن هنالك ما هو أسوأ .

لم أكن أتصور أن هنالك ما هو أسوأ ... وظل شبح الابتسامة يتأرجح على شفتي .

كين إن المرعون له الحياة ، والصحة والقوة أمر أن يكون إيفو عذب هو فائز .

إنظر كما ليري أثر كلامه في ، إلا أنني كنت قد إمتصت الصدمة الأولى وما كان هنالك شيء بعدها يؤثر . بقيت على صمتي أنظر إليه ، وتلعم المره الثانية

- هل مازلت عند وعدك أن تصحبني في الرحلة ؟ إنك في حل من هذا الوعد الآن إن شئت ، وإنني مقدر أسبابك .

- كا ... لقد تخليت عن روجتي مرة وتركتهما في يد هذا الخثون وأنا أعلم مصيرها ... لم أحاول أن أحياها وأحدها ، ولم أفعل هذا ثانية مع صديقي ... كلا يا كا ... إنني مازلت معك في أي منصب شئت ، هذا خبياً إلا إذا فعلت أنت أن أنتهي

بان البشر في وجهه وهو يهتف

- كلا ... كلا .. إستمع ... إن شيئاً لم يتغير في الواقع سيثولي هو بداهه قيادة سفينة القيادة وستولي أنت قيادة السفينة انكبرى الثانية ، وهذا تكونان بعيدين عن بعضكما لا تراه إلا في النادر سيكون له اللقب فقط

أما أنت فسوف تكون لك اللياقة الفعلية ... لن أفعل شيئاً إلا بعد
مستشارتك

— هل يعلم أيوف عن حقيقة الرحلة ؟

— كلا ، وقد استوثقت من هذه النقطة من جلالة المرعون ، له الحياة
والصحة ، والقوة ... إن الوحيد الذى يعلم بها غيرى هو أنت ... أما هو
فلا يعلم سوى أنها رحلة تجارية إلى بونت

— لكن المرعون ؟ ألم يقل لأحد ؟

— لا ... لعلك تذكر أنه هو لدى طالب منذ البداية أن تكون الرحلة
سرية حتى لا تنسرب أساؤها إلى أعدائنا ، وهم عديسون كما تعلم .

هل ترمع أنت أن تحمر أيوف بهذا ؟

— كلا

— إذأ فعل من المصلحة أن تأخذ أمرا كذا ، الرحلة من المرعون له
الحياة ، والصحة ، والقوة ، ونحتمط به لنفسك دون أن تحظر أحدا .

— سأفعل ... إنك أحسنت الاختيار يا كين ... أحسنت بقراوك
ألا تحزن عني ، ولن أنحنى هناك ... إننى أعذك بهذا ... لن أتحنى عندك
ولن تنسب .

الفصل الثاني

طريق الآلهة

مضت الأيام التالية مدينة بالحركة . كنا نفطن بطبيعة الحال بالقرب من المقر الفرعون في تران (صان الحجر) ، ولم يكن كذلك جميع الرجال الذين احتوى عليهم الكشف الطويل الذي استغر رأينا عليه .

اضطرت إلى السفر إلى أكثر من بلدة ، وإلى مقابلة كثير من الرجال ، وإقناع من لا يريد مصاحبتنا ، أو استبداله بآخر إذ وضعنا ، كما وأنا ، قاعدة عدم إجبار أحد على مرافقتنا . عز أنى أستطيع أن أقول إنهم جميعاً ، فيما عدا فلائيل لم تسمح لهم ظروفهم الخاصة ، رجوا أن يعملوا ثانية تحت إمرة كا ، فقد كان قائداً رحيماً ، بالإضافة إلى حنكته ، ودرايته الشامة بمهنته .

بر كا بوعده إذ ظل اعتماد المطلق على ، بل أنى لم أر أيوف مطلقاً ، ولم أسمع اسمه سوى مرات فلائيل كانت إحداها حينما جاء إلى القصر أثناء اجتماعنا ، وأعلن أحد الخدم حضوره لسيده فاستأذن منى وعاد بعد دقائق ، دون أن ينس بكلمة عن إيوف ، واستنتجت أنه لابد قد اعتذر عن المقابلة . أت . هذا الاجتماع قال فجأة :

— على فكرة لقد أخذت بنصيحتك ، والتست من الفرعون له الحياة ، ونصحة والقوة ، أن يكتب لى تكليلها بالمهمة .

قام من مجلسه ، وسار إلى باب القاعة ليحضر ويعود بعد دقائق ، وهو يحمل لفافة من الردي مطوية لم تمض أختامها ، ثم تناول قلما سطر على ظهر اللفافة كلمات وباولى إيها .

— هذه هي ، إحفظها لديك ، ولا تخز أحدا بها . إنني كتبت عليها ألا يمض ختمها إلا في حاله وفاتي . ومن الدمي إذا احتجت إليها أيضا .

— لماذا لا تحفظها أنت ؟

— ربما تكون معك في أمان أكثر .

لم يزد على هذا ، وتناشينا اللفافة بعد ذلك ، واستغرقنا في أعمالنا . تباحثنا في أن نجعل مقر رئاستنا في نيوت نجح (منف) سهلا للحركة ، ولأن بها كل مصانع السفن (الترسانات) تقريبا . رفض كما في مبدأ الأمر بحجة أن العرعرون مقيم في تران (صا الحجر) وأنه يجهل أن يبلغ أولا بأول عن مدى التقدم في الاستعداد للرحلة ، إلا أنني تمكنت من إقناعه أخيرا بأن يستأذن جلالة العرعرون تسهلا لما مورينا ، وتجهيلا لها ، وفعلنا ذلك .

بجرد أن انتقلنا إلى نيوت نجح سار العمل بسرعة أكبر . أصبح من اليسير الاتفاق مع التجارين وسائر الفئتين ، كما سهل الاتصال بالرياسة ، والصباط ، والمهندسين ، والأطباء . وأرى بوقف سير العمل بعد ذلك . كلمت ساحورج ، صديقي ، بعملية شراء المؤن ، ودهن لكمية العسل ، والبيذ المطلوبة ، وازدادت دهشته حينما طلبت منه أن يشتري القمح ، وتساءل عما إذا كنا سندفع للتجار أم العلاحة . قال إن الكميات المطلوبة من مؤن تكفي لأكثر من سنة ، وأنه كان أولى بنا أن نشحن المراكب بالبضائع التجارية التي تنفع . والواقع أن كما لم ينس أن يأمر بشراء بعض البضائع من ناحية لتعطي السبب الحقيقي للرحلة ، ومن ناحية أخرى لا اعتقاده بأنها قد تحتاجها كمدايا لرؤساء القبائل التي لا شك سندرسو على شواطئها .

توالت الأيام والأسابيع ونحن في حركة دائبة لا تمطع ولم يتراجع

هن وعده الذى قطعه فكننت دائماً معه يستشيرني في كل صغيرة أو كبيرة ، وإذا كان أيوف قد لاحظ ذلك فإنني لم أجمع هنه ، أو منه ، بل إنني نسيت تماماً في عمرة العمل . قام المهندسون بإعداد الرسومات طبقاً للمواصفات حتى طلبها . وناقشناها معهم ، وأجرينا بعض التعديلات . وإن كانوا قد دهشوا من الارتفاع غير المادى لسور سطح السفن ، أو للقمرات الزائدة فيهم لم يعارضوا . وقام النجارون بعد ذلك بتقطيع الأخشاب للارمة ، كما قام الخشكون بإعداد قماش الشراعات ، والخياطون بصناعة الجبال ، ووضعنا علامات مميزة على كل جزء من السفن حتى يمكن بسهولة إعادة تركيبها عندما قطع بنا - عاو (المصير) ، حتى المجاديف ، وملاص البحارة ، لم يحملها كما أضعنا بمؤخرة كل سروال للمجدفين قطعة سميكة من الجلد حتى لا تتآكل الملابس بسرعة (١) .

أخيراً حل اليوم الذى تمت فيه كل استعدادات الرحلة ، وأضحي الأمر متروكاً على ما يقرره كما ، وفي الواقع أنه لم يتوان عن دعوتنا إلى قصره في نيوت نخ . ولأول مرة بعد عشرة سنوات جمعنا سقف واحد . أيوف وأنا كمت أعرف أن هذه اللحظة آتية لا ريب فيها ، وكنت أحشاها إذ أبى لم أكن واثقاً في أنى لن أحاول قتله . ويبدو أن كما كذلك كان يحشى أن أعمل هذا إذ أبى لاحظت أبى حينما دخلت احجرة تعمد دائماً أن يقف بيني وبينه .

عني أن شيئاً من هذا لم يحدث . بصفاغة غريبة تقدم إلى أيوف ماداً يسه يريد أن يقبض على ذراعى ، إلا أن نظرة واحدة ألقتها على وجهي كانت كافية أن تجعل ذراعه تسقط إلى جانبه ، ثم هركتني باستحقاق وجس .

(١) كانت طريقة التحذيف هي أن يقوم الخياط من مكانه ، ويجلس عند كل خمرة ، وسلك كانت مؤخره الملابس تآكل بسرعة فوسعوا لها قطعة من الجلد .

حياتي ساحورع ، فرددت التحية شاداً على ذراعه بحرارة (١) ثم تحرك
بجسمه آت بجسده الضخم ووجهه البشع ، وعينيه الصيقتين ، ولحيته الكثة
المعصرة . كان وحشاً صحنماً لا يمتاز بشيء سوى القوة المجردة ، ولا يعرف
قلبه معنى الرحمة .

أحسست بأصابه العولاذية تطبق على ذراعي في عنف متعمد ، كأنما
يريد أن يشمرني تنفوقه الدق . لم أحول من جاني أن ارد عليه ، وإنما
تركته يستنفد قوته دون أن يبدو على وجهي شيء من الألم الذي كنت أعانيه .
كانت قبضتي على ذراعه عادية لا عنف فيها ، وثبتت عيناى على عيبيه
لا تتحولان تنهرسان فيه بصبر هادى . ويبدو أنه قد وصل بضغطه إلى
منتهى قوته ، أو أنه لاحظ أنه أطال السلام حتى أن الموجودين بدأوا
يتنظرون إلينا إذ أنه لم يلبث أن دلى ذراعه إلى جانبيه ، وقال وهو
يتصنع الضحك .

— أهلاً يا كين ... هذه فرصة طيبة لأن نعمل سوياً

لم أرد ، واكتفيت بإبتسامة خفيفة . انضجت لى حقيقة الموقف منذ
البداية ، ستكون الرحلة مقسمة إلى حريين مأوف ، ونجم آت فى ناحية
وساحورع ، وأنا فى الأخرى ، وهكذا جلسنا يتوسطنا كما الذى طاف
بناظره فينا وقال :

— الآن يا سادة أضع كل شيء مهيناً هل اختار كل رباب وجاله ؟

تتالت الإيماءات من كل منا ، وعرك كذا يديه سروراً ثم تابع خطابه :

— هذا حسن لن نضيع وقتنا ، وعليكم أن تبدأوا بجمع الرجال كل
طاقم على حده حتى يمكننا استعراضهم بعد بأكبر أما أنت يا كين فعليك

مرأحة رجالك ومزالك ، وحيوانات الحمل ، واعدادها جميعاً لكي تنقلنا
الى كيتو (فقط) عن طريق إيترا (النيل) هل لدى أحدكم أسئلة ؟
تسأل ايوف بلهجة ناعمة :

... أجل ... إني لا أهتم أن تكون كل هذه الاستعدادات لمجرد رحلة الى
برت ، ومع هذا فإن البصائع التي حملت على البحر لا تستحق شيئاً مذكوراً
إلى جانب التكاليف ، وكأنا نحن في الواقع سوف نعطى هدايا ؟

كان ايوف يتسأل وهو يتقل بناظره بين كا وييني كأنا يبحث عن
الجنة في ملاحما . استشاط كاعضبا وهب من مكانه وصاح :

ايوف يجب أن تفهم أنك مجرد قبطان ، ومهمتك هي تسيير السفينة
ومراعاتها ... حتى إن كنت نائباً لي بأمر الفرعون ، له الصلعة ، والداوية
والخيد ، والقوة ، فهذا لا يعطيك حماً في مناقشة ما لا أستشيرك فيه . إن الرحلة
نعمت بأمر الفرعون نفسه ، وكل شيء فيها ملكه ، كما أنه على علم بكل
خطوه ، فإذا كان لك اعتراض وجهه اليه .

لم يتحرك ايوف ، ولم أنزل بناظره عن وجه كا . انتظر بعصر حتى
انتهى ثم قال بهدوء :

— إني فقط كنت أريد ملاحظتي بناء على طلبك .

— إني لم أطلب ملاحظات ، وإنما أسئلة تتعلق بعملك فأقصر كلامك
على هذا .

— حسناً ... سوف أحفظ بملاحظاتك بعد ذلك لنصي .

هنا تدخل سا حورع .

هل لي أن أسأل ... ؟ إننا مقلون على فصل برت (الشتاء)
لا نتحققون أن من المستحسن أن نبدأ رحلتنا بعد ذلك ، حين يكون بحر
مصري في أحسن أوقاته .

كان هذا سؤالاً وجيهاً . والواقع أننا ، كا وأنا ، كنا قد ناقشنا مرارته

الرحلة وحددناه عل أن يبدأ في أول شهر برت (شهر نوفمبر) طراً لعلمنا أن هنالك رياحا في المحيط الجنوبي يبدأ اتجاهها إلى الجنوب في الشهر الأخير من شهر آجب (هي سبتمبر وأكتوبر) وهذا يترك لنا مدة تكفي لكي نقطع المسافة من تا — عاو (القصير) إلى بلاد بونت (الصومال) وعندئذ يسهل علينا أن نستعمل الرياح في البحر الجنوبي لتحملنا المسافة الباقية من ليبيا (أفريقيا) قبل أن نتجه غرباً ثم شمالاً إلى أعصدة هرقل (جبل طارق) ولولا هذا لكان أفسد وقت للرحلة في أوائل شهر شينو (مارس) . عجبت كيف سيجيب كا على هذا السؤال ، إلا أنني سرعان ما تبيننت أنه سريع البديهة بدرجة كافية .

- هناك سبيان . الأول أن المرعون له الحياة ، والصحة ، والقوة ، أمرني أن أقوم بها ، وما على إلا التتميد المورى فلا أستطيع أن أرجوه التأجيل لموعد يناسبني ، والثاني أنني في الواقع أريد أن أنفذى قراصنة العرب ما أمكن ، ولعل أفسد وقت هو شهر برت فمادراً ما تعامر سبهم في البحار فيها .

كانتا حجتي مقنعتين لا مجال معهما للمناقشة ، وانفص المجلس إثرها على أن يجتمع بعد يومين لاستعراض البحارة . استعرضنا البحارة في الموعد المحدد ولاحظت أن كثيراً منهم ممن كانوا يعملون معنا قبل ذلك في الأسطول لكنني اشتبهت في أن هناك من كان جديداً علينا ، بن ولعله جديد أيضاً على البحر كما خيل إلى أن بعضهم ليس من تاملرى أصلاً .

حاطت كا في ذلك فأفاد بانه قد لاحظ ذلك ، بن وأنه تعرف على بعضهم ، من قبائل الطومياح ، وهم لا شك من البحارة الذين اختارهم ليوف من رجاله حيث أن والدته كانت إحدى الأسيرات قبل أن يتزوجها والده .

— كيف يقبل الفرعون له الحياة ، والصحة ، والقوة أن يجعل نائب
الرحلة من أصل غير تامرى خالص .

— إن والد إيوف رجل قوى له مكانته في الجيش . وهم متدمرون لما
يمنحه الفرعون من عطف المرتقة الاكواشين (الأغريق) وعله أراد أن
يرضيه بهذا التعمين .

— لكن ألا ترى خطورة ذلك على الرحلة ومن فيها ؟ إن قبائل الطومياح
رجال صحراء وليسوا رجال بحر . وهم أيضا رجال حرب ، وقتال ، طالما
شوا لغارات على تامرى ، فكيف يأمن لهم في مثل هذه الرحلة .
أجاب كما مقتضاب :

— هذه إرادة الفرعون له الحياة ، والصحة ، والقوة ، ولا مجال
لمناقشتها . ومن الطبيعي أن يكون بين رجال إيوف بعض من الطومياح .
وإني أنت يا كين أن بفضلك لإيوف لا يحملك بعيدا في أوهامك
وأهوماتك ؟

كانت هذه بمثابة لطمة من كاست اعتقد أنني استحقها ، وعلله لاحظ
هذا قياد بالاعتذار .

— إني أعتذر يا كين إن أهصابي أضحت متوترة في الأيام الأخيرة ، وهي
تزداد توترا كلما اقرب موعد الرحلة .

الواقع أن معك بعض الحق ، وإن كنت أظن أنك تبالغ قليلا في
تخاوفك .

— لا عليك يا ك... لكن هذا لا يمنع أن تأخذ معك بعض رجالك
محضين ، وتذكر أنك ستكون على ظهر السفينة بمردك وليس ما يمنع من
الاحتياط . وهذه المناسبة لقد تعرفت أنا أيضا على بعض رجال نجم آب وهم
من ضلع الطرق .

رجع كما نظره إلى يهرسى يتمعن ثم أقبل وقال :

— أحسب ألا ضرر من الإحتياط على كل حال .

لأنه متافئنا على هذا الوضع ، وانتقل بب الحديث إلى مسائل أخرى تتعلق بالرحلة .

حلال أسرع كانت المؤن ، وجميع الأدوات ، وأحشاش السفن ، وحياتها وشرائعها قد حطت على المراكب النيلية التي لا كثيرناها لهذا العرص . ذهب كما ليستأذن من الفرعون في الرحيل ، ثم عاد بعد يومين ، وأعطى الأمر بالإقلاع .

أبحرنا من نيوت بحج في الشهر الثالث من شهور آحت (سبتمبر) وكان الفيضان قد خمد حدته واستطاعت المراكب أن تتبعه ، وإن يكن ببطء ، إلى وجهتها بواسطة الشراع في معظم الوقت ، ولم نحتاج للتجديف إلا في فترات صغيرة حينما كانت الرياح لا تساعد .

وصلنا إلى كبتو (قفت) وبدأت عملية تفريغ المراكب ، والصنادل ، وتحميل المضاع ، والمؤن على الخير ، والبغال المسكراه . لم أشأ أن أشرى دواب الخل ، وذلك حتى لا يضطر إلى تركها للأهالي في ثا — عاو ولم تكن لها فائدة لنا بمجرد وصولنا إلى الميناء بل لأنها تصبح حملا ، إذ يجب إطعامها وسقيها ، كما أن الرجال لم يكونوا يرصون أن يأكلوا الخوصها ، ولهذا رأيت أن أكثرها . وانعقت مع أصحابها على تركها في ثا — عاو لدى بعض الأهالي الذين ذكرهم ، كما أترأ أيضا لديهم تعويضاتها قد ينمو في الرحلة .

كان كاداريا من الدرجة الأولى ، وقد اعتاد في حياته على العيادة ، وسرعان ما اتصحت عقرته في سرعة تنظيم الرجال ، والمؤن ، وخير الأحوال . لم يدع شيئا دون تنظيم ، ولم يهمل صغيرة ، أو كبيرة . كان كأنا يعرف كل شخص في الرحلة معرفة شخصية ، ويعرف قدرة اجتماعه ، وأحسن وسائل استعمال مواهبه . أصدر أوامره بحرم ، دون تردد . قسم الرجال بحيث يتبادلون الأحوال مع الخير ، كما يتبادلون قيادتها . وضع فرقة من هاتين وجل

حكم أسلحتهم في المقدمة، والمؤخرة، وعلى جانبي العاقلة بحيث يأمن من اغتة
تعدو، أو هجوم البدو، وضع كل قبطان ساق في قيادة جناح. أيوف في المقدمة
وسورج في الميسرة، وبجانب في المؤخرة، وأما في الميمنة، أما هو فكان
لا يجد أحوال يومه، يطير عرسه من مكان إلى آخر. ما من مشكلة صادفتنا
في ذلك، وكان موجودا قبل أن نلجأ إليه.

أمر أن يكون توزيع المياه في الصباح المبكر حتى تهبط درجة البحر إلى أدنى
مستوى، كما أمر أن يعطى كل رجل في العاقلة زجاجة واحدة من الماء كل يوم.
بعض أن يحمل أى شخص أواني فخارية، مقرر أن الماء ينصح به بسهولة،
كما يصح أيضا الأواني المعدنية لأن الماء تزداد درجة حرارته فيما يعمل من
رأسه. لم يقل أن يأخذ رجل أيا كانت درجته، أو صغره، قطرة واحدة من
ماء. أكثر من مرة، ولا فصمة واحدة من المؤن أزيد.

من أن تبدأ الرحلة أمر صك، أن يجتمع كل الرجال عند معبد الإله
مير، رب الصحراء الشرقية، وصاحب اللادورد، والكهن، والخصاف وسيد
قلاذ لأحية طرا، كان المعبد عند أول الطريق الموصل إلى ضرائق الآلة
ووراء الجبال، ولهذا ترك كما التمسد الإله إلى ما قبل قيامنا بالرحلة مباشرة.

في اليوم الثاني من تركنا كينور قطعوا على شخص يسرق بعض المؤن فأمر
بقتله، وبعد فيه الحكم رغم محاولة نجم آب الدخس إيد كان من رجاله. تدمر
بعض أصحاب الرجل، موقف كما بينهم أمرا لإياهم بالإدعان لحكمه، أو العودة
تدكيتر دون ماء، أو طعام. مرق أن لاحظت أنه قد استمع إلى نصيحتي
وحد ستة من رجالاته الذين ينق فيهم. لم يكن يتحرك إلا وهم وراءه،
كان منهم محمو، عند أمر لم يتركه في جميع مراحل حياته، وطالما رأيت معه،
صحه كغله في كل حركة، ويسكاد أن يعبد الأرض التي يسير عليها سيده.

وبما عدا هذا الإخلاص العجيب، لم يكن في مسمو أية ميرة سوى قوته
صته. رأيه ذات مرة يرفع صاربا طويلا من الخشب، لم يستطع ثمانية
(٣ - رواد)

رجال أن يقيموه : كان بعد هذا غيباً لا يفكر ، وأمله قد ترك التفكير
لسيده ، بل بدأ لا يتحرك إلا حينما يأمره كما ، وحينئذ يمدى شاطئاً ووجهه يتندر
أن تصدر من مثل من كان في حجم جسمه الضخم .

كان منهم عضو ، عبد آخر ، أقل حجماً من زميله لكنه لا يقل عنه كثيراً
في القوة ، ويتميز بكاء ودهم . لا يفارق سمسو ، حينما تجد أحدهما تجد
الآخر ، إلا إذا كان أحدهما أو كليهما يمدان أورا أصدره كما وكنت أعرف
أيضا واحدا من الاربعة الآخرين ، أوى ، المحار الذى سمعت عنه أنه
أحسن من رمى السهام فى الأسطول . صئيل الجسم إذا ما هورن بالعبيد ،
إلا أنه خفيف الحركة ، على النارات ، حذر فى تصرفاته ، لا يختلط كثيراً
بأترابه .

سارت القافلة طينة فى الصحراء الشرقية ، كما لا يستطيع أن تقطع أكثر
من يترى واحد فى اليوم ، ن كثيراً ما قلت المسافة عن ذلك ، إذا ما كنا نضطر
إلى عدم الانتقال بعد أن يرتفع حر ، شمس الصباح ، فى كبد السماء ، كما كانت
تقيدها أخير المثقلة بالأحمال ، وهى تسير ببطء . نتزع أرجلها من الرمال انتزاعاً .
على أن النصف الأول ، من الرحلة لم يكن من الواقع عسيراً جداً إذ أن
المياه كانت متوفرة لوجود الآبار الى اعنى المراعى العظام محورها على طول
الخط فى الطريق إلى المناجم ، ، كما أن الأرض كانت مستوية نسبياً ، ولم يكن
يضايقها سوى شدة الحرارة بالرغم من أنها كنا قد قاربنا ظهور برت
(الشتاء) . بعد ثلاثة أيام منذ أن تركنا كيتو كنا قد قطعنا نصف المسافة ،
لكن النصف الآخر كان أشق ما فى الرحلة ، إذ أن الطريق فيه بر داد وعورة
وإزاحة ، وبمر أحيانا يوديان بين الجمال . ليس هذا لحسب بل إنه لم يكن
به آبار مطلقاً ، فأضحت المياه العذبة مشكلة لإصطرتنا إلى مزيد من الشدة .

فى اليوم الخامس حدثت حادثة لم أعرفها انهما كما فيها إلا أنها كانت ذات
أثر كبير فيما بعد . كنا فيما يشبه الممر بين جبلين حينما حل المساء . وقرر كما
أن بعضى اليلة فيه ، كما قرر أن تكون المسافة بين كل جماعة وأخرى متباعدة

سبح بحيث إذا حدث إبهيار صجرى يسهل على الرجال الابتعاد كما تكون
خلوة في العناد أقل ما يمكن .

لأنني أن الوقت كان قد جاور منتصف الليل حينما استيقظت فجأة وقد
تحت جمع حواسي . كان الظلام شديدا داخل الخيمة ، لم يخفف منه الضوء
تحت أنعمت من الباب الصيق فلم تستطع عيناى أن تميز الأشياء ، ومع
هذا فقد داهمني شعور قوى بوجود شخص قريب مني . بقيت مكان ساكنة
لا تحرك ولم تمس الحفلات حتى سمعت أذناى صوتا خفيفا إلى جوارى ثم
تصقت قبضتان من حديد على رقتى ترهقان أنفاسي .

تحركت دراعى في اللحظة نفسها . لم أحاول أن أبعد القبضتين عن عني ،
وعدت أجهت قبضتى إلى حيث تصورت وجه القاتل المربق . لا ريب أنه
كان يتوقع المقاومة ، لكننى لا أعتقد أنه كان يتوقعها بهذه السرعة ،
ولذلك لم يوسيلة . أصابت أذناى جانب وجهه ، وكادت من القوة بحيث
نرى شعرت بالآلام شديدة في عظام أصابعى .

صرت منه أنة ألم مكتومة ، وارتفعت القبضتان عن عني ولعل المذكرة
قد دعت . لم أمهل . في اللحظة التالية كانت قبضتى ترتطم بقوة في جسده ،
وحدث تضربة هذه المرة في الصدر العريض ليرتد خصمى بعيدا إلى الوراء .
وبدت عليه الضربات .

يسو أنى فقدت بعض إحساساتى أثناء ثورق فليست أدري كيف اعتدلت
صدفتى . ولا كيف امتطيت خصمى أكيل له اللكمات في كل جزء من جسمه ،
... سم حواسى ثابته إلا بعد أن لاحظت أن الجسد المسجى تحتى لا يبدى
حجوه أو حراكا . هنا فقط توقفت ، وبدأت أحاول أن أستميد أنفاسى
لهتة لى كانت تتردد سريعة من عنف الشعور .

صحت حوالى دقيقة حتى عاد تنعسى إلى حالته الطبيعية ... ومن ثم بدأت

أتحرك . لم أكن قد نيت ملاح عدوى حتى هذه اللحظة ، ولذا قررت أن
أسحب إلى الخارج حيث يكون الصوت أقوى . هضت من مكاني ، وأمسكت
إحدى ذراعية وأخذت أجرجه عبر الخيمة .

هنا وصلت إلى سمى الأصوات ، ولم تسكن الآن لتدخلها ، أو تخطى .
تفسيرها . كانت أصوات أمبارج - إلى لم أتردد ثانية واحدة ، رفعت
الجسد المسجى عن الأرض لألقيه على كتفى ، وأعدو به مبتعداً عن الصخور
المهارة التي كانت تنحدر بسرعة ضخمة . كان الرجل صمغ الجثة ثقيلًا
وأصعبت حركات بطيئة سيئا . تلقت حولي وأنا أعدو بحمل الثميل ، وبالرغم
من الظلام السائد أمكنت أن أدير مكانا اشتدت فيه الظلمة ، لا يبعد أكثر
من عشرين نيلو (١) لم أتردد في الاتجاه إليه . إذا كان هناك أمل في النجاة
هنا يكون تحت ما تصوره تنجويًا في الصخور القريبة .

كانت الصخور تنهوى بسرعة عجيبة ، بل إن بعض الأحجار الصغيرة
بدأت تنبثر حولنا لترتطم بالأرض ، وتنفذ ثأرية في الهواء ، ومع هذا
فلم أبال وأندفعت في عدوى . وبست المساعة أطول مما قدرت كما أصحى
الجسد الملق على كتفى يردد ثقلاً ، وبشكل عائنا حقيقياً يهبط - سرعتي في حين
تكاثر الأحجار الصغيرة المتطيرة حولي .

بشكل ما لم تصبنا الأحجار إلى أن وصلت إلى التجويف الصحري ،
وألقيت بحمل في حواء ، وفي اللحظة الثانية أصابتني ضربة قوية في مؤخرة
رأسي كفتى على وجهي ، وغشيتني سحابة سوداء ، ولم أشعر بشيء .

التصّل الثالث

قراصنة البحار

حينما فقت لم يكن جبر (شمس الصباح) قد لاح في الأفق بعد .
كان نون وجه وقع عليه نظري هو وجه كا الذي بدأ قلقاً مهموماً ،
ثم لاحظت وجود شخص آخر انضح أنه المكان حكما تحت أحد الكهبة
الآتية . نسين بصحيرة نناء . لم أدر في مدأ الأمر علة وجودي طريحاً في خيمة
ك . فوسبب الآلام التي شعرت بها في مؤخرة رأسي ، لكن حينما بدأ كا
ينكده كنت قد استعدت الحادثة .

— حمد الله أنه بخير

نسيت له مطمئناً

— يرم أكثر من إهبار جبلي لكي أصاب بضرر حقيقي ، ماذا حدث

— لإهبار ؟ أعني كيف عثرتم علي ؟

— لقد جئنا أولاً بأهلك لا يمكن أن تكون قد نجوت فقد اختفت

حيث كنت في مكان تحت كميات كبيرة من الصخور والحجارة ، حتى حينما بحثنا
حولك لم نثر عليك فأيقنا أنك قد دفنت تحت الصخور لكن بعد
بعض وقت ! أكثر من ساعة أنا صوته يقول إنه عثر عليك عند التجويف

تصوري ، ومن هناك بقلبك إلى هنا

— من كان ذلك الذي قال إنه عثر علي ؟

— شيء غريب لأننا حينما توجهنا نحو مصدر الصوت لم نجد أحداً

وحتى الآن فظلام كان دامساً لم نحاول ، أو نفكر في البحث عنه

— من وجدتم في التجويف شخصاً آخر ؟

— ماذا تعني؟ هل كان معك شخص آخر؟ إننا لم نعلم على أحد سواك .

أغمضت عيني بحركة ظاهرها الاستحسان من التعب ، وحقيقتها أنني كنت أريد أن أعطي تعدي مساحة من التفكير . هل أحمر كما أن عدواً حاول قتلي ، أم ليس هناك ما يدعو لأن أريد مشاكاة ؟ إن انقضاء الموعود كانت لديه فرصة فريدة للتخلص مني إذ يبدو أنه إسترد وعيه ، وما كان أيسر عليه من أن يذق رأسي بحجر ويسوم مصرعي كما بما هو حادث عرصى من الإهيار ، لكنه لم يحاول ، بل أنه كما ورجاله إلى وجودي تحت التجويف الصخري ، وكان هذا اعترافاً منه بأخيل لإفقاد حياته ... من هذا بصورة فعلاً أم أنه خشي أن تركني أن يعثر على شخص آخر وينتهي ما بدأه ؟ .

جرى هذا التفكير إلى سلسلة أخرى من الأسئلة . هل كان القاتل عدواً لي أم أنه شخص مأجور ؟ وإذا كان مأجوراً فهل كان الإهيار الجبل مجرد مصادفة أم يعمل فاعل ؟ هل أراد عدوي التخلص مني ومن انقضاء المأجور معاً فاصطنع الإهيار ؟ ألم يكن يكفي اصطناع الإهيار فحسب للتخلص مني ؟ أم أن عدوي أراد الإستيلاء من موتى فأرسل أحبه حتى لا يسكون لدى فرصة الجري ، والإلتعاد عن الصخور المنهدمة ؟ لكن إذا كان هذا الفرص صحيحاً بالنسبة لي ، فإنه غير صحيح بالنسبة لعائلي الموعود إذ أنه لا شك كان يمكن أن يعدو مستمداً عن الإهيار بعد قتلي . فهل كان عدوي يريد التخلص مني فحسب أم أنه كان واقعاً أن الأجير الذي أرسله لقتلي لن يستطيع إهراق في وقت مناسب لعله فيه المرح مثلاً ؟ كيف يمكن أن يستعجم أعرج في مثل رحلتنا ؟ .

بدو أن كافة تركي لأدام حينها لاحظت أنني غمضت عيني ، ويبدو أنني نمت فعلاً إذ أنني حينما فتحتهما ثانية كان ضوء النهار قد سطع ، وكنت أيدى رقيقة تتلنى من مكان . حاولت أن أحتج بأني أستطيع القيام بمعددي إلا أن كما سرعان ما جاء راجياً أن أنركهم ينقلوني إلى عمدة أعماها حميصاً للحل .

— إن المكافئ يخشى أن يكون قد حدث لك ارتجاج في المع ، وقد صحت لا تتحرك كثيراً في اليومين التاليين .

ضمرسا حورج صوته إلى كما فلم يسعى إلا النزول عند رأيهما ، وقد كنت قررت أن من الصعب أن أحمل على عمة ، وأنا في كامل هواي .
 يومين متتاليين أصر كما على ألا أنحرك ، وبعيت في المحنة مكرها .
 إلا أن هذين اليومين أفاداني في الواقع في أن أسترده كامل هواي ، كما أعطيتاني فرصة مريحة في التمسك بقررت نهائياً ألا أحرر أحدا ، حتى ساحر ،
 قد حدث في الخيمة من محاولة قتل ، كما أتت أمضيت أوقات طويلة
 وشراراً جيداً كل شخص وفع عليه بصري عسى أن أكتشف شعراً
 عجيب . لكنني أحسنت تماماً فلم أستطع أن أرى أي شخص به مجرد عرج
 خفيف . لابد أن هناك تلميذاً آخر لما حدث .

ثمنا اعتكالي قام نائي مشوسين بأفهام الموكولة إلى ، وقد سرتني هذا إذ
 ظهر كفاءة دائره ، وحرماً شديداً خاصة حينما تدمر بعصر الرجال لقلة
 حياء مع الإرهاف الذي كانوا يعانونه من الحرارة ، وسير المستمر .
 في يوم الثالث استمرت قيادتي ثانية ، وقد عادت إلى حيواني ، وقوق ،
 كما كل ما يكونان .

الرغم من أن هذا الجزء من الرحلة كان من أشق الأجزاء بطراً لما
 تحسب من حر شديد نهاراً ، وبرد قارس ليلاً ، وإرهاق متواصل في السير ،
 وصعود الجبل أو هبوط المنحدرات ، بل إن بعض الأعراب هاجموا
 محوئين الطمر ببعض المؤن أو حيوانات الأحام ، إلا أننا قطعناه في أربعة
 أيام ولم يحل فجر اليوم التاسع منذ بدأنا الرحلة إلا وكنا نطل من أعلى الجبل
 على سهل الساحلي الصيق الذي نرض فيه تا — عاو ومن ورائها البحر
 نضج ، في ورقة صافية ، ليدني ، سماء في الأفق العميد .

على الرجال ونصائحوا فرحين فقبـ كان معظمهم من البحارة الذين
 لا قبلهم كبيراً على لسيـ حتى حيوانات الأحمال بدت متعشة حينما

وصلنا الفسيم الرطب ، مشمسا برائحة البحر ، يحدد نشاطها . ولم تنقض ساعات بعد هذا إلا كنا نسير خارج المدينة .

ليست ثا — عاوى الحديقة مدينة بالمعنى المعروف لا بل من المبالغة أن نطلق عليها حتى قرية ربما كانت في وقت سحيق في القدم قرية ، أو مدينة ، فإن هالك آثار المارل المرممة ، أما الآن فهي لا تريد من نفع به ما لا يريد من ثلاثين أو أربعين أسرة يعيشون في أكواح بعضها من الحجر ، والأخشاب ، وأكوار من صيد الأسماك الوهيرة في سحر ، وتشرب القرية جميعها من نهر واحد . وقد أخبرنا أحد شيوخ البلدة أنه كانت هناك في وقت ما أربعة آبار أخرى مباحها أكثر عبودية من البئر الحالي ، لكن الإهمال أدى إلى أن الرمال غطستها وتعيش القرية في عرلة ، تكاد أن تكون تامة ، عن سائر نقطه لا يرونها إلا بعض حمة جلالة الفرعون كل ثلاثة أشهر ، أو أربعة ليطمئنون على الأمن أو بعض الأعراب الذين يأبون بين القبيلة ، والأخرى . حتى قرعة البحر ركزنا أهل القرية وحاشم إذ لم يكن يوجد لديهم ما يستحق السلب وإذا ما أروا في تلك الماد ، فإنما ليمروا ببعض الماء العذب ، أو ليحتضروا إحدى الفتيات التي يكون من سوء حظها أن لم ترب مع باقي النساء اللاتي يلجأن إلى الجبال .

بدأ كما عمله بحقيقته الإدارية العدة بأن رافق بعض المشايخ في جولة ماحتاً عن الآثار القديمة قرر أنها سمكت في قرية مدة قد تتجاوز الشهر ، ولم تسكن نر واحدة لتسكني جميع أهل القرية بالإصافة إلى عددنا ، لهذا ركز جهودنا في البحث عن نثر أخرى وسرعان ما أثمر البحث أمر الرجال بإعادة حفر البئر ، ومضى يبحث عن أخرى .

حلال أسدوع كسنا قد استخرجنا المياه العذبة من ثمين آخري ، ولم تعد هناك حاجة مؤقتاً لأن نقرر استخدام المياه . والواقع أن أهل القرية شاهدوا انتعاشاً مدة وجودنا لا أحسب أنهم رأوا مثله طوال حياتهم ، بل لا أعتقد أن أجدادهم رأوه منذ مئات السنين . اردادوا مرحاً حين أمر كما

تجهر عن إحصائه ، استعمال مياهها في زرع مساحة صغيرة من الخضروات
ساحة أخرى التي كنا نحمل بذورها .

في أول شهر رت (اشتهاء أي شهر نوفمبر) ولم يكن المهندسون قد
انتهوا من تجميع السمن الأربعة مع أن العمل كان لا يكاد أن ينقطع إلا
في ... على أنه لم يحل منتصف الشهر إلا وكانت السمن جاهرة للافلاج ،
فرض أن يشحن عليها المؤن والبطائح ، إلا بعد أن قام بتجارب
هذه البحار ، بما في عرض البحر ، رحلات معاقدة ، ثم أبدى كل ريان
ملاحته والتعديلات التي رأى إدخالها .

كان من نتيجة هذا أن لم يبحر سائياً من ثا عاو إلا في أواخر الشهر
نحوه من رت . مجرد أن تركنا حى الشاطئ طهرت حكمة سا حو روع
... كان يجب أن نرحل في شهر أحت (يوليو - أكتوبر) إذ أن
المرح كانت عالية راحت تلاعب بالسفن ، كما أنها كنا نسير ضد اتجاه
الريح . قد يكن هنالك بحال كثير لشهر الشراع ، مما اضطرنا في أغلب
الوقت لاستعمال المجاديف ، فكان تقدمنا بطيئاً جداً ولا أحسنه كنا نقطع
كثير من يتر و أوترو ونصف في اليوم (١) .

— لحظة الأولى وضع كاخطة الإبحار . فكانت سفينة ، سفينة القيادة
تحت الحظول الصغير ، تليها سفينة سا حو روع الحديقة ، ثم سفينة نجم آب ،
... كان سا حو روع يعمل للإرشاد ، فحينما يحل المساء كان عليه أن
... سفينة إلى أقرب نقطة من الشاطئ ليستحث عن بقعة تستطيع السفن
من حروب ... ما حتى يحل الصباح .

ولم تلبث الأيام والجو يزداد سوءاً . لم يبالغ سوء العاصفة ، لكنه لم يكن
... حدة سوءه ، ولهذا كنا نضطر إلى تغيير وردية المجديين كل ساعين

على أكثر تقدير، كما أجبرتنا الأمواج على الدفء في اختيار الحلجان التي أقوى إليها مساء وذلك حتى لا نغرق سمسا إلى لشاحن - الرمل ، أو الصحور .

في اليوم الرابع انتهى مساعدي منور حماسين إلى ظهور سميتين في الأفق لا تكادان يريان نظراً لارتفاع الأمواج ، وبعد المساعة . وقمنا في مؤخرة السفينة رافقهما مدة قبل أن يتكلم مستو

— أنظن بإسدي أنهما قراصنة ؟

— لا شك في ذلك فهم دائماً يفرحون أرواجا .

— وهل تعتقد أنهما سوف يهاجمانا ؟

— لا ... ليس الآن على الأقل ، فالقراصنة في الغالب يدرسون قوتنا ويخططون للمستقبل ... ولا أظن أنهم بسميتين فقط سوف يهجمون على الهجوم إلا إذا رأوا منا ضعفاً مفرطاً . الغالب أن إحدى السفينتين سوف تدعب لتجمع معنا أخرى حتى يعتقدوا أنهم أصبحوا قوة تكفي للهجوم .

— وهل لديهم قوة كافية ؟

— إن منهم عادة صغيرة لا تحمل الواحدة أكثر من ستين رجلاً ، لكنها أيضاً جميدة ، سريعة الحركة ، ويمكن أن يجمعوا عشرة سمس ، أو حتى عشرين ، فسكو لو اقترت لا يستهان بها في حين أن سمنا أثيلة خاصة ونحس سير ضد الرياح .

في المساء اجتمعنا مع كافيائش مجلس حرب ، وانصح أن جميع الزبانية رأوا السميتين . دنا إلى أن أول ما يجب أن نفعله هو مراجعة نظام الإشارات ، فليس من اليسير أن تقاوم عدونا دون تنظيم أنفسنا طبقاً لخطة موضوعة ، وطبقاً لما قد يعتري الموقف من تغيرات . كان كما قد وضع نظاماً مطابقاً لنظام الأسطول في الإشارات ، لكننا رأينا تعديله ليلائم ظروف الخالية ، ثم اتفقنا على خطة الهجوم والدفاع .

في تصاح لاحتمالنا أن سفينة واحدة تتبعنا ولم نعر الأمر اهتماما . مضت
السفينة ثم عن هذا الحال ، والسفينة في أثرنا تحتفظ بمسافتها لا تحاول أن
تغرب معنا أو أن تخفي نيتها في ملاحقتنا . وجاء اليوم الذي استيقظنا فيه
وعن في أحد الخدجان على أصوات المراقبين وهم يصيحون أنهم شاهدوا سفنا
كبيرة . تمام عرص البحر ، وحيثما سألنا عن عددها تبين أنها حوالي
عشرون سفينة .

خرجنا إلى عرص البحر في خط مستقيم ليرى أن سمن القراصنة قد
كبرت نصف دائرة تعلق بها أي طريق سلسلكة . كانت سفنهم متقاربة من
جانب إلى درجة لا يمكن معها لأي من سفننا أن نمنع بينها ، كما أن الريح
كانت من الشدة بحيث أضفى التجديف معها مرهقا للرجال .

كبر اتجاهنا إلى عرص البحر شرقا ، وكان المروص أن نأخذ سبيلنا
مباشرة جنوبا . لكن طبقا لتعليمات كما استمر اتجاهنا إلى عرص البحر ،
في خط مستقيم ، وإذا كان القراصنة قد مجموا من أمامنا لم نحاول إحراق
حصر إلى الجنوب ، وهو خط سيرنا الطبيعي ، فلم يبد منهم ذلك إذ أن
سحب استمرت في التقدم نحونا . وبدأ الحصار برداد صيقات .

تقربت سمن القراصنة إلى درجة أضفى من اليسير على أن أراها ، وأتت
عن غصيلاتها . كانت سفنا صغيرة لديها يحمل الواحدة عشرين مجدافا
ككب . كانت خفيفة ، سريعة المداورة ، كما أنه لم يكن هنالك أدنى شك
في قدرة المجذفين .

تزايدت قوة الريح فلم يكن في استطاعة الذين يحاصروننا من الشمال
أن يسموا الشراع كما خفي الذين يهاجمون في الجنوب ألا يستطيعوا
تحرك شراع في شراع مع شدة الريح ، فترطم سفنهم الضعيفة في مائتها
من ناحية ، وهذا كان الجمع يستعملون المجذوف .

بشر بعد ما شرفنا حتى أن القراصنة عدلوا ما ظنوا أنه يود إحراق

المصارم من حين إلى أواسط البحر ، وتقايرت السفن إلى حد كبر حتى أن القاطع بدأ يعتري ، وأما أردد النظر إلى سمينة القاذب على أن أرى إشارة منه .
أخيراً أصدر الأمر المتفق عليه . إرتفعت الراية الحمراء على سارية القيادة .

لم أكن لحظة ، وبدأت أراهم في نهال سريعة لمأني ، ورئيس البحارة والجنود . توقف المجددون عن العمل ، وإرتفعت الجاذيف من المياه لتتلاق إلى الداخل وأضفى سطح السمينة شعلة من الحركة ، في الدقائق القليلة التالية كانت الشراعات جميعها قد أوردت ، ومالت السمينة بشكل مخيف ، وهي تعير اتجاهها من الشرق إلى الشمال ، مع اتجاه الرياح الجنوبية .

تطلعت من مركز المرافبة إلى الموقف عموماً . كانت سفن الثلاثة الأخرى قد غيرت اتجاهها دورها ، ولشرت شراعاتها حتى إذا أخذوا خطأ مستقيماً معرض الدهر بواجه خط سفن القراصنة المتجه إلى الجنوب .

هنا فقط تمهوا . ولأشك أن المرح والزعج في عهدهم وهم يرون أربع سفن حوالة تدفع نحو سمينة الصغيرة بكل قوة الرياح تقطع المسافة الضئيلة الباقية بسرعة عجيبة تقتصر معها اللبوات (١) في كل ثانية . تبينت مدى أهلك الذي ساد القراصنة حينما رأيت الجاذيف السفن تتوهم فجأة وترتطم بعضها بعض ، وكلما ازدادت السفن اقتراباً ازداد الخلع حتى أنني شاهدت بعض الأشخاص يلتمسون بأعصم بين رائل الأمواج المتلاطمة ، مفصلين مصارعها على لقاء الموت المدفع بحوهم .

ركرت أرى ، وتصكيري بعد ذلك على قيادة سمينة . كما تدفع نحو سميتين للقراصنة تمضي بينهما مسافة غير كافية المرور وهذا جلياً أن الرماحين يحاولان جهدهما أن يغيرا من اتجاههما ليتبعدا عن طريق الموت المندفع نحوهما ، إلا أن ترك المجددين للجاذيف ؛ وتلاطم الأمواج جعل من المستعمل عليهما التحكم التام في دفتيهما .

١ - إعجاب بتوقيت كما . لقد لاحظ أن شدة حرص القراصنة على
الاحتفاظ بهم سببته جعلهم يتقاربون بعضهم إلى درجة حرمتهم من أهم
جوانب ، سيرة المناورة . استمر إندفاعي بالسفينة ، لم أتوقف ، وما كان
في شعبي أن أتوقف حتى لو أردت فإن الرياح كانت من الشدة بحيث
صحت تسببه ، تكاد أن ترفعها من سطح المياه . اقتصر تفكيرى على حفظ
موقع السفينة ، ووسط اتجاهها لأقرب دجج (١) مستطاع . أمسكت
خنجرى وأجهم بكل ما أوتيت من قوة ، واحتاج الأمر منى إلى مجهود جبار ،
فقدت الأرواح وهى تتقاذف السفينة التى بدت وكأنها أصحابها من
البحر .

٢ - أن مدعى قد بلغ منتهى بالقراصنة وهم يرون السفينة تندفع نحوهم
بسرعة لرياح ، وهى تعلق وتهبط بين الأمواج : شاهدت أثر هذا
تغير وتزايد المستمر فى عدد الرجال الذين فقدوا أعصابهم وأخذوا يلقون
نفسهم من الحديس العبدى كلما إرداد اقتراب السفينة .

عرفت مقدمة سفينى بين المقدمتين ، وشددت بقضيتى كليهما على الدفة
تحت لحظة الإرتطام . بدأ الأمر بصوت ضعيف لا يسكاد يبين مع
صوت الأمواج ، كان صوت مجاديف تسكسر وهى ترتطم بجوانب السفينة
تصيح ثم . زاد الصوت ارتفاعا مع كل ثانية تمر ، تعالى صراخ موت من
البحر . وبدوا أن بعض المجذوعين لم يكونوا قد تركوا أماكنهم فى
البحر . يد أنهم كانوا لم يقدروا الخطر المحيط بهم تقديرًا حقيقيا ، أولاهم
كل شئ مكنى إلى مفاعدهم ، فصار ترتطم السفينة بالمجاديف لا شك أنها
تصيح صراخا شديدا مكفى لتهدئة صدورهم .

جاءت لحظة الخامسة بعد ثوان معدودات ، ارتطم جانبي وسط
البحر بحصى شبيهين الآخرين بقوة كانت أن تقذفنى من مكانى لولا شدة

تمسكى بقاعدة الدفة كان الارتطام شديدا لدرجة أنى عرفت بعد هذا أن ثلاثة من رجالى قتلوا فيه وغرب سبع فى المياه ، وأصيب أكثر من ثلاثين شخصا بجراح بعضها خطيرة ، وعما عن أى كنت قد حذرتهم ، بل وقيت بعض من يلزم مهم البقاء فى موقعه .

أرفع صوت ارتطام الاحشاب بعضها وتشمها ، وللحظات توقعت سفينة ، وهى تتأرجح بين السمينتين ، وارتفعت صرخات الجرحى ورجرت الرياح تلطم الشراعات المنشورة وبعف حتى خشيت أن تمزقها ، واستمر الحال على هذا دقائق سيطر فيها علاك الموت ، ثم اندفعت السمينة مرة ثانية تشق طريقها ، وتقدم بالسمينتين بعيدا عنها بعد أن تمشم جاراها تماما

لم أقدر مدى قسوة الخطوة على قدرها إلا بعد أن أحصيت الخسائر ، وشاهدت ما حدث لجذرى سميتى بالرغم من أن السفينة شددت من خشب فيديفيا المتين إلا أن أحراء كثيرة تمشمت ، بل إن بعض الألواح أضحت لا يصلح ، وكان لزاما أن نعدله . لم تنق قطعة من أثاث إلا تعبر مكها ، أو قدمت أو تمشمت وعدت أن الامر يحتاج إلى أيام حتى أتمكن من إعادة كل شىء إلى أصله .

على أن هذه الملاحظات وغيرها لم تأت إلا فيما بعد أما وقت الارتطام وبعده ، فكان لدى أهم بكثير من مجرد حصر الخسائر أو تقدير الإصلاحات . حينما اندفعت سميتى ترقى بين السمينتين القيت نظرة خلطى لأراهما وقد تمشمتا إلى منتصفهما وبدأت فعلا المياه تطفى عليهما . أمرت برفع الراية البيضاء على مصارى الأكر ، ورأيت أن سمينة أخرى قد فعلت ذلك فى حين أن سميتى الفيادة وساحورع ، رفعنا الراية الصمراء . إذا هما فى احتياج إلى معونة .

كانت أوامرا صريحة فى ألا تتقدم لمعونه أحد قبل تنفيذ الخطوة كاملة ، ولم نتمكن بعدها منها سوى الجسر الأول . أمرت بأزال الشراعات وبدأ

فحص - محمد ، ووسطه شديد تحول مسار السفينة مرة أخرى نحو الجنوب .
ثم - محمد - صوبت عينه أن أسام في تنفيذ الجزء الثاني من الخطة ، لهذا
جاءت مدينتي متوحشين الدفة ، وانجهدت إلى السفينة ، والرجال لآفاق
جبهة حرجية على خنجر ، وأقدر مدى قدرة السفينة على القتال .

- يتروك - حضر إلى سمن الأعداء . كانت خمسة منها تفرق فعلا ،
جبهة - حرجية - منه تتحدثها الأمواج ، بدت السفينتان المصابتان تتخبطان
جبهة - وكنت قد فاقساها السيطرة عليهما تماما . قدرت المسافة بيننا
جبهة - بحر و شرب حتا (١) يزيد قليلا ، ولاحظت أنهم ما زالوا متقاربين
جبهة - محوريين أن بعضهم بشرعاعاته ، وكأنا يبقى ملاحقتنا منهم
جبهة - ثم - ثم - كانت هذه علامة طيبة عرفت منها أن القراصنة لم يكن
جبهة - جبهة - وإعنا عدة قادة لكل منهم رأيه الخاص ، وربما يتحكم
جبهة - محوريين من البحر . لعالمهم اعتقدوا أنه كان في استطاعتهم هزيمتنا بمجرد
جبهة - ثم - ثم - هناك داع لوضع خطة أخرى بديلة ، وكانت النتيجة
جبهة - جبهة - فحقت لحظة بدأ كل واحد منهم يتصرف حسبما يحلو له .

- من كل عتامي والعشرة دقائق التالية إلى نفقد حال السفينة والرجال .
جبهة - جبهة - ثم ما استطعت إلى موضعه وأقل الجرحى إلى مكان
جبهة - ثم عيت أوامري لتنفيذ المرحلة التالية من الخطة ، وعدت إلى
جبهة - جبهة - لربان لأدق سبر السفينة .

ثم - سفينتي دبت من سفينة نجم آف حتى لم يكن في استطاعة أكثر
جبهة - حرجية - ثم -

- شربت - سفينتان تماما نحو الجنوب توأجهما سمن الأعداء . لكن
جبهة - جبهة - قد انقسموا قسمين . نحن سفن ما تزال تتقدم بشرعاعاتها
جبهة - جبهة - وساحورع العاجزين ، بينما استمرت عشرة أخريات تعمل
جبهة - جبهة - نحونا .

لم يكن بمكان أن تتحرك ضد التيار والرياح ، فقد كانت الاوامر أن
يرج الرجال فلا يجدهون إلا بمقدار ما يبقى السعيتين في مكانهما أو يكاد ،
ولهذا كان اقترابهما من سفن الاعداء بطيئا لا تنقص المسافة إلا بمقدار
ما يجدهون ، في حين اندفعت السفن الخمسة نائثرة الشراع ، وقطعت أكثر
من نصف المسافة نحو يفيتهما .

تناولت الدفة من مترو ، وأمر به أن يتأكد من تسديد تعليماتي ، وسرعان
ما وصلت إلى سمعي أصوات أدوات النجارين تعمل بلا هراة . سرحت
بنظري إلى حيث ستكون المعركة التالية بين خمس سفن القراصنة في كامل
عنفها وقوتها ، وسعيتين حرجتا لتوهما من تصادم ويبدو أنهما لا تستطيعان
حقن مجرد الثبات فوق الماء . رأيتهما يحملهما التيار إلى الشمال يحاول فالتسليم
التحكم فيهما ليدور من بعضهما ، وبجاهل العدو المشترك .

حملهما التيار إلى الشمال الشرقي من سفينتهما ، ويبدو أن إصابتهما كانت
من الشدة بحيث لم يكن في استطاعتهما استعمال الشراع وراح المجدهون
يعملون جهدهم ليلعبدوا عن السفن الخمس المدفعة بحملها سرعة الرياح .
رأيت القراصنة وقد تعدوا مواقعا إلى الشرق وهم متجهين بأقصى سرعة
نحو هدفهم المتأهل ، وبدأ انفلق ينادي مرة أخرى ، وداحلي الربيب
في خطة كا .

انتقلت بنظري إلى السفن الأخرى ، ورأيتها لا تزال على بعد يزيد
على عشرة حثات منا ، ورددت الطرف لأرى الراية الحمراء ترتفع على
سفيتي كا ، وساحو . كادت أن تنطلق مني صيحة . لقد جمعت خطة كا
أكثر مما تصور . أعطى القراصنة طعما سعيتين بما حملتا من رجال ومال ،
فلم يستطيعوا مقاومة الإغراء ، ودهمهم جشمهم إلى أن يلقوا بأنفسهم
في مصيدة الموت . لقد آن أوان العمل . المرة الثانية رفعت الراية الحمراء
واندفع الرجال يعملون بأقصى ما لديهم من سرعة في نشر القراطات ،
وشاهدت أن نجم آب قد فعل دأبل . للمرة الثانية استدارت سفينتنا

بحسب تريح شمالا تتبعان سمن القراصنة احسن ، وتبتعدان عن السفن
تريحها .

في غير مرة أنهم وقفوا في صبح ، فقد جابجها سمينتان ، لم تنكرونا
في مثل لمجر تني تظاهرنا به ، يديها قمتهم سفينتان اخريان . حاولوا
يحصو سمن اليفلات من الحصار فاجحرف بها دماها الخفاة منجها إلى عرص
تحرر سكر تريح كانت من الشدة بحيث مرقت الشراع ، وتركته يحاول
من سمن سمنه عن طريق المجاديف ، وأضحى غنيمة سهلة كأنما استقر
ك في يده فلقه .

سنة مسنة اقترينا منهم ، وأطبق عليهم كاء ، وساحو ، من الناحية
بحر . تكن السفن الصغيرة لتحتمل القتال كثيراً مع سفن كبيرة
بحر . وما كن القراصنة أئذا الجنود الفرعون ومخارته . كان عدد
تريح في قس أكثر من ضعف عدد القراصنة فما كدنا بدو حتى قذفناهم
من سمنهم حتى لكان السماء أمطرنا .

حدثت سبتي من إحدى السفن حتى كدت ألامسها ، وألقى الرجال
حصف تشد السينة الصغيرة إلى أحد الجوانب ، ثم اندفعوا ينفذون
هز قسمة يرماعهم ، وسيوفهم يحملون فيهم القتل والجرح . اشتركت
تريح في سوء الأمر تاركا قيادة السينة لمنتهى إلا أني سرعان ما تبينت
تريح ستمين من القراصنة لا يزيدون على ثلاثين ، وأن بعضهم بدأ
تريح سلا ويده حينما هبط عليهم وجاننا واستسلم بعض آخر . لهذا أشرت
تريح لرجال وعطت معهم الدرج المؤدى إلى حيث كان المجدون .
تريح ترحة سة حتى حين إلى أني سوف أعثو ورأيت منظرا شعا .

قد عصفور من الأسرى ، وقد هيسوا بسلاسل من حديد إلى مفاعدهم ،
تريح سمنه كتمدية واصحاً في حين ظهرت على ظهورهم العارية آثار
تريح لسمن . جلسوا أربعون شعصاً ، لا بل أربعون هيكلًا عظيماً .
(٤ - رواد)

مفيدير إلى عشرين مجداً فاكل الثنين يعملان على مجداً . وقد زادت عيونهم
وتقوس طهورهم ، وبرزت عظام الصدور . نظروا إلينا نعيون باعة
لا نكاد أن تبصر ، أو تهم ، لم يسكن لديهم أمل في الحياة ، وربما كان
الموت أهون .

ضمت دقات قليلة وصوت القتال يصل من أعلى السطح ، ثم سكنت
الاصوات صرحت على الرجال أن يحلوا وارق الاسرى ويطلقوهم ، ولم
يصدق المساكين . ظلوا في أماكنهم حتى بعد أن استعادوا حريتهم . أمرهم
بمراقبتي على سطح السفينة ، وشاهدت مدى ما يعانون من مجرد الموضع من
أماكنهم . تحاملوا ، وساروا يخرجون أرجلهم تتمد على من الجسد أياها
طويلة ، وكان مجرد تأرجح المركب من الامواج كافياً لأن يسكنوا بعضهم
في سيره ، ويترنخ الآخرون .

حيثما رأوا الشمس أعصوا عيونهم ، وعطوها بأيديهم لم أنعاجهم
تركهم يتناسكون حتى يعتادوا على الضوء ، والهواء ، وحركة المركب بين
الامواج ، وطعت نظري أشاهد سير المعركة . رأيت إحدى مراكب
الفرسان تحط في المياه ، وقد اشتعلت فيها النيران ، وعرفت واحدة حتى
لم يكن يبدو منها إلا جزء من سطحها والصارى ، وأسرت سفينة كالثالثة ،
وهربت الأخيرة مبتعدة نحو الشمال ، وهي تشر شراعتها تكاد أن تختفي
في الأفق .

حولت بصرى إلى ناحية باقى أسطول الفراعسة . كانوا قد توقفوا تماماً
على بعد يزيد على خمسين حناً ، ويبدو أنهم حسموا رأوا القتال قد انتهى هذه
السرعة ترددوا في الهجوم . كانوا ما يراون حوالى عشرة سفن لكننا كنا
أصبحنا بمثلك أربعة ، ولعلمهم عبوا أنه من اليسير علينا جداً أن نعي .
السفينتين اللتين أسرناهما . لضيقتنا إلى قوتنا . لم يدم ترددهم كثيراً
فاستداروا وانتهأت مجاديتهم تعمل بسرعة مبتعدين عنا .

قيت انرى على سارية سفينة القيادة . لارى العلم الأبيض مرفوعا
 تحت نير متجهة الى الجنوب وهى تشد وراها السفينة الاسيرة . فعلت
 حتى ان تحققت ان القراصنة الاسرى ، ولم يكونوا يريدون على
 هزيمة . فقيسوا الى بعضهم وبعد ان تركت بعض رجالى ليتولوا قيادة
 سبب صغيرة .

• • •

و . اجتماعا فى حى الخليج الذى بدأنا منه رحلتنا فى الصباح فكأننا
 . تحركت من مكاننا . أجرينا مسحا للخسائر فى الأرواح ، والأعطاب التى
 صحت لى . لم ن فقد كثيرا من الرجال اذ اتضح ان كل من فقدناهم
 . على سبب وثلاثين شخصا ، لكن الأضرار التى أصابت السفن من
 . تصدم كانت كثيرة بل إن سفينة ساحورج كان من الخطر عليها
 . سحر حقا ، لهذا قررنا أن تبقى فى حماية الخليج حتى يتم الهندسون
 إصلاح الإعطاب تماما . التفت إلى كا يسألنى عن السفينة التى أسرتها ،
 . قراصنة الاسرى والمجذفين ، وحينما أخبرته أخبرنى أن حالة السفينة
 . نريد له نكن مختلف عنها كثيرا .

تحرير فيما نعمل بالسفيتين ومن عليها ، وأخيرا استقر رأينا على أن
 . السفيتين إلى المجذفين على أن يتعهدوا لنا بعدم استعمالها فى القرصنة ،
 . سبعة منهم كانوا مصري الجنسية ، فتركناهم الخيار أن يصبحوا ،
 . أمرى الباقين بالإبحال بالسفيتين بعيدا عنا إلى حيث يريدون ،
 . قراصنة الاسرى يفعلون بهم ما يشاؤون ، وكانت آخر معلوماتنا
 . رحلوا بعد أن قيدوا القراصنة السابقين إلى المجاديف .

إفصل الرابع

بلاد بونت

استغرق إصلاح الأعطاب بالسفن أكثر من أسبوع بالرغم من أن كما لم يعط التجارب ، والعمل أية راحة . كان يسوقهم إلى وقت متأخر بعد الغروب . وأبدى القباطنة الثلاثة ، بحم آب ، وساحو رع ، وإيوى عنح ، دهشتهم لتعجيل قائد الحملة الذى لم يعرفوا له داع ، فلم يكن يهم من وجهة نظرهم أى تاريح نصل فيه إلى نهاية الرحلة حسبا كانوا يتقنون .

في فجر اليوم الثامن أفلمت السفن الأربعة ميممة نحو الجنوب . للمرة الثانية طهر قلق كما ونعجله إذ أصدر أوامره بالاستمرار في السير ليلا طالما كان هناك سوء . كاف في القمر بالرغم مما في ذلك من مخاطر الارتطام بالصخور ، أو الشعب المرجانية حتى أننا اضطررنا أن نبتعد أكثر من المعتاد عن الشواطئ . إلا أننا من ناحية ثانية كانت لدينا المعلومات السكافية من البردى الذى خلصه لنا الأفديمون عن مسالك البحر ، وتياراته ، والملاحه فيه ، حتى بونت ، ولهذا لم يكن يهددنا خطر حقيقى .

وصلنا إلى مضيق توسان (١) في منتصف الشهر الثالث من شهور برت (منتصف يناير) ومع هذا فإن الجو كان شديد الحرارة حتى أنه سمحت للسجدهين بأن يحرقوا من ثيابهم ، كما قصرت ، بناء على أوامر كا ، دورة

(١) كانت ممسكة توسان هي التي نزع عنها نام المذهب وقد كنت قد استعطف التعرف على الاسم الحقيقي الذى كان يطلق على المضايق اختبرت هذا الاسم

نصف إرساعة ونصف ، وكانت النديجة أن احتملنا سرعتنا دون
 حرج.

١ - احتزنا مصيق توسان حتى تغير الحال تماماً . تلفعتنا رياح شمالية (١)
 مصبح لجوب لسرعه حتى أننا لم نعد في حاجة إلى التجديف . كنت قد
 - - - - - هذه الرياح في كتب القدمين ، إذ تركوا لنا ذخراً من المعلومات
 بحر مسعة راروها ، جوها ، ورياحها ، وأمطارها ، وجزرها ، وحالة
 - - - - - وبناتها ، وصحورها ، وحيواناتها ، وأهم من هذا جميعه قائلوها ،
 - - - - - وعاداتهم ، وثقاليدهم ، ومقدار ترحيبهم ، أو عداوتهم للعريب .
 - - - - - شيء يذكره . ذكروا ما يلبسون ، وما يأكلون ويشربون ،
 - - - - - محصولاتهم ، والبيضائع التي تعربهم بالشراء ، بل حتى بعض كلمات من
 - - - - - الأشياء الهامة التي تلزم أن يدور حولها الحديث .

تحت هذه المعلومات هي التي مكنت كما من قيادة السفن عبر بحر العرب ،
 من قى مكته من معرفة جرده العديدة انتشاره على طول الشاطئ . ،
 حرجي خلاصة فيه ، وكيف يتغذى الشعب المرجانية ، وهي التي قادته دهر
 - - - - - وجرده الكثرة ، وأخيراً هي التي جعلنا نتوقع الرياح
 - - - - - والبحر الجنوى إلى مقصدنا الأول ، بلاد بونت .

نرى ضمناً جنوباً بانحراف خفيف نحو الغرب مدة عشرة أيام متوالية .
 - - - - - هذه المرة أية حوادث غير عادية ، وقضاها البهارة في كسل نسبي ،
 - - - - - والتيارات المائية تقزم بمعظم العمل - حتى على كرابان
 - - - - - قصبت أغلب أوقات اليوم أكتب مذكراتي وأدون
 - - - - - وما ترسو عليه من شواطئ . ، جاهدأ أن أرسم
 - - - - - أو أن أطابق بين ما رأيته من كتابات القدمين ،
 - - - - -

تملت في هذه المدة بعض كلمات عثرت عليها من لغة أهل بونت ، وإن اتضح لي بعد ذلك أن نطقها ، بل ومعناها ، قد تغير تماما بحيث أصبح من العسير على أن أفهم ما يقولون ، أو أن يفهموا ما أطلق به ، ولعل طريقة النطق ، أو بعد الزمن ، أو الاثنين معاً ، كان لهما أثر مباشر في هذا .

كنا في اليوم السابع قد غيرنا اتجاهنا من الشرق إلى الجنوب الغربي ، وتلقفتنا الرياح تزداد شدة حتى أننا في اليوم الحادى عشر اضطررنا إلى ضم الشراعات وبدأنا أن لسعينتين الصغيرتين نقيان الكثير من لطم الأمواج ، كما وضع أن من العسير على رؤيتهم ما أن يحتفظوا بحيز ومهما (١) في الاتجاه الصحيح .

رأد الطين بله أن الأمطار هطلت بشدة حتى أن المجدهين ، وكنا قد اضطررنا لإعادة استعمالهم ، أصبح من العسير عليهم البقاء في أماكنهم مع عصف الرياح ، بالرغم من حواجز السفن العالية عن المعتاد . كانت الرياح تالطمهم من ناحية ، والأمطار تهطل كأنما فتحت السماء أبوابها ، والأمواج تتلاعب بالسفن حتى تعطيا أحياناً في وسط هذا الجو العاصف ، جاهد المجدفون في محاولات صعبة للاحتفاظ بالتحكم في سير السفن كما جاهدنا نحن في محاولات يائسة للثبث بالسكان (الدفة) . ومع هذا فإني كنت أعلم أن البحر الكبير لم يقارب انتهاء من الشدة ، وإذ هو يتلاعب فقط بنا وأن ما يحدث أبعد ما يكون من قوة المواصف الحقيقية .

في صباح الخامس والعشرين من الشهر الثالث من شهر برت (يناير) دخلنا إلى حامية خليج كبير جنوب رأس التوادل (رأس جواردامي) . لم أشك في أنه الخليج الذي أطلق عليه الأقدمون بارباريا ، وبدأ المجدهون يستريحون قليلاً من مقاومة الأمواج العاتية ، أحسب أننا مررنا بقرية ،

فد حمت معوماتي ، ففى قرية باو ، إلا أن كالم يشأ أن يتوقف عندها
فكرت على ما على بعد منها ، وإن كنا رأينا بعض الزوارق الصغيرة بل
وغيرها من الخففة .

حينئذ حيب الشمس ، كنا قد تعمقنا فى الخليج ، واحرقنا معه قليلا
من مدينة أونونى (١) كان أول ما شاهدته هو مينائها ، وهو عبارة
عن حبيب من منسج برز منه لسانان من الرمال يحمياها تماما من أمواج
البحر (بحر عجم) فهدت مياهه هادئة ، لا أثر فيها لتيارات مائية أو أوله .

لما كنت فى هناك عددا كبيرا من الزوارق التى يستعملها الأهالى . وهى
كأنها مجرد جدوع أشجار ضخمة جوفت ، كما أننى رأيت خمس مراكب
تنتشر على سطحها القراصنة الذين هاجموا فى بحر العرب (الأحر) .
فكرت فى أنى لم أكن أستطيع القطع بأها كانت هى نفسها مراكب
البحر من الأرجح أن جمع مراكب النبط (العرب) كانت تصنع على
البحر من البحر ، حتى ربما يكون من العسير على غير أصحابها التعرف
على هذه مجرد من تجارة بريئة ، إلا أنى مع هذا داخلنى شك كبير ،
فكرت فى جعة من وجودها فى المياه .

كنت عسى إلى المدينة ذاتها . كانت كبيرة نسبيا إذا قورنت بالقرى
التي كانت عليها على الشاطئ . ومع هذا لم تكن تقارب أية مدينة صغيرة
من مجرد أكواخ تناثرت فى نصف دائرة تبدأ بعد مسافة يسيرة
من البحر . انتهى عند أطراف أشجار باسقة . أما منتصف الدائرة تماما
فكانت حيا من المباني . عبارة عن أرض فسيحة جرداء لم أشك فى أنها
مجرد كسوق لتبادل السلع .

سكنت جميع أسماء البلاد والنجار والقرى من المدينة القديمة بجزيرة البحر
والبحر وقد كانت قد كانت فى القرن الأول بعد الميلاد أى بعد حوالى -مائة سنة
من زحف تسمه ، لا أنى لم أستطع أن أعثر على أسماء البلاد زمن أقرب .

اختار كما لمسانا مكانا يبعد ما يقرب من ثلاثة حثات (الحث ١٠٠ ذراع) في أقصى الطرف الخشوي للمدينة ، وأمرنا أن نلقى المراسي بحيث نمكاد السمن أن تتلاصق ، على أن تكون السفينتان الصغيرتان في الوسط ، كما أمر بأن تستمر الحراسة في السمن ، بالتناوب ، وأن يتولاها عشرة أشخاص في كل سفينة .

كان الظلام قد حل تماما حينما انتهينا من الرسو ، وجاءتنا الأوامر أن لا يسمح لأى قائد ، أو صابط ، أو بحار . أو غيره بالنزول إلى الشاطئ . في المساء دون إذن شخصي من كذا . سألت أستاذتنا لتناول العشاء مع نائبتي مشق حينما سمعت لعظا عند السطح فابتدرت بالذهاب ، وهما لم سمعت ما يشبه المشادة الكلامية بين بعض الجنود ، وشخص أو أشخاص آخرين يبدو أنهم كانوا قد وصلوا إلى السفينة في زورق ، وأرادوا أن يصعدوا إلى السطح ، فبهم الجنود حتى يتلقوا أوامري .

لم يرني الجنود حتى كنت بينهم فتوقفوا عن الكلام ، وأصحو إلى مجالا لالاق لمارة على الرجال الذين أتوا بالزورق . لم يكن القمر قد برع ، وكان الصوت الوحيد الذي مكنتني من رؤية الزورق هو أصواء المشاعل التي حملها بعض الجنود ، ومع أنها لم تكن ككافية بحيث أرين ملاح الرجال إلا أنه كان من اليسير أن أقطع بأن اثنين منهم لم يكونا من الأهل ، وإنما من الأعراب .

في اللحظة التالية اعترى الدهشة حينما سمعت أحد الرجلين يسأل بالديعوطيفية (١) عن قائد السمن ، حينما أجته أنه في السفينة الرابعة لم يعثر بالرد ، ووجه بعض كلمات بلغة لم أفهمها إلى الأهل الذين سرعان ما راحوا يحدفون بهمة متوجهرين نحو سفينة القيادة .

(١) اللغة هي لغة الشعب الهندية . وهو بطور الهمزة ياء التي كانت تدورها تطورا الهمزة ياءية ومن الهمزة ياءية ظهرت الهمزة القبطية .

سقطت في العبايح المبكر ، ولم أكد أنتهي من صلاتي ، وإطاري حتى
 من كسب من كان . أمرني بأن أصعد السقالات للروح إلى البر ، وأن أترك
 ريتو بين السفينة ، وأن أصطحب معي عشرة فقط من الجنود في كامل
 حذائي ، ومعداتهم ، وأنه سوف يلتقي علي الشاطئ . ألقيت
 صرير تعباً لظلماته ، ولم تحص ساعة إلا وكادت السقالات تصل
 إلى شاطئ .

هم وصمت الشاطئ مع جنودي كان كما منظر أفعلا ، ولم يكن بصحته
 من عصبية تسر ، وعنفو وجندين أحدهما أوني ، البحار الذي نال شهرة
 كبحر من دم المسام . تلقاني كما ماسماً ، وذكر أننا سوف نشتر قليل
 من محضر . قوله الذي كان قد مثله لإخطار الملك بحضورنا .

حصة ، ونحن واقفان ، أن بعض الأهالي قد تجمعوا ، ووقفوا من
 صدى يجمعون عن الاقتراب ، وينظرون إلينا تتمجد دون أن يجمعوا دهشهم ،
 ووصولهم . لم يكونوا ، مساء ورجالا ، يرددون شيئاً سوى مجرد ما يستر
 غيرهم ، أما الأطفال فقد كانوا هراة تملأ . لم تكن سريرة معظمهم دأكنه ،
 من رب بعضهم كان يميل إلى اليأس ، واثبات شعور البعض تكشف أن
 نصيب ليس رنجياً خائفاً ، وإنما حالطه دم آخر ، ولا شك أنهم من متاح
 روح الأعراب بالزنجيات . ولا بد أنه قد مضت مرور على هذا الاختلاط
 عدد المولدين لم يكن ضئيلاً ، ومن اليسر التعرف عليهم بأوفهم المستقيمة ،
 منهم انماحة سدياً ، وشعورهم المسترسلة ، وشعاهم لمة لرمي .

سأت كما إن كنا نحن فقط الذين سوف نقابل مع ملك المدينة . ولما
 حوب بالايجاب قلت :

- أرى ذلك من الحكمة ؟ أليس فيه خطراً ؟

- لم ؟ إنما في رحلة سلبية تجارية ، ويجب أن تظهر حسن موأبانا . على
 من ماحية أخرى قد تركت أوامري أن يهاجم أبواب عنح المدينة ضد

أول بادرة عداوة . ولست أحسب أن الملك من الجنون لدرجة أن يجرؤ على القيام بأى عمل عدائى .

— والقراصنة ؟

— آه . إبدأ فقد لاحظتهم . أجل هما مكن الخطر ... كم كنت أود لو أن معنا من يتكلم الحيرية أو لغة البانتو (١) .

— إن لدى اثنين من الجسود أحدهما يتكلم اللقتين ، والآخر يتكلم الحيرية . التفتت كما إلى دهشا .

— وأين وجدتهما ؟

— إيهما اثنا من الرجال الذين كانوا أسرى القراصنة ، واحمروا وجهتهما .

— آه ... لماذا لم أذكر فى هذا ؟ هل هما معك الآن ؟

— طبعاً .

— حسناً ... مرهما ألا يظهر معرفتهما لأية لغة سوى الديموطيقية ، على أن يستوعبا كل كلمة تقال فى المجلس . ترى هل سوف يتعرف عليهما القراصنة ؟

— لا أعتقد . إيهما كانا فى إحدى السفن التى أسرهاها ، وثانياً أنى لا أنصوّر أن يعرفهما أحد من حراسة رفاقهما فى المركب ، فقد تغيرت هيكليهما تماماً .

لم أشأ أن أقول لهما إني أمرت الرجلين فعلا ألا يروا لاجد بمعرفتهما للغات القوم ، وأن يكونا دائمين يمسين ، متنبهين لجميع ما يدور من أحاديث ، فاتجهت إليهما كأنما لا نقل إليهما تعليمات القائد ، وكررت تأكيداً السابقة ، وردت عليها بأن أمرتهما أن يكونا دائماً على معرفة منا ، وكأنا هما من أخص الحرس .

(١) الحيرية هى لغة جنوب الجزيرة العربية قديماً والسانتو إحدى لغات أفريقيا الاستوائية .

عاد رسول كا إلى الملك ووصفته أحد الأعراب ، يتبعهما حوالى
ثلاثون رجلا من الرنوح حاملين رماحا . وتكلم الأعرابي بالديموطيقية .

— إننى بشجبى سدد قاجر من ساء . هل عيسكم من يتكلم الخيرية
أو لغة البانتو ؟

رد عليه القائد :

— أنا كا . لم أود رسول فرعون نامرى العظيم نبحاؤ الأول له
الحياة ، والصحة ، والقوة ، وقائد الرحلة . جئنا لنقدم هدايا المرعوى العظيم
إلى ملك أوهورى الجليل ، رمزاً للصداقة والحمية . حتى يسمح لنا بتبادل السلع
مع شعبه . ويؤسقى أن ليس منا من يتكلم أى اللغتين ، ونأمل أن
تكرمنا بمحبتك .

لاحظت الراحة على وجهه ، سمعنى حينما سمع أن ليس منا من يفهم لغته ،
أو لغة أهالى البلاد ثم تحول نظره إلى :

— من هدا ؟ ومن هداى الرنجيان ؟

— هو كين إيم حناب ربان إحدى الصينتين الكبيرتين وموضع نفقى ،
أما هداى فهما حامللا اهدايا وحرس الشرف . والرنجيان من خاصتى ،
ولا يتكلمان سوى الديموطيقية .

— حسناً اسعوفى فإن الملك سوف يستقبلكم ههنا .

استدار السبى وتبعاه . لاحظت أن الرجال قد انقسموا إلى فريقين
فأعطوا ساء ، وبالجند من الجانبين . سر السبع دليسا يديما تبعتها الأهالى ،
وهم ما يرون ينظرون إليها وإلى ملاسما تتعجب .

اتجهبا إلى الأرض الفضاء وسط الأكواح ثم أحدنا تحرفها مسممين بحو
العانة . فى صدر الأرض المبيجة ، رأيت على أصحهم بكثير من الأكواح
المتناثرة على الجانبين ، وهدا أن هدا هو انقر الملكى . لم يسكن مثل سائر
الأكواح المبينة بفروع الأشجار ، والأعشاب ، وإنما كان أقرب ما يكون

إلى منزل حبيتي بن من الخشب ، وصنع سقفه من الأخشاب ، والطين المرووح بالأعشاب ، حتى تعطيه حماية أقوى ضد الأمطار .

أمام المنزل امتد ما يشبه الشرفة ، أو المظلة الصخمة ، وتحتها جلس الملك على مقعد خشبي ، وإلى جواره جلست شريكته في العرش ، وعلى اليمين وقف أعراب آخر ، في حين وقف إلى الخلف رجلان يروحان على الملوكين عروحتين من ريش النعام على الجاسير اصطفت حامدو الزماح الخشبية ، لاحظت أن بينهم بعض حاملي السهام كما أن الكثيرين من الواقفين كانوا من الأعراب . حلف كل هؤلاء كانت جوع الأهل تتطلع مشرقة الأعناق .

على أن كل هذا كان متوقفاً ، أما الشيء الذي جلب أظفارنا وجعلنا ، أغنى جعل المصريين ، يترددون في حطامهما دامت الصمدان اللذان قوما عند قدمي الملك ، واللذان ثنت أعيدهما الخراف علينا تشع منها الوحشية ، والقسوة . كانا حيوانين صحيان تجلت عضلاتهما ، وعوتهما في كل جرد من جسدهما ، ودان من دهنتهما أما لم يرحل عذمتها أية قنود .

طل الحيوانان يرأسا ونحن نتقدم ، وحيثما أصبحنا على بعد عشرة خطوات ، أو نحوهما ، هنا واقفين فجأة ، وبدا عليهم ما أهما يستعدان للهجوم . وقسمنا في مكاننا . تحركت شعنا الملك بكلمات لم تصل إلينا . تردد بعدها الوحشان ثم عادا إلى مكائهما ، وإن لم تتحول عيونهما عما .

عندئذ فقط تحول عيناى نحو الملكين . كانت ملامح الملك جميعها تكاد أن تكون عربية . لم يكن في وجهه الجليل أية سمة من سمات الروج ، ولولا شعره الخش ، ولونه الأسمر لما أمكن التفرقة بينه وبين الأعراب . بدا رجلا في نحو الأرومين من عمره ، عريض المنكبين إلى درجة كبيرة ، يمتلئ الجسم دون راحة ، فلم يظهر على أى جزء من جسده قطعة واحدة من الناعم .

كان يصع على رأسه تاجاً من الأعشاب ثنت في وسطه ريشات نعام بيضاء ، كما تدل من رقبته بصمة عقود من الحرز ، وفيما عدا هذا ظهر صدره

نصفه حديد في حين كسا جرؤه الاسفل قطعة من قماش حريري التفت حول له
حرير كتيين ، راحت لطرافه تنتقلان فينا ونحن نتقسم ، كان يقوم كل
مننا بحمل دكتين ، فبهما قوة ، وفيهما دهانة وأحسب أنه لم يفتنه
غير من نأى ما حياها من المهدار وافمين .

من شخص من تمامها كانت ملكته . امرأة في الخامسة والعشرين ،
مجردة . كفة تسواد مترهلة الجسم ، ملاحها زنجية خالصة . لم تكن ،
شيء من ذلك . تنثر بأكثر من قطعة من الحرير تعطى نصفها الاسفل حتى
تصير . ثم ظهر جرؤها الأعلى عاريا وقد اكتنز لها ، وشعما ، وأثقل
من حديد كبير من لعقود ، كما طوقت بداهها بأساور ذهبية متعددة .

قد كنت ، وزجمت السبيل إلى جواره :

— حلافة الملك بحبيكم ويرحب بكم في أرضه السعيد ، ويسألكم من
منكم أن حتم ؟ وما هدفكم من هذه الزيارة ؟

— عبي يشعرون سدد ، دليلنا يوضح له ما سبق أن قررناه ، ونسلكم
في هذا السبيل .

— حلافة يأذن لكم أن تعرضوا عليه الهدايا القيمة التي أرسلها إليه
— من بحر تظري .

• • •

حدثت ليلة أيام ونحن نبادل السلع مع مثلي الملك ، وأغلبهم من
الذين من نرى . تعرضة فرودنا السمن بالمياه العذبة ، والعواكة ، والأسماك
التي نخرجها . فتح كما في هذه المدة بأن يربط الجنود ، والبجاعة إلى البر
من البحر في دمك ، وعلى أن يبقى نصف العدد على الأقل بصصة دائمة ،
من بحر تظري سعية في أي وقت من قائدها أو نائبه .

— حدث أربع حجرات في جناح منزله ، اسكن ربان أو نائبه ،

هجرة ، كما أمر دحجرة حاصة اسكا ، وكانت معاملته هو ما سمحة كريمة ،
كما اصبح لنا أن الاهالي ودودون طرفا ، فيهم بساطة ، ودعة .

في اليوم الاول قاذني أحد حدم الملك إلى حجرتي ، وحيما دلت من
بابها وجدها عرفة رحة ، سويت أرضها ، وعطيت بعض الرمال الباعمة من
الشاطئ ، ولم يرد أثنائها على سرير حشى ، وثلاثة قطع من الخشب اقتطعت
من جذوع الأشجار لتكون مضدة ، ومقعدين ، ووضع على المنضدة طست
من الخشب ، وإناء من الفخار المصنوع من الطين الجميف ، وأريكه دون أى
مسند ، أو حشية ، إكهما كانت حجرة نظيفة كما كان على الفراش حشية
وربعة من القطن المحشو فيما يبدو ببعض الأعشاب الخامسة .

ماكدت أن أستفر في احجرة حتى فتح الباب ودخل السبئي يشجب وهو
يقبض يده على ذراع فاده يحورها على الدحج . كانت فتاة لم تتجاوز الساعة
عشر من عمرها طويلة لقامة ، ذات شعر أسود فاحم متهدد على كتفها ،
مستقيمة الأنف ، واسعة العينين ، دقيقة النعم ، والواقع أنها كانت أجمل
من رأيت في المدينة حتى الآن . أما لوها فكان بعيدا عن السمرة ،
ولم يكن من نكد في أن دماها قد اختلطت بأكثر من جيل من الأعراب .

نقلت عينا الفتاة بيني وبين الأعرابي في حركات رائعة ، كهبوان حبيس
يكبره أسريره ، ويتجهج العرص لإفلات إلى الحرية . لم تكف لحظة عن محاولة
القفص من قبضة أسرها إلا أنه دفعها بعنف إلى داخل الحجرة حتى ارتطمت
بالجدار الخشبي بقوة . لا بد أن الارتطام ألمها ، ومع هذا لم يبد عليها أنها
أحست بالألم إذ لم تكذب تيمانك نفسها حتى اندفعت إلى الأعرابي مادة ذراعيها
تريد أن تحمض وجهه ، إلا أن لظمة هوية منه أعادتها إلى مكانها . لم يلتفت
إليها بعد ذلك ، ووجهه إلى خطابه .

— إليك هذه القطة للتوحشة . إن اسمها ماكا ، وهي أخت الملك ، وقد أرسلها
لخدمتك ، والقسرية عنك .

كان هذا وغمر بعينه ثم أردف :

— إنك لذو حظ فبهذه القطة أجمل من رأيت عيني في هذه البلاد ، إن ينعم ، مترجم الملك الذي رأيته ، يكاد أن يحس بها هيأما ، ويريد أن يتزوجها إلا أن هذه الغمرة ترفض ، وربما أرسلها إليك الملك لعلك تستطيع تزويضا لينعم ، فقد كادت تسلم عيديه .

انصبر يشجب صاحكا ، واستدار لينخرج إلا أبى استوففته :
— هل لك أن تخبر الفتاة أبى قد أحتاجها للخدمة لكتني لن أطلب منها السرية .

علقت عيناه بوجى لحظات وبدأت عليه دهشة حقيقية ثم هركتهم كأيما بطرح عنهما شيئا لا يعنيه ، وحاطب العتاه . لأول مرة منذ دخلت الحجرة ، رأيت أن نظرتها قد تغيرت ، وثبتت على تفحص مقدار ما في كلام الأعرابي من صدق ثم انداشت الكلمات من شعيتها . وقال يشجب صاحكا :
— إن الفتاة تقول إنها سوف تخدمك ، ونأى بطعامك ، وتنظف حجرتك ، وتغسل ملابسك ، وتهد أوامرك ، أما إذا حاولت لمسها فسوف تنفقا عينيكم .

لاحظت أنه تردد قليلا قبل أن يقول .

— أرجو أن أحذرك من ينعم ... إنه ... إنه ليس منا .

استدار بسرعة وخرج كأعما أسف على ما قاله . لم تخفض العناية بعينيها عن وجى ، وكأنما تنظر ما سوف أفعله ، ولما لم أكن محتاجا إلا إلى بعض الراحة ، أشرت إليها بالخروج ، ولم تردد لحظة ، وهى تهرع إلى الباب كأنما تفر منى .

• • •

تأملت الأيام بعد ذلك عادية ، تبادلت فيها البصائع ، ونشئى نمون السمن . إردت ما كا فى أنماها ثقة فى أن لا عرض لى فيها سوى مجرد الخدمة العادية ،

فعمات فيها حتى أتى كثيرا ما كنت أجد على المضدة بعض الزهور البرية ،
والفراكة الطارئة ، ولم يحمل الإناث من المياه .

حاولت أن أكلهم بضعة كلمات من لغة القوم فأنضح لي أن ما قرأته من
كتابات الأسمين لا يكاد أن يكون له علاقة باللغة التي يتكلم بها الآلهة ،
ولقد تناسبها تماما ، وبدأت أنقذ الكلمات متثرة ، في حين وجدت
ما كسروراً عظيماً في تعلمي ، وأن تعلم دورها كلمات متناثرة من
الديموطيقية . لم يحدث في هذه الأيام ما يستحق الذكر سوى ما ألتين :
الأولى أن عمرو سى وهو أحد الحمديين الذين يتكلمان احميرية ، أخبرني بأن
بعض البسط كانوا غطف من القراصنة ، والعص الأحر من التجار الأمناء
الأشراف ، وأن الملك لا يسان عن مصدر السلع التي يوردها أى من الطرفين ،
وإن كان يعلم شيئاً ، فهو لم يجر به .

أما المسألة الثانية فحدثت في اليوم الثالث من تواجدنا في المدينة ،
إذ بينما أنا واعم همردى عند أطراف المدينة أرقب بعض جمودنا
وهم يسمعون حنايين من الآلهة في نقل كميات من العاكبة إلى السفن ،
شعرت بحركة وراقى بين الأشجار ، ولما التفت رأيت نعم مترجم الملك ،
يتقدم نحوى .

حاولت نظري منه ، وعدت إلى مراقبة الجنود ، والآلهة ، وفي اللحظة
الثانية شعرت بيده تقبض على ذراعى ، وجاءى صوته كرها متهدجا
من الغضب .

— أنا بعم ن ررعه ولا أحد يحول وجهه هى .

لم أحاول أرفع ذراعى وفات يده .

— دع ذراعى .

بصيت القصة ثوان ثم تراخت أصابعه ، ومسط ذراعه إلى جانبه .
حينما تكلم جاء صوته ماعها لا أثر فيه لافعاله الأول .

— هو آسف لم أقصد أن أولئك لكن لا تنكر أنك بدأت بالإهانة ،
ولم تقع أنتى أردت معادلتك .

— أعيان أن أكنسب عداوة الرجل ، لهذا قابضه في منتصف الطريق
خلفت إليه .

— لكي أدرى أنك تقصدنى ، وكنت أرقب وجلى .

— مرة تخففت من ملاح الرجل كان طويلاً يكاد أن يقاربنى إلا أن
بخصه و الطول ، هو صه فى العرص . كان عريضا إلى درجة أنه كاد أن
تجرحه من أعطاء صحامة غير عادية . ظهرت القوة فى كل جزء من جسده .
— وجهه وعينه ، فقد كانا بشمين ، تتمثل فيهما الوحشية ، والقسوة بأجلى
— ورواد من بشاعته ذلك اللذع العريض الذى وصل من أذنه اليسرى
— حتى أفع . وذلك اللحية السوداء الفدرة التى تركت شعثه دون تهذيب .
— صرخه فى الاعمال وهو يقول .

— يجب أن أرى أن أحدك عم لأننى أحبها ،
— نيت نفسى .

— تصور أن هذا الوحش يمكن أن يحب أى شىء ، أو أى شخص سوى
— . ريب الفتاة ... نعم ، أما يحبها فلا . . . على أن هذا لم يكن من شأنى ،
— حوته منك ، ولم يتركه العضب وهو يتكلم .

— نعم ظننتها من أحبها منك ، ووافق إلا أن الفتاة كلفتة المتوحشة .
— صرخه فى أحبها فصحك ورفض أن آخذها بالقوة ، ثم أرسلها إليك ويبدو
— مسحة بك ...

— صت ... ولم أنكلم ... أخيراً لم يطلق صبرا .

— نى أحرك ألا تلمسها ، وإلا فأبى سوف أقتلك .

— قد كان هناك شىء لا أقبله ، ولا أحسب أن أحداً من صباط ، أو جنود
— جيش رومانية جلاله الفرعون له الحياة ، والصحة والقوة ، يقبله ، فهو التهديد ،
(• — رواد)

وأجبت الرجل بحمدى كاملا ، وثبت عيني على عينييه بصرامة وغضب دون
أن أموه بكلمة . للحظات قابل النظرة بالنظرة ، ثم استدار وتركني متوجها
إلى القرية . وعدت أرقب جودي .

• • •

جمعا كما ، نحن قواد السمن الأربعة ، في حجرته في مساء اليوم الثامن
وأبأنا أنه قرر أن نبحر في صباح اليوم العاشر . وسأل إيواف عمن .

— لماذا ؟ إنه ما زالت لدينا بعض المصانع العلية ولم لا نتخلص منها ؟
وهذا القمح المائض عن الحاجة لست أدري سبباً لعدم التصرف فيه ؟
أجابه كما هدوء :

— لأنني قلت لأمنا سنبحر يا إيواف ولم أفل إننا سنعود إلى الوطن .
رفع إيواف عينيه متوجها :

— هل نرى هذا أننا سوف نتجه جنوباً ؟
— أجل .

— لماذا ؟ إن ما بقي معنا من مصانع لا يستحق عنا الانتقال والواقع
أن جميع ما بعناه لا اعتقد أنه سيعطى تسكين الرحلة . لماذا لا نتخلص من
كل السلع هنا ونعود ؟

— هل يلزم أن أذكر دائماً أبي القات ؟ على أي الأحوال أظن أنه قد
حان الوقت الذي أخبركم فيه بالمرح الحقيق من الرحلة . لقد أمرني جلالة
الفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة ، أن أعود إلى الوطن عن طريق
العرب ، أعني بعد الانتفاذ حول ليبيا .

ساد صمت رهيب . ودارت عيناى والموجودين لأرى وضع النبأ عليهم .
أ. تسمت الدهشة لثامة على وجه صديق ساحر دوع . وبانت البلاهة على وجه
نجم آب فكأنما لا يصدق ما سمعت أدوء . وعلا الغضب وجه إيواف عنح
وة . سمعت المكات من قه :

... شجيت . إن أحدا لم يقل لي أنني سوف أذهب إلى رحلة ...
... ولا زلت ... إن رجائي أيضا لا يهدون ، وإنني أرفض ...
... بحجرة العجوة ... إنما لم نسمع أن أحدا قام بها ، وهي نهاية ...
... حتى أصبح واردة ... لا ... إن يرضى كائن من كان على ...
... نكت أن تذهب فقم بها بمردك .

... يجب ك حتى انتهى ، من حديثه ثم قال بهدوء .
... منيع ، ولا إلى رأى كل قائد ... كين لست أحسب أنني بحاجة إلى ...
... ريتك يا ساحور ؟

... حتى رجه ... لم يكن قد أفاق بعد من دهشته .
... رحلتها رحلة خطيرة ... إنما لا تعلم شيئا عن البحار ، وتياراتها ...
... روتها . ولا عن المحيطان والشمات المرجانية .. بل إننا ...
... نوع من الأمانى سوف نصادف حينما نضطر إلى الرسو على ...
... لا شك أنها رحلة خطيرة . لكن من ناحية أخرى البحار ...
... روتهم هم الناس ، والمخاطر هي المخاطر ، ثم أحسب أنني كرهان ...
... نعيمهم . نه الحياة ، والصحة ، والقوة ، لا أستطيع أن أعصى له ...
... حتى يتي ممكنا .

... حتى عدت جريماً إلى نجم آب . وهذا كانت المفاجأة ... اعتقدت ...
... بضم إلى ليوف عيم إلا أن اللحظات التالية أثبتت مدى ...
... حتى صبحك :

... حتى جيون بعينه .. ومع هذا فلي يقول أحد إن نجم آب تكهن ...
... حتى ... مرده وشياطين ... لا بأس ، عليك أن تفقدنا ...
... حتى ... رحل يصر .

... حتى ... وقد أراحه عبه ثقيل . وجه نظرة ثانية إلى ...
... حتى نرى صبح :

— انكم جميعا مجرمين . إني لن أوفق على هذه الرحلة بأية حال وسوف
أعود برجالي إلى الوطن ، ولكم أن تصوروا شعوري .
جاء صوت كما هادئا ناعما .

— أنت بخير يا إيوب ... إن شئت فلا تنسحها فلك مطلق الحرية ،
وسوف نتركك في القرية .

— ماذا تمنى ؟ إني سأبحر بسفينتي مع رجالي .

— ليست سفينتك ... إنها سفينة العربون ، له الحيلة ، والصحة ، والقوة
وأنا مثلهما ، أما أنت فجرد ديان . ولا تنس هذا ، أما الرجال فهم ليسوا
رجالك إمام جنود في بحرية تمارى يأتمرون بأمرى ، وإذا استعصى الخلق
فسوف أقتل من يرفض تعييد تعاليمى .

أسقط في يد إيوب ودارت عيانه زائعتين يفتسا ، فلم يدرك ما يقول ، ولم
تمله كما لحاظه بلهجة حازمة .

— عليك أن تستقر على رأى الآن من وتطرك حتى الصباح .

بصعوبة شديدة اتلع كرامته ونكس رأسه ، ولم يرد كما أن يزيد من
مهاتته فاتجه إلى الجميع :

— حسناً ... على كل منكم أن يبدأ في اعداد نفسه ، وسفينته للرحلة
القادمة ، وأرجو أن تسقط أية معلومات ، مهما ضللت ، من البلاد
والبحار التي قد يعرفها الاهالى ... لكن في حذر ف نحن لا نعلم شيئا عن
مصالح القوم ، خاصة الاعراب ، فرما تتصارب مع ما نحن مقدمون عليه
ولا داعى لأن يعرف الجميع وجهتها الحقيقية .

وتكلمت :

— إن عائل اللغة مانع كبير من استقصاء الاسماء .

— أجل .. إني أعلم هذا يا كين لكن علينا أن نبدل قصارى جهدنا
فأية معلومات قد تفيد .

... من يشتوننا بعد قليل . اتجهت من فودي إلى البحث عن حكومات
... للجهين الذين كانوا من أسرى انقراضة ، والذين يتكلمون لغة
... كانوا دائماً سوياء إذ يبدو أن ذل الأمر وعدايه قد جمع بينهم
... حينما عثرت عليهما أحدهما أسيراً سديراً إلى الجنوب . وأن
... آية معلومات قد تصل اليهما عن الملاحة ، أو البلاد وأهلها .
... من حكومات :

... الأعراب يبحرون جنوباً حتى بلدة اسمها وهابا ، وهم يقولون إن
... من مكان آخر جنوباً إلا أنهم لا يعلمون من أين ... وكل
... أنهم يقابلون عليه مع ملك هذه المدينة .

... هل ذكروا المسافة من هنا إلى هناك ؟

... كلا ... وإن كنت أعتقد من سياق الأحاديث أنها على مسافة إبحار
... كثيرة إلى الجنوب .

... حسناً حاول أن تجمع معلومات أكثر ، وأن تتأكد مما سمعت وأرجو
... لا تخبر أحداً بما أحترمتني .

... كان الرجلان قد ألحقا نفسيهما بي ، وأعتقد أنهما ظنا أنني أعتدتهما من
... القراصنة ، وبالتالي عليهما أحياناً يدينان لي بمحبتتهما ؛ وكنت واثقاً
... أن يتبعوها بكلمة .

... تركتهما وأنا أفكر . على مسألة هذه المعلومات فقد غيرت وجهة نظرنا
... إنما . إنه يقول إن هذه المدينة على مسافة إبحار أيام كثيرة إلى الجنوب
... إن الذهب يأتيها أيضاً من جنوبها .

... إن هذا يقلب معلوماتنا رأساً على عقب ، فإننا كنا نظن أننا سنتجه إلى
... الغرب بعد أيام قليلة من تركنا بلاد بونت ويبدو أن الأمر ليس كذلك .
... اتضح لي فجأة أن مخاطر الرحلة أكبر بكثير مما قدرنا ، إلى الجنوب دائماً
... وليس إلى الغرب . هل معنى هذا أن ليدينا لا نهاية طيبتها ؟ أم أن نهايتها هي

نهاية العالم حيث الشياطين والمردة ؟ دائماً إلى الجنوب اهل معناه أن البحر لا يحيط بليبيا كما وصل إليها من الأقدمين لقد أخطأوا حينما قالوا إن ليبيا تنحرف إلى الشمال بعد بلاد بونت فهل أخطأوا حينما ذكروا أنهم محاطة بالمياه من كل جانب ؟

أى أنواع الأجواء سوف تقابل ؟ هل هذه الأماكن إلى أقصى الجنوب مأهولة ؟ وأى أنواع الناس سوف نرى ؟ وأى أشكال الوحوش الغريبة ستصادفنا ؟ هل يتجلى البحارة ، والجنود أم سوف يشعرون علينا ؟ دائماً إلى الجنوب . متى سوف نعود إلى وطننا الحبيب تسمى ؟ هذا إذا قدرت لنا العودة .

الفصل الخامس

أمة للأفروعون

يسو أن كا أخطا ، لذلك ، أتينا بتوى الإبحار بعد يومين ، إذ أنه في صباح
اليوم التاسع ، وهو اليوم السابق على الرحيل ، دخلت باكا الحجرية المخصصة لي ،
وهي واجهة عبي غير عاداتها . كانت تحمل طعام الإفطار ، فوضعت على المنضدة
ولم تحرج ، وإيماء مكآت تتظاهر ، ترتيب الحجرية ، وهو عالم تسكن
همه إلا بعد أن أخرج .

تفاييت عما لاحظته وبدأت من هوري أتناول الطعام . حينما فرغت
نصبت تصب الماء حتى اغتسلت ثملات بقايا الطعام ، وأخذت معها إباء
لنساء تعيد ملاء . عادت بعد دقائق ووضعت الإباء على المنضدة ، ثم راحت
تلكا ثانية ، وهي متجهة نحو الباب كما ما تستجمع شجاعتها .

استدارت فجأة ، وقالت جملة معه الباتو ، ووقفت أنظر إليها باسمها
إذ كان من البدهي أنني لم أفهم شيئا . حركت يديها بحركات عصبية متتالية ،
وأصحي من اليسير فهم ما تقصده . حدث معك . لا تركني هنا .

تولتني الدهشة ، ولم أفهم معنى لظاهها القريب . هرزت رأسي نصيا ،
وعادت يداها إلى حركاتها العصبية ، في حين النسابت من شفتيها كلمات لم أفهم
ها معنى ، وإن كان من الواضح أنها تعشى حطرا ، وأنها مصرة على المجي . معنى .

احتوت كيف أشرح لها أنه لا يجوز لها أن تأخذ نساء على السفن ، وأنه
حتى إن قبلنا مر في هذه الرحلة بالمدات ، لا يمكن تنفيذ رغبتها حيث أنها رحلة
موت لا ندرى لها نهاية ، ولا ندرى ما سوف يلقانا من أخطار ، ولا الفسة
التي سوف نمتلكها . كيف أشرح لها كل هذا بمجرد الإشارات .

اكتفيت بأن كررت إشارات النفي ولما رأيت إصراري ألقت بنفسها على الأرض عند قدمي . كان من العسير علي أن أرفض مطلبها ، وإن كان لا حيلة لي في الأمر . فقصت على ذراعها بقوة وإن يكن بعطف ، ورفعتها عن الأرض أوقفها . رأيت الدموع تنساب من عينيها كأنها جداول تترقق مياهها استعطافا . وما كنت أستطيع أن أهمل شيئا . راقبت عيناها وجهي للامحلات تحاول أن تستطلع أية علامة على ضعف أو تردد ، وحينما أيقنت ألا فائدة استدارت كسيرة لتحتوي وراء الباب . وقعت حيث تركتني ، وأنا أشعر باحتقار شديد لعمري ، دون سبب أدريه أو ذنب حديده .

استمررت أعمالي بعد ذلك طوال النهار فلم أر باكا ولم ألق استرحمت لهذا إذ أنني كنت ما رلت أشعر بأني حدثتها . كانت الأيام التي قضيتها في المدينة قد أنشأت بيننا نوعا من الألفة خاصة حينما كنا نبادل تعليم اللغات ، حتى أنني أحسست بمراع بعدم رؤيتها ، ولتوقع ألا أراها بعد ذلك مطلقا ، إذ تفرد أن يرتحل في الفجر ، مع أول موجة للبرد .

قبل المساء بدأ نشاط غير عادي في المساحة الكبيرة أمام القصر الملكي . رأيت كثيرين من الأهالي يرتبون المصاب إلى جوار بعضها ، في حين قام آخرون باستحضار كميات كبيرة من العواك ، والأكواب ، والأطباق الخشبية . كان من الجلي أنهم يستعدون لإقامة حفل صبحي يشمل الأهالي جميعا .

ما أن حل الليل إلا وكادت المساحة قد امتلأت بالجموع ، وتناثرت أضواء المشاعل ، بل وبعض المصابيح ، حول الأرض تحيل ليها نهارا . امتلأت الموائد بالقواك ، واللحوم ، وشتى أنواع الخمر والابسة التي يبدو أن بعض الأعرا ب استوردوها معهم ، بالإضافة إلى خمر البلح ، وغيره مما يصنع محليا في البلاد . جلس الملك ، والملكة على مقعديهما المرتعدين لسيدهم مدت أمامهما مائدة غاصة . وعند قدمي الملك قبع المهردان ،

بدأت الوليمة ، وفارت الراح ، ودقت الطبول بأروع مختلفة من الموسيقى ،

وتملكك الشوة بمض الأهل فقاموا برقصون على نسماتها . جلسنا ثلاثة
متحاورين ، متناول طعام ، ورتشف بعض البند . كا ، وسا حورع ، وأنا
ثم لمرف صم ، وبجم آب بقدر مصلأ أن يبا . عا . ترمع كل مهما على الأرض
ثم المائدة الطويلة وقد جلس إلى جوار كل مهما فتان . كان من الجس أن
الرجلين يستمتعان بوقتتهما .

على بعد أيضا جلس حكومتاج ، وهرودي . ودا أهما أيضا يستمتعان .
كنا جالسين وسط جماعة من الأعراب ، والفتيات من الأهل يتخالف
الجميع كنو من الشراب ، ويترنحون في جلساتهم بنشوة ظاهرة ، نعو ضحكهم
وصيحاتهم محتلطة بصراحات نساء ، والفتيات .

مضت مدة ، ربما وبوت (ساعة) ، أو اثنتان ، وصحت فيهما الأصوات
إلى مداها . حتى الملك ، كان قد أسرف في الشراب ، وزاغت عيناه وبدأ
متمللا في جلسته ، فلما كأنما يبحث عن شيء للسلامة . فجأة هب واقفا عن
قدميه هرقلا في طوله ، وصاح بأعلا صوته ، بكلمات لم نفهمها ، لكننا لاحظنا
أن السكون أطلق على الموجودين ، وراحوا يسطرون إلى مصم البهيم كأنما
يتوقعون شيئا .

مركت رأس الملك ودارت عيناه في الجالسين . واستمر السكون ثم أشاح
بيده ، وارتدى على مقعده كأنما ينس من نوع هدهد ، وعاد الصمت من جديد
وكان شيئا لم يحدث . انزلت إلى رصيفي منسلا إن كان أحدهما قد فهم
ما قاله الملك ، إلا أنهما أخبراني أهما في حيرة مني ، وتكلم سا حورع :

— كين أظن أن أحد حارسيك يريد أن يحاطك لقد لاحظت أنه
في الاتفاق الآخره يحاول أن يلمت نظرك إليه .

لنعت نحو الحارمين ، وفعلا ما أن رأى حكومتاج أن نظري متجه إليه
حتى قام من مجلسه يتربع ، مصطحبا معه إحدى الفتيات نحو أعراب العابة .

عجبت لإصطحابه الغنم إلا أنى سرعان ما أدركت أنه إىب اتجها ذريعة ،
لتركة ايجلس فساكاد أن يقوم حتى تلت إلى الاعرأى ، والاهالى وراحوا
يتعامرون ويتنضاحون ، ثم عادوا إلى شراهم ، وطعامهم بعد الحظاات ،
وعندئذ دوع حكو الغنم بعيداً عنه ، فبادت تترنج إلى الخفاة ، فى حين استمر
هو فى سيره نحو الغابة .

وتكلم صكا :

— إذا ذهب ورا- حارسك فلا تتأخر كثيرا إذا أنى أود العودة إلى
السعر فى أسرع وقت مستطاع .

السحب ببطء وصرت بخطوات غير ثابتة أصطنع الترنج . حين شارفت
أشجار الغابة ، وابتدأ الظلام يطويى ، اعتدلت فى مشيى ، وتلته أنطلع باحثا
عن حكو . وصل إلى أدنى صوته خفيضا محاذراً .

— هنا ياسيدى الربان .

كان ينتاى فصول غريب غاية درته :

— ماذا قال انلك ؟

حكو وأشاح بيده :

— آه هذا ... إن الرجل ثمل ... لقد قال إنه مستعد لأن يلى أى علب
لأى شخص يصارع أح- فهديه ، هذا طعاما سوء التارل له على العرش ...
ومن اله- هى أن أح- لم يتقدم كما رأيت ، لكن هناك ما هو أهم من هذا ، لقد
صمعت الاعراب يتكلمون عن مدن ، وقرى كثيرة إلى الجنوب منها سيكون
(درهورد) ومنوتيا (ممسا) ودابسينا ، وهويسكى ، وجبل فالانجى ،
ورهاينا . وهم يقولون إن هذه الأخيرة هى آخر السلا المعمرة فى حدود
عليهم ، وأن هناك تيرأ بحرياً خطيراً يدفع السع بعدها إلى الجنوب ، وأن
أحدأ لم يعامر بالإبحار جنوباً سوى رجلين وام يسمع عن أى من السهينتين ،
بعد ذلك فلا بد أنهما عسكتا من فيهما .

— هل نستطيع أن نعرف كم يوماً يقصمنا المسافر إلى كل من هذه الدلا ؟
وعن هناك حلجان أو جزر أو شعاب مرجانية على الشواطئ ؟

— سأحاول ، وإن كنت أعتقد أنه من العسير جداً على ذلك .

— شكرًا .

تركضى حكر ، وعاد متظاهراً بأن يترنح إلى رفاقه . انطارت فليلا ،
ودرت دورة صغيرة حتى لا أظهر من الماسكان نفسه الذى دلف منه حكر ،
ثم تركت حماية الأشجار بسورى ، وانجهت إلى الوليمة مترعاً . منذ اللحظة
الاولى عنت أن شيئاً غير عادى قد حدث . كنت مازلت فى حى الظلام ،
موقفت مكانى أشاهد ، وأرقب ، حيم السكون على الجماعة ، وصمت الطبول ،
وتوقف الرافصون والرافصات ، وتوجهت أنظار الجميع إلى حيث
يجلس الملك .

كان الضوء خافتاً نسبياً ، ومع هذا فقد استطعت ، وأنا على هذا البعد ،
أرأى الملك بشيح بحركة عصبية غاصبة . إلى جانبه وقف ينعم وهو يقبض
بيده على ذراع فتاة تحاول بهادة التحلص منه . على بعد المسافة ، وخفوت
الضوء . لم أشك لحظة فى أن لقاءه من باكا ، كما لم أشك فى مدى ما يحدث .

لسبب لا أدريه ، ودون وعى منى . كنت أبصر مندوماً نحو الفتاة
لأنقادها من يد الشخص المبكره ، إلا أنها لم تكن فى حاجة إلى المساعدة .
لمست أدري ما حدث ، سمعت صرخة عاصبة أصدرها بعد ترك يدها ذراع
الفتاة التى اندفعت كمرال شارد تقهر فوق الموائد ، والجدالين لتتطلق عدواً
فى خمة فريدة فى الساحة المظلمة نسبياً متجهة إلى حيث أعف .

ورأوها قهر النسبى ، وهو مارال يتنقط بكلام عاصب ، ويدفع من يعبر من
طريقه . وهب الملك واقفاً ، وهب معه يدها . ما به المحطات كان المبكرى لإغلاقها
وراء الفتاة ، إلا أنه وقف يربت عليهم ، ولعله حشى أن يمتك بالعربى أيضاً .

داح عقى يعمل سرعة . إن السدى ، عن ضخامة جسمه ، كان خفيف الحركة بدرجة كبيرة . ولم يكن هذا شك في أنه سيلاحق بالعناء ، سواء قبل أن تبلع العذبة ، أو بعدها . حتى لو لم يستطع اللحاق به ، فإن الملك سوف يرسل وراءه مأمديه المدربين ، وفي هذا نهايتها .

استقر رأي . كانت العناء تندفع إلى مكان لا يبعد أكثر من بضعة محات (١) . حتى . قطعت المسافة في ثوان لا تلتقي بها قبل أن تصل العذبة . لم تسكن باكاً قد رأيته ، ويبدو أنها دعرت من ظهورى المداخى . أمامها فأصقلت صرخة رهيب ثم ارتطمت به . أمسكتها من ذراعها بقوة أمنعها من الحركة ، وصعدت صبيحة ظفر وانتصار من العنق الذى لم يكن يبعد عسا . أكثر من ثلاثة محات أو أربعة .

أقلت نظرة واحدة إلى وجهى كأنما تتعجب . ثم حاولت أن تملص من قبضتى دون جدوى ، وفي اللحظة التالية وصل العنق ، وقبض على ذراعها الأخرى . توقفت عندئذ عن المقاومة ، وانظرت إلى عمقت شديد ، ثم بصقت على الأرض . لم تسكن هناك وسيلة أمامها معها ، أو أشرح لها هدى ، وبالتالى حاولت جامداً أن أطمئنتها بنظراتى ، إلا أنها أشتاحت عنى . وتكلم الأعراب .

— دعهما فإنى أستطيع أن أقودها بمردى .

— بل اتركها أمت .

أجابنى قاضياً .

— إن الملك وهما لى ، وإن يستطيع أحده أن يسلبى إياها .

— سوف نرى .

كما فى هذه الأثناء قد اقتربنا من الموائد ، وكان الكثيرون من الأهالى والأعراب ، قد قاموا من أماكنهم ، وراحوا يراقبون الأحداث بأحاسيس

معاونة . لاح أن معظم الأهل كانوا يعطون على الفتاة ، ولهذا كانت نظراتهم إلى عذبة . لحافة ترك الأعراس دراع الفتاة ، وسدد إلى وجهي لكفة قوية لمطرني أن أترك دراعها بدوري ، وأراجع بضعة خطوات إلى الوراء في اللحظة التالية كنت ألقى هجومه ، عنيها صاريا ، وقد شهر في إحدى يديه خنجره يريد به أن يهيئ المعركة قبل أن تبدأ .

ربما ما أعتقد هو أن القراصان كان قد أفرط في الشراب ، لم أكن قد تماكنت بمشي بدرجة تكفي لأن أتق الطعنة أو أحيث عنهما . كان سريع الحركة ، لكنه لم يكن في كامل أرائه لهذا كانت حركتي العنبرية كسافية لتفادي الطعنة ، ومع هذا من أتهدها ، بما . هبط الخنجر يهزق الملابس صدكتني ، ودراعي إلا أنه لم يمسني شخصيا ، ابتعدت عن طريق حصص هذا أن أكنس بعض الوقت للاستعداد للتوارن الذي عقده من أثر السمكة ، وانقسم الأعراس ينقسمي .

لأول مرة وصلت إلى أدنى صيحات البطارة . يبدو أن مهم من كان يشجع العربي ، إلا أنه خيل إلى أن من الأهل من وجهه هتافاته لصالحى . على أبى لم أعر الاهتمام إلا لشوان قليلة فقد تركت عيني على الرجل يتقدم مني ، يطوح الخنجر في حركات سريعة يلاحقني بها .

قتال القراصنة . لا تعطى عدوك فرصة ، ولا تنتظر أن يهيك إياها . خذ ما تريد ، وقاتل بقوة ، ووحشية ، وصرارة ، فلما قتلت عدوك ، أو قتلتك . ليست هالك حدة تمحط إلى درجة العدر ، ولا مكرمة ترتفع إلى درجة الشهامة . ليس مثل هاتين سمكتين وجود في قاموس القراصنة . لو استطاع أن يطعمك في طهرك فسوف يفعل ، إلا أنه لا ينتظر منك ألا تعمل غير ذلك إذا تمكنت منه . لا تعط مكرمة ، ولا تنتظرها ، هذا هو أسلوب القتال .

في التوارن التالية استعدت أرائي كاملا ، وسالت خنجري ووقعت أنظر الهجوم . ولم يتأخر . بالوحشية التي بدأها اندفع بحري ، إلا أن خنجره

توقف في هبوطه إذ قابله نصل خنجرى . لم يحاول أن يضبط بالخنجر ، وإنما امتدت يده الأخرى في لكمة سريعة إلى وجهى . وقابلتها يدي الأخرى تصدها ، في حين انشأت رجلي في حركة سريعة لترتطم ركبتيه بقوة .

صدرت منه صرخة مكتومة . تراجع متألماً ، ولا حقيقته أطوح بالخنجر . راح يدافع عن نفسه فقط يريد أن يكتسب بعض الوقت لتدول آلامه ، تماماً كما فعلت مد دفاعى . تنفس بصلاً الخنجرى في حركات سريعة لا تكاد العين أن تلتفتها ، وحاذر كل ما أن يترتب من الآخر بدرجة تسمح للرجل أن يستعمل كان الرجل ماهر أفى القتال جبراً به ، فلم تكن رعاشته للأمر أصنة بلا أساس ، إلا أن الساعات لتي قضيتها يومياً في المراسم لم تضع بلا فائدة .

قابل بوحشة ، وحيرة ، وفنلت بمن وعقل . كان قتالاً متكافئاً . زايته الآلام فعاد إلى هجومه . ولم أترأخ هذه المرة . تركته يقترب ، وفتحت عامداً ثغره في دفاعى ، ولم يتوان عن أن ينهز الفرصة فأهوى خنجره في صدرى . بحركت حركة حبيبة لا تكاد تسكى أن تعيد الطمعة عن مقصدها وهوى سلاحى على كتفه الأيسر يشق الملاس ويسيل أول الدماء .

على غير ما توقعت لم يراجع ، وإنما سرعة غريبة استعاد توازنه ، ودار خنجره في حركة شبه دائرية يستهدف بطى ، واضطرت أن أفقر إلى الوراء متعباً عن النصل القابل . راع فرصته ، وقهر وراثى بحرقا دفاعى ، وحينما أهوى خنجرى عليه قدس على معصمى بقوة يجمع النصل أن يصل إلى هدفه وقابلته بالمثل .

وقعنا شبه ملتصقين ، ينفص كل منا على معصم الآخر ، وكادت أرجلنا أن تلتصق حتى لا يدطى أى منا فرصة ليربحه أن يركله . وبدأ تصارع قوتين كل منهما تحاول أن تسيطر على الأخرى . فجأة عبرت من خطى . تركت خنجرى يسقط من يدي ، وقصصتها على معصمى الآخر ثم بحركة سريعة طوحته بكليتا ذراعى .

جاءت الحركات سريعة متتالية حتى أنها لم تدع السبق فرصة للتفكير .
طار في الهواء ، وارتطم جسده بشدة بالموائد فتناثر ما عليها من طعام لا بد
أن السقطة أذهلته لأنه نقي ثواني لا يقوم من سقطته وفي هذه الثواني تابعت
اتصاري . في فمزيين كنت موفه ، ولاحظت أوكذا يديه خاليتان ، فلا بد
أنه كف بحجره أثناء سقطته .

أموت مبصتي على وجهي في لحظة جعلت الدماء تنبثق من فمه . وتابعت
تري ما الحركات .

حول ومبدأ الأمر أن يتعاضد الضربات المتتالية على وجهه ، ولما لم يملح
في المحاولة ، والتف ذراعاه حول وسطى يشدني إليه . كان من أثر هذا
من أستطيع أن أابع ضرباني بالعوة نفسها ، فأخضت دون أثر فعال ، وبدأت
تشر أن سلسلي العنقبة تكاد أن تنحطم ، وأن أفاسي نحتس في صدري
لا أستطيع التنفس بسهولة .

لشر الثانية تحركت ركبتي لترتطم به . صرخ الرجل ، ودفعني بقوة
تحتي على الأرض بعيدا عنه . مكثت ثواني على الأرض أستعيد فيها أنفاسي
لأن هذه الثواني كانت كافية أيضا لأن يعتدن غريمي مبتعدا عن الموائد .
لا يجب أن أكون أثرت فيه تأثيرا شديدا ، فقد انقمع وجهه في أكثر من
مرجع ، وسالت الدماء من فمه ، وبدأ جرح في وجهه اليمنى ، هذا لم يستعد
حولته لدرجة كافية لأن يهاجمي . ومع هذا فقد لاحظت يملح أنه يمسك
بحجره

كان كلالا يلهث من أثر المجهود الذي بذلناه ، وكنت ما أوال أشعر بالآلام
شديدة في ظهري ، ووسطى فلم يتعجل أينما الالتحام . وقفنا على بعد خطوتين
تو ثلاث ، ينظر كل منا إلى الآخر بحذر .

مصت ثواني ثم رأيته يتدفع نحوي ذافعا ذراعاه يريد أن يموى بحجره
على صدري تركته في استطاعه ، وتنحيت بعيدا عن اتصال العائل ، ثم مددت

يدى كل منهما أقبص على ذراعيه الآخر ، ولليرة الثانية طوحته على حياء
غرة . في هذه المرة لم يسقط على الموائد ، وإنما انجم في ا-فاعه إلى الارض
الفضاء . تعثرت قدماء فسقط على الارض ، ومع هذا فلم أنجم تماما من الطعنة .
لم أشعر بالآلام الجرح في مادي الأمر وإنما شعرت بالدعاء ساخنة تدساب على
صدرى ويبدو أن الخنجر أخطأ هدفه إلا أنه شق طريقه في الكتف .

حسيت أن أذاع اصدارى كما فعلت في المرة الأولى ، فقد صدرنى الآلام
في ظهري أن أبتعد عن الدراعين المحتولين ، وصدرتنى آلام في كتي أن أبتعدى
الخنجر الحاد : اكتمت مؤقفا أن أنظر إليه متظرا أن يقف . يبطه بدأ
يتعامل على ، ولم أعطه الفرصة ليتم نهوضه ، تقدمت منه ، والتفت
قمضى بكفة في السكة أودعت فيها كل ما أستطيع من قوة .

شعرت بالآلام شديدة في أصابعى من أثر السكة : وارتد ذراعى من عنف
الصدمة حتى أسي أحسست كأنما هو يجمع من كتي ، لكن السكة من ناحية
أخرى ردت غريعى ثم ألقت على الارض . سقط على ظهره ، وحاول أن
يقوم بحركات متشابهة إلا أنه لم يستطع فانسكأ على وجهه يعالِب العشاة
التي أحاطت به .

لم أدعه يلتفت أنفاسه فقد كنت أبغى أن أحطم كل مقاومته . ففرت
هاليا لاسقط بدمى كل منهما على ظهره : صدوت منه صرخة ألم ، والتصق
وجهه بالرمال ، وسكن غير محاول أن يسي أية حركة ، ولولا اختلاج يسير
في بدنه لظنت أنه فارق الحياة .

وقفت إلى جوارهِ أدير نظرى في الموجودين ، كانت عيائى كالحمويتين ،
ولم تتبين لى الأشياء ، ووصوح كامل ، كما شعرت بأر سافى تنو . ان عن حلى .
رأيت ما كما تعف صامتة وهى أنظر إلى ، غره غريبة فلم أهرها التمانا ،
واستمرت عيائى تدوران حتى استقرت ، على يشجب فأشرت اليه . تقدم بدموى
متردداً إلا أنني بأدركته :

— أريدك أن تسمع ما سيقوله نعم وترجمه الملك .

هر رأسه موافقا ، ووجهه حطاي إلى الرجل الملقى عند قدمي .

— أحبره أنك متنازل عن ماكا ، وأنتك لا تريد لها ، وأما حرة فتعود من تناء زوجها .

لم يد عليه أنه سمع شيئا فوضعت أحده قدمي على ظهره ، ودعيتها بقوة ، واختلج الجسد وصدرت أنة ألم .

بطء شديد تحرك الرأس جانبا لم يكن يستطيع الكلام لحرك رأسه بالإنجاب كان السكون قد عم الجميع ، ووقعوا ينظرون ، ويتنظرون . ارتفع صوت يشجب يترجم ما قلته لملك ويقول إن نعم هر رأسه موافقا . وجاء رد الملك وانحما جليسا في كلمات سريعة . التفت إلى المترجم متساويا وجاني الرد :

— إن الملك يقول إن وعده لا يرد ، هو لا يقل تنازل بنعم الذي أحل منه بالعودة .

صدمتني المفاجأة ، فم أنرفع أن يتمسك الملك بوعده ، حتى إن تنازل عنه صاحبه . إذا فقد كان القتال مع الأعرابي دون فائدة ، وما زالت الفتاة تحت رحمة .

— حسا . إن كلام الملك لا يرد ، ماذا لو قبلت مصارعة أحد عبوده ، هل يطلق سراح الفتاة أيا كانت نتيجة الصراع ؟

نظر إلى يشجب بهول ، ودعشة .

— هل تريد حقا أن أترجم هذا ؟

— أجل .

ارتفع صوت العربي يترجم سؤالي ، وكان له وقع الصاعقة . صرخت ماكا ، وهب الملك من مكانه واقفا ، وعم السكون للحظات على الجوع ، ثم ارتفعت هتافاتهم بقوة تشق عان السماء حتى الأعراب رأيتهم يصيحون ، ويلوحون بأيديهم . إردادت ظمأ يئتي إلى إجابة الملك . حتى لو أراد الرقص من يستطيع مع هذا الشعور الجارو .

إلا أن الملك لم يكن قد خطر في باله أن يتراجع في وعده ، وإنما أدهشه
المرصر ، وألجم لسانه إلى حين . رفع يديه كليهما بأمر بالسكون ، ثم تدفقت
الكلمات من شفتيه . وترجم يشجب .

إلى الملك عند وعده ، وسوف يطلق سراح الفتاة ، ولا يرعها على
الزواج من ينعم ، إذا قالت العهد ، لكسه يقول إن عليك أن تقا تل
بلا شجر ، أوسيف ، أو حراب أو سهام ، فهل تقبل ؟
— أجل ،

ترجم يشجب الكلمة الوحيدة التي قلنها . تراجع الملك يجلس على
كرسيه ، وارتفعت صيحات الآلهي ، وهذه فاتهم أشد من ذي قبل .
صرحت باكاً ، ثم اندفعت نحو الملك وهي تقول كلمات لم أسمعها ، وإن
كان وصح أح ، تتوسل إليه ، إلا أنه دهمها بيده بعيداً .

أصدر الملك أوامر سريعة ، ويبدو أنها كانت تهدف إلى بعض الترتيبات
الاعداد المحركة . لاحظت أن الآلهي بدأوا في رفع الموائد ، وحمل جسد
ينعم الذي ما يزال ملقى على الأرض . انسحبت بدوري لأجلس مع رفاي ،
وقالتي كما بثورة عارمة .

— ماذا فعلت أيها الملعون ؟ هل صحيح ما أسمعوني أنك سوف تقا تل
فهدا بلا أسلحة ؟

حركت رأسي إيجاباً .

— من تظن نفسك ؟ إنك مجرد صا ط في بحرية جلالة الفرعون ،
ولا بحق لك المجارعة بحياتك في غير خدمته ؟ ثم من هي الفتاة ؟ هل نجيبا ؟
كان هجومه قاسياً ، شديداً ، حتى أنني جلست صامتة لا أستطيع دفاعاً .
وحينما ألقي سؤاله الأخير انابتني دهشة . كيف يهبط تفكير كما إلى هذه
الدرجة ؟ إن الفتاة تكاد أن تكون في عمر ابنتي . مع هذا اكتفيت ، بأن
هردت رأسي بغيماً . لست أدري لماذا انتابته الدهشة بدوره إذ رفع يديه
إلى السماء هائماً

— يارب الارباب ألا تحبها أيضا ؟ إذا ماذا ؟

— لقد لجأت إلى ا

— لجأت إليك ا هل تحسب نفسك أحد الآلهة ولا يجوز ذلك أن تحب

من اللاجئين إليك ؟

كنت قد قلت كفايتي . صحيح أني تبيت مدى خطئي ، وصحيح أن كما
تسى ، إلا أن الأمر حدوداً . كما أنه لا عودة الآن لمساكن . بالإضافة
من هذا لاحظت أن الآلهة كادوا أن ينتهوا من إعداد الساحة ،
من وأحضروا مشاعل إصافية حتى أن الضوء أصبح وهاجا . قلت في تهرم :

— كفى ما كالا إنني أريد أن أؤكر في القتال .

تت كما من لهجتي إلا أنه سرعان ما تبين ما في قلبي من حمة فتراجع
عن عزمه .

— حمداً للرب إنك ما دلت عملياً على الأفل .

وجهت حديثي إلى نجم آب .

— نجم هل تستطيع أن تمرر ملائكتك ؟

— ماذا تفعل بها ؟ إنني أضخم منك كثيراً .

— لهذا أريدها .

فهم أن ما أرى ، إليه هو مزيد من الدثار ، ليقيني ولو قليلا ، الخالب
خادة . سرعان ما هب واقفاً وقال وهو يكاد يمدو :

— لحظات وسأتيك بما هو أحسن .

استوقفه كما ، وأشار إليه ، ولما دنا منه ، همس في أذنه كلمات
حتى بعدها .

جاءنا يشعوب بعد لحظات بسأل ، إن كنت مستعداً للقاء الفهد . قال إن
تلك يفهم أنك لا بد ما دلت متأثراً من أثر عراكك مع إنهم ، ولهذا فلا مانع
هذه إذا أردت مساحة من الوقت تسترد فيها قواك كاملة . وأصاف
بتردد :

— .. من لا ريب مصداق هذا الـ غير المتكافؤ ؟ . لأنى أستطيع أن أقنع الملك داعية ثمة منه خاصة به أن أتبعه عنه ينهم .

— شكراً يا شبيب لكنى لا أعتقد أننى أستطيع ذلك ، خاصة أن الملك قد شرر كثيراً ، وهو يظلم لأن يرى هذا القتال .
— دعنى أحاول على الأقل .

— لا أرى داعياً . ولن يقبل إن أحد ضباط المعرعة له الحياة ، والصحة ، والقوة ، قد يكس وعده ، أو من من موت . هلا استأذنت الملك فى بعض الوقت

— سأفعل حينما يكون مستعداً ما عليك إلا أن ترفع يدك .

تركة ، استنى فتحه إلى الملك وتسلم ساحور رع بقلق .

— كمن أعز بيم أن عائن ؟ لمدا لا يستحب ؟

رد عليه لم يرد عرج .

— انه لا يستطيع أن يستحب الآن . إذا فعل اتها جميعاً بالجبن ، لقد وضع نفسه فى مأرق وعده أن يرفع حياته ثمناً .

وقال سحر عصب

— إنك تتعجل موته يا إيوف ، ماذا لو تغيب عن العهد ؟

لاحظ شبه ابتسامة على وجه إيوف .

هل هنالك من حقيقة فى ذلك ؟

تدخل سكا فى المدة مشة .

— كيف ستتضمن بها كين ؟

— أولاً سأعز . دعنى ..

— لكن الدفاع لن ينجيك ، رغم طول المعركة فببلا لكىك لن تتعلب على الوحش خيوت ، له ، ولا شئ لها أصماف حيويك ؟

- إني لا أفكر في أي أسعد حيوية ، بل كله طاق فتان ، كانت
هناك فرص أكثر استفيد منها ، ترى هل يسمح لي بذلك مروه ؟
- لا أعتقد . إني لاحظت أن الآله في قديم مسجروا ساحة القتال حتى
خشي ، والأخشاب الصغيرة المشرقة التملوها . ستسكون أمامك ساحة
طيفة تماماً .
- المشاعل . إنهم أحاطوا المساحة . وإني أعلم أن نوحوش تحاف
فيران .

حركات رأسي بغيراً .

- لا أحسب أنهم سيسمحون لي بالساحو باستمها ؟
صرخ محتجاً .

- لكذلك لن تستطيع قتل الحيوان بمجرد يديك العاريتين ؟

- هذا ما أملك موقن منه .

نظر إلى إيوف عنخ متعجباً

- هل عندك شك ؟

- لست أدري . هلا أحضرت عمارك يا ساحو ؟

- إنها هناك في حجرتي ، في منزل أمك . ومن حذر الخطأ أي تركت
بقل أمتعتي حتى اللحظة الأخيرة .

قفز ساحو واقفاً ، واستدار متوجهاً إلى منزل أمك . ومن هي الملاحظات
حتى غاب ، ثم عاد حاملاً دثاراً أرجو . من الضووف السميك ... لكلمه
لم يسكن مفردة ، وإنما كان يصحبه يشحب والعناق .

لم أكن قد رأيتها عند صرحت بتوسلاتي . سير المجوبة لذلك ، وحيثما
تقدمت كان الحياء ، والردود بارزين على مجيئها . أفي ساحو المعطف أمامي ،
وهو يقول :

- لست أدري لماذا أثبت به إلا أنني في الواقع لم أكن أعلم أن الجو
سيكون بمثل هذا الدفء .

وأكمل يشجب :

- إن باكا جاءت في لآزجم لك . هي تقول إنها دعت أرواح أسلافها
أن يساعدوك ، ووعدتهم بتقديم القرابين ، واهدايا ، فأخبروها أنك
ستتصر على الفهد

إنقسمت لها مطمئناً

- شكراً يا باكا

- هي تتأذن أن تجلس معكم !

نظرت إلى كا الذي هو رأسه موافقاً ، وجلست الفتاة ، وإنسحب
يشجب . كانت قد مضت نصف ساعة على ذهاب نجم آب ، وبدأت أفلق
لأنه لن يأتي . إن الرجل يكرهني ، لكن ترى هل وصل العص به إلى الحد
الذي يحرم من تلك الحماية البسيطة التي يصعبها الرداء على ؟ اعتزمت أن
أرفع يدي علامة على استعدادي للقتال ، إلا أن كا أمسك بدراعي ، وأشار
بوجهه . كان نجم آب يحترق الصموف ، متجهاً إلينا يحمل رداء ، ووراءه
أني شخص آخر ، حكا تحت السكاه الطيب . قال نجم آب لاهناً :

- حشيت أن نطرح أسلحتنا أعود ، ولا نعد عن أخرى إلا بأنني
كبير الحجم ، لا أحس العدو ، وكان على أن أذهب إلى اسمية لآق بيده .
كيف حال كعبك ؟

- لا بأس . هو مجرد خدش لا أثر له

ألقى أمامي الرداء ، و ألقى معه قطعة أسطوانية من الحديد الرقيق كنت
قد رأيت مثل هذه القطعة الحديدية أثناء قتلي مع رجال دتو ، بل لاسي
احتفظت بواحدة منها للذكرى بين مجموعة من الأسلحة غنمتها ، ولم يحظر
في مالي مطلقاً أنني سوف أستعملها . كان المصروص أن تلتف هذه القطعة
حول الدراع من المعصم إلى الكوع لتحميه من صرعات المهاجم ، والسيوف .
كانت تعمل كدروع أصابي في حصن الأحوال ولست أدري كيف أتى بها
نجم آب ، ولا كيف يدعها إلى ، وهو الذي يكن لي كرها عميقاً .

ارتديت ملابس التي جاء بها فوق ملابسى ، وشعرت ببعض الصيق
إلا أنه لم يكن يمنعنى من الحركة بسهولة . مدت ذراعى الأيسر ووضع
نجم آب عليها الحديدية الإستوائية .

لما انتهت الترتيبات جميعها ، تناولت معطاف ساحورج ، سلاحى الوحيد
فى الحركة القادمة . لم يبق هناك داع للاستعانة بعد هذا ، انزلت ناحية الملك
حيث وقف وإلى جانبه يشجب ، ورفعت يدى أخره أنفى مستعد . ما
العربى على الملك يسر إليه كلمات ، التفت الملك بعدها إلى ناحيتى ، ثم وضع
يده على العبد ، وهب الحيوان وانما وأت المعركة .

تقدم الملك ، وبقى العبدان فى مكانهما . لم يكن هناك شك فى أهمى قد
أحسن تدريبهما . وقعت بدورى وبدأت أخطو ببطء وسط الخلة . عم
التظاره سكوت غريب ، فلم يكن أى شخص منهم إلا وهو متأكد من أنه
ينظر إلى شخص لم تنق له سوى دقائق قليلة فى الحياة .

من مكان ماظهر يشجب ، ووقعنا نحن الثلاثة فى الوسط تماما . تكلم الملك
وترجم يشجب .

— هذه قواعد القتال . سوف أقوم بمبشرك على أن تكون قد
أحسيت سلاحاً ، وإن ظهر بعد ذلك أنك تفنى شيئاً وسوف يهاجمك العبدان
معاً . عليك ألا تحاول استعمال المشاعل ، وألا تقترب منها مسافة رجل على
مترين . لقد وضعت علامات توضح لك حدود المساحة المسموح بها . لك
أن تحتمى فى المساحة غير المسموح بها مدة دقيقة ، فإن ردت ، فإن حرمن
الملك سوف يرمونك بالرماح . سيبدأ القتال وسط الخلية ولت بعد ذلك
مطلق الحرية فى الحركة . هذه هى القواعد . لقد تكلم الملك .

جاء إرتفع صوت ك . لم يرح مكانه ، بل ولم يقف .

— لكى إذا تدخل أحد . أو إذا نقضت القواعد ، فإن رجائى سوف
يقتلون . أنظر فى الأشجار ، وعلى الأرض سترأى سهامهم ينتظرون . ترجم
هذا للملك . لقد تكلم ك .

هم الصمت بعد أن ترجم يشجب . ارتفعت الأعين إلى الأشجار ،
وانتفتحت الجوع وراءها تتطلع . لم يكن تهديد كافي ، إذاً هذا ما حرص به
في إذن آب . يالرجل الولي ! هو الملك رأسه بالموافقة ، ثم انصبحت الألمان ،
وبقيت بمفردي أنتظر .

راقبت الملك وهو يشبه نحو مقدمه ، ثم وهو يرت يده على كتف أحد
التهديد . وهب العهد وانقأ تحركات ذراع الملك يشير إلى وسط الحلبة ، إلى .
ولم ينتظر الحيوان أكثر من هذا . رأيت يتقدم بخطى بطيئة ، لكنها خفيفة
حتى أن المرء لا يكاد يصدق أن أقدامه تدس الرمال الدامعة . لم يكن في عجلة
من أمره إذ يبدو أنه لم يكن جائعاً ، فهو إذاً سوف يقتل فقط . توقف قبل
أن يصل إلى نصف المسافة ، ودارت عيناه في المطاردة .

أعطاني هذا فرصة لأراه عن كثب . رأيت جسده الصخم الذي يريد
على مترين طويلاً . لم يكن فيه جرم . إلا واكتسى بالعصلات البارزة ، والقوة
الوحشية لاحظت العينين المرستين ، والفم الواسع ، الذي يخفي أليافاً أحدثها
الموت . رأيت المنق الصخم الذي لم يحل من العصلات ، وتنسع بصرى
المنسكين العريصين ، ولأرجل الضخمة تنهى بالاحتماء اختفت فيها مخالب
تمرق ورستها في لحظات .

ثوان لا تزيد ، اندفع بعدها العهد بحوى وود ثبوت بفراقه المروعة على
لم يكن في اندفاعه متعجلاً ، ولم تكن المسافة بيني وبينه تسمح له أن يأخذ
كامل سرعته ، ومع هذا فإني شعرت كأن ريحاً عاصفاً يربب بيننا ، فإني من
موضعه كنت أفقد شجاعتي أمام هذه القوة المدمرة المدفع ، إلا أنني كنت
أعلم أن ثانية واحدة من الاضطراب تنكفي لكضاء على .

عالياً في الهواء دهر الوحش ، وتوقفت بحكم سميت . كنت أهدف
أن أقرب قدر ما أستطيع من المشاعل حتى أستطيع أن ألوذ بها في الوقت
المناسب ، ولم أجسر على المجرى . كان يلزمي أن أناور وأحاول حتى أصل

الى معنى محضة عربية على مثل هذا الجسد ، ما كاد العهد أن يفسد الارض
حتى استدار جسده في نصف دائرة وعاد العصر .

لم تكن قفزة عابية في المرة الاولى ، كالم تكن يراه محدودتين إلى
الامام ، وإنما مردهما جاتا . وعلى ضوء المشاعل ، وفي لحظة حافلة رأيت
محالب الحادة تتر من مكانها . تنحيت بعيداً للمرة الثانية . لكن ليس
سرعه كافية . لم يبق الكف القوى ، والمحالب الحادة تكتفى . كانت مجرد لمسة
لم تحمل معها كامل قوة الصرعة ، ومع ذلك فقد تمزق الرداء ، وشعرت كأنما
كنتى قد انخلع من مكانه .

فقدت توازى ، وكنت أن أسقط على الارض ، لكنى تراجعت إلى
لوراء محاولاً أن أستعيد التوازن . أعتقدى تراجعتى من موت محقق بسرعة
لبرق تابع العهد فرصته ، وهجم حيث كنت منذ اللحظات ، وحيناً لم يرى
أشئ الجسد امر للمرة الثالثة ليالى حيث أنا يبدو أن ثلاثة إنشادات
كانت أكثر من مقدرة الحيوان . هذا لم يستطع إتمام الحركة الثالثة ، وسقط
على الارض في منتصفها .

إذا كانت هناك فرصة لي بل أن أحس من هذه . بسرعة تكاد أن
تضاميه ، فمرت لأسقط على ظهر الوحش ، والذئب ذراعاً حول رقبته ،
أريد أن أضع عنه سرعة الحياة . فيما يشبه الحلم سمعت هتافات القوم ،
ولاحث لي أصواء المشاعل كأنما أتى من مكان سحيق . كان عقلى يعمل
سرعة هائلة . إن هذه فرصتى ، ولن أدع رقعة الحيوان تعلت من ذراعى
مهما تحملت في سبيل ذلك .

على أبى في الواقع لم أكن قد قدرت قوة العهد ، وحملة حركته ، تقديرأ
كافياً . بعض من كونه ، ورفعتى معه بشدة ، ولم أدعه جري في خطوات
وكنت أن أسقط من ظهره إلا أبى أقيمت بحسن كاءلا عليه ، وإلتفت
ساقاًى حوله ، هب واقفاً على حقيقته ، ثم ألقى بحسه إلى الزراء على الارض

وتدحرج عدة مرات ، ربما أيقظني من العيوبة أن الأرض كانت عملية ناعمة
وامتصت بعض الصدمة ، ومع هذا فقد شعرت كأن أصلاعى قد تهمست ،
وخرج أهواء من صدرى إلى غير عودة .

لا بد أن ذراعى قد تراختا من أثر الصدمة العميقة التى تلقينها إذ أنه لم
يتمص لحظات حتى كان الصمد قد انتزع نفسه منى ، وانتعد ، ثم وقف على قيد
خطوات ينظر إلى بوحشية ، ويذبحر كسبت مارلت ملقى على ظهري ،
وتوفعت الموت فى ثوان ، ومع هذا فقد بقى الحيوان حيث هو يزبحر
ولا يقترب . ضمت للوهلة الأولى أنه يسترد أبعاضه ، ثم مالشت أن أدركت
مدى خطئى . كان الحيوان فى جريده ، وتخرججه ، قد اقترب أكثر
من اللازم نحو المشاعل حتى أنه حينما أدت من ذراعى تركنى تحتها تماما .

كدت أن أضحك ، لما كنت أحاول أن أعده فإم به الوحش أحسست
بشفة لم أشعر بها من قبل . ترى كم مضى على ، وأيا ملقى تحت المشاعل ؟ نصف
دقيقة أو أكثر ؟ تحاملت على نصسى وقفه مطه . كدت أشعر بكثير من
الآلام فى أنحاء جسدى ، وكنت ما أزال غير متأكد من شعورى تماما ، ومع
هذا فإنى شعرت أنى فى موقف أحسن كثيرا مما كنت . وقفت عند الحدة
العامل ، وبقيت خطوات بينى ، وبين الوحش كان يخاف النيران بهريرته ،
واردا . وعينه حينما اقتربت منها ، دون وعى ، أكثر مما اعداد ، فوقف بعيدا
يزبحر ، ويكشر دون أن يحرق على الاقتراب .

أثناء وقوفى لاحظت شيئين : أولا أن العهد لم يكن يركز طوله على
تركيزاً كاملاً ، وإنما توردعت ، لمرانه رائعة بينى ، وبين النيران وثانياً أن
الحيوان لم يكن على استعداد لأن يجارو بإحدى قمره القنالة . كان يحشى
أن يحمله القمرة إلى المشاعل . لقد كفتى النيران ، مؤونة أحطرها واهبته
الطبيعة للحيوان ، مرونة العضلات ، وثقل الجسم ، وهما عاملان هامان
فى تفوق الصمد . عن أبى من ناحية أخرى لم يكن بالإمكان أن أظل

واقفاً هكذا طبقاً لشروط القتال، كان على أن أنحرك ، ومع هذا فإن أية حركة
تتقدم في ميزة حماية النار .

تقدمت ببطء شديد ، ووقف الوحش قائماً ، وقد برزت أذياله
الرهيبه ، يصدر زجرات غاضبة ، بينما أحدث إحدى ساقيه الاماميين
تضرب في الهواء ، كما مما تتعداني أن أقدم . استمرت خطواتي حذره بطيئة
وأنا منحنى حتى أن بدأت كالنا أن تلمس الأرض كنت أريد أن أعرف إلى
أى مدى يمكنني أن أتمد عن البراز دون خشية من هجوم الفهد ، وسرعان
ما عرفت . كنت قد اتعدت عن حد مساحة اتصال أربع خطوات حينما جاء
المهجوم . اسكنه لم يكن فزاً

أست أدري ، أحدث تماماً . في اللحظة كنت أتمد عن الوحش أكثر من
ثلاث خطوات ، وكان ما زال واقفاً يجر ، وفي اللحظة التالية كان هناك
قد انطلقا على ذراعي الأسر ، وشعرت بنمى دفع نحوه . أنقذني الدرع
الحديدي على ذراعي أن تخترقها الأبواب الخادة . لكن المكان القويان كانا
قد أطلقنا على الذراع تماماً ، وراح الحيوان يعضى ، يطوح في كل اتجاه
دون أن أستطيع أن أفعل شيئاً

أحسب أن ذراعي يكاد أن يفصل عن كتفي ، ولم أشك أنه لو استمر
الوحش في الإطاحة بي فليس تخشى لحظات حتى يفتن فملاً . إلا أنه
لم يفعل ذلك اندفع إلى وسط السلة بعداً عن الذراع وهو
يجترى معه .

وغدا عن درع الساعد إلى شمرات أن الآب نحرو حتى . ولأنه
أن أذياله قد صمطت بقوة هائلة عن الإطاحة خدي به حتى أن الحديدية
قد انثنى إلى الداخل ، ولولا صلابة السلسلة لاحترقته .

كان لابد لي أن أفعل شيئاً بسرعة كنت أعلم أن حياتي معاندة بتصرفي

في الثواني العظيمة الثانية ، وأنه بمجرد أن يستعد المهد ، ودرجة كافية سوف يستعمل مخالفه لفريق جسد ، ولن يكون هناك قوة تستطيع أن تنقذني . لست أدري كيف وانتهى المعركة ، كما لست أدري كيف انتهت ، إذ أن من المستحيل أن أقول صدقا إن في دمي كان أكثر من خليط مشوش من العصور والأعصار ، والرعب . كان الوجه قريبا عني وكانت أنفاس الحيوان الحارة تلمع وجهي ، رأيت العينين المتوحشتين تطيران إلى الأمام حيث يريد أن يستقر ليبدأ وليتمه التي لاحتول لها ولا قوة .

أحسست يدي تلمس الرمال الناعمة على الأرض ، ومحركة آلية أطففت أصابعي عليها أفترق منها ماوسها . كان المهد قد وصل تقريرا إلى بعينه ، وبدأت خطواته تتمهل ، وعلت أنني لم يبق لي في الحياة أكثر من ثانية ، أو اثنتين . رفعت دراعي حتى كاد أن يصل إلى وجهه ، ثم قدمت بالرمل في عيديه .

ارتفعت صيحة عالية مرعة تدوى في المكس ، وسقطت على الأرض على بعد حلاوة من الكعب القوي . ثم أستر حتى أستوى على قدمي ، وتخرجت على الرمال بعيدا عن الحجاب ، وعن الكعبين القنابلين . في الثواني التالية ، ولست لأدريه ، تملكنتي رعب هائل ، استهود على عيني بصكبر واحد هو أن أهرب بعيدا عن الوحش ، وأن أبيع في حبي الميران .

استعصت وأبعأ ، وأطلقت ساق للريح نحو المشاعل ، دون أن أفتي مجرد نظره لأرى ما يعمل المهد . ما أن وصلت حتى ألقيت بنفسي على الأرض ، واندامن برد شديد حتى أن أستاذني أحدث تصطك نصوت مرتفع ، في حين تحركت عضلات جسمي جميعها تنفص . مع هذا كان جسمي جميعه مبتلا بالمرق . لا لم يكن عرفا فقط ذلك الذي يتصوب وإعما شاهدت سائلا لزجا دافئا ينساب من ساعدي تحت الدرع . لقد احترقت أتياب المهد الحديد .

مضت دجاجة ، ورعد أكثر ، وأنا في مكان عند خط الدائرة المرسومة
لي قبل أن أستجمع أعصابي المتباركة ثانية . لم أرمحوا ، ولم أسمع أية
هتافات من الجمهور ، بل ولست أدري إن كانوا قد صغخوا أم لا .

كانت كل إرادتي مركزة في استرداد أعصابي . وتمالك نفسي ، وأنا ألقى
انقرة بين الحين ، والآخر تجاه العهد . رأيته ما يزال واقفاً مكانه يحاول أن
يسمح عينيهِ بدميهِ لأماميتي ، لكنني رأيت أيضاً أن رد . ساحو ملقي في
وسط المسافة بيني وبينه .

كان الرداء ، والرمال يمثلان كل مالدي من أسلحة ، ولم أكن في موقف
يسمح لي أن أتنازل عن نصف سلاحي . انقرة سريعة ألقيتها على الفهد ،
عدت بعدها بأقصى سرعي نحو الرداء .

التفتة من الأرض ، وهرعت عودا إلى حيث الأمان . لكن الحيوان
وآني ، واندفع كالسهم المارقي بحري ودائي . في قفزة واسعة كنت لا أبعد
عن النيران بأكثر من ثلاثة أمتار حينما أصبنتني ضربة في كتفي قدفت بي إلى
المشاعل قائما .

أحسب أنني غدت عن وعي لشوار ، لأني حينما أفقت كان هنالك من
يحملني ، ويهوى عني حد ساحة القتال . كان كتي الأيسر يؤلمني بشدة إلا أنني
لم أشعر بدما . تنسب منه ، ويسو أن العهد في قفزة ، والاحيرة نالني بكفه دون
أن يتمكن من إرار محاجة . اتداني دوار ، فلم تسعني الرؤيا ، وإن رأيت
فيها يشبه العمة شح الهدد يقف على بعد خطوات .

بقيت ملقي على الأرض أستجمع نفسي . لم أتعجل القيام . انتظرت حتى
حصا نظري عاماً ، وخفت آلام كتي نسبياً . لم أشعر بأي ألم من الجرح في
ذراعي الأيسر ، وإن كان به بعض تصلب . أيقنت أنه لا بد لي أن أنهي القتال
بسرعة ، فكما طالت المدة ستأتي ضربات طائشة مثل ماضى ، وقد تصيبني
إحداها بقوة كافية لأن تهني حياتي .

وقفت شبه منزهة ، ورجحت أرقب الحيوان .

يدرو أنه كانت ما تزال هناك بقية من الرمال في عيني الوحش إذ أنه كان دائماً يعض عينيه ، ويمسحها ، يحاول حكها بإحدى قدميه الأماميتين . تركت مكاني ، وقفمت ووقف الفهد ساكناً انحلت على الأرض ببطء . لآلتقط بعض الرمال ، ولم تبطع شيء عن مراحمته . هنا حدث شيء غريب . حينما رأى الحيوان ألتقط الرمال راحع قليلاً إلى اليمين . لقد لمس درسه . درجة من الإدراك لم أكن أتوقعها منه

أقدمت ببطء وحذر ، وتمهقر الفهد قدر تقدى . هجعت لدكانه ، ولم أدر في الواقع أكان هذا رجماً إلى دكان عطري ، أم إلى تربيته ، وكثرة اختلاطه بالإنسان . إلا أنني كان مقدراً لي أن أكتشف أكثر من هذا ، وكنت أن أفقد حياتي ثمناً هذا الاكتشاف .

أرددت جرأة ، وأتمة ، وأقدمت خطوات ، وتمهقر الفهد . لم أخط أي ابتعدت عن حماية الليوان مسافة كبيرة ، وأن ترايد ثقتي أفقدت بعض الحذر . فجأة ، ودون أية مقدمات ، همر الحيوان بخفة متناهية عالياً في الهواء ليط على جسدي . لقد استدرجني إلى حيث يستطيع أن يقر دون أن تكون هناك فاعلية حقيقية للرمال بسرعة أكبر كان تفكيرى ، وبخفة تصاميه استجاب جسدي لعقلي . لم أحاول أن أفدو الرمال في وجهه فإن الحيات الخفيفة لن يكون لها تأثير يذكر ، وستضيع في الهواء .

هبط الجسد الثقيل في المكان الذي كنت عيه تماماً منذ لحظة ، إلا أنه هبط على الأرض ، إذ كنت قد انتعدت . برشاقة التي الوحش ، وكنت أتوقع هذه الحركة في إشارات لم يسكن ارتفاعه كافياً لأن يبعد وجهه عن يدي . أكلت المسافة القصيرة التي يفصلني عنه ، محاذراً من السكب ، وانحالب ، ودفعت الرمال في عينيه .

حاول أن يلوى عنقه بلفظ مدى بعمه ، غير أن حركاته كانت كثيرة متتابعة حتى أنه لم يستطع أن يلاحش . وانطلقت الألياب الرهبة على

هواء ، وسمعت اصطدام العكبين . صرخ مزيجاً حينما تحطت خبات الرمال عبيده ، ولم أدهه . بحذر شديد التفتعت رمالاً ، وانتهرت فرصة أخرى لأدهمها في عبيده ، بل أنى وضعها وضعاً

راح يتحط في حنوى ، وبمحش وجهه بمحاله ، حتى أدهماها ، لقد أعمته الرمال تماماً . ومع هذا لم يكن قتل الوحش يسيراً ، بل لم يكن من السهل حرد الاقتراب منه . صريره واحدة ضائقة نصليتي تكون فيها نهايتي . تتؤدة ، بعيداً عنه بقدر كافٍ يسحقى الأمان ، بدأت أمردوداً ساحورع ، وأدهه لمعية التي أهدق لها .

كانت الخطوات القادمة هي أحط ما اعترمت فعله . اعترمت أن ألب هور حول عبق الوحش لاقتله حنقاً . كان ما يرال يدور حول نفسه صارخاً ، ويخفى وجهه ، وحينما تقدمت محاذراً ما حدثت رب الأرباب أنى لم أرتكب خطأ زيادة الثقة في النفس أكثر مما يجب ، ومع هذا فقد نجوت من الموت بأعجوبة .

بما لا شك فيه أن الحيوان لم يكن يرى ، كما أنه من المستحيل أن يكون قد سمع وقع خطواتي المتجمعة على الرمال ، إلا أن رانحتى ، أندوته بقرب منه . في لحظة كان يحى وجهه ، وفي الثانية انثنى ليوجه ضربة شديدة ، حيث كنت أنف . لو أنى محيت عن الحذر ثانية لأصانتنى اللظمة ، ولو فعلت لانتهت المعركة .

تعالى صرخانه . لم يحول أن يقف هذه المرة ، إنما أخذ يتدحرج على الأرض ، كما ما من الألم . لاحته بسرعة حتى توقف في دحرجته ، ودفعت الرمال في وجهه . قعر وانما يهاجم عدواً لا يراه ، وراح يتحبط في دورانه إلى غير اتجاه . تابعته عن كسب ، محاذراً دائماً ، غير يباه بما أحرزته من انتصار . كنت أعلم أنه ما زال هناك الكثير قبل أن ينسى لى أن أقتله ، بل قبل أن أستطيع أن ألب الرداء حول رقبته .

وانتفى العرصة أحياناً . يبدو أنه فقد الكثير من حيويته في حركاته الصائبة جميع على الأرض يلهث . واميته عكس اتجاه الرياح ، ومع هذا فقد تلتصقت الخطى محاذراً . راح عثى يعمل ، ويفكر ويقدر ودود عمله إزاء حركات القادمة . كان لا بد أن تعمل بسرعة قبل أن تتاح له العرصة أو أن يدخل مصيصاً من الضوء في عينيه . كان ما يراه قائماً حينما ألقت بنفسه فوق ظهره ، لكن رفته كانت تمتد بين قدميه الأماميتين في محاولات لأن يمسح عينيه .

حينما أحس بجسدى عليه ، هب واقفاً في حركة فجائية . إلا أنى كنت أتوهمها . في أهل من ثدية لكف الرداء حول رفته ، وركرت قدمي في الأرض بكل ما أستطيع من قوة تحمل . ظل واقفاً على خاميته لثوان ، ونعملت ضغط الجسد الصم . شعرت أن ظهري ينفصم ، وأنى أن أستطيع أن أستم في الاحتفاظ بالوضع لأكثر من ثوان أخرى . راحت يداي تعملان بسرعة في إحكام الرباط حول عنقه ، وتجديانه إلى الخلف في الوقت نفسه ، لئيمعه جسدى ، ولأمنعه من الهبوط على قوائمه الأربعة .

لم يكن لمثل هذا الموقف أن يدوم ، فما كان جسدى يتحمل ثقل جسد الضهد لده زبد على ثوان معدودات ، وما كان لقوى أن تمنعه من الحركة لأى أمر . في لحظة كانت أفك محاولاً إحكام الرباط وفي التالية ارتطمت بالأرض بشدة هزت كيانى ، وجرى الضهد بعيداً . ثوان أخرى قصيتها طريحا أسترده رشدى ، وألماسى ، ثم انتصبت واقفاً لأرى أن الحيوان قد توقف يلهث دون أن يقرم بحركة وكأما قد احتار بأياها يداً ، بالرمال في عينيه ، أم الرداء حول رقبته .

لا بد أن الرمال في عينيه كانت تضايقه فلم يكن لدى الوقت الكاف لإحكام رباط الرداء ، بحيث يعوق نفسه بشكل مستديم ، بل لاسى داخلنى الشك للحنثات أن العقدة السريعة لنى عودتها في طريقها إلى الحل لم أكن مستعداً

لأن أدخل هذه التجربة مرة أخرى ، فها كنت أرى أن الرداء ما ير ، في مكانه حتى اندفعت غير عالى ، الخطر لالقي ، مسمى فوق ظهر القصد ، وأمسك بكلتا يدي بطرفي الرداء .

لن يصدق أحد ما عاينته في الثواني التالية . كان الحيوان قاعداً ولم يحاول الوقوف . تدحرج على الأرض ، وأحسنت بأن أنفاسي تخرج من صدري إلى غير عودة ، وأن عظامي تكاد أن تهشم من ثقل الجسد ، مع هذا فإني كنت أعلم أن هذه آخر فرصة لي ، وإن فقدتها فقدت حياتي . لم أبال بالآلام ، والتمت سافاي حول خصر الحيوان لسحب ، في حين لم تتوقف قبضتي عن الضغط على الرداء .

بشكل ما اعتدل الحيوان وقفاً على قوائمه الأربع ، واندفع يمشي كالجنون ، وهو لا يرى شيئاً ، بدأ تنفسه بضيق حتى كنت أسمع ثقيلة مة طعماً . تنالت همزاته في الهواء ، وأضيت بجسدي برمته على طول ظهره ، ولم يفلت سافاي خصره ، ولا أفلت قبضتي عن الرداء . إنني روصت جيلاً كثيرة أثناء فترة مكوثي في ثأمرى ، وكان بعضها شرساً قوياً ، إلا أن هذا كان شيئاً آخر .

إنني جسده ، وتلوي ، وأفوس ظهره ، وتدحرج على الأرض ، وفهر في الهواء ، ولم أدعه أضحت عضلاتي جميعها متصلة تماماً بالآلام كالسهم ، حتى أصابعي تصلبت من الآلام ، إلا أنني لم أدعه ازداد جنوناً وهياجاً . كان الهواء يدخل إلى رئتي بصعوبة فلا يستطيع أن يعوض ما يفقده في زفيره أو في حيويته الضائعة .

اندفع يمشي دون أن يرى ، ولم أخطأ أن تصي أنه تخلى المشاعل ، حتى سمعت الصرخات تندوي حولي ، وشاهدت فيما يشبه الحلم أشخاصاً يتواثرون فوق مصهم ، يمدون يديداً عن المحالبات القذبة ، وجسد الصبح المندفع . ربما لم تمض دقيقة ، إلا أن كل ثانية فيها كانت دهرأ . لم يبق جرم (٧ - رواد)

في جسمي إلا وصرخ من الألم . أما رأسي فقد إنشأه نكته عجيب ، فلم يسر
في شيء إلا التمسك بالمعالم ، والبقاء فوق ظهر الوحش الهائج .

نوار أخريات بدل فيها الفهد مجهوداً جباراً للتخلص مني ، ثم بدأ يفقد
حيويته . سقط على الأرض يخط بقدميه في الهواء ، ودأت حركاته تصعب
وتقل كلما بدأ الصدر يلتقط آخر ما قدر له من أنفاس ، لحاة رالت عن
البلاهة . لم أكن أريد للحيوان الميل أن يموت . فإكان بين وبينه عدا .
تركب طرفي الرداء ، والتمت ناحية يشجب . من حلق جاف ، خرجت كلمات
متحشجة ، لكنه فهم أنني أريد أن أقول شيئاً . استجمع شجاعته ، واقرب
منى ، وأدت كلماتي بصوت واضح .

— قل للملك إنني لا أريد قبل الحيوان ، فهل افهم رأسي رجحت
المحركة ؟

ارتفع صوت يشجب يترجم ، وجاءت كلمات الملك بالموافقة . امتدت
بدأ بسرعة ترمحان وتحلان العقدة الخائفة كانت أصابعي كما بما تصلبت
فلم يكن من اليسير على أن أتجمل ، إلا أنني أفلحت أخيراً . حاولت أن
أقف فلم أستطع ، كانت ساقى قد تسمرت تحت الجسد الثقيل . لم أهدل أية
محاولة فلم تكن لدى القوة الكافية . شعرت بالظلام يطبق على ، واحتاطت
أحاسيس الرؤيا ، والسمع . جاءت الصور متراكمة ، والأصوات متداخلة
ثم داخلني شعور غريب من الراحة ، ثم لم أعد أشعر بشيء .

كان أول وجه طالعتي حينما أفقت هو وجه مورت سجر والكاهن
الطيب . تلمعت حوالى لأرى كما ، وساحورع ويجم آب ، وأبوف عنج .
كنت مدداً على فراش في حجرة أصواتها المشاغل حاولت الحركة إلا أن
الكاهن أسرع ووضع يده على صدري برفق .

— ليس الآن إنك جروحاً عديدة كما أنك بدلت مجهوداً جباراً ،
وعليك أن تستريح لبضعة أيام .

أحاطني باقي الرجال ونسكهم كما .

— لقد أفقت ... حسنا عليكم الآن أن تعدوا محبة لنقله إلى سبيته .
يبدو لي يا كين أننا يلزمنا نقالة مستديمة لملك .

ارتفعت ضحكات الرجال ، وانصرف بهم آب وساحورع ، ليقوما على تنفيذ أوامر كما .

— إننا سوف نحرر حلال ساعتين على الأكثر وشكرا لك فلم ينل
أى منا أى قسط من الراحة ... على أى حال كان القتال يستحق ما سوف
تلاقيه من تعب جسماني أثناء النهار .

فتح الباب ودخل يشجب ووجه كلامه إلى :

— إن الملك يريد أن يراك

أخبرت رأسى موافقا لفرح وعاد بعد لحظات بصحته الملك والفتاة باكما
تسكلم الملك ، وترجم يشجب .

— إن الملك مسرور لانتصارك ، ومسرور لأن العهد لم يمس ، وهو
يقول إنه يعتبرك صديقه ، وأنه على استعداد دائما لأن يتلقاك ، ومن معك
بترحاب في مملكته .

شكرت الملك ، وأخبرته أنني اعتبر نفسي سعيدا بهذه الصداقة التي تشرعني .
وترجم يشجب .

— إن الملك قد حمل سميتك بالهدايا إعجابا منه من إعجابه بك ، وهو
يقول إن الفتاة ماكما أصبحت لك تنصرف فيها كيما تشاء .

إلتأبى الدهول . لم أكن أريد الفتاة . وكل ما أردت هو أن أبعدها
من وحيمة ينعم ، وأن أحسن لها أن تختار من ترغب رددت أقوالى
ليشجب ، وحينما ترجها رأيت الدهشة من تسمة بأجلى معانيها على وجه الملك .
وجه كلامه أولا إلى الفتاة ثم انقلب تسكلمت سريعة من فمه وقال يشجب :

— إن الملك مندهش لما قلت ، وهو لا يهم لماذا إبدأت قلت ينعم والعهد .

هل فعلت هذا دون أن ترعب في الفتاة أنهم هو ساءها فأجابته بأنها تريد أن
تسبب معك حينها ذهبت وبهذا سيكون قد أتمد وعده لك .

— لكنني لا أريدها ومن المستحيل أن تأتي معي

هنا تحصل كما

— أحر الملك إلى كقائد الرحلة أسمع أن تصعد أية فتاة على ظهر أية
سفينة ، وأن كبير ، حتى إن أراد ، من يستطيع أن يأخذها .
لاحظ الحيرة على وجه الملك ثم قال :

— لكن الفتاة لا يمكن أن تبقى هنا . إذا سميت عليها أن تكون أمة ليعمهم ،
وإلا فإن الأعراب سوف يقتلون الأهل ، ويحرقون المدن ، وربما قتلوا
أيضا . لا بد أن يذهب الفتاة معكم وإلا اضطررت إلى الخلف بوعدي ،
وتسليمها لينعم ، أو قتلها .

ترددت . إن الملك على حق ، ولقد يعم من الوسائل ، والقوة ما يبعد
بها ما يخشاه الملك . لكن كما لم يتردد .

— هذه ليست مشكلتنا إنها مشكلتك .

وقف الملك والفتاة واحدين ، وبحرك كما ليبدأ في إجراءات نقل ، وقد
انتهى الحديث ما يصبى له . ظلت أرقب ، ودهشت حينما لاحظت أن وجه
الملك قد تهلل ، وحاجب الفتاة التي بدا أنها الأخرى سعيدة بما قال إدسرتان
ما هرت رأسها موافقة ، في حين صدرت من يشجب صرخة لم يستطع أن
يكنمها . وجه الملك الكلام إليه عدة طويلة ثم خاطبها العرن :

— إن الملك يسأل إن كان مرعونكم مقدس !

انتادت الخيبة كما فأجاب دون تردد :

— لاشك أنه من الإله له الحياة ، والصحة ، والقوة ، ويصم إلى ألبانه
وأجداده حينما يرتحن إلى العرب (كناية عن الموت) .

— إذا فكل ما يملكه مقدس كذلك !

دون أن ينتبه كما رد بحماس وقوة

— بلا شك .

— حسنا .. إن الملك يهب أخته ما كما أمة للفرعون

لأول مرة في حياتي رأيت السماء يرسم على وجهه كما . بقي لحظة ينظر إلى الملك دون أن يجد كلاما ، ثم تحركت شفتاه دون أن يخرج منها صوتا ، وغم أي دموع في عيني كنت أصحك . كانت تبسم سعيدة ، والملك يبتسم براحة ، وموت سحره يقيم بهنوء ، ويشجب بهز جسده من ضحكة مكتوم ، وكما ينقل نظره بين الجميع في بلاهة . أخيرا وأنته الكلمات :

— لكنه لا يستطيع ذلك .

— ولم لا ؟ إنه ملك ، ويريد أن يحب لأخيه الفرعون هدية ، وليس أمن هذه من أن يهبه أخته كأمة . وهي كما ترى هدية تليق ، للفرعون .

لحظة انفجرت من أجل العصب ، وانصبت لعنات كما على :

— إنك أنت السب في كل هذا ... شهادتك السجينة الرهانة هي التي أوقعتني في هذا المأزق ... حسا ... إنها لك ... هي مسئوليتك طوال الرحلة ... عليك أن تأخذها إلى سيئتك ، وأن تحافظ عليها إلى أن تسلمها للفرعون .

أسمى حتى الدعوات الواجبة للفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة . ودون كلمة أخرى خرج وصفق الباب وراءه . وجاء دوري في اهلع . ماذا أفعل بها ؟ قالت لي أورايم : للين .

— إن الرحلة خطيرة !

— لقد قلت الفتاة ، وقلل أملك فلا بأس عليك .

— لا توجد امرأة أخرى في السمية ، وجميع من فيها رجال .

— لا بأس عليك أن تحافظ عليها كما أمرك رئيسك ، وكما هو واضح

أنه واجبك .

— ليس هنالك مكان في السفينة .

— يمكنها أن تنام معك في القمرة .

— لا ، سوف أأمام أنا خارجا .

— كلا إن اهلك لديه مجازون كثيرون ، وأنتم لن ترحلوا قبل ساعتين

وفي خلال هذه المدة سيأمرهم بدء قرة صغيرة بها إلى جوار قرارك ، والواقع
أن العمل سيكون خفيفاً إذ سوف يأمر اهلك بنقل إحدى حجرات القصر
بما فيها إلى السفينة .

سقط في يدي . لم نمد هنالك حجة واحدة أستطيع أن أديها . كان
على طوار رحله لا أعلم مدتها ، ولا أخطارها ، أن أراقق ، وأحفظ عن فتاة
صغيرة لأقدمها أمة للفرعون .

الفصل السادس

وفاء الميت

أبحر بما مع أول موجات المد ، ومن الغريب أن الملك وفي دوعده . في المدة البسيطة التي انقضت بين حصوره إلى إبحارها ، كان بحاروه ، وتجارو البحر قد أقاموا قرية صغيرة إلى جوار قرقي . ومع صلاة حججها ، إلا أنها كانت تحتوي على فراش صغير عليه حشيشة واحدة ، وصدوق الملاس ، بل ومنضدة ، ومقعد .

وحسرتي في فراشي ، ونولي إدارة السمينية نائي متوسلين وتولي حقا نخت ، الكاهن العاليم ، أمر نقلي وإعادة تضميد الجراح . لم ترد . باكا أن تركي وظلت إلى جوار حقا ، إلا أنني أمرتها أن تذهب إلى قرنها لتجيد لنفسها بعض الثياب التي تستر جسدها كاملا ، وظللت من نائي أن يعطيها بعض الأقمشة ، ويشير عليها بكفية حياكتها . والواقع أن متو فعل أحسن من هذا إذ أتضح أن بعض حائكي الشراعات في السمينية كان يعمل حائكا عاديا ، وله إلمام بملاس السيدات . فأوكل إليه صناعة ملابس باكا .

مكثت في فراشي أربعة أيام لم أر أثناءها باكا . ظل البحر طوال هذه المدة عاصفا ، وكنت أشعر بالسمينية تلاعبها الأمواج ، وتفتادها لاهية ، ورعا كان هذا هو السبب في أن الفتاة ، التي لم تعتمد ركوب البحر ، كانت تكمن في قرنها . تحدثت حائكي الصحية أثناء ذلك تحت رعاية حقا نخت ، الكاهن الذي لارمني ، لم يكن يضارعتي إلا لفصا . حاجة . لم نجسروا على الاقتراب من الشاطئ . حيث أن أحدا لم يكن يعلم طبيعته مروى من الحكمة الابتعاد عنه حتى لا يمرض السفن . الارتطام بشعب مرجانية أو صخور ، أو غيرها .

في صباح اليوم الخامس جادى منتو ليحطرى أن كا أصدر أوامره بأن ترسو السفن عند مصب نهر ، وقبل أن يحل الظهر كانت السفن قد استقرت . جادى كا ، وأيوف صبح ، وساحو رع يستصرون عن حالتى . والواقع أنه لم يكن هناك داع لهذا ، إذ أبى كنت قد قت من وراثتى عملا ، وأردت ملائسى . كان كل ما شعرت به هو بعض تصلب في عضلاتى ، وعدم اتزان حفيف ، ما لبثت أن رالى بعد دقائق .

كما جلوسا بعداد الحديث على مائدة الإوطار حينما دخلت ناكاً . سكن أية ناكاً 1٤ لم تكن هى نساء نصف العارية التى اعتدنا على رؤيتها في القرية ، ولم تكن هى نساء نصف المتوحشة شعناء الشعر . تغيرت تماماً حتى أنها دون أن تشعر وفعنا لاستقبلها . لم يكن الحادث من الحائذين المتمازين في مصير ثياب السيدات فلم رد ما فعله على مجرد وداه أبصر غير متن الصنعة رفيع عبد أحد الكهنة ويترك الآخر عارياً . كان شعرها ممدداً لم يرد ما فعله به على أن مشطته إلى الخلف ، وحنتمه عند مؤخرة الرأس ، ومع هذا فك كانت في حاجة إلى أكثر . كانت تنفجر أتوتة .

وفعت عدد مدخل القمرة الضيقة هاية مترددة ، وحينما شاهدنا نفق استعيت حمرة حجل إلى وجنتيها . من في على خاطر سريع كاد يدفعنى إلى الانسحاب . هذه نساء ، نصف المتوحشة ، لم تكن حيلة وصدرها عار تماماً أما حينما تدثرت فقد اتناه الحجل . جاءتها مفاجأة ثانية ولم يكن تفريق من الأولى سمعاً صوماً وهى محسنة بالذبح وصدمة . ألفت تحية الصباح لأكثر ، ولم يكن نظرها شيئاً مما أعطاه الكسة عضة . أم الصوت فلم يكن يمت بعلاقة لذلك الذى لم يكن يصدر إلا متحدثاً . كان صوتاً متردداً خافتاً يعطر أبعاماً .

لمست أذنى تماماً ما الذى دعى إلى أن أحول نظرى إلى أيوف صبح . ومن هذه الملاحظة فمرت العداوة القديمة كما بررت عداوة جديدة . رأته يكاد أن يلهم الفتة بعينييه ، وحيل إلى أنه لا يسمعه عبا إلا وجودنا . كان واجبي أن أحياها ، ليس لنفسى هذه المرة ، وإعالم الصرعون ، له أحياء ، والصحة ، والقوة .

دعاهما كما إلى الجلوس معنا ، ولما بدا عليها أنها لم تفهم أشار إليها .
انتفل نظرهما إلى ، ولدها رأيت في وجهي شفتا فبرت رأسها بهياً ، واستدارت ،
وجرت حارج الصخرة كحرا ، شارد أصليق أيوف صحنك غريبة وقال :
لم أكن أنصور أن الفتاة المتوحشة بهذا اجمال !

التفت إليه كما ، وثبت نظره عليه لحظات ثم قال بهود :
— أجل .. إنها جميلة جداً . لكن عيدا أن تتذكر دائما أنها أمة

للعربون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة . وأحبب ياكين أن لديك مهمة شابه
في الحفاظ عليها طوال الرحلة . وعليت أيضاً أن تحاول تأديتها ، وتنقيتها على
نهج حياتنا حتى تكون هدية لائقه . والآن هيا بنا لرى ما يوجد على
الساحل . من تستطيع ذلك ياكين .

أحببت رأسي بالإيجاف ، ونقدما كما إلى الخارج . هبطنا إلى الساحل
نحس الارسة فقط إذ أن كما أحرى أنه أمر قوة صغيره من سفينة القيادة
أن نسقا ، وأنه يرى أن لا داعى مؤقنا لانهجاد أى إجراء آخر حتى
لستكشف الأرض .

كان أول ما رآه عيناى منظر جبيل أنتم ، دى ثلاث قسم يتدرج إلى
الشاطئ . الرمل ، بعد ، ويندفع مصب النهر في مساه ناحية البحر . تدرجت
مع الجبل غابات حصراء تطول أشجاره السماء . حتى تهبط مع الانحدار إلى
معتدل النشاط . دى كان نشاطى ، دى مليا مليتاً بالاحجار والحصى ، تمتد إلى
مسافة صغيرة إلى الداخل لا تجاوز حتماً واحداً (١٠٠ ذراع) ، ثم أغلق
المنظر تماماً لسياح طويل من الأشجار بيسقة إلى الشبان منا رأيا النهر
نصب في البحر متدفقا بشدة ، وقد اندفعت مياهه الحراء لتحتط بالمياه
المالحة ، وتمتد إلى مسافة طويلة داخل البحر

إلتعيا بالقوة التي أرسلها كما ، ولم تكن تريد على ثلاثين جندبا بالإصافة
إلى العبدن سمو ، وعصو ، وكذلك أوى ، دى السم ، أمر كما القوة

أن يفيدوا معسكراً مزقماً من الخيام ، وقسم مجموعتنا الصغيرة ، أعى نحن الأربعة ، فصاحب أيوف إلى الشبان ليستكشف النهر ، وأمرني وساحورع أن نوغل رأساً إلى الداخل ، كما أمر العدين أن يتجها جنوباً . طلب منا ألا نرداد في التوغل بحيث يمكن لأصواتنا أن تصل إلى العوة المرباطة على الشاطئ . في حالة وجود أية طوارئ .

أبدت ملاحظة لسكا أن أوامره يمكن أن تعد بالنسبة لنا ، والعدين ، إلا أنها لا يمكن تنفيذها بالنسبة له شخصياً . وأيوف حيث أن النهر يبعد عن المعسكر بأكثر من ثلاث حثات (٢٠٠ ذراع) وهذا يجعلهما بعيدين حينما عن سمع من المعسكر . استبعد رأيي قائلاً إنهما سوف يرعدان في سرهما ألا يعيا كثيراً عن ناظر العوة إذ أنهما سوف يدبران معظم الوقت حذاء الساحل ، ولن يعيا عن الانظار إلا حينما يقتربان من النهر ويرتقيان الجبل . أشرت عليه ، أن توجه جميعاً إلى كل من الجهات الثلاث التي يريدونها فيكون ذلك أكثر أمناً ، فاستبعد الرأي قائلاً إنه ينبغي السرعة في العمل ، واستكشف المنطقة حتى يصع تقريره عنها ، وعن إمكانية تموين السفن فيها .

جاء رده رأيي للمرة الثانية جافاً يحمل معنى التضرر من المعارضة ، فلم أر مناصاً من تنفيذ أوامره . توجهت مع صديقي ساحورع إلى وجهتنا ليستقمتنا بعض الفرقة على الأشجار بالصباح ، وسرعان ما غشنا داخل الأحرش كانت الغابة عراء تشابكت فيها الشجارات الطفيلية مع جدوع الأشجار الصلبة ، وكذا توغلنا كانت تردد كثافة النباتات حتى أننا كنا مضطرين إلى استعمال سيفينا لشق الطريق .

كانت النباتات جديدة علينا لم نر فيها أي نفع لقمي السفن ، إلا أن الأشجار من ناحية أخرى كان يمكن أن تمدنا بالأخشاب اللازمة لأية إصلاحات بالإضافة إلى هذا سمعت أدهى أصوات حركات حبيقة بين النباتات ثم عن وجود حبة حيوانية صغيرة ربما جردان أو دواحف . سمعت أصوات الطيور عالية على أمتان الأشجار . وشاء ما دعنا منها يتأمل

على الأفرع الواطئة ، ولم تنالك من الإعجاز - بالوانها الزالعة - كما رأينا عدداً
وغيراً من الفردة ناصب ، ويتطلع بعضها إليما في وصول ، بينما يقدر البعض
مرحاً بين الأشجار .

سجلت كل هذا في عقل لأعبد على مسامح كآءه يستعيد منه عند
كتابة تقريره كما اعتيت أن أجمع عييات متباعدة لبعض أنواع النباتات
عسى أن تكون فيها نفع للتبذية في حالة الضرورة ، أو كأعشاب طبية .
لم أشر ببعض الوقت ، وأحسب أناساً مكثوا أكثر من ساعة قبل أن أقرر
العودة .

كانت العودة أيسر كثيراً لأننا أحداً نظريق الذي سبق أن شفقنا ،
ومع هذا فقد دهشت حيناً لاحظت أن بعض أفرع النباتات قد حل لينحد
مكان أخرييت قطعها . قطعنا المسافة في أقل من ربع وموت (ساعة)
بعضها ظهر لجأ الشاطئ . والمعز . مجرد أن رأينا القوة طلباً أن شيئاً قد
حدث . كان هناك قتل . لم تنبئ في صدأ الأمر المتعارفين فاندفعت مع
ساحورم نهرى عوم بأقصى سرعتنا .

كان أول ما جال في خاطري أن جماعة من فباش متوحشة هاجت
القوة ، إلا أنني سرعان ما استعدت الخاصر حيناً اقترت قليلاً ولاحظت أن
القتال يدور بين القوة التي تركناها على الشاطئ . وبين وبعين فقط ، عداً كما .

حيناً وصلت إلى مكان الممركة كان الرعجيان المسلحون يقفون بمعدوما
يقاومان ، ماضية ثلاثين جندياً في حين رأيت أيوف صبح يقف بعيداً وراء
الجنود يرقب سير القتال ولم أر أثراً لسكا . انقص قفى إلا أنني سرعان
ما وقفت إلى جوار بعض آء الجسود أن يسكنوا عن القتال . تردد الجنود
والثمنتوا حلفهم إلى أيوف الذي أشار إليهم بالوقوف أمرت العبدن بدورهما
أن يعمدا سيصهما ، فعلاً . هذا تردد يسير . إلتفت بضمي إلى أيوف عنخ .

— كيف ترك الجنود بقية المور وأنت واقف ؟

جاء الرد باردا لا حياة فيه .

— إن الزنجيين أرادوا قتلى ، لإنهما يظنان أنى قتلت سيدهما .

مع أنى كنت انوقع لاشموريا أن شيئا من ذلك قد حدث إلا أن موجة باردة هبت عنى كل جسمى ثم تركت حوى قلبى تمصره ، ولم يستطع لسانى أن يشكلم إلا متلعنا

— ماذا ؟ ... ماذا قلت ؟

لعل المعلنون رأى ما حل بى وأن ركبتاى قد انسحبت مهبما الدماء حتى لا تكادان أن يعملاى لخامس اجاتته هبها نبرة من التعدى ، ومن التشقى :

— لإنهما يظنان أنى قتلت سيدهما ... كما

ابتلعت ريقى بصعوبة وأنا أسأل :

— كما ... قتل ... أتخفى أنه مات ؟ ... خسرنى هما حدث ؟

هز كتفيه استعفافا .

لا شيء . . . فقد ارتقت قسماى فى الجبل ، وأهوى إلى الهر ، وهو من بالتماسيح ، لم يكن هنالك شيء أستطيع أن أفعله فعدت أدراجى . حينما رأى هذان الجمران أعود بمردى هجما على يدعيان أنى قتلت سيدهما ، ويردان القتلى فى لحال جلودى دون ذلك .

طرفت أدنى كلمة ، جردى ، إلى فاهها ابوف كما لو كانت سوطا ألخنى . تذكرت أن القوة الموحدة على اليدسة كلها من سمينة الفداة ، وأنا تركنا الفضاغة ينتقون رجائهم ، وأن جميع القوة مالتى من رجاء ابوف

— هل رأيت كما وهو يموت ؟

— كلا لكن الهر من بالتماسيح ، وتبارره شديد يندفع نحو البحر

— إذا فما لك أمل فى أنه ما زال حيا

— لا

- تعال معي انرى أين وقع الحادث ،

إن هذا جنون لقد مضى على الحادث الآن أكثر من ساعة وإن كان قد بما فلا بد أن يكون قد أتى

و قد كان جريحاً ، أو محصوراً في الجبل في منطقة لا يستطيع الإذلات منها ، ويحتاج إلى معونه عاجلة

إذا كان ولا بد بدأ ولتذهب مع القوة كلها حتى يمكن أن نبحث عنه ، وأن نساعد إذا استدعى الأمر

فهمت غرضه ، أنه لا يريد أن يأوى بمفرده حتى لا نكون هناك فرصة لقتله ، أو إرغامه على شيء . والواقع أنه لم يكن يعيى في الوقت الحاضر إلا البحث عن كذا ، ومنه بدأ الدعوة إليه إن كان ما يزال حياً ، فلم أشأ أن أناقش . استدرت ، وأسرعت للحظا نحو النهر ، وفي لحظات كان ساحوررع إلى جانبي وتبعتنا سائر القوة .

اعتلى روع (شمس الظهيرة) كمد يوت (السماء) حينما بدأنا نعدى السير نحو الجبل ، كان الجو رطباً حاراً حتى أننا كما ندعس بصعوبة ، وتصيبنا أجسادنا عرقاً بالرغم من وجودنا على الساحل ، لم نكف تسير بضعة دقائق حتى لاحظت أن الأرض آحدة في الارتعاج ، وكثرت الحصى ، والجهارة . بعد دقائق أخرى من السير أضى الشاطئ صغرياً ، والبحر في مستوى أدنى من مشوارنا .

سار أيوف أمامنا يتتقى خطواته ، ولم يلبث أن اضطررنا أن نقتنى أثره فراداً . استمر صعودنا لأكثر من عشرة دقائق أخرى ثم بدأ يأتينا صوت هدير البحر ليغطي على أصوات الأمواج شاهدت أثناء سيرنا بعض الماعز الجبى وأرسلنا يفتنى بين الصخور ، كما حيل إلى أنى رأيت هذا مترصاً ، إلا أن الحيوانات هوما كانت تهرب إذا شاهدنا

وصلنا إلى القمة التي يدعى أيوف أن كما إرلقى فيها . والواقع أنها كانت

ملطقة خطيرة تملأ من سطح البحر بأكثر من خمسين البتو ذراع (الكسي لاحظ أنها لم تكن من الضيق بحيث لا يستطيع الوقوف فيها فيها أكثر من شخص ، وبالتالي لم تكن خطيرة حقاً إلا على شخص غير حذر ، وهذا ما لم يكنه كما .

— لقد أراد أن يتأكد من أن مجرى النهر يصلح لصلاحه فاقرب من الحافة أكثر من اللازم ، واختل وادنه مسقط

لأول مرة تكلم مساحو رج .

— لأنني لا أرى تماسيح في النهر .

كنت قد لاحظت هذا ، وما كان يمكن أن توجد تماسيح إذ أن مجرى النهر كان سريعاً ، كما أنه لم توجد شواحيء حيث أن الجبل يحجب من الناحيتين بالبحر .

أجاب أيوف باستعفاء .

— لقد رأيتها بعيني ، وعائذكم قد اختفت ، أولمنا كنا على مسافة أبعد من هذا فإن المسالك تشابهت على في هذا الجبل .

— ربما .

— أراهم أنه لا يمكن أن يبقى كما حياً ... هيا بنا نعود .

— أعتقد أننا يجب أن نبقى ونحاول البحث عن كا .

احتد أيوف وحامط مساحو يعصب .

— إني نائب القائد : وأما القائد الآن وعيدك أن تطيع أوامري .
تدخلت في الحديث .

— إننا لم نزل غير فاطعي موت كا .

إرداد غضبه .

— إني واثق أنه مات .

— كيف ؟

— لقد رأيت يه نطم بالصخور قبل أن يصل إلى البحر .

حسينك وأيت التسايح نلتهمه .

— إني لم أفل هذا .

— أجل لككك وحيث إيلينا مال رأي .

صاقي درعا بأستلي فأنجه إلى الهجوم :

— إني لست هنا في مجال دفاع . إني القائد ، وعليك وصاحك أن

تصمما هذا ، وسعود دون انتظار ، وكثير من هذا فإنتي أحركا منذ الآن

أما سعود أدراجا إلى نامري (مصر) .

قالت ثروته يهدوه :

— إنك محطى في كل ماقلت . حتى الآن لست القائد ، وبالتالي لن

نعود قبل أن ننشر البحث من كا . ثم أنا على أي الأحوال ، حتى إن تأكدنا

من وفائه ، لن نعود إلى نامري قبل أن نهي مأموريتنا أو نموت دونها .

لجأة هذا وتمالك أعصابه .

— حسنا . سوف ينتظر متأكد . لكن بعد ذلك سأنزل القيادة .

— سوف نرى .

انبشروا في الجبل ، ونعالا الإهوان متادية عن كا دون جدوى . مكثنا

حتى احتقن أنوم (شمس العروب) ، وأوقدنا نيرانا من الخطب ، وتناوينا

الرجبة الوحيدة التي أحصرها الرجال معهم ، ثم اختار كل منا مكانا ليصطاع

فيه . نصوره آلية انهم إيلينا العدان . وتناوينا الحراسة بناء على أمرى

فلم أكن أنق في أن أيوف لن يقتلنا أثناء نومنا .

حينما أرسل خبر (شمس الصباح) صوء من وراء إيوم (البحر) بدأنا

البحث ثانية دون جدوى ، أخيرا كان علينا أن نعترف أو كما قد مات ،

وأن لا فائدة من مواصلة البحث . عدنا أدراجنا مرهقين ، وحينما وصلنا

إلى الساحل الرملي أنقى الرجال بأصمهم على الرمال يلتفتلون أنماصهم .

وقعت إلى جانب ساحر ووقف العدان على بعد يسير منا .

هنا تقدم أيوف .

أريد أن أوضح أمرا ، إني أنا الآن القائد .

التفت إلى ساحو ليرى ما أقول ، أومأ برأسي موافقاً فإن كان هناك شيء أكرهه فهو مخالفة النظم العسكرية أو تحدى سلطة قائد .
— أجهل ، إنك القائد .

بأن عليه الالتزام وبدأ أنه لم يكن يتصور أن تصدر موافقتي بهذه السهولة . التفت إلى ساحو الذى أومأ برأسه موافقاً بدوره .

— هذا حسن .. إنك ستبقى هو (فطمان) لكك ستقولى معينة بقيادة معي وسأعير غيرك مكانك أما أنت يا ساحو فستظل حيث أنت ...
فهمت ما يعنى .. إنه قصد إبعادى عن رجالى حتى أكون سجيناً في سعيته بين رجاله ، وربما تخلف منى أنا الآخر ، لكن حتى هذا لم يكن يعنى من الطاعة . للمرة الثانية أومأت موافقاً وبدأت الدهشة جليلة على وجه ساحو ووجهه ... لعل هذا أغراه ، أو لعله طس أنى وافقت خاتفاً من رجاله ، أو لعله أراد إثارة عمداً ، أياً كان فقد أردت في صيغة أمرة قاطعة ..

— إننا سوف نعود أدراجنا إلى تامرى ، فمده وصدنا جنوباً إلى أبعد مما وصلت إليه سفننا من قبل .

— كلا ...

— ماذا ؟ هل تعصى أوامرى ؟

— كلا ، إلا إذا تعارضت مع أوامر الفرعون له الحياة ، والصحة ، والقوة .

— إننى أنا القائد ، وعليك طاعى في كل الأحوال . ثم إنك إن تعلم أوامر الفرعون ؟ أن بدعة الرحلة هذه كانت من اختراع كاهن ، إنى شخصياً أعلم أنها كانت مجرد التجارة ، وعلى هذا الاساس حضرت ، وحضرنا جميعاً إلا أن كاخدهعا ...

بالخدوع نفسه أجبتة :

— إنك محطى . . هذه أوامر تنقأها وليست من وحي خياله .

- وأنى لك المعرفة ؟ من كنت حاصرا مقابلته للفرعون ؟
- كلا ، لكن عدى سلطان هذه الأوامر .
- أين هو ؟
- في قرقي بالسمية .
- إني لا أصدقك . كيف يكون مثل هذا الخطاب موجودا ، ولا علم لي به وأنا نائب القادة ؟
- بالرغم من هذا هو موجود ، وإذا سمحت لي أن أذهب إلى قرقي فسوف أحضره .
- كلا إنك ستذهب رأسا إلى مركب القيادة ، وسأرسل من يتولى نقل حاجياتك .
- إذا قلن يحضر الخطاب .
- ماذا ؟ ألم تقل إنه في قررك ؟
- أجل لكن ليس من حاجيتي
- إذا فأين هو ؟ سأرسل من يحضره .
- كلا . إنه وديعة ثمنى ولن يمسه غيري .
- هذه ثأني مره بعضي فيها أوامر في دقائق معدودة ، وإني أحذرك ألا تستغفل حلي . أين الخطاب ؟
- سأحضره إن شئت .
- إذا فأنت ترفض أن تتحرقى .
- كان صوته قد ارتفع ، ووقف الجنود يستمعون للحوار بيننا دون تردد أصدر إليهم أمره .
- انفضوا عليه .
- كنت أتوقع هذه النتيجة من البداية هذا لم أفقد أعصابي . قبل أن يتحرك الجنود وحمت إليه كلماتي مهددة .

— إن أصدقك ألا تفعل هذا فليس هنالك داع لإرافة السماء .
تراجع خطوات بعيدا على مقترنا من حوده وكرر أمره .

— انصروا عليه

في لحظة كان حامي في يد ، وحججري في الثانية ، وفي لحظة أخرى
كان حامي يعف إلى جانبي ، وقد فعل مثبا فعلت إلى جانبا تقدم
العدان ووقفوا بدا ميعا من الأجساد البشرية ، صرح أيوف في جنوده .
— انصروا عليهم جميعا وإن فاموا انصروهم . لهم أربعة وأنتم أكثر
من الاثنين .

جاء صوت من صفوف الجند .

— نخمة .

نخمة مقناحية انطلق من وسط الجند شحش لينضم إليها وقد أمسك
بيديه قوسا وسهما أو في سهام نحيف ، اندفع الجنود يقطعون
بمسافة القصيرة بينما ريدهم هاء علبت ماذا أعطوا أو في لقب أحسن من
رمي السهام في الجيش في الثواني التي تلت انقطع الجند كانت ثلاثة سهام
قد مرقت في الهواء وكأها سقط واحد ليضع ثلاثة جود مضرجين بدمائهم .
بعد ذلك التحمت السيوف .

لم يستمر حتى يهجم الجند عينا إن ، ودفعها للقمام في منتصف المسافة
بالرغم من أن السامى جيمه بعد هذا انصب على القتال إلا أنى لم أملك أن
ألاحظ أن اهرقدين الأسودين كانا يمتدان القتل بمسة ، وبسرة ، وبشهران
الذعر حولهما لم أر أو في القتال إلا أنى علبت أنه احتشى ورائنا حينما
رأيت سهامه القاتلة تمرق بينما دانت مره مرق سهم قريب من كتف حق أنى
أحبست بلفحة جميعه سريعة من الهواء سقط على أثرها أحد الجنود
أمامي وور احترق السهم عقه .

لم خمس دقائق معدودة إلا كان الذعر قد أخذ منهم قولوا الأدبار ،

ثارمين نصف عددنهم بين قتيل وجريح ، وكان ايوف يعدو معهم نحو
أسفالات في البحر . صرخت فيهم أن يفتقروا ، وإلا فلن يصل إلى السفن أحد
منهم . تأكيذا لكلامي أرسل أوني أحد سهامه يستقر في كنف جندي منهم .
حينما صرخ الجندي من الألم توقف الجميع .

أمرتهم بإلقاء أسدحتهم على الأرض ، وبأن يبتعدوا عنها . وفعلوا . كانوا
يظنرون رعب إلى راي السهام وقف وقف مسترحيا ، وفوسه وسهمه متجهان
إلى الأرض . لاح كس لا يعنيه في الأمر شيئا ، وكأنما لم يلبث به الثقة في
قدرته ضد الاستهزاء ، والاستهانة . ومع ذلك فقد أظهر من مرونة جسمه ،
ومروعة حركته ، ودقة إصابته ، ما جعلها جميعا تثق في استطاعته الفصاء على
معظم الجسد قبل أن يتحركوا .

ناديت على ايوف عصب ويقدم . لم يكن جنانا إذ أرى شاهده يبتلى دلاء
حسنا في أكثر من موقعه ، ومع هذا فإن سهام أوني كانت ترسل الذعر
في أكثر القلوب شجاعة . أحمرته أنه ما زال القاذ ، وأن عصياني له لم يكن
إلا لعصيانه لأمر الفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة ، وأنه إن عدل عن
رأيه فله أن يسترد قيادته ، بشرط واحد هو أن أبغى دبابا على سفينتي .
لم يصدق أن يفلت هذه السهولة فأجاب بالموافقة .

استأذنته أن يصحبني إلى قرقي حتى أطلعه على أوامر الفرعون له الحياة
والصحة ، والقوة ، وظلمت من ساحو رج أن يصحبنا ، وكذلك أوني ،
والعديس . انتقمنا من الخسة إلى سفينتي بعد أن أصدر ايوف أوامره إلى
جنوده بأن يفتقروا من مات ، وأن يفتقروا الجرحى إلى سفينته ليعالجوا .

حينما وصلنا إلى القمرة استخرجت الخطاب من محبته ، وأطلعت ايوف
وساحو عليه قبل أن أقصه ليتأكدا أن أحتماه لم تمض . أطلعتهما كذلك
على الخطاب الذي تركه لي كما ، ورافتما ، أنه لم يتمتع بدوره ، قبل أن أفض
أي الوثيقتين قال ساحو :

— ألا نعلم أنه من المستحسن أن يرسل في طلب نجم آب أيضا
فردا كانت هناك أوامر ، أو معلومات جديدة يجب أن يعرفها معنا .

وافقت على الرأي ، وطلست من منتوسين نائي أن يرسل في طلب نجم آب ،
وجلسنا نحن الثلاثة نقادل المعلومات مما رأينا على الساحل . بدأ إيوف عنغ
في مبدأ الأمر واجها ، كثيرا إلا أنه سرعان ما استعاد صمافته وراح يتكلم
بلهجة القائد الذي يعلل إرادته لم أعتصر ، وما كان لي أن أناقش طريقته
طالما اعتزعت بالقيادة .

حضر نجم آب وجلس معنا منتوسين . أخوتهما باختصار يموت كما دون
أن أشير إلى ما حدث من إيوف عنغ وجوده ، ثم أطلعتهم على الخطابين
ليتا كما من عدم فص أحتامهما ، أخيرا طلست من ساحو رع أن يقرأها .

كانت الوثيقة الأولى تحتوي على أوامر المرعوى له الحياة ، والصحة ،
والقوة ، وميوره تخافه المرعوى ، سيد الوادين . حينما تلاها ساحو كانت
معاجها لها جميعا إذ لم تقتصر الأوامر على مجرد القيام بالرحلة ، وهو ما كنت
أعلمه ، وإنما أصبحت إليها أوامر أخرى لم يكن كما قد أظلم على علمها . كانت
الأوامر الجديدة ، أنه في حالة وفاة كدا أو غيابه ، أو عجزه ، توكل قيادة
الرحلة إلى كين إيم حنث ، أي إلى أنا شمعصيا ، وليس إلى إيوف عنغ .

إن كانت صدمة هزيمة إيوف عند الساحل شديدة عليه لم يتوقعها ، فإن
الظلمة التي أصابته بعد قراءة الأوامر كانت أشد . استمع لوجه ، وزاغته
عيماه تستقران على " في كرد لم يحاول أن يخفيه ، لم يتجالك غضبه وصرخ وأبعا .

— هذا كذب إنني أنا النائب ، وأما الذي أتولى القيادة .

رد ساحو عليه هدهد :

— إن أوامر المرعوى ، له ، عيابه ، والصحة ، والموت ، واطمة صريحة
لا تحصل خلافا أو تأويلا .

نظرت إلى نجم آب فصحك .

— أجل إن الأوامر صريحة .

لم يجد أيوب مناصاً من القول فارتجى على مقعده دون كلمة . أشرت إلى
ساحو أن يقرأ خطاب كذا ، فعلم ، لم يكن يريد على وصيته ، لقد ترك لكل
من رجاله السنة ما يكفهم ليعيشوا عيشة كريهة ، وترك للعبد ممدو وعثو
حرية أن يختار الإلتحاق بمن ، أو أن يكونا جند بين حرين ، أما باقي
ممتلكاته فقد تركها لي .

على أن ما أكاد يرسل الدموع في عيني هو ما جاء في ذيل الوصية ، قال
يخطبني إنه كان قد وعدني حينما قبلت الإلتحاق بالرحلة أنني لن أندم ؛
وبحسب أنه بتعييني قائداً للرحلة بعد وفاته وفي بوعده .

الفصل السابع

الأعرح

كان أول عمل لي أن أرسلت إلى سفينة القيادة لاستدعاء صانع كاس ، وبالذات
مذكرا به عن الرحلة ، والمعلومات الملاحية التي دوسها استدعيت عبيد كاس
الآخرين الذين كانوا مابز الرق على السفينة ، وحيثما اجتمع الستة عتدى أحدهم
عن وصية كاس ، وخبرتهم حين أن يستمروا في خدمتي ، أو أن يسردوا حريتهم
يمعلون بها ما يشاؤون .

جاء رد أوني ملبياً ، واتفق عليه الآخرون

— ماذا سنعمل بحريتنا هاهنا من الواضح أن سببنا كان يريد لنا أن
تتم الرحلة معه ، وإلا لما جليبا دعونا نرحل الكلام عن الحرية حتى
تنتهي الرحلة ، إن انتهت .

ووافق الباقون على ذلك ، وأعلنت للداشة والموصوع . لم أعبر سفيني ،
وجعلتها هي سفينة القيادة ، كما تركت لإيواف قيادة سفينة إذ كان تفديري
أن رجاله في السفينة لن يقبوا قائداً آخر . لم تنكس هالك خشية أن يحاول
العودة بها ، فإن سفينة واحدة من العسير جداً أن تهزم من قراصنة بحر
العرب (الأحمر) أو أن تلقاهم في قتال .

اتجه الساحل بعد إبحار يوم إلى الغرب ، تخدمني الأمل أننا قد انتهينا
من رحلتنا إلى الجنوب ، مع أن المعلومات التي استقها حكومتنا ، ونقص رمي
من الأعراب ، ورجال بونت ، كانت مخافت ذلك ، لكن ربما كانوا عطفين .
مرعان ما حارب أمل إذ أن الساحل بدأ يميل ثانية نحو الشرق مما جعلني أقطع
بأنني في خليج كبير طاس .

في اليوم الثالث كنت جالسا في قري حينما جاء إلى متوسلين وطلب أن
أصحبهم إلى مطلع السحبة لم ألاحظ شيئا غريبا يستحق استدعائي في مبدأ الأمر ،
فمن كنت شعرت بأن هالك شيئا غير طبيعي ، حسبما أشار متوسل إلى الشمس
عرفت السبب ، إن الشمس قد انتقلت من مكانها بدلا من أن تكون كما هي
عادتها ، على يسار السحبة أضحت عن يمينها ، كان الرجال ، والصحراء قد
لاحظوا هذا أيضا ، وإعصروه ولائهم سر شوم إذ أن برادر اتفعل وصحت
عظيم ، إلا أنني صرت يدهم يهدوء وكان شعنا لم يحدث ، هذا راء نسيا .

جاءني من الشمس الأخرى أداء تحول المعنى نفسه ، وتسماعل عن مؤي
هذه الظاهرة الخارقة للطبيعة ، ومهدت أن رجال الشمس الأخرى ليسوا
أحسن حالا من معي . كان على أن أجيب بمرعة فأرسلت إليهم أن هذه
ظاهرة طبيعية ، وأن كما وأنا كنا نتوقعها . كنت كذبا في ادعائي هذا
إلا أنني كنت محتاجا إلى وقت أفكر فيه كما كان يلزم تهدئة الرجال
في الشمس الأخرى .

أمرت متوسلين أن يستمر في ملاحظة الشمس ، وأن يحطروا إذا حدث
أي تغيير ، ودخلت قري أراجع حساباتي ، والمعلومات التي دونتها عسى أن
أجد تعليلا لهذه الظاهرة . راجعت للساعات التي قطعناها منذ انبحارنا ،
والخريطة التي رسمها كما ، والتي رسمتها ، وهما تذكران أن تعلقا ملاحظا
عن التيارات المائية ، وموقع الشمس ، والجو من حيث حرارته ، ورطوبته ،
والرياح هوائها ، وصمت علامة على الخريطة على المكان التفرس
التي بدأت فيه هذه الظاهرة ، وأحدث أفاضل المعلومات للتجربة أمامي ،
وأدرسها محاولا استنباط تعليل معقول ، لكن دون جدوى .

كان على أن انتظر الأمر . هل يستمر هذه الظاهرة أو تزول ؟ كان
على أن أدرس ، وأدون ملاحظاتي في كل خطوة ماضية عن الأنواء ، والجو
والتيارات ، وما يحدث في كل هذا من تغير ، إلاصاة إلى النجوم وأوسعه

شيء واحد مقطوع به إذا استمرت هذه الظاهرة فلا بد أنها شيء طبيعي له تعليل معقول وليست كما أخطرن متوسين ، وكما يعتقد الرجال ، غضب من رب الارباب أمور لا اعتدائنا على ملكك الجس ، والارواح ، هل هي كذلك حقيقة ؟

لا بد أنى قضيت وقتاً طويلاً مستغرقاً في دراسائى حق أننى لم أفق إلا حينما لاحظت أن لصور فى القمرة بدأ يصمت ، ومع هذا فإنى تركت الرديات جانباً ، ورجعت أفكر فيما درسته ، وما يمكن أن أصل إليه من نتائج عندما بدأ الليل يرخى سدوله سمعت طرقات خفيفة على الباب . أدت للطارق بالدخول ، ففتح الباب ، وظهرت باكاً حاملة مصباحاً ، ومن ورائها متوسين :

كنت قد سميت الفتاة تماماً ، وحينما رأيتها خيل إلى كأنما أراها لأول مرة كانت ترتدى فستاناً لى اللون على شاكفة سابقه عارى أحد الكتفين إلا أنه كان أكثر انقباضاً ، أو خيل إلى كذلك برزت معان جسمها بدقة جعلتنى أنظر مشدوها . المكعب الأملس ، والصدر الناهض ، والخصر النحيل الذى ينحدر فى استدارة تكاد أن تكون كاملة ثم يزاق الرداء لينتهى عند القدمين الصغيرتين ، بالإضافة إلى هذا الشعر الأسود العاحم وقد السدل متهدلاً كالكليل يتوج الرأس ، ويعطى حلقيه جميلة الوجه الديدع .

أحسنى أطلت النظر أكثر مما ينبغى ، لأن ضوء المصباح الباعث لم يستطع أن يخفى حمرة الخجل التى صبغت الوجنتين ، ولا الابتسامة السعيدة التى انمرجت عن أسنان لؤلؤية . سمعت صوت متوسين ، وكأنى كنت أسيت وجوده .

— إن سيدى القائد لم يتناول طعاماً منذ الصباح . وقد طرقت الباب عدة مرات دون أن أتلقى إجابة حتى أصرت باكاً على دخول الحجره ، واحضار الطعام .

— لا بأس يا مشر ، وشكراً يا باكاً .

انتحى منو جانبا مشيراً إلى أحد البحارة الذى ظهر خلفه حاملاً صينية عليها الطعام ، ووضعها على المصطبة أمامى ، ثم انسحب .

— ان جائع جداً ، هلا شاركمانى ؟

تردد منتو قليلاً ثم تناول مقعداً وجلس فى حين لم يدع على ما كان أهمها همت ما أقول ، حينها أعدت كلامى مصاحداً إياه بالإشارة انسحبت للإتسامة على شفتيها وجسدت سرورها قائلة :

— شكراً .

نظرت إليها بدعشة إلا أن منو انهم ، وأحدى أهمها همت كل أوقاتها تنقطع الكلمات الديموطيقية وتحدثهم ، وأهمها أعدت دكاه غير عادى وذاكرة قوية .

— لعلمنا يستطيع أن تبادلتنا الحديث .

— لا أظن ذلك ، وإنما لا تدهش يا سيدى إذا ما استطعت فهم كلامك أو مبادلتك الحديث خلال أسابيع قليلة .

— علينا أن نعطيها إسماعاً يابق بأمة المرعوس ، له الحياة ، والصحة ، وقوة .

— أخشى أننى لا أستطيع أن أفيدك فى هذا يا سيدى .

نقلت عيناهما الذكيتين بينهما وبدأ عليهما علمت أن الحديث يدور حولها ، وأنها سعيدة بذلك . و الاتفاق البداية تناول الطعام فى سكون نسى لم يقطعه إلا محاولتين للعتاة أن تقامى بينهما مما سبب لى حرجاً ، وبدأت جهمداً كبيراً حتى أهميتها أنها لا يجوز لها أن تطعم شخصاً . فحسب منتو من محاولاتها وقال :

— إن العتاة تحبك يا سيدى .

أظهرت الامتناع ، وأراد على ملاحظته فى خشونة مضطربة .

— لا تخشى يا سيد منتو ، أنا أكاد أن أكون فى حرج والدها ، وإنما هى تعتقد أننى أبقصدتها من الفرصان ينعم وهو كما ترى مجرد شعور بالاعتراف بالجميل .

تجاهات الفتاة بعد هذا تماماً ، ونادلت الحديث مع متو أسأله عن
أحرار الشمس ، وهل تغير مركزها ، أو هل لاحظ في الجو والرياح تبديلاً .
جاءته إجاباته بالنفي ، فالشمس استمرت إلى بين السعينة طوال النهار حتى
المغيب ، والجو شديد الحرارة ، والرطوبة . والبارجنوني ، والرياح هادئة .
كان المجهمون في الواقع يتممون بأيام من الراحة فلما نعموا بها ، وإن كانت
ظاهرة الشمس ما زالت ترهبهم ويتوجسون خيفة من جراء غضب الآهة .

عندما انتهينا من تناول الطعام كان الليل قد ساد أردت أن أخرج إلى
سطح السعينة عسى أن أرى شيئاً جديداً في النجوم ، وأحترت متو بذلك
فخرج . أشرت إلى ياكوا ويبدو أنها قد فهمت خطأ أني أريد أن أصحبها
إذ سارت إلى جوارى . كنت محرجاً إذ لم أرد أن أضربها فتركها تسير
دون أن أسكلم وانقأ أنها حينئذ ترائي منها في مراقبة النجوم ، والكواكب
سوف تمل ، وورد من نفسها إلى حجرتها .

لم يحدث شيء مما توقعت . وقفت ياكوا إلى جاني دون أن تنبئ بكلمة
أو تأتي بحركة ، ولعلها لاحظت مدى استمرار في مراقبة الأهلالك فوجهت
نظرها دورها لها يبدو أنها تصورت أن رصدي لم يكن إلا مجرد التمتع
بالجمال وأرادت أن تشاركني فيه . ظلت أكثر من ساعة دون أن أتحرك ،
وظلت صامتة دون كلمة . انتهت بعدئذ إلى قرقي لأدون ملاحظاتي ،
وتحوّلت إلى جوارى . حينئذ وصلت إلى القمرة وجئت لها ليلة سعيدة .
ورجعت إلى أحلامها هسة . قبل أن تعارضني فاهت بكلمة : احب ، وسألتها
عما فهمي ، ولم تدر كيف نجيب وأشارت إلى أنها تحب الصمت الذي
شاركته معي .

وأجبتها قائلاً :

« حسناً إداً فأنت مرت سيجر ، محبة السكون هذا هو اسمك .

كررت الكلمتين بصوت باع .

مررت سيجر ...

أطلقت صرخة مرحة ، وهرعت إلى قريتها

ما أن ظهر خمر (شمس الصباح) على المياه حتى كنت أفزع على سطح
السمينة . كان خمر على عينيها . بعد دقائق لحقني متوسمين ، وسمعنا صوت
مراقب الصاري يشتمنا عن وجود قرية على الساحل ، وأن هنالك قوارب
تجدهم نحوها . فكرت أن أمضى بضعة أيام في شبر (القرية) ربما نستطيع
أن نلتقط معلومات نمدنا عن ظاهرة (أنور) الشمس حتى نتمكن من إقناع
الرجال ، وإزالة أي أثر لظهورهم . أمرت متو أن يرسل إشارات إلى السور
بإلقاء المراسي ، وأن يستعد رجالها بمصاحبي على الشاطئ . كما أمرته أن
يسقى مجموعة من الحرس على أن يكون بينهم حكومات ، وروسى الجنديان
لذان يتكلمان لغة البانتو ، والنبت .

اقترح مسوسين أن يصحب الفتاة معنا ، فمن هذه المناطق ، أو قرية
مها ، وطالبا ما سيكون ذات معنى كبير . وافقت على الرأى وإن كنت لم أستطع
أن أشرح للفتاة ماذا أريد تماماً . حاولت أن أقهرها بالكلام فهرت رأسها
تعباً بأها لم تفهم . كررت ، المحولة بالإشارة وبعد لاي قالت إنها فهمت ،
وإن كنت شككت كثيراً في ذلك . أخيراً سألت حكومات أن يترجم لها ،
وأن يقننه هو الآخر . أقول ، وحينما ترجم بصوتة نظراً لادعائه أن اللغة
ليس فيها بعض الكلمات أو هو لا يفهمها ، دهشت حين أبأني أن الفتاة
أخبرتني أنها فهمت معنى ما أريد ، وأنها في الواقع كانت قد عمت من
الأعراب ، ومن أهلها عن هذه الظاهرة وهي أن الشمس تدل مكانها في نقطة
معينة ، وتبقى على هذه الحال حتى يعودوا أدراجهم ، وعند النقطة نفسها
تقريباً تعود إلى ما كانت عليه . وأنها لا ترى تعديلاً لهذا ، كما تعتقد أن
الاهالي لا يعلمون .

عمت أن اسم القرية سيكون (دودور الآن) وهي ثاوي ، ولله نمر عليها
بعد أوبوني ، إذ يبدو أنها كذا قد مررت على مدينة أخرى اسمها يوتا (سراييون)

دون أن نعلمها ، ولابد أن تصادف أو المرور في المساء . تلقانا ملك المدينة ، وكل مدينة لها ملكها الخاص ، وترحاب ، وحيما رأى الفتاة عرس على أن يشتريها عرضت قائلا إنها ليست ملكي .

انتهت عروسة وجودها وأمرت بإعادة تموين السفن بالمياه العذبة ، والعواكه ، كما طلبت من الملك تنظيم رحلة صيد للحصول على اللحم طازج حيث أنه أخبرني بوجود أنواع من الجاموس الوحشي على مسافة قريبة هو عدني بذلك خلال يومين حيث أن الأدلاء ، والسامعين كانوا في رحلة ، ويستظر عودتهم في أية لحظة .

أمر الملك مكانا يبيت فيه الرابطة الثلاثة ومرت سحر ، وأنا ، بينما أمرت رجالي أن يقيموا بعض الخيمات لهم على الشاطئ . لم أر الفتاة في اليوم الأول إذ أنني كنت مشغولا مع الرجال في تموين السفن ، وعندما حل المساء سألت عنها فأخبرني ساحورع أنها في مكان ما لصعبة إيوف عتيخ . لعل القلور بدا على وجهي لأن ساحورع سرعان ما أردف .

- إن الفتاة التي قاومت بنعم من اليسير عليها جدا أن تقاوم إيوف . فضلا عن مداوم تلك ثلاثة تملقوا بها حتى أمسحوا من عيدها حيكو ، وبصرو ، وأوني ، ولا أظن أن هنالك داع للقلق .
تمسكت الصعداء تم عاودني القلق .

- لأن إيوف خبيث وهو يعلم الكثير عن النساء ، وستكون الفتاة كالعوبة بين يديه .

— ربما كان لك بعض الحق من هذه الناحية .

كنا جاسين ، ساحورع ، ونجم آب ، وأنا فيما يقبب الشرفة في البيت الحشوي الذي أمرده لئلا يملك ، وبينما نحن نتحدث بما إلى سمعنا صوت ضحك جدلة أطلقتها الفتاة نلتها ضحكات رنانة من إيوف . بعد الحظات ظهر

اللائن من بين الأشجار القريبة وهما يسيران جنباً إلى جنب في مودة ظاهرة ،
ظلت أرقبها حتى اقتربتا ثم ابتدرته .

— إيوف ليست الفسة مالا مشاعا لا تخرج معها ثانية .

مان عليه المص وأجاب بحدة :

— إننى لم أفعل شيئاً .

— إني لم أقل إنك فعلت ، إننى أحذر فقط ألا تصحبها ثانية .

رد على بقعة .

— لماذا ؟ كنت أنعم بصحبها فقط .

أشرت للفسة بالدخول إلى حجرتها ، وأوليته ظهري وأنا أكرر بصيغة
تقطع المناشة .

— لا تعمل ..

قبل أن أحاطو خطوتين جازى صوت ملء بالفضض والقعة .

— أوافق أنك أن هذا من أجل العرعور ، وليس لمسك ؟

لم أتردد . في ثوان كنت قد استدرت وقطعت المسافة الصغيرة التي
بعضلي عنه ، ثم ارتفع دراعى ليهوى ظاهر يدي على فمه في ضربة شقت
شعته ، وأسالت الدماء . لعله لم يتوقع أن يكون رد فعل بهذه السرعة ،
أو بهذا العنف . فقد وقف شبه مدهول لحظات ثم هجم على يريد أن يكيل
لـ الضربات .

كان بالنسبة إلى مجرد طفل يجب أن يؤدب ، أيا كانت مهارته في استعمال
الأسلحة فإن قوته البدنية لم تكن حتى تفاربه ، لهذا لم أحاول إبداءه حقاً .
لم أبتعد عن مكانه ، وإنما تلقيت قبضته بيدي وأمسكت به ، حيناً أرسل
الأخرى إلى وجهي أوقعتها باليد الثانية ، ثم طوحت بهبداً .

ارتفع من الأرض ثم طار ليسقط على وجهه في الرمال . لم يتحرك

الحفلات ، ولعله أدرك الفارق الجسيم الكبير بينه وبينى ، وأدرك بالتالى
عقم محاولة قتالى قام ببطء ولم يطر باحقيق واتجه رأساً إلى الأحرار .
استدردت لأدى أن الفتاة مارالت واقفة بنظر وقد اعتلى وجهها الوجوم .
حينما رأتى أثبت نظري عليها خمضت عينها ثم ولت تعدو نحو حجرتها ،
جاءنى صوت نهم آب .

— لقد إكتسدت عدواً لن يتردد فى قتلك .

— لو استطاع لعمل ذلك منذ زمن طويل .

— ربما كان قبلاً يتحين الفرص ، أما منذ الآن فإنه سيختلقها ..

— ربما .. شكراً للتحذير على أى حال .

كان الجو رطباً شديد الحرارة ولم يشعر أى منا ميل إلى النوم . مكثنا
نص الثلاثة نبادل الحديث فترة طويلة قبل أن نقرر أن الوقت حان للوم .
دافقت من باب حجرتى ، ولم أرداهياً لأن أوقد القمعة حيث أن صوء
القمر كان ساطعاً . قبل أن أخلع سترى شعرت بحركة خفيفة عند الأعراس
فالتفت مستعداً لأى طارئ . إلا أنى سرعان ما تبين أنها الفتاة .

تبعثت من وجودها ، وأثرت إليها أن تخرج إلا أنها تقدمت منى
ثم ألقت بنفسها عند قدمى ، وأحاطت بإحدى رجلي بذراعيها . دهشت
للتصرف إلا أنى إلتحيت ، وأمسكت ذراعيها بقوة لأمضها فوضعت يدها
على قدمى ، شعرت بوجعها دافئة تبللها الدموع ، وكدت أن أسحب يدي
كأعاسمت جرة إلا أنى تمالككت نفسى ، وأقمتها من جلستها بقوة ،
وإن يكن برقى .

لم تحاول المقاومة ، قامت لتقف على بعد لا يريد على شسب (مرض
الكف) منى . سقطت أشعة لقمر على وجهها لتبدو لى الدموع تنساب
رقراقه تزيد من جمال الوجه ، وتعطيه مسحة من حزن ودم . فهمت أنها
ظمت أنى قد غصت عليها لإصطحاب إيوف إياها وهى تظهر ندمها . برقى
مسحت دموعها وأحسست بجدها المس ناعماً تحت أصابعى . فلتقت عينها

تفحصان عيني ، ويبدو أنها اقتنعت أنني لم أكن غامباً عليها إذ ترى شبح الابتسام على شفتيها ، وانصاعت إلى يدي وهي تقودها خارج الحجرة .

في ظهيرة اليوم التالي سمعنا الجبا في القرية ، وشاهدنا جماعة كبيرة تدخل حاملين معهم جثة ثورين وحشيين ، وعلمت أنهم قناصة القرية المتهمدون بنموذجها بالاعوم . ذهبت إلى الملك أسأله أن يوفى بوعده فأرسل لاستدعاء شخص يبدو أنه رئيس القناصة . بعد فترة حضر شاب شديد السمرة طويل القامة نحيل البنية حتى أن العظام تكاد أن تبرز من جسده .

أجاب رداً على أسئلة الملك بأنه يوجد قطع كبير من الجاموس الوحشي على مسافة نصف يوم من القرية يرعى في مساحة واسعة من الحشائش . طلبت من حكومتناح ، أن يسأله إن كان يستطيع أن يأخذنا إليه في الصباح المبكر ، فرد بأنه يستطيع ذلك إلا أن المنطقة مملأ بالوحوش المفترسة التي تتعدى على أفراد القطيع . وأن الرحلة بذلك خطيرة . أخطرته أن يكون على استعداد للرحيل ، واصطحبت ساحورع ، ونجم آب معي إلى النخبات .

قرررت أن أصطحب معي في رحلة الصيد نجم آب ، وحكويقناح المترجم ، وأوني ، رامي سهام تاركا سمسو ، وعندهو العبدان الأسودين في رعاية الغناة ، كما انتقيت ستة من الجنود ، ووعدتني الملك أن يصع في خدمتي ثلاثين حمالا ، حينما أخبرته أنني أود أن أصيد أربعاً من هذه الجواميس ، واحدة لكل سفينة .

أقيم في القرية مساء جملاً جرياً على العادة ليشارك الجميع في أكل لحم الثورين ، ويبدو أن الملك قد شرب كثيراً حتى أنه عاد وكرر عرضه السابق أن يشتري مني مرت سجرة حينما رفضت عرضه . هي أن أنتقي من بين أهل قريته خمس فتيات بدلا منها . ولما رأى إصراري عاد ليعرض على أن أنتقي من أشاء من نسائه ، وزوجاته . رفضت معتدراً فقال كلمات من بين أحراسه لم أكن محتاجا إلى مترجم لأعرف معناها ، إلا أنها ذهبتني أن ألتزم قرارا .

اعتذرت عن مواصلة الحمل متمللاً بالنهوض مبكراً ، وإصططحت على الفتاة ، ونجم آت ، وساحر دوع تاركاً لميوف .

بمجرد أن تواریا في الظلام طلبت من زميلي أن يرافق الفتاة إلى سميتي واطمان قلبي حيناً رأيت أن سمسو ، وحنجر يقفان على مسافة قريبة ، وإنهما سارا خلف صديقي والفتاة . إلى جوارى تكلم نجم آت .

— إن الفتاة تسب لك بعض المتاعب وسوف نذهب لك الكثير ، وأنى أرى أن تتركها للملك ولدينا ما يكفينا .

— إنها ملك للفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة ، ولن أتنازل عنها بمثل هذه السهولة . على أى الأحوال أمسيك بخير إن أمامنا يوماً شاقاً غداً .

استيقظت في الصباح المكر ، وحينما خرجت إلى الشرفة لم أجد أحداً من الأهالي في انتظارى لا رئيس الصائدين ، ولا الحدادين . كان يوجد رجال فقط . بعد دقائق انضم إلينا نجم آت ، وحينما رأى الساحة خالية من الأهالي . تبسم قائلاً :

— لا اعتقد أن الملك سوف يساعدك بعد أن رفضت منحه باكاً .

— أظن ذلك ؟

توجهت من هورى إلى مساكن الملك مصطحباً نجم آت ، وحكو بتاح ، ورجالى السبعة . كان همالك حارس واحد ، سرعان ما جردناه من سلاحه . أمرت أن يتعاضد الرجال القتل ، أو حتى الجرح ، إلا في حالة الضرورة القصوى . خرج الملك يستطلع سبب الجلبة ، وحينما رأانا حاول الدخول ثانية ، إلا أن سهم أوفى كان أسرع منه فأصاب الباب على قيد انامل . كان تهديداً واضحاً جعله يستمر في مكانه ، ثم يلتفت اليسا ببطء . سألت ، وترجم حكو بتاح .

- أير الدليل ؟ وأير الحاملين الدين وعدت هم ؟
 — لا أدري . لقد أمرتهم أن يكونوا موجودين ولعلمهم حافوا من
 الرحلة فهي خطيرة كما علمت .
 — حسنا إذا فتعال معا ، ستكون أنت الدليل .
 وإن الخث في عيبيه وقال بصوت ناعم :
 — أظن حلمك ستجد أن رجالي يحيطون بكم . ارم سلاحك ، وأمر
 رجالك أن يفعلوا ، وسوف أضعكم ترحلون بسلام .
 لم شعص أكره الجدال . أومأت إلى أوني أمراً بأن يعطيه انذارا
 آخر . لست أحسب أن أحدها رأى السهم وهو يرمق فوق كتف الملك
 قريباً من العنق ، ويلتصق بالباب خلفه . وبدوا أن أوني أراد أن يكون
 مقنعاً ، أو لعله أخطأ نتيجة فرط ثقته بنفسه ، لسكن السهم ترك خدشاً
 حميماً في الكتف ، وآخرها بالعنق . صرخ الملك من الرعب ، وقفز خطوة
 إلى الوراء واصعاً يده عند عنقه ، وردّها لينظر بهلح إلى قطرات حميمة
 من الدماء . أصدرت أمري ، وترجم حكوي بتاح .
 — أمرهم أن ينسحبوا .
 وأصدر الملك الأمر .
 — عليك أن تصحبنا لتكون دليلنا . لاشك إنك قلت برحلات صيد
 قبل هذا .
 — إن الرحلة خطيرة وأنا لا أعرف دروب العابة .
 — هذا من سوء حظنا وحظك .
 — انتظروا سآمر الأدلاء والحاملين أن يرافقوكم .
 صرخ بصوت عال ، وظهر الدليل والحاملين .
 — إنك سوف تصحبنا .
 — دعه لي .
 كان المتكلم هو ساحورع ، إذ حضر ومعه رجاله حيثما شاهد تجمعهم
 الأهالي . والتفت إليه ، وكرر ساحورع :

— دعلى، إنه سينعم طوال النهار بجو البحر المعش على سفيتى حتى تعودون
أومات برأسى موافقا ، وترجم حكو الملك الذى وافق بدوره ،
ثم تسلم بصوت عال لوجاله قبل أن يرافق جنود ساحر . أخطرني حكو
أه أمرهم بالمحاطة على حياتنا ، وهددهم بأقصى أنواع العذاب إن من
أحدهما سوء .

أنا والذين أسا قد تأخرنا ، وأنه يستحسن أن ينتظر إلى الصباح
التالى ، فإن المبيت فى العاية أمر مرعب إلا أسمى صممت أن تبدأ الرحلة فورا
طاب منا أن نعدى السير إن كان هنالك أمل فى الرجوع قبل أن يحل الماء
وقهنا ذلك . سار أمامنا يقطع هروع الاشجار ، والنباتات الكثيفة .
يسكين طويلة معقومة ، وأمرت ثلاثة من رجالى أن يساعدوه بسيوفهم ،
وهذا أمكننا أن نسير بسرعة لا بأس بها .

كانت الارض رطبة ، والجو خائق ، ونصينا جميعا عرقا ، حتى امر
تعاصبت عن جنودى وهم يتحدرون قليلا من ملادهم . رأينا القردة
والطيور ، والرواحب ، وسمعنا أصوات الوحوش تتعدى من بعد ، وترس
الرعب فى قلوب أكثر الناس شجاعة . شاهدنا تنوعا هائلا من الاشجار ،
والنباتات ، سرنا دقائق حلاها ساعات ، وساعات حسبناها أياما .

قبل أن يعتلى رع (شمس الظهر) كبد السماء (نوت) ، إستوقفنا الذين
قال إن المرعى الذى يقصده ، يبعد عنا مسيره دقائق ، وأنه يستحسن
أن يأتيه من حيث لا تأنى الرياح . وحذرنا أن نحصى أصواتنا قدر جهده .
وأن نكون مستعدين لآى طارىء . قال إن بعض الوحوش يتسلق هروع
الاشجار القريبة من الارض ، ويقع منتظرا قربسته ، وأن علينا أن نتعب
دائما حولنا .

دارنا الدليل دورة صغيرة ، ثم عاد إلى التقدم نحو الغرب . أمر الحواري
أن يسكروا حيث هم ، وأشار إلى جماعتنا بالتقدم . بعد أمتار قليلة انتهت
الاشجار المكشيمة لجأة ، وامتد مساط أخضر من الاعشاب . على مسافة ترب

غنى خمس خئات (الخت ١٠٠ ذراع) شاهدنا قطيع الجاموس الوحشى .
كان يرعى فى هدوء وقد تفرق أفرادہ يعطون مساحة كبيرة ، ولا شك
فى أنه كان يصم مجموعة ضخمة من الحيوانات تعد بالمئات .

أحطنا بالدليل أن عليا أن تتقدم بحذر شديد ، وأن نراقب الوحوش
التي تتسلل خفية بين الحشائش الطويلة حتى تقترب من الحيوانات اللاهية . قال
إن الجاموس الوحشى قوى جداً ، وأنه شديد الخطورة إذا أمير ، أما إذا
فرع القطيع ولا شيء يقف فى طريقه ، حتى الأسود نفر أمامه إذ ينطلق
دون أن يبالي . تقدمنا متلصحين حتى صرنا على مسافة لا تزيد على عشرين
بيو (البيو ذراع وربيع) من أعرب الحيوانات . هنا استوقفا الدليل .
تطلعت إلى الحيوان المريب ، وكان يرعى فى هدوء دون أن يبدو عليه أنه رآنا
عجبت لضخامة جثته ، والقوة الهائلة المادية فى كل جزء من أجزاء جسمه .
استمع كل منا بحرية طويلة ، واستعد أوزى بسهامه . فجأة رفع الوحش رأسه
عن الكلا ، ونظر إلينا متعرباً وأعطى الدليل الإشارة .

انطلق سهم أوزى ليصيب الحيوان فى رقبة ، وانطلقت ورائه ثلاثة
سهام أخريات لتصيب ثلاثة حيوانات .

الآن كان كل القطيع قد تنسه . دفعت الحيوانات جميعاً رؤوسها برهة
ثم تحركت بخفة غريبة لتستعد عما قليلاً . خر الحيوان الأول على إحدى
ركبتيه الاماميتين وبدأ أنه يقاوم الموت . انهم آخر إلى القطيع ،
وبلوح أن إصابته لم تكن شيئاً يذكر . ثالث لاحقته سهام أوزى حتى
كنا فى عدوه .

انتمت الحيوانات الجريحان الآخران نحونا . بدلا من أن يجرىا خلف
لقطيع أناحاً رأسيهما وأبدعا نحونا . لم أشعر بضخامة الحيوانات حتى رأيت
حيوانين يندفعان . كان جسماهما من الضخامة بحيث تصورتها حائطين
صحيين . شعرت بالأرض ترتلزن تحت قدمي ، والموت الأسود يهجم على .

المطلق الدليل بعدو بعيداً ، واستمر أوفى في إلقاء سهامه لكن شيئاً لم يكن
ليوقف الانتداع المرعب .

تقدم أحد الجنود بشجاعة ليعرس رمحاً في جسد أحد الثورين ، وفي
اللحظة التالية رأيته يطير في الهواء كماً عما قدفه مارد جبار ، واستمر الثور في
اندفاعه رماً عن الرمح الذي أصابه في كتفه . في أقل من ثانية كان قد قطع
المسافة بينه وبينى ، وتخلبت عن مكان حتى يمرق من جانبيه بأقصى ما يستطيع
من قوة دفعت الرمح في صدره . ولم يتوقف الحيوان رمح ثالث من
جديد آخر ، وطار الرجل إلى يسار الوحش . لعل أحد القرون مسته ،
أو لعل كتف الحيوان احتك به ففداه بعيداً

انطلق الحيوان في عدوه فترة قصيرة ثم خر صريعاً .

إن كنت لأرى أن الوحش الآخر كان واقعاً يحوطه باقي الجنود . كان بهم
آب قد أمسكه من قريه ، بينما سكاكت عليه الرجال يطعنون بالسيف .
ثلاثة رماح برزت من أجزاء مقدمة من جسمه ، ومع هذا فإنه كان يطوح
بهم برأسه وكأنه أفعوبة لا تقل له ، ولولا شدة تمسك الرجل بالقرون
لطار في هواء . حاول الحيوان أن يعدو بعيداً ، ولعله رأى عقم المقاومة
لحمل نهم آب مسافة ثم حرى الأرض .

عدوت راحية الجدي الذي فذف به الوحش . رأيته ملقى بين الحشائش
وسط مركة من الدماء وقد بقرت بطنه . لم يكن هناك مجال لإسعافه ، كان
قد مات . انجحت نحو الآخر إلا أبى رأيته وملاءه يعاوبونه على النهوض .
لم تكن جراحة حظيره بأمرت اثنين أن يعاوناه حتى السفينة حيث يعالجه
أحد أطباؤنا .

أدى حكمو على الدليل ، والخالين الذين حضروا معهم أفرع طويلة قوية
من فروع الأشجار . حل بمناية منهم أول الثيران ، وبعد دقائق اختصوا به
بين الأشجار في طريق عودتهم . فعمل آخرون مثلما فعل سابقهم .

ووقفت ، مع نجم آب ، نرقب القطيع وهو يرعى بعيداً عما في هدوء ،
وكأنما لا يعينه من أمرنا شيئاً تم تحميل الحيوان الثالث دون حادث ،
واحتقن الرجال بين الأشجار . حمل الرجال الحيوانات الرابع ، وعاونهم
الجندى الباقيان ، بينما وقفت مع نجم آب ، وأوى ، وحكو ، والدليل
يقوم بدفن الجندى المقتول .

كاد الحمر أن ينتهى حينما أحسست بأن شيئاً غريباً قد حدث ، وإن كنت
أدركه . أحس به الدليل كذلك إذ توقف عن الحفر ، ثم رفع رأسه فوق
خشائش . بأن الذعر في عينيه ، وتسكلم بسرعة مشيراً إلى ناحية القطيع ،
ثم تركنا وفر هارباً نحو الأشجار . قال لما حكو إنه يقول إن السباع
في المنطقة ، وانها سوف تهاجم القطيع ، وأن علينا أن نعدو إلى الأشجار .
أخيراً أدركت سبب إحساسي . كان الصمت مطبقاً تماماً على العانة . رأيت
لقطيع جميعه قد رفع رؤوسه عن الكأ ووقف متصبداً .

أمرت نجم آب ، وأوى ، وحكو ، أن يضعوا جثة الجدى في الحفرة
وأن يهربوا إلى حى الأشجار . وضعوا الجثة ثم استدار أوى ، وحكو وأحنا
يعدوان في حين تردد نجم آب ، ثم وقف يساعدنى في إتمام الدفن . لم يسكده
نداء بأن نهيل التراب حتى فتحت جهم أبوابها .

لجأة بدأ القطيع يعدو نحونا كأن كل شيء ما قد أزعجه . شيء في الناحية
الأخرى من الأحراش . في ثوان معدودات كانت الأرض تهتز تحت أقدامنا .
مشات من الخواصر ، تحمل مشات الاطنان من اللحم ، والعظام ، تضرب
الأرض بعنف . كانت المسافة بيننا وبينه تريد على أربعة دجات (٤٠٠
ذراع) والمسافة بيننا وبين الأشجار حيث الأمان أقل من النصف . صرحت
أحدر نجم آب أن علينا أن نهرب ، وضاع صوتى وسط صخب وقع الخواصر ،
وأشرت إليه .

بدأت الجرى متسكناً عن عمد ، وجرى أمامى عم بجسده الصخر كأن

يبدل مجهودا كبيرا كمن بادت قدماه بمحملهما . نظرت خلقى ، وانتابى فرع حقيقى . رأيت سدا أسود يدعوى بحوى بسرعة مذهلة وقد ثار التراب وراقه . تناقصت المساواة بيننا إلى النصف فى حين لم يكن ، نجم أب وأنا ، قد قطعنا ربع المساواة إلى الأشجار . فى خطوة كنت قد لحقت برفيقى وأشرت إليه أن ينظر خلفه عسى أن يحسب ذلك على بدل مجهود أكبر فى العدو . حينما نظر انتابه الفرع هو الآخر وصاعب من مرعته . لم يسكن يجرى بصمة خطوات حتى وقعت الواقعة . فكما نجرى حذاء بعضنا . عندما إنثوت ساقه ، ووقع على الأرض .

لم يكن هنا لك وقت أصيحه فى السؤال . انحنيت ، ورغما عن مقاومته ، رفعت جسمه الضخم ، وطرحتة على كفى ، وعدت إلى الجرى بأقصى ما أستطيع من سرعة . لم تمض ثوان إلا وأحسست بالثقل رهيب يكاد أن يعصم سلسلتى العقرية ترددت أماسى عسيرة لا أستطيع إلتقاطها ، وتناهت إلى أذن دقائق تملو حتى على أصوات الحوافر ، دقائق قلبي . أضفى كل جزء فى جسمى يؤلمنى ، وأذرتنى ركنائى أهمما سوف تتحيان عن الحدين معا ، ومع هذا لمست أدرى أية قوة تلك التى دومتنى إلى الإستمرار فى الجرى .

تزايد إرتفاع أصوات الحوافر مع مرور كل ثانية . ألقى كل برهه ، وبدأت الأتربة تملأ الجو لتزيد من صيق تنفسى . نظارت إلى الأشجار يمينتين رائعتين لا تكادان أن تبصرا ، وتراقصت الأشباح عن بعد ولم أجروا على الالتفاف خلقى ، لم يكن هنالك وقت أصيحه للمعرفة . إذا متنا فسوف نكون على الأقل ميتة مهاجرة ، وإن تسكن مربعة . هل كنت مارلت أجرى ؟ لا أستطيع الإجابة على هذا السؤال بصفة قاطعة ربما كنت أسير الهويناء ، والالام تصور لى ألى أعدو .

حبلى إلى أراونى قابع على الأرض يلصق سهامه تباغا على الحيوانات المددومة ، إلا أنه ، إن كان قد فعل ، فاهى سرى وخزات إمر بالنسبة لهذه الوحوش .

صحت أنني لم أعد أحتمل هذه الآلام المتزايدة سوى ثوان معدودات ، وأن
يجب أن أترك نفسي بعدها فريسة للحوافر القاتلة . توهمت رؤوس الحيوانات
- بمعنى من الخلف ، وأحسست بأهاسها الحار تلمب ظهري . وصاعقت
محمودي . وكان هذا آخر ما استطعت أن أفعل فقد استعذت حتى فاقض
خبرة المدخر . غشيتي سحابة سوداء ، وتهاويت بحمل على الأرض .
دم أعد أشعر بشي .

طالعتي وجه نجم آب الدميم ، وقد اردادت دمايته بتوئه بالعرق المختلط
التراب . وأغمضت عيني ثانية . لا بد أبي قد انتقلت إلى الغرب (كناية
عن الموت) . مالبك أن جاءني صوت أوى .

— حمداً لرب الأرباب !!

إذا فأنا لم أمت . أكذت لي الآلام التي شعرت بها في ساق ، وكفى ،
وصدري أنني مارلت حياً . فتحت عيني ثانية ، ورأيت وجوه المصريين
ثلاثة والدليل .

— ماذا حدث ؟

رد على حكوي :

— حينما وصل القطيع إليك كنت قد وصلت إلى حمى الأشجار ، لكن
نحى أمي أيضاً أن القطيع انحرف منطلقاً في اتجاه آخر لسبب لا قدره .
ربما كانت سهام أوى ، أو مجرد بزوه قائد القطيع يريد أن يطفى في عدوه
دون أن تبعقه الأشجار .

سألني نجم آب :

— هل تستطيع النهوض ؟

لم أجب . تحاملت على نفسي وقت . للمحطات دارت في الأرض وشعرت
بحرق شديد في ساق كأنما قد حلتها أكثر مما تطيقا لمدة أطول مما تتحملان ،
وهما الآن ترفضان حتى مجرد حملها العادي . لاحظت نجم صمعي فتقدم ليساعدني
منفضت ، وبدأنا رحلة العودة .

كان المساء قد حل حينها وصلنا القرية . أمرت ساحورج أن يتولى العناية بالذبائح ، وأتاني نجم آب يطلب الإذن في الذهاب إلى سفينة .

— لحظة . ما الذى يجعلك تسقط منهاوياً على الأرض ونحن نعدو ؟

— لقد التوى كاحلى

— كلا لم يكن كاحلك ... إنك أعرج أليس كذلك ؟

أطرق برأسه إلى الأرض . لقد علم أنني فهمت أنه هو الذى كان قد حاول قتل فى طريق الآلهة .

— إن ركبتى النجى فيها مياه ، مد أن أصبت فيها فى أحد المعارك .

— من الذى حرصك ؟ لقد أراد قتلى وقتلك فى الوقت نفسه .

ثبت نظره على . أيا كانت أخطاء نجم آب فليس منها التهمة ، وليس منها

الجبن . بصوت لا اختلال فيه سأل :

— هل أذهب إلى سفينتى ؟

لعله توقع أن أعصيه من منصبه ، أو أن أحاكمه على محاولة قتلى ، ومع هذا ... !

— أجل لك أن تذهب .

الفصل الثامن

متاعب الفتيات

أتى (الشمس) دائماً إلى المين ، والجو دائماً حار ، رطب مع أننا في شهور برت (الشتاء) ، منذ يومين لم تكد الأمطار تنقطع . أحاجى ، وأغاز غير معهومة . من حسن حظنا أنه يبدو أن البحارة ، والجنود قد اعتادوا على هذا الوضع ، وأنه لم يحدث شيء يمكن تأويله على أنه غضب من رب الأرباب .

تغيرت حياتي في هذين اليومين ، وإن كنت لم أشعر بأثر هذا التغير إلا فيما بعد . لم يسمح الجو أن أتريض كثيراً على ظهر السفينة ، ولم يكن أمامي ما أفعله حقيقة إلا المرور للتفتيش على البحارة ، والرجال ، وتلقى تقارير مراقب الصاري ، ومحاولة رؤية الشواطئ من حين إلى آخر ، ورسم بعض الخرائط لها ، وما صادفها من تيارات ، وكتابة ملاحظات عما رأيت .

انتهزت فرصة هذا الفراغ لأنعلم بعضاً من لغة الباسو ، ولألقن مرت بحر آداب الجلوس ، والسير ، واللغة الديموطيقية . كانت سريعة الالتقاط ، والحفظ لدرجة أذهلتني ، فكار يكفي أن أذكر الكلمة حتى نعيها . في نهاية اليومين كان التعمام بيننا أسرع ، وأسرع ، وإن كان من البدهي أننا كما لا زلنا نستمع للإشارات إلى جانب اللتين . بدت كالطفلة في سرعة إظهار أحاسيسها ، خاصة السرور عند التقريظ .

بدأ صباح اليوم الثالث ، ولاحظت أننا بدأنا نتجه غرباً مرة ثانية مع الشاطئ . لم أتعجل الاستنتاج هذه المرة ، فإن صبح ما سمعت من الأعراب فإنه كان لا يزال أمامنا تسعة أيام من الإبحار جنوباً قبل أن نصل إلى هذه

المدينة نبي هـ آخر ما وصلوا اليه ، و التي يطلقون عليها رهابانا ، وبذلك لا يعنى انها ما عرنا سوى مجرد أننا دخلنا في خليج .

نأكد في هذا المكان في منتصف النهار حينها تغير اتجاه السحب إلى الجنوب ثانية ، ثم ما لبث قبل الغروب أن اعتدل شرفاً مع الصباح كما داخل خليج ثالث ، واقتصر على متوسمين أن نلقى المراسي ، ليوم أو يومين حتى يستريح الرجال ، ونجرب تفتيشاً على حالة السحب الأربعة ، ولم أرمأ منع من ذلك خاصة وأني أردت أن أعلم مدى تغير طبيعة الأرض ، والنباتات والأشجار ، كما اعتزمت إعادة تموين السفن ببعض المواد الطازجة ، واللحوم السلاحب إن أمكن (كانت السلاحب تعمل للأكل) .

ألقى المراسي ومددنا السعالات . كانت البقعة من أجل المناطق التي رأيتها . بحر ساكن لا زوردي ، ورمال ناصعة السطح تمتد على طول الشاطئ . وإلى مسافة دحت ، ونصف تقريبا (١٥٠ ذراعاً) تماثرت عليه أشجار الخيزل تتمايل مع نسيم الهواء ، وراء هذا كانت الغابة ، محصرتها انقاعة ، وأشجارها نائمة . إلى الجنوب قليلا ارتفعت الأرض حاملة أشجارها وبساتينها صخره من جبل أشم يبدو متطاو لا على بعد في الداخل .

تأخرت أنني رأيت طيوراً أزهى ألواناً من طيور هذه المنطقة ، ولا أعدت تعريفاً ، أو أجمن ألقناً لم أشك ، حتى عل أرفقهم العابة ، أنها مليئة بالثمار الريبة الطازجة . استمتعت هذا من كثره عدد القردة ، والسباعيس التي فالتا بصياحها المعتاد ، وهصورها الفريرى كانت العابة بكراً ليس فيها ما يدل على أن إنساناً قد قطعها ، أو حتى مر بها . ومع ذلك فإني لم أكن أشعر بأطمئنان . داعبني إحساس غريب بأن هالك من يترصده خطوا أنا ، ويتربص بنا .

على بعد يسير داخل الغابة بدأنا نشعر بأن الأرض آخذة في الارتفاع ، ولم نحص مرة طويلة بعدئذ إلا وأيقنا أننا عند سمنح الجبل واعلنا القدم

خضع النباتات ونهية لانهسنا درياء تمصت حوالى نصف الساعة منذ أن بدأنا رحلتنا داخل الغابة ، وبدأت أمكري في العودة حينما تمأهى إلى سمعى صوت حنين مياه . اتجهنا نحو الصوت لندى منظرأ رائعاً الجداول ينساب من الجبل ليكون عند سمعه بركة صغيرة ذات شواطىء صخرية مرتفعة .

نبت المياه صافية ، وقرقرة ، حتى القاع العميق كاد أن يبين . وددت لو حلعت ثيابى لأخذ حماما إلا أن الوقت قد تأخر بنا فأصدرت أوامرى بالعودة . كانت الشمس تميل نحو الغروب حينما وصلنا إلى الشاطئ ، وألقيت أوامرى عن أعمال العد ثم انصرف كل منا إلى سميته .

استقبلنى مرت سجر ، وطرحت على عشرات الأسئلة عن المكان ، وإني واثق أنه لو لا عائق اللغة لتحولت العشرات إلى مئات حينما عرفت أن هناك بركة مياه صافية صعدت يديها ، وطلبت منى أن تذهب اليها حتى تستحم مقررة أنها سباحة ماهرة وأنها تود أن تتمش جسدها بالمياه العذبة ، ولم أر مندوحة من إجابتها إلى طلبها .

مع تبشير لصباح كان الشاطئ شعلة من نشاط . أقام الجود وبعض البحارة مستعمرة صغيرة من الخيام ، وانشرت جماعات منهم داخل الغابة تبحث عن الثمار الطازجة التى يمكن أن تجمعها ، فى حين قاد أوى فريقاً من رماة سهام ، وذهبوا بحثاً عن صيد . ما أن اعتلى دج ، شمس الظهيرة ، حتى كان بعض الرجال عائدين بأحمال من الثمار يصعونها عند الشاطئ ، ونولى فريق آخر شحنها على السفن .

عاد أوى وجماعته يحملون ثلاث غرالات ، وقرر أنه كان يستطيع أن يصيد أكثر إلا أن الرجال لم يكونوا يستطيعون حمل ما يصاد ، لهذا اكتفى مؤقتا على أن يعيد الكرة ومعه عدد أكبر من الخالين . أمرت بتوزيع اللحم الطازج على الرجال جميعا ، إلا أن أوى عنج قال إنه سوف يصطحب معه بعض جنوده ، ويذهب للصيد . لم أر مانعاً من ذلك ، ودله أوى على الاتجاه ، وما لبث أن غاب ورجاله بين الأشجار .

بعد القيلولة جاءتهى مرت سجر مطالبه بأن أبر بوعدى ، وأصطحبها إلى العدير ، والركبة كان الجوّ صحواً يميل إلى الحرارة ولم أبدأ أن أقوم معها . سرىا في العابة حتى وصلنا ، وما أن رأيت المياه الصافية حتى هتمت فرحاً ، ولم تغلظ بل اندفعت وهى تنصو عبائياها .

لأنعتيت بعيداً حتى لا أراها ، لكننى لم أجرو أن أتركها بمردها في هذه المنطقة المتوحشة . أمضيت وقتى أبحث بين النباتات عما قد يصلح للحساء ، أو الأكل . كانت تصلى أصوات الفتاة وهى تبحث في المياه ، وتترجم بأغنية لطيفة . مصت حوالى ساعة ، وبدأت الشمس تميل نحو المغرب ومع هذا لم يكن يبدو على مرت سجر أنها تريد أن تترك لبركة . بدأ الملل ينتابنى ، وكنت على وشك أن أبادى عليها حينما وصلتنى صرختها المربعة .

فى ثوان كنت قد تركت ما فى يدى واندفعت تجاهها . ما أن تحطيت بالأشجار حتى رأيتها تتصارع بوحشية مع ثلاثة من الأعراب . رأونى في اللحظة التى رأيتهم فيها . ظل أحدهم قابصاً على الفتاة ، وتقدم اثنان للقاتل . لم يكن عربان ، ولا حتى ثلاثة أكفاء لمقابلة أحد . صباط بحرية العرعون له الحياة ، والصحة والقوة . طهر ذلك جلياً فى اللحظة الأولى التى بدأ فيها الالتحام .

تحرك سيم بسرعة يلاقى هجوم العربيين . لست أحسبهما تصورا أن سيفا واحداً فقط يمكن أن يلاقيهما مثل هذه السهولة . كانا قرصانين مهتتما القتال ، ولم يكن ناساً بين هين ، ومع هذا سرعان ما طوح حسامى بسيف أحدهما ، واستدورت للآخر . جرى العربى ليلتقط السيف ، وممعت صوته بصرح مستجداً . إداً فهالك آخرون ، وعلى أن أنهم القتال هل أن يصلوا .

هاجت لشدّة وعنف . ولم تحص ثوان حتى كنت قد تخلصت من عربى استدورت لأواجه الرجل الآخر الذى كان يهرع نحوى مطوحاً بسيفه ، ولاحظت أيضاً أن الأعراب الذى كان يقبض على الفتاة قد تركها ، وادفع مستلابه .

لم يكن وجهه غريباً ومرعاً ما تيسرته ، كان نعم بن زرعه . صرخت في الفناء
أن تهرب ، ورأيها تتردد لخطوات ، فكررت النداء ثانية ، ولحقتها من طرف
عبي وهي تجري صوب العابة قبل أن يأخذ القتال الدائر ، كل اهتمامي .

تعدما يحوى بحدر ، متفرقين ، كل من ناحية وقفت مكان مرحياً ذراعى
وأدأرفهما مدخرا جهدي وحيويتي . استمر بقدميما الحدر حتى أصبحيا على
مسافة ثلاث يديوات تقريباً (النيبو ذراع وربع) ، ثم بإشارة ، هجم الإثنان
معاً . كنت أعلم أن نعم هو أخطر الاثنين لهذا ففرت جانباً بعيداً عن حسام
الآخر وواجهته . انصم إليه زميله بسرعة لكنهما كان قريبين من بعضهما
فلم أصطر إلى توزيع اهتمامي .

نوال ضربات نعم بشدة ساعدته عليها قوته البدنية الهائلة . تراجعت
أمام عصف الهجوم ، ولم أحاول أن أفعل شيئاً سوى مجرد الدفاع . كانت
ضربات سيف الأعراي الآخر لا تريد علي مجرد عبث أطفال إلى جانب ضربات
نعم ، لهذا لم أعره التفاتاً كبيراً ... أو هذا ما ظن . في الواقع أني طوال
الوقت الذي كنت أدفع عن نفسي فيه هجوم نعم ، كنت أرق فرصة تسنح لي
لأفضي على زميائه ووقع في نصح .

ظن أنني لا أوليه اهتماماً ، وأن كل تفكيري مركز على رئيسه فأعز
تعطية نفسه ، وهجم يريد القضاء علي . بسرعة حولت سيف نعم بعيداً عني ،
وقد أن يرجعه إلى موضعه كنت ففرت جانباً متعادياً طعنة الأعراي ودافعا
بنصل حسامي في صدره .

توقف مكانه فجأة ، وبكر إلى ببلالة من لا يصدق ، وتراحت يده بالسيف
ليسقط منه ، ثم كأنما نامت ساقاه بحمله ، تهاوى حيث هو . لم يعطني نعم
فرصة . وأيت سيفه يندفع نحو صدري في صربة قاتلة مصوبة نحو القلب .
عبي قد سرعته ، كنت أسرع . لم أحاول أن أتحرك بكل جسمي ، حركت

صدرى فقط ، و مرق النصل يلامسنى ، حتى أنه مرق من سترى ، لكنه لم يصبنى بأذى ،

وراءه الدفع بسهم وقد فقد توازنه ، لم أكن قد اعتدلت تماماً أبداً الآخر ، وبذلك لم أستطع أن أصممه ، وإن كنت ساعدته في اندفاعه بضربة قوية من قضيتى الحالية ، استعدت ثبات وقفى في اللحظة الثانية ، واعتدلت لأوجه إليه صربى القاتلة ، هماً سمعت صرخة الفتاة ، جمدت في مكانى لحظة ثم التفت ناحيتها ، وسقط قلبى بين صلعوى .

يبدو أن الفتاة لم تتألم أن تركبى ، و وقعت عن بعد ترهب القتال ، أيا كان سبب تلكوتها فإننى رأيتها تقاس أمرايين يقبضان عليها في حين اندفعت مجموعة أخرى ، لا أحسبها نقل عن شماتية ، تدور في اتجاهها ، أيمست أبنى ففقدت كل شئ ، ليس حينئذى لحسب ، بل وشرى إذ لم أستطع أن أحطط للرعوى أمته .

همدوه استندرت أناور بسهم حتى لا يكون خلوى حينما يحصل وملاؤد ، وثقت لى سوف أنقل إلى العرب (كساية عن الموت) في الدقائق القليلة القادمة . فلم يكن في استطاعة فرد ، مهما بلغت مهارته ، أن يتصر في مثل هذا القتال غير المتكافئ ، لكسى كنت واثقا أبى لى أذهب إلا ومعنى نصعهم على الأقل . ما أحزنى حقا هو أن الفتاة قد وقعت في قبضتهم .

كانما لم يشأ رب الارباب أن أموت مكللاً بالخزى والعار . كنت أهابى نعم ، وأرغب من طرف عيبى ما يحدث وراءه . كان الأعراب يتقدمون بسرعة ، وكانت الفتاة ما زالت تقاوم أسريها الذين كانوا يحاولون إرغامها على الاتجاه قاحية البحر إلى المحسوب . رأيت شيئاً آخر : من بين أشجار الغابة ظهر هرقلان أسودان ، ابدهما ناحية الفتاة وأسريها ، ولم أستطع بعد هذا أن أتابع ما حدث إذ كان الأعراب إقعد وصلوا وحدثت معركة معهم ...

كنت قد عقدت النية على أن أهابل لأقتل أكبر عدد وأموت بسرعة ،

إلا أن ظهور الرنجيين ، وكنت في قرارة نفسي واثقا أنهما سيمسوا وعنخو عبداً ، غير من خطي ، وأصحى على أن أقابل لأطول مدته بمكة لأشعل الأعداء عن مطاردة الفتاة ومنقذها . بصرة قوية أطاحت السيف من يد ينعم ، وانتهزت فرصة تمهقه إلى الخلف بعيداً عن حساسي ، واصطداه بمص زملائه لترك الساحة ، وأعدو بعيداً عن القراصنة ، وبعيداً عن الفتاة .

تصايحروا وهم يجررون حبلتي لم أتوقف ، ودارت عيناي تدرسان طبيعة الأرض الصحيرية ، كنت أبقي منطقة أستطيع أن أحمي فيها طهرى من هجوم عادر حتى أوف أطول مدة في موقف المدافع . التفتت عيناي تفاصيل المكان درسوا لنا في صفونا أن الأرض تسهم في الدفاع عنك ، إذا استطعت اسملها ، ولعلني لم أكن أحوج إلى تطبيق هذا المبدأ من الآن .

رأيتها . صحرة عالية على منمة الركبة الصخرية ، كانت أعلى من أن يتسلقها للشخص العادي ، حتى إن فعل ، فإنه لن يكون ذا فاعلية في القتال . كان فيها الحماية الكافية لطهرى ، على أن جاسها كان الشاطئ . الصخرى للركبة ، يملو عن سطحها بأكثر من قامة رجل ، ولن يتمكن أحد أن يهاجمي من جنبها . وبقيت نصف دائرة اعتقد أبى أستطيع أن أعطيها لفترة طويلة ، على الأقل حتى تشكل ذراعاي .

عندها توقفت وأواجه أعدائي . وصل اثنان يبدو أنهما كانا الأسرع عدوا . وإن لم يكونا الأغزر حكمة ، أو الأرجح عقلا ، ظناً غيصة سهلة ، ذلك الجبان الذي يمر أمام أعدائه ، أو ربما أراد أن يسبقا زملاءهما ، ويسالا شرف قلبي . لم يحسنا بغطية نفسيهما ، وهجما يطعنان كأنما أمامهما مثال لا يرد الإيذاء عن نفسه . حركتني سريعتين ، ربما لم يراها ، كالسيف أحدهما قد طار في الهواء ، واخترق النصل كثف الآخر ليخرجه تماماً من القتب . لم تمس لحظة بعد هذا إلا وكان القراصنة يحيطون بي ويتدافعون لقتلي .

كان من اليسير على أن أصعد في الثواني الأولى . كان في كثير منهم ،
وتدافعهم سبب كاف لإعاقتهم . تحرك سبب سرعة في كل اتجاه ، يصعد
المهجوم ، لكنني لأحسب أن أكثر من دقيقة مضت قبل أن عرفت أنني لن
يمكنني أن أستمع على هذا المتوال ما يريد على دقائق معدودة . بدأت فعلاً
أشعر بكلال في ذراعي ، ولاحت لي السيوف تلعب في ضوء الشمس الغاربة
كأنما هي أضواء عديدة ، وشمرت بالعرق البارد يتصبب من كل
أجزاء جسمي .

تمسكتني رغبة غريبة أن أنهى القتال بأن أترك مكنتي ، وأكره عليهم عسى
أن أقتل فوراً . بدأت أنهد خطتي عندما سمعت صيحة حرب هائلة تأتي من
وراء الأعراب تلتها صيحات خوف . وفي لحظات كان الأعراب يفرون
دون وعى أو نظام ، وظهر أمامي مارد أسود يحمل سيقاً يقطر دماً ... ممسو .

عادتني الأمل ، واتهزت فرصة اعتماد الأعراب لأسأله :

— أين مريت سجر ؟

— إنها في أمان . لقد رافقها عنخو إلى الخفيات حتى لا تصادف
خطراً آخر . اهرب ياسيدي القائد وسوف أعطى مراك . اهرب قبل أن
يتبينوا أنني مجرد فرد .

ابتسمت للعبد المخلص ، متى فر قائد من نامري ، وترك أحد جنوده
في الميدان ؟ هم ممسو ما أرى اليه بأينسماتي فلم يزد على أن قال :

— إذا فسوف تموت سوياً .

كنا نكلم ، ونحن نراقب القراصة . لم يتعدوا كثيراً حينما تبسوا أن
النجدة التي وافقني لم تزد على فرد واحد ، تجمعوا على بعد نصف نيلو (٥٠
ذراعاً) ووقفوا يدشأورون كانوا يعلمون أننا لن نستطيع ترك مكاننا الحصين ،
وأننا لو فعلنا فسنكون غنيمة سهلة لهم ، كان عددهم قد تناقص إلى ست ،

إذا قتل سمى أحدهم ، وأخرجت الآخر من القنال وبدأت أمكر أن تبادر بالمحجم .

— سمى هل تحس المباحة ؟ إننا نستطيع أن نقرر إلى البركة ونحاول الساحة إلى الشاطئ الآخر ونحتق حتى يحل الظلام ، أو تأييدا النجدة من جنودنا .

— أجل يا سيدي القائد .

— إذا هيا بنا .

كان يمتنا وبين المياه ما لا يريد على عشر خطوات ، إلا أن الأرض كانت تنمو دارراً يرتفع ، ولا يسمل ارتفاعه . مدت السير وانزلت قدسي وكنت أكاد أن أقع لولا أن يد العبد القوية سبنتني . سمعت صيحات الأعراب ، وفي اللحظة التالية سمع منهم على قدم خطوة مني .

هنا فعل سمى شيئاً لست أظن أنني سوف أنساه ما حييت . لجأه أحسست بدراعي من حديد تطوقن من الخلف ، وتلتصقان ذراعي إلى جسدي تشلان حركتي تماماً . ضمني العبد بقوة إلى صدره ثم رفعني من الأرض ، واندأ ببطء شديد يعني تنوء . فهمت مقصده . علم أننا لن نتمكن من اجتياز الخطوات العشر نحو البحيرة قبل أن تصيد السهام ، وأراد أن يجعل من جسده سترألي .

حاولت أن أخلص ، لكن العبد الأيمن كان قد شل حركتي ، كما أن قوته لا شك كانت أقوى قوتي كثيراً . رجعا عن مدوحي كس يحمي ، ويسير في كائني طفل . لجأه سمعت صوتاً مكسوماً ، واهتر جسده الضخم ، وعذبت أن سهما أصابه في ظهره . توقف لحظة ، ولقى سهماً آخر لم يتوقف بعده . لمست أذري كم سهماً أخرق ظهره في الثوب التي أحدث لمقطع المداوة الباقية . إلا أنه لم يبال . ببطء شديد ، تمكن بثقة أشد تحركت ساعده فوق الصخور . لا بد أن جسده وهو يصعد المرتفع بهذا هدوءاً رائعاً بهرأسته لأنني كنت أسمع في كل لحظة تقريبا الصوت المكتوم لارتطام سهمي بحمد رفيق .

لا بد أن هذه الحوادث جميعها لم تستغرق أكثر من دقيقة ، أو اثنين ، لكننى خلتها دهورا . وصلت إلى أدنى صبهات الأعراب ، ثم لاحظت أن السهام قد توقفت . لعلمهم ذهلوا وهم يرون الرمحى يحملنى كطفل ، ويتلقى السهام تمرق ظهره ، ومع هذا يستمر فى تقدمه غربا . وصلنا إلى حافة البركة ، ورأيت المياه تنحى تماما على بعد يربد قليلا عن قامة الرجل . هنا فقط تراخت دراهما سمسو . لم أقفز إلى المياه لما استدرت لأنظر اليه . كان وجهه جامدا لا أثر فيه لآلم . لم يبد عليه أى تعبير إلا أن الجهمين انسدلا قليلا على العينين . كان شبح الموت يطل منهما . اغرورقت عيائى بالدموع ولم أستطع سوى أن أهمس .

— سمسو ... ١٩ —

— اقمر يا سمسو ، وسأساعدك على السباحة .

ارتسمت انسامة ماهرة على الشفتين المليطتين ولم يرد على أن دهمنى إلى المياه دفعة قوية ربما كانت آخر ما تبقى لديه من حياء .

استقبلتنى المياه ماردة ترطب جسدى الحار . تركت دهسى أعوص إلى الانعقاد غير محاول الصعود إلى سطح البركة ، ودهشت حينما استمر هبوطى فترة طويلة . كان قاع البركة أعمق كثيرا مما قدرت . حسنت أن اختفى فلا أتمكن من الصعود ثانية إلى اهواء فسبحت بعيدا متجها إلى الشاطئ الآخر . أحسست بحاجتى الشديدة للتنفس ، ومع هذا وإبنى كنت أعلم أنه كلما ابتعدت كانت فرصتى فى النجاة من سهام القراصنة أكبر .

فارت الدقيقة تحت سطح الماء ، وكان على إما أن أصعد لانتفس ، أو أبقى وأحتق . صرخت رثماى تطلبان الهواء ، وتساوحت دقات قلبى ، وكاد رأسى أن يتفجر ، وما زال الماء يعلونى لم أعد أفكر فى خط القراصنة ، وسهامهم ، بل لعننى لم أكن أفكر حتى فى الحياة . انحصر تفكيرى فى الهواء

حتى يخفف عني تلك الآلام التي أعانيها في رأسي وصدرى . لم أجد أشعر
 - في أعصاب جسمى ، لا يبدى اللتين تضربان بعنف في المياه حولى ،
 ولا بعدى تحاولان جاهدين دفعى إلى أعلى . كانت تلك حركات آلية
 لا إحساس لى بها . صدرى ، وقلبى ، ورأسى أصبحت فقط هى كل
 أعصاب جسمى .

حيثما بدأت تعشانى سحابة سوداء ، وحيثما أخذت أضرب في المياه بمنور
 من صدق حقيقى . ارتفع رأسى عن سطح البحيرة ، وفتحت فى أستشق
 هواء البق لاهثا ، مصمت ثوان لم أفكر فيها إلا فى التنفس ، وى مرید من
 هواء . لم ترجع إلى ذاكرتى حوادث الدقائق السابقة على سقوطى فى البركة
 لا حيثما مرق شئ على بعد درجات قلائل (الدجت عرض الأصبع)

عندئذ فقط نسبت إلى السهام المتتالية التي تساقط حولى . عندئذ فقط
 عدت إلى الذاكرة كاملة ، وعندئذ فقط سمعت أصوات انعراصة يتصاحبون .
 تحدث نفساً عيماً دون أن أعير السهام اهتماماً حقيقياً ، ثم غطست في المياه .
 أحرق في هذه المرة أن أنزل إلى عمق كبير . أمتار قلائل ابتدأت بعدها
 تسبح مبتعداً ، ومرقت سهام حولى ، بل إن أحدها لمسى ، لكنه كان
 قد فقد قوته إثر اصطدامه بالماء ولا أحسبه حتى خدشنى .

بعداً سمعت ، وابتدأ يقل تساقط السهم حولى . في دقائق أخرى كنت
 قد وصلت إلى الشاطئ البعيد . أمسكت بالصخور ولشت أسترد أنفاسى
 لاهثة ، وأستعيد قواى . رأيت للعراصة على الناحية الأخرى ينشاورون .
 كان يمكنهم أن يصلوا إلى حيث اختبأت ، سواء عن طريق السباحة أو
 بالإنقاذ حول البركة . وبدأ جماعة منهم فعلاً في التحرك حول الجدول
 لتساب بين الصخور . تردد آخرون وهم يظرون إلى المياه ، ثم يبدو أن
 رأيهم استقر على الإنتظار حيث هم ، خشية أن أرتد .

كانت الشمس قد بدأت تغرب لكنى كان بيننا وبين الظلام وقت طويل .

ألقيت بظري على الشاطئ، وسرعان ما تبين أن أعلى مكان في الصخور هو الجهة الشرقية، نحو البحر، أخذت أتقل ببطء دون أن أحاول الساحة حتى وصلت إليهما، وأخيت نفسي قدر ما يسمح به المكان. كان القراصنة على الشاطئ الآخر ما يزالون، وأقويين تبدو أشباحهم من بعيد، ويلوح أنهم فقدوا أثرى إذا كانوا يلوحون لزملاتهم بإشارات غير مفهومة.

قبعت حيث أنا لا أتحرك، وانتقل تفكيري إلى عنقو، والعداة. لا بد أنه انقصت أكثر من نصف ساعة منذ أن رأيتهما محتجيان بين أشجار العابة، ولا شيء أبداً. دأب بأقصى سرعتهما، ومعهما النجدة. إن ماضى من زمن يمكن لقطع المسافة إلى الخيمات، وما لا ريب فيه أنهما كانا يعدران خطورة الموقف، وأهما بالتالي كانا يسرعان في سيرهما، أو ربما يعودان. معنى هذا أنه لم تمض دقائق إلا وتكون السجدة قد وصلتني. هل لم يقدر الأعراب هذا؟ أم هل قدروه ونصوا أكياساً إلى الإحتمال الأخير أرجح، ترى هل يتنبه عنقو، ومن معه إلى هذا؟؟

دفعني هذا التفكير إلى الحركة. نظرت إلى الإنحوسين حيث كان القراصنة في الشمال حيث دارت المعركة أولاً. كان ثقب ثلاثة رجال لم يد على أنهم يبحثون على جيفة، كانوا انهم كـ يتقطرون شيئاً. أما الثلاثة الآخرون، ومعهم يعم، فسكانهم يشربون الشاي. الجوى للبركة تفتشاً دفناً كانت أحسن خطه، وأسرعاً أن أغوص قديلاً حيث أنا، وأصبح تحت الماء، ثم أفاجئ الرجال الثلاثة، ورأى إذا أحسست التوقيت، أستطيع أن أعذب عليهم.

أحدثت بعض عيقاً ورفرفة، ثم آخر، وعصت في المياه. ما أن هبطت مترين حتى حدث شيء لم يكن في حسابي. وجدتي أجذب إلى أسفل رغماً عني، حاولت المقاومة دون فائدة. كان هنالك تيار مائي يحسبى بقوة إلى قاع البحيرة كنت قد أحسست بشيء من هذا وأنا واقف أمسك الصخر،

إلا أنه كان من الضالة بحيث لم أعرفه انتباهاً . جاهدت في المياه ، واستمر التيار يرداء فوق كلما جدي إلى أسفل ، وباءت محاولاتي بالفشل .

لحظة أطلت الدنيا ، وكأن الشمس قد غربت منذ ساعات ، ليس هذا لحسب بل انني شعرت أنني أندفع مع التيار ، ليس إلى أسفل ، وإنما نحو الشرق ، نحو الصحرة ، كان المفروض أن أحططم بالصحرة لحظة أن تغير اتجاه التيار ، لكن هذا لم يحدث ، استمر إندفاع الماء دون أي عائق . ثمرهات وقعت عني ، ورحمت أضرب في المياه بلا هدف محاولا التخلص من ذلك الوحش الذي يدفعني إلى حيث لا أدري ، إلى حتمي حتما .

سرعان ما عاد إلى رشدي . إن فرصتي الضئيلة في النجاة ، إن كانت ثمرة صعبة ، إلا أنها لا تتبدل ، وقوتي إلى أطول مدة ممكنة . إذا لم يكن هناك أمل في مقاومة التيار ، فلا تسرح معه . إن سمعت بكل ما أوتيت من قوة . أحسست بظلم المياه بتعب ، ويزداد ملوحة في كل ثانية تمر . أخيراً ومضت في عملي الحقيقية ، إن البركة تصرف ماءها في البحر عن طريق نفق تحت الجبل ولو استطعت أن أبقى على قيد الحياة مدة كافية فهناك فرصة للنجاة . لكن ما طول النفق ؟

دعني هذه الفكرة إلى أن أزيد من سرعة سباحتي تحت المياه ، لكن صدري كان يصرخ طالبا الهواء . بدأت ببصبات قلبي تدق في جوارب رأسي وغشائي الصدر ، واحتجت إلى كل قوة إرادتي لكي أكبحه . مرت الثواني طيشه مرعة تترابذ فيها آلام صدري ، ورأسي . أخيراً لم أستطع أن أوقف اندفع الدافع . أستطيع الآن ، وأنا أكتب ، أن أستعيد الذاكرة لما حصل ، وإن كان وصفه يخرج تماماً عن مقدرتي .

أحس كوني كله ماء . استبدل الهواء في الكون بالماء . إنك لا تشعر في عالمك بالهواء ، لا تشعر بكثرته ، ولا بقلته ، ولا بأنه يحيط بك من كل جانب . ليس هكذا الماء . إنك تشعر به ، خاصة بكثرته ، وبأنك لا تستطيع التخلص منه ، هو حولك يحيط بك ، مهما فعلت ، وأيا اتجهت . هو عالمك

الذى تعيش فيه لنوان قبل أن تموت — هو لين سهل ، وينشق أمام ضرباتك ، ولا يرد لك إيداء ، لكنه أقوى من أى قيد حديدى يطوق العنق ، ويزهق الأنفاس .

بقوة ، وعنف رحلت أصرب فى المياه دون جدوى . إنقلب المنف جنوباً لا هدف له سوى محاولات يائسة للتخلص من الماء . واستمر الماء يملأ كوني . من الغريب أن تفكبرى ، إن تقل إلى النقطة مرت سحر ، وإلى جودى ، ومحارقي ، وإلى السفن . تذكرت زوجتى المتوفاة ، وإيوف عنخ ، وأشياء أخرى كثيرة ، لم تطرأ فى ذهنى فكرة الموت ، وإن عبت فيما بعد أننى كنت أموت فعلاً :

ثم جاءت الراحة . ذهبت آلام صدرى ، وتوقفت بضات قبي تعرب فى رأسى ، لم أعد أشعر بوجود مادي لرأسى ، أو لصدرى ، أو أى جزء من جسمى انقطع تفكبرى فى عالمى الدخى ، وحلقت فى آفاق جديده أصبحت موسيقى صامتة ، تغزف فى عالم غير مرقى من الألوان ، فى هرتج فى كلامى تناقضاً ؟ أبدأ لقد أصبحت أنا النغم ، وأنا اللون ، وأنا الصوت . والأشعة ، هل يمكنك أن تتصور هذا ؟ هل يمكنك أن تتصور أنك بمعدك عالم قائم بذاته ؟ هل تتصور أنك كون هو مريح من الممم ، والضوء ، واللون ؟

كنائم صبت عليه ماء باردا انقضت . فتحت عداى لاجدى ما زالت أضرب فى المياه بعنف ، لكن رأسى كان فوق سطح البحر . مضت لحظات وأنا مارت أضرب بلا وعى ، ثم فعل اهواء أثره فابتدأ عفى يعود إلى . أخذت نهما طويلا أملا به رتساي بالهواء ، ثم مكثت مدة أهت . عاد إلى شعور بالعالم الذى تعيش فيه ، ودهشت إذ رأيت أن الشمس لم تغرب بعد .

الواقع أن ليس فى هذا ما يدهش إذ أن جميع ما مر بي فى المياه لا يمكن أن يكون أكثر من دقيقتين ، لكننى حظتها دهرأ ، عادت إلى آلام رأسى

وصدري، وشعرت بهي الكلال الذي أصاب جسمي، كان ماء البحر هادئاً
صافياً، ولم أكن أبعد سوى بضعة أمتار عن الشاطئ الصخري. أجبرت
نفسى على السباحة إلى الشمال بحذاء الصخور إلى حيث رأيتها تتحدر ويصبح
الشاطئ رملياً.

بعد عشرة دقائق كنت ملق على الرمال، وجسدي كله يرتعش اضطراباً.
لم أحاول النهوض فلم تكن لدى القدرة عليه. دقائق أخرى أمضيها
مستلقياً حيث أنا أستجمع فيها قواي. بفترة عادت إلى الذاكرة كاملة
تذكرت الكثير المعد لعنحو، ومن جاء معه لإنقاذي. ترى هل وقعوا
في الشرك الذي أعدده لهم القراصنة، أم أنهم لم يصلوا إليه بعد؟ هل هنالك
وقت لإنقاذهم؟ والفتاه؟ هل عادت مع عنحو، ووقعت في الأسر ثانية
أم أنها بقيت في المخيمات؟

الفصل التاسع

مدينة الذهب

كادت رجلاى أن تغذلاى حينما وقعت . كان الطلام قد ألقى سدوله
تقريبا ولم يظهر القمر فلم أكن أرى إلا مجرد أشباح لأشجار الغابة القريبة .
لم أزال بالضعف الذى اعتراى وطفقت أعدو . على بعد رأيت نيران المحميات
على الشاطئ . ، وأشباح السم الأربع الراضة . ترددت فى تفكيرى لحظات
بين أن أذهب إلى المحميات لأحد معى بحدة أو إلى عنخو ، ومن معه رأسا .

استقر رأى على أن أعود إلى البركة عسى أن أوفر بعض الوقت ، لكن
يسو أن المجهود الذى بذله فى الحوادث الأخيرة كان تأثيره أكثر مما قدرت
إد أنى بدأت ألحث تعباً ولم أكد أصل إلى الأشجار . حارت ركبتاى ،
وسقطت إلى جدع بأول شجرة صادفتها أستعيب قواى كان فى هذه السقطة
إنقاذ لحياتى ، وربما جميع من معى فى الرحلة .

على بعد خطوات من سمعت أصواتا بشرية تتحدث همسا وظننت فى مبدأ
الامر أنهم أصحاب المساكن بعيد عن البركة . هممت أن أنادى عليهم حين
قربت الأصوات ، وتبينت جبا أنها للقراصنة . إنكمشت فى موضعى .
وأرهمت السمع . لم تكن هذه مجرد أصوات لشخصين يتحدثان ،
ولمما أصوات جماعات كثيرة تهمس وهم يتحركون .

تهبت لشى عريب ، لم يكن أصحاب الأصوات يتجهون إلى البركة .
ولمما إلى المحميات . إذأ فالمسألة جميعا خدعة ووضعت لى الحطة كاملة . لقد
انتهزوا فرصة استخدام الغمسة وقضوا عليها لاستدراجى ، ولعلمهم كانوا

يعرفون أنى قريب من البحيرة ، بل لعلمهم كانوا يعرفون أيضا إن ممسوح وعصو موجودان . كان كل شيء لا استدراك أكبر عدد من الجند ، وصرف الأناظر عن هجومهم .

كانت جميع الظروف في صالحهم . لاشك أن عدد السجدة التي ذهبت إلى الحركة كبير ، وبالتالي فإن الرجال في الخيما كان عددهم بسيطا بسيطا . من كانوا على السمع كذلك أعدادهم متفرقة ، ولا فاعلية لهم إذا ما هاجمهم جموع القراصنة إذا أصفنا إلى كل هذا عنصر المفاجأة لعلنا أن فرصة انقراضة في العود كانت أكبر ما يمكن شيء واحد لا يعلونه . أبى كنت حيا .

* * *

هذا كل شيء . هادئا في الخيما تألمت المراسم المتفرقة عن امتداد المساحة التي تحتها الخيام ، وعم السكون إلا من الأصوات الطبيعية . لاح أن الجمع ليام ، ووصل الإهمال إلى درجة أن حرس الدواب كانوا يمددين على الأرض ، يناما . زحمت القراصنة بهدوء وبطء . لم تصدر منهم أى صوت يوعظ سائمين ، كانوا أربعائة رجل أبيض اللون ، في حين أن تقديرهم أن من في الخيما لا يزيدون على مائة . كانت حيلهم محكمة ، ومهاجمهم كاملة . سوف يهاجمون من في الخيما ، ويقولونهم بأن ما يمكن من الأصوات أنهم يهجمون السمن ، كل سفينة على حدة .

أمرت أحدهم من الحراس السائمين ، وأخرج حجره ، ودفعه برمته في قلب الذئم . كذلك فعل آخرون بسائر الحراس . وكانت أول مفاجأة لهم ، لم يكن الحراس السمن سوى دميات لا حياة فيها . احتار الرجال فيما يفعلون . كانت لديهم أوامر صادمة ألا يتنصروا ، فقط ، وألا يحدثوا صوتا ، أوامر جزاء عصيانها القتل . أوامر لم يجرؤ واحد منهم على مخالفتها ، وإن كانت لدى بعضهم الخصاصة أن تأخروا في تصفهم تركين رملهم لما علوا أن فيه ختمهم لا مراء .

تقدم سائر الرجال ، رأوا ، أو ظنوا أنهم رأوا ، زملاءهم يقتلون الحراس ويتم أول جرح من الخطوة طبقا لما هو مرسوم . بهدوء ، وببطء تقدموا محاذرين أن يحدثوا صوتا . وصل كل فريق منهم إلى الخيمة المحيطة له ، وأخرجوا خناجرهم استعدادا لقتل النائمين . دنوا إلى داخل الخيام في سكون ، وكانت المفاجأة . لم يجدوا جنديا واحدا فيها . للمحطات مكتوا يظرون بيلامة ، ثم نياموا أنهم وقعوا في الشرك الذي بصوه .

تساقط عليهم السهام وكأما الدنيا تمطرها ، واستولى عليهم الدعر . كانت الدقائق التالية أقرب إلى مذبحية منها إلى قتال . جرى الأعراب يرتطمون ببعضهم ، كل يسعى الفرار من الموت المتساقط . تصاحبوا مرعوبين ، واختلط صياحهم بأدب السهام تمرق في الهواء لتستقر في الأجساد . تعالت أنات الجرحى ، وصرحات الموت من كل جانب ، لم يحظر في بال أحدهم أن يطفى النيران التي تجعلهم هدفا سهلا . أعمى الدعر ، وراحوا يتحبطون في عسى .

تركوا أسلحتهم ، وما كانوا يحملون ، واندفعوا متفرقين بلا وعى في كل اتجاه ينفون الوصول إلى حماية الأشجار ، والظلام . لا بد أنهم فقدوا بين جريح وقتيل أكثر من ثلث عددهم فقد غطت مساحة جثث القلى ، وأجساد الجرحى الذين تمسهم جراحهم من الحركة . من القراصنة من يحاكيه ، ومنهم من كان سىء الحظ فقابل جنود النجدة الذين ذهبوا للبحث عى بقبسادة ساحو رع ، والذين كتب قد اعتنيت أن أرسل لهم بعض الجند يستدعونهم يذبوهم بنجاني حاول رجالى مطاردتهم إلا أبى سمعتهم من ذلك .

لا بد أن عددا آخر قتل في الغابة ، لأننا سمعنا أصوات لضاع المتجمعة وقد جذبتها رائحة الدماء . لست أدري في الواقع ما حدث في الغابة للعارين ، وما كان يعنى بشيء أن أعرف . من بين الأشجار خرج ساحو رع وغنخو وجماعتها ، ومعهم مروت سجر التي اندفعت تعمد ونحوى غير حائية بالبحث الملقاة على الأرض ، وما لبثت أن ألقت بنمسا على تحتضى ؛ ونصرتى بأقبالات وهى تبكى بمصيبة .

وقفت مذهولا ابرهات ثم ابعثتها على برفق ، لكن يحزم . إلى جانبي ،
وقب نجم آب ينتم ، في حين تقدم ساحو رع ماداً يده يشد بها على يدي في
حرارة دون أن يدو عليه أنه رأى شيئاً مما حدث . كنت قد عبت أن أيوف
منع لم يعد من رحلة الصيد التي بدأها مع جماعة من رجاله منذ الظهيرة ،
وتعجبت أناحره ، أما الآن فإن تمكيري لم يقف عند مجرد التعجب للتأخير ،
إنما اتجه إلى السؤال عما إذا كان هناك اتفاق بينه ، وبين ينتم زعيم
القراضنة .

أصدرت أوامري بمودة لجسود إلى السجن ، وبأن يضاعفوا الحراسة
عليها ، ومكنت عن الشاطئ في بعض الخيميات مع قوة كامية ، أنتظر قدوم
أيوف عسخ ورجاله . كان هناك احتياز مشيل أن يكون قد نصب له الأعراب
كميناً ، وأنه في حاجة إلى معونة عاجلة ، وما كان لي أن أترك أحسب قواذي
بفردة في ميدان قتال . أرادت مرت سجر أن تنق معي إلا أنني أرسلتها إلى
السفينة غير طائفة بتوسلاتها .

أمرت مريف من الجسود أن يهوى يده في ، وأن يملأوا الجرحى
إلى بعض الخيميات ، وأرسلت استدعى حكا نخت ، سكام الطيب ورملاء
الثلاثة من السجن ليعتوا بهم ، ويصنعوا ما يستطعمون من أجلهم . اتجهت
بقي إلى تضبيب جراحهم ، ثم تركهم لزملائهم بعد ذلك واهبت تصيد أوامري
بعض الوقت حتى شمعت بتمب شدي ، فتركت متابعة السعيد إلى ساحو رع
واتجهت إلى الخيمة المعلقة .

ماكدت أن أمد جسدي حتى داهمني النوم . نوم عميق لم تتخله أحلام ،
ولم أستيقظ منه إلا على أصوات الجنود وهم يعدون طعام الإفطار ، سرطان
ماكنت في الخرجه وكان عنحو أول من رأيت . كان جالسا القرفصاء على
بعد يسير من الخيمة ، وحينما رأيته واقفا ، اتجهت إليه ووصت يدي
على كتفيه .

- عنخو إبنى آسف لما حدث لسمو ، لكن لعل فى كيمية موته عزاء لك .

سردت عليه الوقائع وكيف أن سمو مات وهو يحمى من اسهام
ربما لاحظ سمو أن صوتى كان متهدجا ، وأبنى أجاهد حتى لا تنساب
الدموع من عيني ، إلا أن قسما وجهه لم تتغير . ظل يستمع حتى انتهيت .
أخيرا تكلم :

- إنه مات وهو يهيك الحياة ، إن روحه قد حلت فىك .

مد تلك اللحظة لم يعارقنى الرضى العملاق .

تناولت إفطارى بسرعة ثم استعيت أوفى وصلت منه أن يرشدنى إلى
حيث أرسل إيوف عسج ورجاله . اعترمت أن أقود بنفسى جماعة للبحث
عنه ، لكن لم يكن هناك داع لهذا . ماكدنا استعداد للحركة حتى ظهر إيوف
ورجاله ، من بين الأشجار . سألته لماذا تأخر كل هذا الوقت .

- كما نبحث عن الصيد ، وتأخر بنا الوقت ، وحشيت أن أصل طريقى

ليلا ففقرت المبيت بالعابة حتى الصباح .

- إبنى لا أرى معك صيدا ؟

- لم نعث على شئ ، ولعل المرلا نضرت حينما رأينا .

- ألم تصادف أحدا فى العابة ؟

- كلا . هل رأيتم أحدا ؟

لم أحبه على سؤاله وتركت لإخباره بالحوادث التى جرت أنسأ غيبته
لساحورع . أمرت أن ينتقل الجميع إلى السفن استعدادا للرحيل ، وأن تترك
الخيام التى تأوى الجرحى القراصة كما هى ، وإلى جانبها كربة من الأحشاب
تسكى لتغذية النيران حتى يصل أصحابهم . خلال ساعة كنا قد فارقنا الشاطئ
ورقمنا السفالات ، والمراسى ، وتحركت السفن تمشى عاب البحر ، نحو
الجنوب .

اعتزمت ألا تاتي المراسى إلا عند المدينة التي سمعت عنها ، راهابانا ، هذا إذا كان ها وجود . كان معنى هذا أننا سوف نمر بخليج آخر به مدينة إسبينا بعد إبحار يومين ، ولينين ، ثم خليج آخر بعد ثلاثة أيام بلياليها يبدأ بمدينة أخرى تدعى بوبيكي ، ثم نهر رهابنوي ، وخليج كبير آخر به سوء جبلي بعد إبحار يوم وليلة ، أخيراً المدينة الشهيرة عاصمة بارباريا ، أعى راهابانا مدينة الذهب .

رحلة ستة أيام أو سبعة في بحر لا يعلم عواصفه ، وتياراته ، حذاء شواطئه لا تدوى من أمرها شيئاً . سيرت السفن متتالية في خط شبه مستقيم . جعلت سفينة القيادة في المقدمة تليها سفينة بحم ساحورع ، وتأتي سفينة ليو في عرج في المؤخرة . باعدت بين السفن مسافات بعد خطر اصطدامها ببعضها إذا ما عاجأتنا عاصفة غير متوقعة ، كما تعطى فرصة للسفن الأخرى إذا ما اصطدمت سفيتي بحواجز مرجانية غير مرئية ، أو ما يشابهها .

استمر الجو حاراً ، وإن حمت حدة الحرارة شيئاً ، وهطلت الأمطار أحياناً ساعات غير أن التيار استمر يحمل السفن إلى الجنوب ، ولم يصار رجال التحديق . لم يكن البحر هادئاً ، لكنه أيضاً لم يبلغ حد الاضطراب الشديد إذ لم ترد الأمواج في أي وقت على بيبين (حوالى مترين) . والواقع أننا كنا حتى هذه اللحظة سماء الخط بالنسبة لتعاقب البحر .

إلى الجنوب ، دائماً إلى الجنوب . إن لم تحركت السفن بعض الوقت في خليج ، فاعنا لتعود سيرها الأولى بعد وقت قصير . مضت على أوقات كنت أدخل فيها إلى نفسي وأعجب مني ، وكيف ، تنهى هذه الرحلة . هل هنالك أمل أن تعود إلى أوطاننا ، ألا يكنى ما أحررنا من مجاح حتى الآن ؟ إنما دعينا جنوباً إلى حيث لم يذهب أحد من بني جلدتنا في حدود عسى ، لا بل وحيث لم يذهب أحد من عالمنا المعروف . ماذا بعد هذا ؟

في مثل هذه الاوقات التي تهبط فيها معنوياتي إلى أدنى حد كنت دائماً أجد مرت سجر إلى جوارى ، وكأها تشعير بها أعاليه . كنت قد تناهت عنها منذ تلك الليلة التي قبلتني فيها على شاطئ الموت ، بل إنني عاملتها بجفاء ، ومع هذا فإنها ظلت تلازمي دون أن تتكلم . لم يجر أن أعترف أنني كنت أشعر براحة نفسية كبيرة وهي إلى جوارى ، وعراغ غريب حينما تغيب عني ، وربما كان هذا هو السبب الرئيسي في معاملتي لها بجفاء .

أعطى الرحلة البحرية وقتاً طويلاً لا أذكر في موقف إيوف عنيح . ربما كان كل ما قاله عن عدم عثوره على صيد في الغابة ، وحشيته أن يصل طريق العودة مساء ، وعدم رؤيته لأي من الأعراب ، صحيحاً . وربما لم يكن كذلك . إذا لم تكن ادعاءاته صحيحة فأغلب الظن أنه عقد إتفاقاً مع بعض رعيم القراصنة ، وأن طلبه الذهاب إلى الصيد مع جماعته لم يكن إلا ليقابل القرصان ، ويتفق معه على خطة .

بما لا شك فيه أنه يود ألا تتم الرحلة ، وأن يعود أدراجه إلى الوطن وهو يعلم أنه لن يستطيع هذا حتى يعطى علي ، وربما أيضاً على ساحورع . هل يمكن أن يكون هذا التصور صحيحاً ؟ إذا كان كذلك فإن معناه أنه لن يكف عن محاولاته ، وأنه سوف ينتهر أول فرصة تتاح له لتتصيد مأربه . لكنني سمعت أن الأعراب لم يتعدوا في إبحارهم عن زهداتنا ، وأنهم يخشون إبحار جنوباً بعد ذلك لاعتقادهم أن من يفعل منهم لن يعود . معني هذا أن آخر فرصة له ، وهم ، هي المديسة ، وأنهم سوف يدلون أقصى جهودهم فيها ، أو قبلها .

لم أنصور أن يجازف القرصان بسفنه في نزال مع سفني ، فانه رأى ما يمكن أن يحدث اسمه الخفيفة ، هذا بالإضافة إلى أنه وقد عدداً كبيراً من رجاله في معركة الشاطئ . لم أنصور كذلك أن إيوف عثج يهرق على إظهار تمرده علناً ، خشية أن تمثل خططه ، ويتمرر من الإعدام جراء لحياته . إن كل

ما يستطيع إيفاء أن يفعله هو أن يخبر ينعم بخططنا ، ثم لا يعطى مساعدة فعالة وقت القتال . تماماً مثل ما حدث . إذا كان كل تفكيرى هذا صحيحاً والاستنتاج الوحيد الباقى هو أن ينعم سوف يستعمل الآلهى فى رهابانا للمضاء علينا ، وليست لديه فرصة أخرى .

رهابانا إذا هى موعداً النالى ، لهم يعلمون أن لا مدوحة لى من الرسو فيها ، ليس لتوويل النص ، وإصلاحها فحسب ، بل لضرورة أن أستنى من الآلهى أية معلومات ، ولو صولت عن الشواطىء حنوبها . لقد اختار ينعم مكان المعركة فهو يعلم عن البحار إليها ، وحولها ، وهو يعلم عن طبيعة الأرض ، وهو يعرف الآلهى ، فى حين لم تكن لدى أية معلومات عن كل هذا . لكنه كان عليه أن ينتقل إلى البلد ، وأن يبقى فى ذلك مدة كافية لإعداد كينه وإحكام تنعيده ، وهما نقطة الضعف .

إن وسيلة انتقاله السريعة الوحيدة هى سفنه . صحيح أنها أسرع وأخف من سفى ، وصحيح أنه يعلم عن البحار ما لا أعلمه ، ويستطيع بذلك أن يعتمد على الشواطىء حتى لا أراه ، لكن الصحيح أيضاً أن عليه أن يخفى سفنه عى ، ومعنى هذا أن عليه أن يرسو بها فى أقرب مكان بعد رهابانا ، وليس قبلها . كنت راثقاً من صحة استنتاجاتى ، وعلى أساسها وصفت خطتى .

توالت الأيام ، والأيام دون حادث يذكر مررباً بإيسيدا ودخلنا الخليج ولم نتوقف عند أيهما . لاحظت أن الشواطىء عالية عند المدينة ، وليس فيها دורך واحد ، كما لم أر أية حركة عى الشاطىء ، وكان المدينة قد هجرها أهلها . بالمثل عندما مرت بنا تويكى لم أر أحداً أو قارباً ، ولو كان لدى شك قبل هذا فى صحة استنتاجاتى لتسد الآن . إن ينعم أراد أن يتأكد من أن أحداً لن يساعدنا فى تموين السفن إن أردنا ، فعمل على إخلاء المدينتين قبل أن نصلهما . هو يريد إذاً أن يقطع بأننا سوف اضطر إلى الرسو عند رهابانا .

شاهدنا نهر رهابتون ، وأمرت بالاستمرار فى الإبحار . مررباً بالتسوء

الذى ذكروه لنا ولم أتوقف أخيراً في فجر اليوم السابع بدت مدينة الذهب ،
 وأهائنا . كانت تعليمات السابقة أننا سوف تلقى فيها مراسلتنا ، ولم أغبرها
 حتى آخر لحظة حينما كان يجب أن تتجه السفن إليها ، عندئذ فقط أرسلت
 الإشارات في الإبحار جنوباً . هدت سميتى دون توقف ، وتبعنى الأخريات .

• • •

لابد أن ينعم كان يراقبنا ، وأنه صمق حينما رأى أننا لن نتوقف . لابد
 أيضاً أنه يعلم أى سوف اكتشف الخليج الذى أخفى فيه سفنه . ولعل صوابه
 قد طاش إذ عرف أنه لن يستطيع أن يعمل شيئاً لينقدها . كانت حركة سعى
 في المياه أسرع من حركته مع رجائه على الشاطئ .

تقدمت بسفى ، وأمرت متوسلين أن يعين رجالاً حادى الطر يبحشون
 عن محباً سم القراصنة ، ولم تمض نصف ساعة حتى أشار أحدهم إلى خليج
 صغير يحويه ثوء ساحلى ، وتحيط به الأشجار . ربما كان في هذه الملاحظة يدعو
 أربابه أن يفقد جميع من في السفن أبصارهم ، أو أن يصلوا بشكل ما عن رؤية
 سمه ، أو أن يقع معجزة تعرقل تقدمنا ، إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث .

كان مكاننا رائعا تحتى فيه الشمس ، ولولا أننا كنا نبحث عن الممرزنا بسهولة
 دون أن ندعئها . لكنه أيضاً كان مصيده لا يعطى مجالاً لآلة مناورة ،
 إن كان هنالك عدد من البحارة لقادري على تسيير السفن . وقت بسفى
 عند مدخل الخليج الصغير بسده تماماً . وبدأنا نطر السفن الرأسية وإبلا
 من السهام المشتملة . راقبت اليران ندهم الاحشاش بسرعة ، ورأيت بعض
 القراصنة الذين يبدو أنهم ركوا المحرارة يقفرون في الماء ويسبحون نحو
 الشاطئ .

أمرت القراصنة أن يضطادوا الرجال في الماء ، فقد عرمت على أن أقصى
 هائياً على أية محاولة أخرى لتدبير مكيدة أو كمين — أضفى الخليج متوجهاً ،

ونعالت ألسنة النيران ترسل دحانا كثيفا إلى السماء . إن كان ينعم عنده أى شك أو يقى عنده أى أمل ، فلا بد أن كليم ما تبسدد الآن . أضفى أمامه خيار بين ثلاثة أشياء لا رابع لها . إما أن يبقى فى هذه الأرض إلى أن يقضى رجاله فاست أحسب أن سفا كثيرة يصل إليها ، أو أن يصنع سمنا من الأشجار إن كان لديه الصناعات المهره ، أو أن يستولى على سفى . من القروص الثلاثة كان الأخير هو أيسرها ، وكان على أن أقدم له الفرصة .

كانت هنالك بقعة صمغ ، وحيدة ، هى عسم ثقى فى أن لإيوف عنج ورجاله ، وهم يمثلون ثلث قوى . نتيجة لذلك فإن أية خطة أصمها يجب أن ،أحد فى حسا فى حياة لإيوف . ليس بأن يقف على الحيدة موقفا سليما فى القتال لحسب ، وإنما هنالك احتمال كبير أن ينضم دقواته إلى القراصنة . إنه لا شك يعلم أن هذه آخر فرصة له فى العودة إلى الوطن ، وإلغاء الرحلة ، إن فشل فيها ، فليس يكون لديه أدنى أمل بعد ذلك .

قبل غروب الشمس كنت أجلس مع الربابة الاربعة فى مجلس حرب . شرحت الموقف دون أن أنير إلى ما يساورنى من شك فى لإيوف .

— هكذا ترون أيها السادة أن الموقف يتلخص فى أن القراصنة لديهم ما بين ثلاثمائة وأربعمائة محارب ، بالإضافة إلى عدد كبير من الأهالى . لكنهم قد حرموا من سمهم ... ونحن لدينا السمس لكن يلزمنا الغزول إلى الشاطئ . ليس للتموين لحسب ، بل كذلك لاستخلاص أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الخطوة القادمة . معنى هذا أن أحدنا يجب أن يقضى على الآخر من لدى أحدكم رأيا ؟

تسكلم ساحورج :

— إن أرى أن نهاجم المدينة رأسا ، ولدينا من القوة ما يكفى لسحق القراصنة والأهالى سويا .

تنوعت الآراء بعد ذلك ، ودارت المناقشات ، لكنني كنت أهدف إلى أن يضع إيواف خطة معترضا تنفيدها فوراً ، ذلك أنني أعلم أن قواتنا لنكني لسنحق أعدائنا ، هذا إذا لم تكن هناك خيانة ، أما وأن شكى شديد في إيواف فقد رميت من التردد في اتخاذ قرار أن أترك له الفرصة للتفكير في خطة ، وكان ما حسبته تقوذة بدأ إيواف يتكلم .

— لأنني أعتقد أن أحسن خطة هي أن محاصرم يذهب فريق منا ليهاجم المدينة في حين يرسل فريق آخر هنا عند الخليج ، ويتقدم إلى المدينة ، وبذلك يكتمل الحصار .

لم أوافق فوراً وبدأت أناقش :

- لكن في هذا تقسيم لقواتنا ، كما أن مهاجمة المدينة لا تحتاج إلى كل قواتنا .

ورد إيواف عصب بعزور الوثائق في قوته :

— إن تلك قواتنا كميل بالقضاء على هذه الطغمة ، ولو تركتم الأمر لي بمفردي لعملت ذلك

لأعرض الثلاثة قواد الآخرين على تقسيم القوات ، وتركت المناقشة تأخذ مجراها ، حتى سمعت إيواف عصب يقول :

— دعوا لي المحجور على المدينة ، ولكم على أن اسحق الفرافنة ، واللاهاني معاً ، وهاجموا أنهم من ناحية الخليج ، وإن كنت واثق أنكم لن تعملوا شيئاً وأنني سوف أكون قد قضيت عليهم .

عندئذ تدخلت ، كنت واثقاً أنه سوف يقترح أن يبعد بنفسه ، وقواته ، شكل أو آخر حتى تكون له حرية الحركة ، وأنه إنما ألقمها الخطة على جرحات .

— أعتقد أن خطة إيواف هيها الكثير من الوجاهة ، والآل علينا أن

نضع حساباتنا حتى يكون التوقيت مضبوطا . إيوف إنها خطتك ومن حقلك
تكملها ، عليك أن تحسب المسافة بين الخليج والمدينة سيرا بالنسبة للجند
مع الأخذ في الاعتبار أنهم سوف يلقون مقاومة ، كما أن عليك أن تحسب أيضا
وقت الذي تقطع فيه السفينة المسافة هودا إلى المدينة ، مع العلم أنكم
ستضطرون إلى التجديف ضد التيار . إنني أريد أن يكون هجومنا على المدينة
في وقت واحد . بعد الشروق بساعة .

قامت مناقشة ثانية حول التوقيت ، وصبط حركة السفينة ، والجند ،
وأجروا استقرار الرأي على أن يتحرك إيوف صبح بسفينته في الوقت نفسه الذي
يحل الجنود إلى أرض الخليج ، قبل الفجر ساعة ، مقدرين أن المدة التي
ستستغرقها الطرفان للوصول إلى المدينة تكاد أن تكون واحدة .

عاد كل ريان بعدئذ إلى سمينته إلا أنني استقيت ساحورج ومتوسين .
— أن خلعت لنا القمرة ابتدرتهما .

— إسماعيل ، إنني أعتقد أن إيوف سوف يحوئنا وإن يهاجم المدينة
رفع ساحورج حاجيه دهشة وقال :

— حائر ؟ كيف ؟ هل أنت واثق بما تقول ؟

— أعتقد هذا .

— فإذا إدا تركته يذهب عفرده ؟ لماذا لم تأمر بأن يصطحب سفينة
جدي معه ؟

— لأنه لن يذهب إطلاقا ، سأذهب أنا بدلا منه ، وسيبقى هو مكاني ،
لكنه لن يعرف هذا إلا قبل الإنحار دقائق حتى أعطيه فرصة ليختر بينهم
حسنا .

— ما هذه الاحاجي ، والألغاز ؟ إنني لا أفهمك !!

— ستعمل إن لم تصر على مقاطعتي ، إقرص أنني على صواب في اعتقادي
يؤوف خائن ماذا سوف يفعل ؟

— سيخبر ينعم بخطتنا ولا شك .

— هذا حسن ، وماذا سوف تكون خطتهما لمزيمتنا ؟

فكر ساحر لخطات ثم قال بتأن :

— أعتقد أنه سوف يهاجم جميع رجاله الجنود في الخليج ، وبعد ذلك

كيننا في حين أنه لن يهتم بالدفاع عن المدينة إذ أن حليته إيوف سيكون هناك

— تماما ، لهذا أعطيت إيوف الفرصة لكي يخبر ينعم ، ولهذا سوف

أقود أنا السفينة ؛ جنح الظلام قبل الموعد الذي حددته بنصف ساعة ، وف

أيضا لن يبرز الجنود إلى الخليج إلا حينما أعطى إشارتي ، سوف أستولى أنا

على المدينة بدلا من إيوف ، ولست أتوقع قتالا فيها ، ثم أتجه رأسا إلى الخليج

حيث يكون ينعم ورجاله ، لأهاجمهم من حيث يظنون أنهم آمنون وعند

تسمعون أصوات القتال عليكم أن تنزلوا إلى الشاطئ وتهاجمهم بدور

وبذلك ينحسرون بين نارين

للرة الأولى تكلم منتوسين :

— لكس باسیدی ألا ترى أن يدعم يراعب سفننا بدقة وأنه سيعلم

تحرکت سفينة القيادة إلى المدينة دون سفينة إيوف عنخ ، وبإتالی سوف

يشك أن في الأمر شيئا

— من قال إنني سأبحر بسفينة القيادة ؟

أطر إلى الرجلان غير مصدقين وسأل ساحر :

— هل تعنى أنك سوف تقود سفينة إيوف ؟

— أجل

— ورجاله ؟ لهم لن يطيعوا لك أمراً ، بل قد يعتدون عليك شخصياً .

— لماذا ؟

— لأنهم وجاهه جميعا

— لكننا نقاتل سويا ، على الأقل في الظاهر ، وأحسبهم لا يعلمون شيئا عما يجري في الخفاء .

قال متو :

— ألا ترى في هذا ياسيدي مجازفة كبيرة ؟

— هنالك بعض المجازفة ولا شك ، لكنني لا أعتقد أنها كما تصورها ، لا تخافا على ، إني سأندبر أمري ، وما أريده منكما هو أن تراقبا أيوف جيدا حشية خيائته ، خاصة أنت يا متو ستكون مهمتك دقيقة لأنني سأعينه أنت الفاتح ، وسيكون بالتالي معك في السفينة ، حاول ألا تعارضه إلا إذا صطورت .

أيقظوني . كما أمرتهم قبل الفجر بساعتين ونصف ، صحبت معي عنخو ، وحكو بتاح ، وأوف وثلاثة آخرين من رجالى . دهش إيواف حينما صعدت إلى سفينته ، وأخبرته أنني أنا الذى سوف أتولى قيادتها ، وأن عليه أن يحل على فى سفينة القيادة . حينما سأل عن سبب هذا التعبير المهاجىء فى الحطبة أجبت بـأنى أنا القائد ، ولا أرى أن يتحمل هو كل المخاطر ، ولا يتحمل جدنا أية مخاطرة ، إذ أن القتال كما قال سوف يكون فى المديته فقط . حاول أن يعترض إلا أننى طرحت إعتراضاته جانبا محرم ، لم يكن أمامه سوى أن يطيع ، أو أن يجهز بالقرود والخيافة . بعد تردد يسير ، ترك قيادة سفينته لى ، وأمرت عنخو وأوف أن يقوموا بمصاحبته إلى سفينة القيادة ثم يعودان .

كانت خطواتى التالية أن أعرف إن كان إيواف قد باح بخطئه لأى من وجاهه ، إن كان قد فعل فللنطق أن يكون هذا الشخص هو نائبه . أرسلت لاستدعائه ، ولم يمض وقت طويل حتى تبين لى أنه يعرف ما كان يعده يعرف من خيانة . تركته جالسا فى الحجرة ، واستدعيت حكو ، ثم سألته إن كان عنخو وأوف قد عادا ، فلما رد بالإيجاب أمرته أن يستدعيهما . جلست

صامتاً مع الرجل ، لم أخاطبه حتى بدا قلقاً في جلسته ، بعد دقائق قليلة حضر عنخو ، وأوفى فحاطتهما .

— إن لدى هذا الرجل معلومات أريدها فوراً فلا وقت لدى أضعف

لم يتكلم أيهما . تقدم عنخو نحو نائب إيوف بخطوات متمهلة في حين صعد أوفى مكانه ، وإن كان قد ظهر في يديه قوس ، وسهم كأنهما بفعل ساحر هب الرجل من مكانه في رعب :

— ماذا ستمعلون بي ؟

أجبتهم :

— لا شيء ، هنالك بضعة أسئلة أريد الإجابة عليها ، وليس -

وقت للمعاصرة .

كان عنخو قد وصل إليه ، بهدوء ضغط على كتفيه فارتدى الرجل على مقعده . بالهدوء نفسه قبض على معصيه ، ولم يحاول الرجل أن يقاوم . عقم المحاولة وترك الرجى المملاق يفعل به ما يشاء . جمع عنخو يدي الرجل وراء ظهره ، وقبض على المعصمين بيد واحدة .

هنا أظهر أوفى براعة لم أشم - منها في حيق على كثرة ما رأيت من إلم في رمي السهام ، كان الرجل يرتدى صدلاً من الخلد يحوط قدميه ، والكاح ويخرج قليلاً عن الأصابع .

سرعة مذهلة طار سهمان ليثبتا الصندلين في أرض القمر الخشبي دون أن يمس أيهما من الأصابع . بدت من الرجل بداية صرخة كتمت . عنخو القوية .

— هل أسأل الآن ؟

كان الرجل ما يزال ينظر إلى السهمين برعب ، دفع رأسه وهرها ..

— دع فيه باعنخو ، من كان رسول سيدك إلى ينعم ؟

لم يردد وأخبرني عن رجلين .

— هل هنالك غيرها يعرف خطة إيوف ؟

— كلا ...

— حسنا أرسل في استدعائهما وأمرهما أن يصحبا عنحو ، وأوفى إلى سفينة ساحورع ، واعطهما هذه الردية ليلساها له .

فقد ما أمر به ، وأمرت أوفى وعنحو أن يخرجا ساحورع أن يحتفظ بالرجلين في مكان أمين حتى تصدر له أوامر أخرى ثم يعودان . كان وقت الإبحار قد أوفى إلا أنني انتظرت إلى أن عاد أوفى وعنحو ثم خاطبت نائب إيوف .

— سوف تصدر الأوامر . وحتى تأكد من التنفيذ سيصحك دائما صديعاى هذان ، وإن أكره لك أن تعضبهما .

* * *

سار كل شيء بعد ذلك كما قدرت . لم يجرؤ نائب إيوف أن يصدر أمرا مخالفا ، بل إنه أظهر حماسا في تنفيذ تعليماتى . ارتحلت السفينة إلى المدينة وأرسلنا الجنود . كما توقعت ، لم تكن هنالك أية قوة تنتظرنا إلا أنني شاهدت أربعة من الأعراب يهرعون نحونا مرحين . كانت لديهم أوامر أن إحدى سفننا سوف ترسو عند المدينة ، وأنا أصدقاء . يبدو أنهم لم يكونوا قد رأوا وجه إيوف ، وبالتالي ظنوا هو .

لم أصحح خطأهم ، وسألت حكور شاح أن يستجوبهم ، وسرعان ما علم أن الموجودين من الأعراب ثمانية هؤلاء الأربعة الذين أمروا أن يقودونا إلى حيث يوجد ينعم ، ورجاله مع الإهالي ، وأربعة آخرون يجرسون ملك للمدينة إذ أنه أبى معاونة ينعم في قتاله ، فقص عليه واحتفظ به رهينة حتى ينتهى القتال .

كانت المدينة أكبر مما رأيت على الساحل ، لكنها بدت خالية تماما من السكان .

انتحيت بأوفى جانبا ، وأصدرت إليه بعض التعليمات ، فانسحب ومعه هروسى ، ورجلين من رجالي . طلبت إلى الأعراب الأربعة أن يقودونا

رأساً إلى حيث ينعم ، وجيشه . فساروا أمامنا في دروب القابة . لم يمض وقت طويل حتى لحق بى أوفى ، وسار إلى جانبي يتحدث همساً .

— لقد قتلنا الأعراب الأربعة الذين كانوا يقومون على حراسة الملك .

وهو يقول إنه سيلحق بنا ويأمر رجاله أن يقتلوا فى صفوفنا ضد ينعم ورجاله ، وأرسلت معه نفروسي والمجديين الآخرين للتأكد من أنه لن يخطئ . فى هذا ، وإن كنت أعتقد أنه ملص فى أقواله نظراً لما بكه من حقد على ينعم .

انتهى القتال بسرعة . قتل ينعم وجميع رجاله . ذلك أن الآهالى لم يقبلوا ترك أحد منهم على قيد الحياة ، حتى المرحى . حينما نزل إيوف عنخ ، وسائر رجال السفى إلى الخليج كان القتال قد انتهى . حارب العراصنة بشجاعة ، قتال قاتلوا المستعيت ، إذ عرفوا أن لا مهرب لهم . قتل من رجالى ، أو على الأصح من رجال سمينة إيوف عنخ ، ثلاثة وثلاثين ، وجرح ضعفهم تقريباً ، وقتل من الآهالى ، وجرح مثل هذا العدد .

فى المساء أبى الملك إلا أن يقيم حفلاً ، واكتظت المدينة التى كانت مهجورة منذ ساعات . قدم إلى الملك صدوقاً حشدياً كبيراً هدية منه لإنقاذ حياته ، وحياة الآهالى . حينما فتحه إتنايى الدهول ، كان مليئاً بالذهب الخالص .

الفصل العاشر

إلى حيث يعزف الجن

شكرت الملك ، وأمرت بقل الصندوق إلى سعية القيادة . لم أשא أن أوضح له مدى اهتمامي بالمصدر الذي أتى منه بالذهب ، فجلست آنذاك معه من طريق مترجم سائلا إياه عن معلوماته عن الساحل الجنوبي .

أجابني إجابات عامة عن متوحشة ، وصائدي رؤوس ، وآكلى لحوم البشر . أخبرني أن هناك تيرا مائياً يحمل المراكب إلى مناطق مأهولة بالجن ، وأن من يتعدى مسافة إبحار يومين لا يعود منها مطلقا ، فجأة سألتني :
— ألسن تسألني من أين أتيت بالذهب ؟

الحقيقة أن هذا السؤال لم يفارق رأسي منذ أن شاهدت ما بداخل الصندوق ، إلا أنني كنت أود أن أستحصل المعلومات منه دون أن يشعر بذلك . أجبتة دون اكتراث ظاهر .

— لماذا أسألك ؟ إنني شاكر لك هديتك ، ولا أود أكثر منها

— إن بنعم كان يود أن يعرف ، وظل يلح في السؤال كلما جاء ، بل وعذب بعض رجالي ، وكثيرا ما هددني .

— وما دخلي أنا بهذا ؟

— إنك أيص مثله . لكنك تختلف عنه .

— وهل السود سواسية ؟

— كلا ... على كل حال إنني في الواقع لا أعرف من أين يأتي . كل ما أعرفه أن بعض القناصل في داخل القارة تأتي به ، وتقايضنا على الملح ، والمنسوجات والنبيذ ، أرسلت بعض رجالي ذات مرة ليقموا آثارهم فقتلهم ،

ولم يقبل أحد بعد ذلك أن يقوم . كل ما نعرفه أنهم يأتون من مسيرة طويلة غالباً من الجنوب .

سجلت هذه المعلومات في ذاكرتي ، وسألت عن أوصاف رجال القبيلة وعما إذا كان يعرف اسمها فاجبت . كان على أن أدون هذه المعلومات في مذكراتي دون أن أحاول البحث عنهم ، فلم يكن الذهب ضمن أهداف الرحلة . طلبت من الملك أن يعد لنا رجالاً يساعدونا في حمل العاكمة الطارئة من العائنات ، وسائر أنواع المؤن ، والمياه ، فوعده بذلك .

في الصباح طلبت ليوف عنخ وحينما حضر إلى الحجرة التي خصصها لي الملك في داره ، واجهته بما تيعنت من خيائته . كان وقعاً في إجابته قائلاً إن كل ما يوده هو العودة إلى الوطن . غاطبته بشدة مقررًا أن جزاء خيائته هو الموت ، ورد بالقعة نفسها .

— وهل ستقتل كل رجالي ؟

— إذا استدعى الأمر سأفعل .

— معنى هذا أنك ستعقد حرباً كبيراً من رجالك أيضاً فرجالي لن يموتوا وهم مكتوفو الأيدي .

فكرت ملياً . كان في أقواله نصيب كبير من الصحة ، لكنني من ناحية أخرى لم أتمرد أن أبيل أن تمر مثل هذه الخيانة السامرة بلا عقوبة ربما كنت عني حق . لهذا فإني لن أحاكمك الآن ، وإعماحاً نعود إلى الوطن .

إنفجرت شعثاه عن ابتساماة فوز كرمه وقال :

— هذا إذا عدنا .

لم أكن قد أتممت كلامي . بهدوء إستطردت وكأني لم يقاطعتني .

— لكنني أقسم أنه إذا بدت منك ، أو من أحد رجالك أية بادرة خيانة ، أو عدم إطاعة للأوامر فإني سوف أترككم لشأنكم ، وعليكم

أن تواجهوا أخطار نبحر ، والقرصنة ، بفردكم أو أن تفصوا ما بقى لكم
من همز على الساحل .

رالت الالبسةمة من شفتيه واحفر وجهه وصاح :

— إنك لا تستطيع أن تفعل هذا .

— جربنى .

* * *

بعد أربعة أيام كانت الشمس قد أعيد شحنها بالمؤن والمياه ، وقررت
الإبحار فى صباح اليوم الخامس . استيقظت عند الفجر ، واغتسلت ، وأديت
صلاطه اليومية ، ثم ارتديت ملابسى . أثناء ذلك سمعت لجها فى الخارج ،
وأسرعت ، وتناولت مسبق ، ونجسجى . حينما خرجت وجدت أكثر من
مائة من الجنود ، والحداده متجمعين يتصايحون ، كما لاحظت أن الملك قد
حرج ، ونجمع الاهالى على بعد آمن .

بدا لى أن نائب إيوف عنخ هو الذى يفرد الجماعة . وقصص صامناً
أراقبهم وأستمع لى ما يقولون . تنهت له مداحة الخطر حينما لاحظت أن
الرجال لم يكونوا جميعا من جماعة إيوف ، كان منهم من كان من صيفتى
ساحر وع ، ونجم آب ، بل لى رأيت بعض الأفراد من صيفتى ، وإن
كانوا يحاولون الاختفاء وراء إخوانهم .

كانت هذه هى العلامة الطيبة الوحيدة التى لاحظتها ، فأمال هؤلاء لى
يكون لهم الجرأة الكافية مواصلة التمرد ، إذا ما أهدوا بالحرم ، أما بقى الجنود
فكان الشرباديا عليهم . سألت ...

— ماذا تريدون ؟

أجابنى بلهجة وقعة وهو يتقدم منى متهدداً مهدداً :

— لى لى سحر جنوبا . وللى نذهب لى حيث الجن ، والشياطين ،
لنؤت جميعا حتى نعال أنت الشجرة والجود

كان ردى هادئا .

— هذه أوامر المرحوم ، وقد رآها رؤسائكم .

— من يدرينا ؟ لعلك اعتلتها .

إننى أكره القتل بالرغم من صناعتي كجندى ، ومع هذا فإن هالك مواقع لا يحسمها إلا السلاح . بسرعة لعلها أذهلت الحاضرين ، أخرجت سيني ، وقصرت الخطوات التى تمصلى هذه . وفى لحظة كان السيف قد اخترق صدره . سقط مضرجا بدمائه بين ذهول أصحابه ، كنت أتوقع أن يهاجمونى ، ولم يكن هنالك شك فى أن قتلى لم يستعرق منهم دقائق قليلة ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث .

تراجعت بسرعة إلى الوراء . وكنت أصطدم لشخص ورائى ، وجاءنى صوت نجم آب ...

— إنه أنا نجم .

لم يكن بمفرده ، كان معه ساحور رج ، وأونى ، وضحو . ارتفع صوته عاليا مهددا .

— إن بعض رجالى فى هذه المجموعة ، إن لم يتحركوا الآن إلى السينة سأشتقهم جميعا .

كان لهذه الكلمات فعل السحر ، ابتداء جماعته من الجنود فى الحركة يديها بدا أن الذين فى المقدمة رأوا أنهم إن لم يقوموا بالهجوم فى هذه اللحظة فقد صاعت منهم الفرصة . اندفع أكثر من عشرين شخصا نحو ما سقط منهم خمسة ، وفى صدر كل منهم سهم .

توقفوا فجاء كما اندموا ، وراحوا ينظرون إلى زملائهم بحوف . إلى جانبي وقد وقف أونى ، وقوسه فى يده ، كان يقف على عادته بإهمال من لا يعنيه الأمر ، لكن هذا الإهمال كان أبلغ تأثيراً من أى تهديد . تراحوا إلى

الوراء منكشين ، كان القوس والسهم في يدي أوى يعنى أن منهم من سيأق
مصير رفقائهم الملقين على الأرض يتأوهون ، أو ينظرون إلى السماء نظرات
رجاجية لا حياة فيها .

لم يكن لثل هذا الموقف أن يطول ، فقد الملاحون شجاعتهم ، وإن هم
إلا الحفلات حتى كانوا يتدافعون مرارا نحو السمس . إلتفت إلى رفاقي
أشكرهم ، وهنا رأيت إيزوف صبح يخرج من حجرته ، تقسم بحونا بطله
يسأل عما حدث ، وأجسته باختصار :

— لقد فشلت آخر محاولة لإفساد الرحلة ، بعد هذا سوف نتجه جنوبا
في بحر سم ترند حتى سمس عبرنا ، ولا مجال لمحاولة إحباط الرحلة .
لكن كنت مخطئ ، كما أثبتت الأيام .

* * *

وقفت مع متوسط عند مقدمة السفينة . كان هذا هو اليوم الثمان من
إبحارنا من راهابانا . ومع أنا كنا في أشهر شمنو (الربيع) إلا أن الجو
كان يميل إلى البرودة . (١)

أحدنا راقب السفينة وهي تفق عباب البحر ، وخيل إلى أن سرعتها
تزايدت عن ذي قبل . كانت الرياح قد بدأت تحوّل إتجاهها فبدلا من الشمال
أضحت جنوبية ، مع هذا ، ورغم من أننا طوينا الشراع ، فإن السفينة
كانت تتجه بسرعة نحو الجنوب .

إلتفت قليلا خلفي وراقبت المجدولين ، وقطعت بأهم لم يكونوا مجتهدين .
إستطلعت رأى متو .

(١) أرحو أن يلاحظ القارىء أن الربيع في نصف الكرة الشمالي يقابله الخريف في
نصفه الجنوبي .

ألم تلاحظ أن ثمة تياراً مائياً يزداد بشدة ساعة بعد أخرى ؟

— أجل ياسيدى القائد ، وهو يتجه جنوباً بالرغم من الرياح العكسية التي تهب من الجنوب (١)

تركنه ، ودخلت فمركبى أدور ملاحظاتي عن التيار ، ومكان بدئه ، واتجاهه ، وسرعة السميكة ، وقوة الرياح ، واتجاهها ، إلى غير ذلك من المعلومات البحرية التي ترشد من سيقومون بعدنا بهذه الرحلة . مكثت أكثر من ساعة ، وأنا أكتب ، ثم وصفت القرطاس ، ونحيت أوراق البردى وأحدث أفكر .

أين سوف تنتهى ليبيا (أفريقيا) ؟ هل سوف تستمر في الاتجاه جنوباً إلى ممالك الآلهة ؟ هل حقيقة أسما رحل بحار الجحش ، وشياطين ؟ إننا لا نعلم شيئاً عن السواحل ، ولم نستطع أن نستخرج أية معلومات جدية من الأهلالي عنه ، وكان من نتيجة هذا أنني أمرت أن يستمر الإبحار ليلاً ، بعيداً عن الشواطئ ، وقد ساعدنا القمر على الرؤية ، والاحتفاظ بمسافة مناسبة بيننا وبين الأرض . لكن ما العمل حينها يعيب القمر ؟ ما العمل لو أن السحب غطت وجهه كما يسد ذلك الجو ؟ ماذا لو بعدنا أكثر من اللازم ، وصلنا في هذا البحر الذي يبدو أن ليس له نهاية ؟ ومدا لو اقتربنا أكثر مما يجب ، وارتطمنا بالصخور أو شبيب مرجانية ؟

استغرقت في تفكيري حتى أنني لم أشعر بباب القمرة يفتح ، ولا بأن مرت سحرة قد دحمت ، ووقعت حلقى تراقبى . شعرت بها فقط حينما أحسست بدراعيها توصلان على كفتي ، وشعرها الأسود الفاحم يلامس وجنى . انتهت من أفكاري ، وقصت على يدها أرونها عن كفتي . لم تقاوم لكنها في لحظة استدارت وجلست على ركبتى . تركت دراعها ، ونفضت على وسطها أرونها وأصطرها إلى الوقوف ، ووقعت بدورى .

(١) هو تيار مورمبيق وهو تيار شديد اتجاهه جنوباً .

رأيت وجهها الجميل مررباً منى إلى درجة أننى عدلت بجهوداً كبيراً لأمنع نفسى من تعقبها . لمبتعدت عنها ثم تصنعت الجند قائلاً .

— مرت ، إنك فتاة خبيثة .

— لماذا ؟

— لأنك تحاولين إغرائى .

— وما الحبس فى هذا ؟

تساءلت ببساطة حتى أبى كدت أضحك . إن الفتاة كانت على فطرتها حتى أنها لا ترى شيئاً فى إغراء رجل ومصادحته بذلك . تمالكت نفسى ، وكلمتها برفقة .

— إن الفتيات لا يجوز لهن هذا .

لماذا ؟ ألا يفعله فى بلادكم ؟

اضطرت أن أنسم وأنا أعترف .

— أحسب أنى يفعل لكر ليس بهذه البساطة .

— كيف إذا ؟

— لست أدرى إن لى وسائلهن الخاصة ، وعلى أى الأحوال فإنه لا يجوز لك إغرائى ، أو أى رجل ، لأنك ملك للفرعون ، له الحياة ، والصحة ، والقوة .

نظرت إلى متحدية غاضبة .

— إبنى لست ملكاً لأحد إلا من أشاء .

قالت هذا واستدارت خارجة من القمرة . ولم أملك إلا أن أذاع قوامها البديع بنظرة إصجاب .

تزايدت سرعة التيار وتزايدت كذلك سرعة الريح، تلبدت السماء بالغيوم واختفى روع (شمس الظهيرة) ورامها . وأيت أن البحر بدأ يضطرب ، وارتفعت الأمواج تلطم جوارب السفينة ، وتتفادها . كان من الجلى أما مقبول على عاصفة . أشرت إلى السمن بالإبتعاد عن مصفها ، ومراقبة وجود حذاء عن السواحل مخمض فيها حتى يبدأ الجو .

أنانى الرد بأن أحدا لم يلحظ خلجانا يصلح كأوى للسمن ، فأمرت بالإبتعاد عن الساحل قدر الاستطاعة وبأن على أية سفينة تفقد القاطلة أن توجه إلى الجنوب العربى بعد هدوء العاصفة حتى يهتر عايمها أو تعثر علينا .

ما أن حل المساء حتى كانت العاصفة على أشدها . كانت من القوة بحيث لم أشهد لها مثيلا من قبل حتى أنى إلتابنى هلق شديد على السفينتين الصغيرتين ومن فيهما . كانت الأمواج تتفادها . تحملنا على ظهرها لترتفع عشرة نبيوات (١٢٥٠) مترا أو يزيد ثم يهوى البحر فاه لهبط لجأة ، ونعلوبا أطنان من المياه تعمربا حتى نفلن الهلاك ، ثم تنحصر عن ظهر السفينة . تداعبنا المياه ، فتلطم أحد الجانبين حتى تميل السفينة على الجانب الآخر ، وسكاد أن نعرف من البحر ، ثم تعبد اللطم من الناحية الأخرى فتعادل ، وتميل إلى الجانب الأول .

لم تكف الطبيعة بهذا ، وبدت كأنها هى تصب جام غضبها كاملا علينا . عزمت الريح عريف الجى ، ودقت طبول الرعد تصم الآذان . أرسل الرق وميضاً ينير الظلام الدامس لئلا نكأنما ليرينا أى مصير ينتظرنا ، ونتمتع عيون السماء تصب الأمطار مسرارا . من قمره القيادة شاهدت الصواعق تلمع وتلكى منكسرة تصل ما بين السماء والأرض ، وتوجهت «صلاى إلى رب الأرباب ألا تنقص على صاريات السفينة .

كان متنوسين قطانا ماهرآ . حينما استشعر قرب العاصفة أمرع ظهر السفينة ، وأمر باحكام ربط كل المؤن ، والبضائع ، ورفض أن يترك شيئا

يتحرك في الداخل . حتى المصايح المعنفة جميعها كلها ، لم يستش منها واحداً .
 - الحال العليظة على طول السفينة وعرضها ، وأحكم وثاقها ، حتى يستعملها
 شعارة إذا اضطرتهم الظروف إلى الحركة على السطح . أمر الشعارة أن يرتطوا
 أنفسهم بحمل ، يمكن أن تقيد بها ، إلى حمل السفينة بحيث يستطيعون
 الحركة ، وهم مقيدون إليها ، فلا تحرهم المياه إلى أعوار البحر ، وأمرهم
 أن يكونوا على استعداد .

راقبته يتوعد الدفة ، يجرها بحكمة ، ولا يحاول مقاومة التيارات المائية
 لا تدر ، ويحذر . كان يحشى أن تنكسر فتتجلبط السفينة في أرجاء البحر
 إلى حيث يحسها الريح ، والتيارات لا تنكس لها دعماً . لم تكن سرعة القيادة
 حجرة ، وإنما كانت مجرد سقف يحمل على أعمدة متباعدة ، وأقيم جدران
 خشبية على الجانبين في حين ترك الجانبان ، الأمامي والخلفي ، دون أي ساتر ،
 حتى تكون للدفة حرية الحركة . كان هذا ساتراً كامياً يمنع الهواء ، والأمطار ،
 والشمس في الأوقات العادية ، أما في مثل هذه المصافة فلم تعط إلا حاية
 ضئيلة من الرياح الهادرة ، ومياه الأمطار ، والأمواج . لهذا لم تكن قيادة
 الدفة في تلك الظروف مهمة يسيرة ، وكان على القائد أن يقيد نفسه إليها
 حتى لا يجرفه الأمواج ، أو تقوده الرياح ، أو يتخط مع تمايل السفينة
 واهتزازها الشديد . لست أحسب أن الشخص العادي يستطيع أن يستمر
 في هذه الظروف أكثر من ساعتين . كنا في الواقع سعداء الحظ ، ذلك أنه
 في السفينة يكون هناك عادة أربعة أشخاص يستطيعون قيادة الدفة ، قائد
 الدفة ، ووكيله ، والربان ، وناثه ، أما على سمينتي فقد زادوا إلى خمسة نظراً
 لوجودي شخصياً .

أصدرت أوامري أن تكون نوبة قيادة الدفة ساعتين ، وأن يصاحب
 القائد شخص آخر . على أن يستمر هذا النظام حتى تنتهي العاصفة بسلام .
 قررت لمسى نوبة عمودي ، وطلت إلى صحران بصاحبي ، فهو وإن لم يكن
 يدرى عن قيادة السفن شيئاً إلا أنه كانت له قوة هائلة تساعدني إذا
 احتاج الأمر .

توليت القيادة بعد نوبة منتوسين ، وسرعان ما أدركت مدى ما يلاقيه قائد الدفة ، حتى أبى شكرت أن أنقص النوبة إلى ساعة . لم يكن في الإمكان أن توجه الدفة إلى اتجاه واحد تستمر عليه ، إذ أن تخطط الرياح ، والتيارات والأمواج كان كفيلاً بكسرها . كان يجب أن تعالج بدفة ، وحذر ومع هذا فإن الأمر احتاج إلى كل قدرتي ، وكل حذري . بقيت في انتباه مستمر أفاوم المياه ، والرياح ، وحركات السفينة المواجهة ، بل والأمطار التي تدفعها العاصفة إلى داخل القمرة ، والأمواج التي تحاول أن تجرني . كنت مقيداً إلى يد الدفة ، ومع هذا فإن الأمر كثيراً ما احتاج إلى كل قوتي ، وانتباهي حتى لا أرتطم بها .

حمدت رب الارباب أن انتهت نوبتي ، وشكرت عمحو ثم ذهبت متوجهاً إلى قمرتي . كنت مرهقاً نعباً أشعر بالآلام في كل عضلاتي ، وما أن دخلت حتى ألقيت بنفسي على فراشي . لم أكد أعص مني حتى سمعت أنات خفيفة صادرة من حجرة مرت فقمرت من الفراش ، وهرعت إلى حجرتها . على الضوء البسيط الآتي من الخارج صدمت لما رأيته . كان نجارو الملك هم الذين قاموا بصناعة الأثاث ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن الدهر ، وأنوائه ، فتركوه دون أن يشبهوه .

كانت القمرة على صيقها عند انقلبت رأساً على عقب . على الأرض رأيت العتاة تتأوه لحملتها بين يدي ، ولاحظت أنها في عيبوبة ، وأن الدماء تسيل من جبهتها . أسرعت أحدها إلى قمرتي ووضعتها على الفراش ، وقبعتها إليه ، ثم أريدت من يستدعي الكاهن الطيب حكاً يحث ، وجلست إلى جوارها أراقبها في قلبي . في الخارج كانت العاصفة عل أشدها إلا أنني لم أشعر بها إلا في اهتزازات السفينة حتى أن أرض القمرة لم تستقر على حال . مضت دفاق قبل أن يحصر حكاً يحث ، أحضرت في أثنائها عص الماء ، ومسحت به جهة العتاة ، ورأيت أن جرحها لم يكن غائراً . حينما جاء الطبيب الكاهن طلب أيضاً أن يصاه مصباح ، ورفعت لكنني أوفدت له شمعة . لحص الحرح

ثم فحص الفتاة وقرر ان بها حدوشا كثيرة في مواضع شتى من جسمها ، لكنها جميعاً لا تزيد عن كدمات ، وان الجرح الحقيقي هو الذى فى جبهتها . وقال ان الفتاة سميدة الخط اذ ان ضيق القمرة الشديد اصعب كثيراً من قوه اندفاع الالاث ، ثم وصح بعض النحون ، وقرر أنه يلزم الفتاة بهجمة أيام من الراحة .

أعطاهم بعض المنهات حتى أفاقتم ثم تركنا ، وخرج . تبعت ببطء ، وحيما رأيتى اتستمت اتساماة داهنة وسألتنى :

— هل سننحو ؟

اتستمت مطمئنا .

— اما مجرد عاصفة سوف نزول عاجلا .

— اما عصبه رب الارباب لانك نهضت الحدود التى يسمحون للبشر بالحياة فيها . هل لارلت على اصرارك على الاتجاه جنوبا ؟
— اجل .

نهضت فى استسلام . ورأيتها متعبة مرهقة فنهضت قائلا :

— يلزمك الراحة . نائى ، وسوف أمر للاطمئنان عليك بعد حين ، وسأحضر بعض المأكولات .

لم ترد وأغفلت عينها ولم تلبث أن نامت .

كان أول ما علمته بعد خروجى أن أشرفت على العجارين وهم يشتدون ألاث قررة الفتاة ، وحينما تأكدت استلقيت على الفراش ، واستعرفت فى قوم عتيق ، استيقظت بعد أن برع خبر (شمس الصباح) وكان أول ما لاحظته أن العاصفة قد هدأت . لم أبال بحلاقة ذقتى ، أو زيني الصباحية ، وأسهرت خارجاً . دخلت به وه إلى قرتى ، ورأيت أن لفتاة مازالت نائمة فتركته دون إزعاج ، وخرجت إلى سطح السفينة .

استقبلني نسيم لطيف ، ورأيت الشمس ساطعة ، والبحر هادئاً لا أثر فيه لأمواج . ألفت قطره إلى الغرب ، ورأيت الساحل يبدأ على بعد يترو (كيلو متر تقريباً) ، أو يريد قليلاً . أدوت نظري في البحر في جميع الاتجاهات ولم أترأى من السفن الثلاث الأخريات .

اتجهت إلى قرية القيادة ، وهناك رأيت قائد الدفة ، وناثه وسألتهما إن كان مرافق الصاري قد رأى أي شيء من السفن فأجاب المراقب بأنه رأى السفينة الكبيرة الثانية ، أما الصديرتان فلا أثر لهما . استفسرت عن خسائر العاصفة فعدت أنها خمسة غميعة ، وأن الجارين والحدادين فأنمون بأصلاحها جميعاً ، وأن الخسارة الحقيقية لحقت ببعض المؤن إذ تسربت إليها مياه البحر ، وأن هنا أكثر من عشرين جريحاً ، تسعة منهم إصاباتهم شديدة .

لاحظ أن التيار ما يزال قوياً يحمل السفن إلى الجنوب ، وأن النسيم الخفيف ساعد في ازدياد السرعة . فأمرت بطي الشراعات حتى تبطل السفينة قليلاً ، وبعطى بذلك فرصة للسفينة الكبيرة الثانية أن تلتحق بنا ، كما قد تظهر السفينتان الأخريان أو إحداهما . أمرت كذلك أن يلاحظ مرافق الصاري طبيعة الأرض ، وأن يحضر ما إذا وجد مكاناً يصبح لمرسو السفن .

تركتهما بعد ذلك وأتممت ريتي الصباحية . رتناولت افطاري ثم حملت بعض المأكلة وبعثت شطر قرني . رأيت أن الفتاة قد استيفطت ، وأن محاول أن تحل الرباط الذي يوثقها إلى العراش ، فأمرعت إليها أمتعاً . وضعت يدي على كتفها برفق ، لكن بحرم ، وطلت منها ألا تتحرك ، مقررأ أن هذا هو أمر الطبيب الكاهن . احنجت بأمرها قوية ، ولا تشم بأية حاجة للاستمرار في العراش ، إلا أنني رفضت إحتجاجها ، وجلست في جوارها أساعدها على تناول الإفطار .

أثناء وجودي معها حضر الطبيب الكاهن ، وألقى نظرة على الجرح العابر

في وجهها ثم قرر أنه لا خطر منه ، وأن الفتاة إن وعدته بعدم الحركة اليوم ، فإنه سوف يسمح لها بمعاودة القمرة في اليوم التالي ، ووافقت متضررة حينها رأت إصراره . انتهزت فرصة وجوده ، وسأله عن حال الجرحى فأجاب بأنهم جميعاً بخير .

جاء متوسلين ، وعثنو ، وأوني يستمرون عن صحة الفداء ، وحينما اطمانوا ، أحبر من متو أن مراقب الصاري يعتقد أن هناك منطقة في الساحل يمكن الالتجاء إليها كما أن سفينة إيوف عنج قد ارداد اقترابها حتى أن رؤيتها من ظهر السفينة أصبح مستطاعا ، أما السمينان الصميرتان فما زال لا أثر لهما . أمرت أن يعمل المجهزون ببطء شديد للالتجاء إلى لساحل ، وأن يوضع رجالان عند طرفي السفينة ليسيرا عور للمياه بصفة مستمرة ، وأن ترسل إشارات إلى إيوف عنج حتى يسمع أثرنا .

ركبت الفتاة ، وخرجت إلى سطح السفينة بأمر تنفيذ أوامري . كانت الساعة الخامسة صباحا (الحادية عشر بتوقيتنا الحالي) حينما بدأنا تنجيه إلى الشاطئ ببطء . كان الجو محوآ والسماء صافية ، وأرسل جبر أشعته دافئة على صفحة المياه الهادئة . ألقي بعض البحارة شباك الصيد تنفيداً لأوامر متوسلين وحينما سحبوها كانت مليئة بمختلف أنواع الأسماك حتى أن الجميع هلل فرحاً .

أقربنا للمرساه بعد أن اعتلى دمع السماء (شمس الظهيرة) ، وأمرت بشرب الشراب الأكبر حتى يمكن أن يرى من مسافة بعيدة ، كما أمرت أن يستمر مراقب الصاري في مكانه على أن يتناوب معه آخرون ، وعلى أن ينفخ في البوق في فترات متعاقبة ، بعد نزولنا إلى الشاطئ . بهليل لحقت بنا سفينة إيوف عنج ، واتضح أن خسائره بدوره لم تكن كبيرة ، وإن كانت أفدح من خسائرتنا خاصة ، وأن أحد الصواري قد أقتلته العاصفة ، وسقط على شخصين ، وقتلها ، كما فقد ثمانية رجال آخرون .

قل أن يحل المساء ظهرت سفينة ساحو دمع ترتفع ، كانت في حالة يرث

لها حتى على بعد أمكننى أن ألاحظ أن الصارى الرئيسى قد سقط ، وأن هيكل السفينة لم يكن متماسكا تماما . بعد الغروب بجوارى الساعة كان ساحو رع جالسا فى حىتى على الشاطئ يروى ما حدث لى ، ومعا إيوف صبح ، ومنثو سين . قرر أن صاعقة انقضت على صارى السفينة فأسقطته ، وأنه قتل فى هذا الحادث ثلاثة رجال . قرر أن الأمواج كانت تعمى السفينة بالمياه ، وأنها جرفت أكثر من عشرة أشخاص كما أن عدد الجرحى زاد على الثلاثين . قرر أن أمثال هذه السفن لم تصنع لتتحمل الأواء الشديدة فى بحار لا تعرفها ، لو أنه فقط كان يعرف الساحل لالتجأ إلى أقرب مكان يستطيع أن يرسو فيه ، أما فى مثل هذا الجو فإنه حشى مجرد أن يقترب فربما كان الشاطئ صحريا ، أو أهم من هذا ، وأخطر منه ، الشعب المرجانية التى لا تظهر على سطح المياه . كان عده أن يجابه العاصفة فى أشدها بسفينة غير مجهزة تجهيزا مناسبيا . إن الكثير من المؤثر قد أصابها التلف ، والكثير من المعدات والأحشاش فقدت ، وتشمشت . إن السفينة سوى تحتاج أياما ، وربما أسابيع لإعادته لإصلاحها .

قال إنه رأى سفينة نجم آت تتحيط فى اللجج ، وأن حائنها أسوأ من سفينة . بدأ عليه أنه يعتقد أنهم عرب من ليبيا . أنه لاح أن اللهه يمسها فيه تشمشت . وأن السفينة ليس على غير هدى . حينما سأله عن المكان التمرى الذى رأى فيه السفينة قال إنه لا يستطيع أن يحدد حيث أن العاصفة كانت تدفع السفن بسرعة هائلة . وبها التيار المبقى ، يمكنه فان إن ذلك كان قبل غروب شمس اليوم السابق . عرضت سؤالا للمباطية الثلاثة .

— ما رأيكم الآن ؟

كان إيوف عنح هو الذى تكلم .

— فى ماذا ؟

— فى كيفية إنقاذ نجم آت ومن معه طبعاً .

— إنهم ولا شك لا فواحتهم ، ولا أرى أننا نستطيع أن نعمل شيئاً .

نظرت إلى الاثنين الآخرين ، وقال متوسلين متسائلا .

— هل ترى أن هناك أملا في إنقاذهم ؟

لم أجب ، والتفت إلى ساحو رع انسى بدا مترددا .

— لست أدري . ربما يكون هناك بعض الأمل في أن تكون سميتهم

قد ألقتها الرياح على شاطئه رملي ، أو ربما تكون ما زالت طافية بشكل

أو آخر ، وإن كنت أصرحك أنه تلم معجزه لإنقاذهم

كنت أفسر طوال الوقت وأذن الأمور . لم يكن ساحو رع ، وهو آخر

من رآهم ، متفائلا . لم يستطع أن يحدد المظلة التي رآهم عندها ، كما لم يستطع

حتى أن يقدرها ، وما كنا نستطيع نحن ذلك ، ومع هذا فإن هناك أملا

في إنقاذهم ، وإن يكن ضئيلا ، وحرمت رأيي .

— إن سميتي مارك في حالة لا بأس بها ، وسأقوم بالبحث عنهم .

تكلم ايوف عنح .

— كيف ؟ هل ستعود ضد التيار ؟

— سحذو .

— إنك لن تقطع يئرو أو اثنين في اليوم ، وستفقد بحارتك دون جدوى .

— لا بأس . ستحاول .

— لكنت لن تصل إلى أية سبيجة ولن تصل إلى القعة التقريبية إلا بعد

أربعة أيام . أو خمسة على الأقل ، ولا يمكن أن تبقى السفينة طافية هذه المدة

أو يظل من فيها أحياء .

لم أجب ، ووجهت كلامي إلى متوسلين .

— مترو أريدك أن تختار مائة وحسين رجلا أقوياء يكون لهم جلد هل

التجديف ، هؤلاء سيبتون في السفينة واعطوهم راحة كافية الليلة ، أما الدافون

فعلينهم تفريغ حولة السفينة ، وأن لا يتركوا بها سوى مؤن تكفي لاسبوع .

أريد السفينة جاهزة للإفلاق عند أول خيوط الصباح . أبعثتم

مساء يا مساده .

نهضت من مجلسى حتى لا أدع مجالاً للمناقشة ، فلم يروا بدا من الانسحاب . قصيت الليل أرقاً ، واستيقظت مع أول خيوط الفجر . تركت لهم أوامرى أن ينتظروا عودتنا خلال أسبوع ، وأن يصلحوا السفينتين جهد الاستطاعة ، وأن يجمعوا ما يستطيعون من مؤن . بعد ساعة كنا قد رجعنا المرسى وأدركت مقدمة السفينة عوداً إلى الشمال .

قسمت البحارة ثلاث فرق تعمل كل منها فى التجديف ثلاث ساعات ، وتستريح سناً . لكن الفرقتين اللتين فى الراحة كان عليهما أن يقوما بسائر الأعمال اللازمة كالطهى ، والغفافة ، والمراقبة ، والدعة ، وما إلى ذلك تركت الأمر لضابط كل فرقة أن يوزع العمل بين رجاله ، بحيث ينال كل منهم نصيباً كاملاً من الراحة .

بالرغم من أن حمولة السفينة كانت أحب ما يمكن ، مما أدى إلى أن يكون غاطسها إلى أقل مدى استطاع ، إلا أن التيار كان من الشده بحيث كان التجديف مرهقاً . كان الرجال يهزمون بعد انتهاء يومهم مهكين ، لا يكادون يستطيعون حراكها ، وأظن أن أقصى ما فاعلنا هو خمسة يتروات يومياً .

كاد السير بطيئاً ، لا ، لكنها على الأقل لم تصادف أى جومى . إنتهرب العرصه ، ودأت أكتب ملاحظاتى على الشاطئ ، والرياح ، والتيارات ، والظواهر التى يمكن أن تتوقف فيها السفن ، إذ أنه لم يكن فى الإمكان ملاحظة ذلك أثناء العاصفة . أدت مروت سحر تماماً من إصاباتنا ولم يبق سوى زئب حفيف فى أعلى الجبهة ، أغضت أن تخفيه بأن عطشه بحصه من شعرها الجليل .

قصت معى معظم ساعات النهار تقريباً ، حتى وقت الكتابة كانت تجلس فى قرنى صامته ، صابرة إلى أن أتمنى . عند التمشيش أو قيادة الدفة كانت تقف بعيدة بحيث لا أكاد ألحظ وجودها فى المساء كانت تجلس معى ،

أو ترافقني في حولة على سطح السفينة . أضحي النعام بينما سهلا إذ أن ماتملته من اللغة الديموطيقية خلال المدة الماضية كان أكثر من الكفاية للنعام العادي ، في حين أنني أيضاً إنتقلت الكثير من لغة البانتو ، والسواحلية .

مضى اليوم الأول دون أن يظهر أى أثر للسفينة المفقودة ، وفي المساء رأيت أن أعطى البحارة فرصة للراحة ، فلبّات إلى أحد الحليجان الكبيرة . قبل الفجر تحركنا ، ومضى اليوم الثانى أيضاً كسابقه ، وأتبعه الثالث . في صباح اليوم الرابع بدأت أقطع الأمل من العثور على السفينة ، أو أى أثرها ، وأحدث أفكر جيداً في العودة حينما صرخ مراقب الصاري أنه يرى شيئاً طامداً يدفعه التيار نحونا .

وقعت هذه السفينة . وبعد بعض وقت طويل حتى شاهدت قطعة خشبية يدفعها التيار . حينما اهتدت لم يبق لدى شك في أنها من أخشاب السفينة المفقودة . كانت لوحاً صهماً ، وفوقه تمعدت جثتان لإثنين من البحارة . أسرعنا بالنشأهما ، ووجدت أنه ما زالت فيهما بقية حياة وأسندتهما للكاهن الطيب سفا تحت . كان الجوع ، والعطش قد نالا منها حتى أن شفتهما شفتنا ، كما تصعب المسانان ، واحترق جلدهما من نعرهما المستمر لاشعة الشمس الحارقة ولم يكن في الإمكان استجوابهما .

عني أن مجرد وجودهما كان كافياً لأن يحني مواتي لأمر في بعضي أن أعثر عن غيرهما ، كما دفع البحارة إلى مزيد من الخاس في التجديف ، حتى إن الكثيرين تروا أن عدوا أجل نوبهم ويشاركوا زملائهم ، وكانت النتيجة . دفعت السفينة لسرعه لم تقاربها من قبل . ومع هذا فقد حل المساء دون أن نمر على شيء آخر أو على أحد من السفينة المفقودة .

ألقيت المراسي في أحد الحليجان ، مارعم من أن البحارة أرسلوا إلى يدسون إستعدادهم للاستمرار في التجديف حتى يعيب القمر ، إلا أنني رفضت ذلك لما رأيته من معاناتهم طوال اليوم . أرسلت في إستدعاء الكاهن أسأله عن

حالة المحاربين المنتقلين فقرر أنها في خمس ، لكن ما زال مستحيلا أن أسألهما .
 وقعت مع مرت سجر عند حافة السفينة وراى علينا صمت قلق ، وروحنا
 تتشغل بمراقبة القمر ، وأشعته تنعكس على صفحة مياه البحر ، والكون
 في سكون كامل يزيده بهاء أصوات الأمواج وهي تأتي من بعد وتتكرر
 على الشاطئ . فجأة قطع السكون صوت صرخة نثرية أطلقها شخص بلغ به
 الألم ذروته .

الفصل الحادي عشر

صائدو الرءوس

بالرغم من أن ما سمعته كان مجرد صرخه ، وبالرغم من أنها لم تتكرر ، إلا أنني لم أشك لحظة في أن أحد محاربتنا هو الذي أطلقها ، وأنها صرخة موت . تركت القبة ، بدأت أصدر أوامري بسرعة . أعطيت جميع الأنوار في السفينة وقدمتها لمحارب ، نحو الشاطئ ، حتى أتمكن من إمرال السفنات .

أمرت أن يبقى ثلاثون شخصاً للحراسة ، وهددتهم بالموت إن أعمل أحدهم عيبه أو تراخى في المراقبة . لم أكن واثقاً أن من كان يعذب لحمار ، أو يقتله لم يرنا ، وربما تعتمد أن تسمع الصراخ حتى يندفع إلى فح أعده . من جهة أخرى لم يكن هذا يعني أن أنعاضى عن الصرخة ، وما تحمله من معار . إن الذى أصطفها لاشت أنه مات ، لكن ليس معنى هذا أنه ليس هناك عشرات غيره ، وربما باقى بحارة المركب الممعدودة جميعهم ، ينسرون المصير نفسه

كانت أشجار العانة تصل إلى حدود المياه تقريباً ، ودرق لا يتعدى عشرين نبيو (خمسة وعشرون متراً) ثم أرل كل نقوه إلى الشاطئ خشية أن يكون هناك كمين ويقتل عدد كبير قبل أن يصل الباقون إلى حماية الأشجار . لهذا قسمت القوه إلى ثلاثة أقسام ، وأمرت كل صابط قسم ألا يهبط برجاله حتى يصل الدين سيقوهم إلى الأشجار .

قدمت الجماعة الأولى ، ولم أوقف لحظة . أمرتهم بإسراع الخطى نحو الة ، ووصلنا بسلام . في دة تق أخرى كانت الجماعة التالية قد وصلت ، وأعقبها الأخيرة . لم أكن أعلم من أين أتت الصرخة ، لكن طبعاً لتقديرى أنها جاءت من ناحية الشمال . تركت الفرقة آراء إياهم بعلم الحركة ، أو

إصدار أى صوت حتى تأتى إليهم تعليماتى ، أو إذا سمعوا صرخات ، استنجاد صادرة منا .

استعجبت معى أوتى ، وغنحو ، وخمسة أفراد آخرون ، وتقدمت فى العابة محاذرا . كان القمر يرسل أشعته باهتة تتحلى الأشجار ، لكن ضوءها لم يكن كافياً للرؤية الواضحة ، ومع هذا فلا شك أنها كانت عونا كبيرا . لم أشأ حتى أن أشق طريقى بقطع الأفرع ، وتعمدت أن أتعادها قدر الاستطاعة .

سرت بمعاداة الشاطئ . تقريبا حيث رأيت أنها المنطقة التى تخفى فيها الأشجار ، وفروعها غسقا .

تداهى عاملان . من ناحية كانت المنطقة جديدة على ، ولا أهرى وحوشها ، وصواربها ، وهوامها ، بالإصابة إلى هذا كنت مازلت فى شك من احتمال وجود كمين من عدو ماكر ، غادر ، يستدرجى ورجالى إلى أنسب الأماكن بالمسلة له . ومن ناحية أخرى كانت الصرخة التى سمعتها مازال ندوى فى أذنى ، وتدفعنى إلى أن أغذى السير . فصلب التأتى . أيا كانت الاحتار التى تحيط بالرجال ، فانهم استمروا فيها أكثر من حمسة أيام ، ولن يضيرهم الإنتظار ساعة .

كنا نتعجل لاشعوريا حينما يسقط ضوء القمر ، ونلتكأ تلقائيا فى حماية الظلال . ندور أعيننا فى العابة تتلصق الأشباح ، وتقصنت آذاننا المرهفة تلتقط الأصوات . كان عنجور أول من سمع الأصوات أحسب بيده تقبص على دراعى متسوقمى ، وحينما ألقت إليه أشار بيده إلى أدبه موحها أنه سمع شيئا أرعب السمع ، وجاءتني الأصوات مختلفة ، وإن كنت لم أثبتن إلا أنها بشرية .

فى الدقائق التالية سرنا بحذر أكبر ، ولم سكد بقطع اصع هضرات من النيبوات حتى ظهر أمامنا ضوء نار من خلال الأشجار الكثيفة . دهشت

إذا كان الضور . بعيداً عن الشاطئ ، على عكس ما توقعنا أنه يكاد أن يكون إلى الغرب تماماً . حطرت في دالي أنه لابد من وجود دوت أو أكثر ، يتجه بين الأشجار من موقع النيران إلى الشاطئ . همت بذلك إلى عنبر فأولماً برأسه ، واحتنى بعد لحظات .

يسر ألسنا كنا على مفرة جدا من الدرب إذ أنه لم تمص دقائق قليلة حتى عاد مقررأ أنه عثر عليه . سرنا ورامد وسط أقل من ثلاثين نبراً توقف . أشار إلى الدرب حلف الحاجر من الأشجار مباشرة ، وقال إنه يستحسن ألا نصل إليه . دألسنا لاسعد عن مكان القرية كثيراً ، ومن اليسير على من هبها رؤية أى شخص يظهر في الدرب . وافقته على رأيه ، وإن كنت في الواقع لم أزد معرفة مكان الطريق إلا لاستمالة جبن العودة ، إن اضطررنا الظروف إلى العدو حيث أننا لم نكن نعرف مسالك العودة ومن اليسير على أعدائنا اقتناصنا فيها .

لجأة دقت لطبول ، وارتدادت الأصوات ارتداداً حتى أنني لم أشك في أن سكان العانة يقيمون وليمة . اقتربنا إلى مسافة كافية للرؤيا ، وخلصنا بين الأشجار . كانت مساحة خاليه كبيرة أشعلت النيران في وسطها ، وفي طرفها البعيد ، أقيمت وليمة . على الأرض بسطت أنواع مختلفة من العاكبة ، وبعض المأكولات الأخرى التي لم أتنبها . كان الجميع جلوساً على الأرض سوى رجل واحد جلس على جذع شجرة ، بالرغم من المسافة التي تفصلنا ، فإن الصوت أظهر مدى بشاعة الوجه ، وصحافة الوجه .

قامت جمعة ترقص على دقات الطبول . كانوا عرايا لا يستر جسدهم شيئاً ، نساء ، ورجالا . لفت نظري فيهم طول القامة غير العادي حتى أنني مع ضخامة جسمي ، اعتقدت أنني أقل منهم طولاً . كان الكثيرون منهم قد صلبوا وجوههم ، وأجسادهم ، بألوان متباينة ، ورسومات غريبة ، جمعت منظرهم مفرعاً . إلى جانبي تحرك عنبر ، وحينما التفت إليه تمجبت إذ رأيت به يتزع ثيابه . في ثوان تجرد عارياً ، وما كان في الإستطاعة أن تعرفه عن الراقصين .

بخمعة غريبة تحرك ، ولم تمص لحظات إلا وكان الظلام قد ابتلعها . أدبرت وجهي ثانية نحو الساحة أستطلع . رأيت الأكواح متناثرة حول الساحة فيما يشبه الدائرة ، واستقرت عيناى على أربعة منها فى أقصى الشمال الغربى . أبصرت رجالا دائروا الحركة حولها ، وأيقنت أن جماعة من أصحابنا قد سجدوا فيها ، وأن الرجان يقومون بالحراسة .

هررت أن تتجه إلى الأكواح ، فى محاولة لإماد البعارة المعتقلين . قبل أن أفعل أرسلت أحد الرجال إلى باقى جنودنا طالبا منهم أن يتقدموا إلى أقرب نقطة من القرية ، وأن لا يقوموا بأى عمل حتى نأنيهم لإشارتى ، كان عليا بعد ذلك أن نخترق الدرب لنصل إلى الناحية التى تقع فيها الأكواح . اتجهت بجماعتى الصغيرة صوب الشاطئ . ، بعيدا عن مرمى نظر من كان بالقرية ، وعبرنا الدرب ، واحدا إثر الآخر ، ومن ثم اتجهنا ثانية نحو القرية .

هنا وقعت الطامة . فى لحظة كنا نتلصص بين الأشجار فى أمان ، وفى اللحظة التالية كان عشرات الرجال يحيطون بنا من كل جانب . بحركة لا شعورية وصمت يندى على مقض حساسى . وكأىسا نسمع سحر سحر ظهر القوس ، والسهم فى يدي أوى ، كما استعد باقى الجنود ، بينا وقف الرئوح حولنا رادعين أيديهم برماهم الخشبية . عم السكون ، حتى دقائق الطمول توقعت .

للحظات تجمد الموقف ، ثم رأيت ألا فائدة من المقاومة فأصدرت أوامرى بانزاع السكينة ، واسترخت الأعضاء المتوترة . بالرغم من سوء موقعنا فلم أملك إلا أن ألاحظ مدى طول فترات الرئوح أمامى . بهم يكن منهم من هو أقصر منى ، وكان معظمهم أكثر طولا ، قبيلة من العملاقة ، مع هذا كانت أجسامهم صغيرة فلم يكن هم عرص مناكب ، أو مصيل عضلات .

تشكل ما هموا أما استسلموا لم يحاولوا أن يأخذوا أسلحتهم ، واستدار الجماعة أماما أمرى إيانا بالمسير . تحركنا وهم يحيطون بنا من كل جانب ، وهذا الشكل دخلنا القرية . اقتادونا حتى وصلنا أمام الرجل الجالس على جديع

الشجرة الذي كان رعيهم ، لا أدنى شك . إذا كنت قد لاحظت بشاعة وجهه وصحامة جسده من بعد ، فإنني حينما اقتربت منه هالتي الاثنان . كان وجهه أقرب إلى القردة ، إلا أنه لم يكن عليه شعرة واحدة ، أما شعر رأسه فكان جمداً ، ومصفوفاً إلى حد أنه كور مجارى حالية تماماً .

على أن بشاعة وجهه لم تكن شيئاً إلى جانب صحامة الجسد . حينما وقفاً أمامه وقف ، كان مادداً بين العناقلة حتى خلعت أمني قرم . فاقى طولاً بقبضة يد على الأقل . كان رأسه صغيراً بالنسبة إلى جسده ، وعلى العكس من ذلك ، بدا عقه ضخماً قصيراً ركب على كتفين هائلين ، يطوان صدرا عريهاً مثلًا شعماً ، وخباً وتدل ذراعان معتولان ، ووصل طولهما إلى الركبتين . كانت القوة البدنية المخارقة ممثلة في كل جزء منه .

تقدم حتى صار أمامي مباشرة ، ومد يديه ليقبض على دراعي يسرهما إلى جانبي . شعرت بأن عطامي تكاد أن تنهشم بين أصابعه . لجأة رفعي من الأرض دون أن يشي دراعيه ، وأحسست كأنما أنا طفل يلهو به هرقل . كان يستعرض قوته أمام فومعه ، ولم أدر لماذا عجزتني مهانة جمعتني أتصرف بلا عقل . بسرعة تحرك ساق ليلتقي قدمي بركلة مريعة مع أسهل بطى الوحش . صرح من الألم ، وألقاني بعيداً كأنما أنا كرة لائهل لها ، ولا وزن . ارتطمت بالأرض بشدة دحمت صبوعى وادفع رأسي إلى غير موضعه الطبيعي ، ثم ارتدت ثانية إلى مكانه من العنق ، وعالما ما أكون قد فقدت رشدي لثوان .

قبل أن أتمالك نفسي كان المارد قد رفعي من الأرض بكلتا يديه . لم يكن يستعرض قواه هذه المرة ، وإنما كان يريد أن يعطيني ، أحسست بقصص من الحديد تنهمن حول وسطى ، وبصعطان بقوة ، لو أنها استمرت لثوان لتهشمت صبوعى ، واسكر عمودي لفقري ، لكنه لم يستمر . تقدم مساً رجل ارتدى قساعاً مسجاً على وجهه ، ودين جسده بالكثير من الدهون المتباعدة الألوان . تكلم مع الوحش بهجة أمره فيها غضب . وترأخى الذراعان الحديدان .

سقطت على الأرض في شبه غيبوبة أحاول أن أسترده أنفاسي الصائغة .
ومع كل محاولة كانت عظامي تنبأ ألماً . مكنت لا أستطيع النهوض دقائق ،
ثم شعرت ببركة شديدة في جاني . تمالكنت نفسي ، ووقفت لأرى الرجل
ذا الفناع يشير إلى ويتكلم بلغة لم أفهم منها حرفاً واحداً لكن المعنى كان
واضحاً . تحاملت عن نفسي ، وسرت إلى حيث يقف زملائي . جردونا من
الأسلحة ودفعونا أمامهم إلى أحد الأكواخ الأربعة .

استقبلنا جماعة من بحارة السفينة المفقودة وجنودها ، يستفسرون . كنت
ما رلت أنا لم . واتحامل على نفسي ، لكن ما أن وصلت إلى الكوخ حتى
ارتعيت على الأرض جالساً .

— أهلاً بالسيد القائد .

كان صوت نجم آب . رفعت بعصري لأراه واقفاً إلى جوارى ،
ولم أستطع الكلام .

- كيف أنيتم إلى هنا ؟ وما الذي حدث لك ؟

تركت لرفاقي مهمة الرد عليه ، وركزت إرادتي في استعادة قواي ،
واسترداد أنفاسي . كنت لم أزل أشعر بأثر الأصابع المولادية في جاني ، ولم
يكن تنفسي قد انتظم تماماً ، فجاءت أن أقاوم الآلام . ببطء شديد بدأت
أستعيد قواي ، ويصمعو عظمي اعتدات في جلستي ، إلا أنني لم أتعجل النهوض .
لاحظ نجم آب أنني أكاد أن أفيق . فعال بصوف جاد .

— سيدي القائد عليك أن تتمالك نفسك بسرعة فإن ابدي حال بين ذلك
الوحش وبينك هو الكاهن الساحر . هؤلاء القوم صائدو رقوس ، ومن أكلة
لحوم البشر ، وقد روى الكاهن أن تقتل قبل أن يقوم بطقوسه ، ومعنى هذا
أن أمدمك بصدقه دقائق لتستعيد هوانك كاملة ، وأتران عقلك لأبدك سوف
تقابل رعيهم في حلبة القتال ، والقتال هنا إلى الموت .

كنت أستمع ، وصمما ذهني تماماً . جاء سؤالى معاجاة له :

— هل تعلم أين نجشوا الأسلحة ؟
نظر إلى دهشا لكنه أجاب :
— كلا .

— هل تعلم أين كوخ الزعيم ؟
— أجل ... هو الكوخ الكبير في صدر الساحة .
— أين كوخ ساحر القرية ؟
— إلى جواره مباشرة .

— حسناً . إستمع إذا ورد ما أقول إذا كان كلامك صحيحاً بالسنة
للقتال ولا بد أنهم جميعاً سوف يركزون كل اهتمامهم عليه . سأحاول أن أطيل
أمدته قدره استطاعتي ، وعلقت أن تعود الحجارة إلى طريق السمينة جنوبها .
سوف تبقى مع الجيود اندس جدياً معي . لكن قبل ذلك عليك أن ترسل
بعضهم ، ليسئلي على أسلحتنا ، وأعتقد أنها لا يمكن أن تكون إلا في أحد
الكوخين : الزعيم ، أو ساحر القرية ، وربما في الإثنين

نظر إلى نجم آب كما قد منى خدال ، وحيما تكلم جاءت كلماته
مصدافاً للظنرة .

— كل هذا جميل . لكن كيف نتخرج من هنا . إن الحرس بدورون
بصفة منتظمة حول الأكواح وإذا واجأناهم دون صوت القتل سوف
يسه ، ولا شك ، سائر القرية وسنجد أنفسنا مقاتلين مئات منهم قبل أن
نستطيع الحركة .

— إن عثو قد اندس بينهم ، وسوف يجد ، ولا شك ، طريقة للإمراح
عنكم ، وقتل الحرس قبل أن يتجه سائر من في القرية ، وسوف يكون الأمر
سهلاً وأنا أقاتل زعيمهم .

— إنك لن تخرج سليماً ، ولن تقاقله لأكثر من ثوان .

— ربما . لكن هذا هو الأمل الوحيد .

— لكنك سوف تموت حتماً .

— عالياً ، لكنني سأحاول على كل حال . ولا أريد منكم العودة لإيقادى بعد ذلك . عليكم بالرحيل فوراً دون انتظارى إن لم أعد .

— إنك لن تستمر في القتال مدة طويلة . سوف يقتلك هذا الوحش في دقائق .

ضجرت من منافسته المتكررة فعلت بلهجة أمره :

— لا شأن لك بهذا ، وعليك أن تفعل ما أمرك به . شيء واحد أرجوه إذا لم أستطع الفرار ، فعليك أن تتولى قيادته الرحلة ، وأن تسعيا إلى نهايتها ، ولا تترك إيفو صبح يؤثر عليك .

ماكدت أنتهى من كلامى حتى فتح باب الكوخ ، وظهر منه الكاهن تبعه رجلان . تقدم حتى وصل إلى ، وأمرنى بالخروج ، ولم أحاول الإمتناع . سرت أمامهم إلى الساحة ، ورأيت جميع الأهالى قد يجتمعوا في دائرة كاملة ، داركين مساحة كبيرة خالية في الوسط . لاحظت بارتياح أن من الموجودين من كانوا صغراً ، كما أن النساء كن موجودات أيضاً بكثرة يقف معها الظن أنهم جميعاً قد تركبوا أكوأخين لبشهدوا القتال . وانفسب نفسي . إن هذا سوف يفسر طرق الهرب أمام رجالي ، كما سوف يفسر محاولات عتجو . ماعلى الآن إلا أن أطيل القتال قدر جهدى ، وأن أشد انبء الأهالى .

توسط الكاهن في الدائرة ثم أحد يرء بالمدظ لم أقمها . دقت الطبول وبدأ الرقص حولي . لم أعرد إهتماماً مكل تأخير يعطى عتجو ، ورجالي مرصة أكثر . حلت نظرى في الموجودين ولم أر رعيمهم ، ولعله كان يتلقى ركة كاهن آخر . استمرت الطبول ، واستمر الرقص أكثر من ربع ساعة ، ثم توقف الإنسان معاً كأي بانفاق سابق .

تعالى صرير القوم يستقبلون زعيمهم . من وسطهم تقدم غير عابء بأحد

هم حتى دخول الخلية الفسيحة ووقف أمامي مباشرة . كان هائلا في ضحاكته بشما في منظاره . لم يكن لديه شك في النتيجة ، كما لم يكن لدى أي أمل ، ومع هذا فإني كان على واجب أن أطيل القتال ، جهدا استطاعني . كان السكاهن ما يزال واقفا إلى جوارنا . فجأة صرح ، أعلى صوته والسحب ، وفهمت من هذا أن القتال قد بدأ ، خاصة حينما رأيت يدي الماردا تتحرك .

دعنا لم نكن مضت نصف ثانية على صرخة السكاهن ، كان عقلي خلالها قد استوعب ، وعركت يدي بلكمة صميتها كل قوق ، واصطدمت قبضي بملك الماردا الأسفل . لو أن هذه الصرخة أصابت أي شخص عادي لانتهى القتال أما مع هذا الوحش ، فلم ترد على أن أوقفت تقدمه ، كما ارتد عنقه إلى الوراء . شعرت بأن عظام أصابعي قد تم شمت ، وانناشي آلام في كتي ، ومع هذا فما كنت لأترك له فرصة يضع فيها يده على جسمي . كنت أعلم أنه لو فعل لانتهى المعركة .

بسرعة تراجعت مبتعداً عن اسراعين المولاديين ، قبل أن يعيق ، سددت ضربة ثانية من جانب اليمين ، تحت الأذن مباشرة . أدهلته هذه اللكمة لثوار حتى أنه استدار إلى المواجهة العكسية يبحث عن انتهت المرصعة وقمرت في الهواء . راكلا ظهره مقدسي كلتيهما . جادت الركلة في وسطه عندما هاتر جسده الضخم ، واندفع إلى الأمام يتحبط ، ينهار سقطت أما على الأرض .

حتى هذه اللحظة لم يكن قد لمسني ، ومع هذا فإني كنت أعث ، وأشعر بالآلام حادة في أصابعي ، وكتي ، وبحوري دكتي . كانت صريري الثلاث جميعها موقفة إلا أنني كنت في كل مرة أشعر كما بما أرتطم بمحائط لايتأثر . استمدت نفسي ، ووقعت في اللحظة المناسبة . رأيت يدهم نحوي كنور هائج ، وقد مد ذراعيه ، للمرة الثانية قمرت في الهواء ، وامتدت سدقاي تستقبلانه وتركلانه في أسفل بطنه .

صدرت منه صرخة اهتزت لها أرجاء العانة ، وأطاح بإحدى يديه حيث كنت . أصابتني الصربة في كتفي ، وشعرت بمعنى أطير في الهواء لأرتطم بالأرض الصلبة . ارتجت أصلاعي جميعها ، وشعرت أن ذراعي الأيسر قد توفف عن الحركة . لم أستطع النهوض من مكاني ، ووصلت أدنى أصوات محاطة بين الخفاف ولشجيج . توقعت أن ينقص المارد على وأن يهيئ المعركة لصربة واحدة من فصته . ولم يحدث شيء . وقفت أترنح ، والدنيا تدور في . عشت عيشة عمامة ثم أرامى إلا مجرد أشباح لا أستطيع تمييزها . حدث المارد يتقدم نحوي مسدداً لكفة أخرى إلى رأسي لحاولت تقادها ، ولم يكن الأمر كذلك .

مصت نصف حقيقة قبل أن أتبين الأشياء جلياً ، وعبت لماذا لم يجر على . وأما في شبه غيبوبة . كان المارد جالساً على الأرض يتألم أثر الزلعة الأخيرة ، لم أتعجل الهجوم عليه . كنت أتما في حاله يرثي ها ، ولم أكن قد استعدت حواسي تماماً ، كما أن حركة ذراعي الأيسر ، وكتفي كانت عارال شبه مشلولة . كنت أعلم أن ما أتخير به عن المارد هو العن ، وحملة الحركة ومن المحتم على أن أستغل الميزتين إلى أقصى الحدود ، لو أردت أن أطيل القتال .

عندما ارتكبت الخطأ الذي كان يؤدي بحيدي . لقد قدر لي معنى الميزتين ، وكنت على حق . لكنني لم أدر خصمي حق قدره ، ولا أنا قدرت مدى عجز ذراعي الأيسر ، ولا أنني كنت لم أستعد رشدي تماماً . اتجهت بسرعة نحوه ، وصرته أمامي قوتي في عتقه العليظ . ترنح وهو جالس ، لكن في اللحظة التالية امتدت يده بسرعة أدهلني لتقبض على يدي وتشدني إليه .

أحسست بالدراعين الحديدية يطويان حوصري ، ويضعطان على عمودي الفقرى . كان المارد عارال جالساً على الأرض ، لكنه اعتدل بشكل ما ، وانتصب جزء جسمه الأعلى راكمأ على ركبتين . حاولت بأقصى قوتي أن

أدفعه عنى ، ثم تبيّنت أنها محاولات صميائية . لفترة بدأ الذعر يتناوبنى ، وطمعت اكيل له المكائت بلا هوادة ولا هدى . أردت أن أتخلص من الدراعين الذين يعصمان عمودى ، ففكرى ، وبمخاض عنى كل نفس .

بدأت السجادة السوداء تعشانى ثدية ، وعلا طنين مزعج فى أذنى ، وبلا شعور أيقنت أن المسألة لن تعدو ثوان . لم يأت به المارد بضرباى . ومع أن الدماء كانت تسيل من أعنى ، وفمه ، ومع أمها ولاشك كانت تؤلمه ، إلا أن صمط اندراعين لم يخضب . حاولت محاولة أخرى . هردت ذراعى ، وبأقصى ما أستطيع من قوة صمطت بها عن أذى المارد . شعرت بسهم من ار يحرق كنى الأيسر ، لكن غريمى صرح ، ورفع دراعيه عنى .

سرعة . شددت عنه ، وأحدث أنفاس الهواء شدة كان عمودى الفجرى فى حالة يرئ لها ، حتى أنى أحسست كأن جرقى الأذى قد انصم عن الأسفل واشتدت الآلام فى كنى وذراعى ، لكن تعمى ابتداء بتنظيم ، وأخذ لطنين يحب من أذنى ، وترفع العشوة عن عيني . نظرت إلى المارد . كان مايرال على الأرض منحنياً ، ورأسه إلى أسفل وقد وضع يديه كتيها على أذنيه بين من الآلم .

أيقنت أنى لم أتخلص منه سريعاً ، فأننى لن أحتمل ، وسوف أكون فريسة سهلة له . إن أية ضربة من ضرباته لو أصابتنى فستقصى عنى . كان على أن أفكر ، وأن أعمل سريعاً ، وهو مايرال على الأرض ، وقيل أن نعود إليه جميع حواسه .

قدّرت خطواتى التالية . مثل هذا الوحش لن ينتظر حتى يسترد وعيه تماماً ، وإنما سوف يقف بمجرد أن يشعر بأن الآلام بدأت تخف . ومثل هذا الجسد يحتاج إلى وقت ليتصب وافقاً ، وكان على أن أصبط صريرى الثانية بحيث يكون توقيتها محكماً . دنوت منه قليلاً أحشه على النهوض قبل أن يشعر بقدورته التامة عليه ، فكلما تمجل القيام ، كان أظاً حركة . حدث

مانوقته . وضع يده كلتاهما على الأرض يستند جسده الصخم ، استعداداً للنهوض ، وها تحركت . للمرة الثالثة قمزت في الهواء ، وللمرة الثالثة ، إرتطمت به قدمائى . هذه المرة فى رأسه .

كان فى منتصف حركته حينما تلقى الضربة . شعرت بأن رأسه قد ارتد إلى الخلف ناركاً رقبته فى مكانها . رأيت الجسد المائل يتراجع كأنما يلاحق الرأس فى محاولة لاستعادة توازنه ، ثم يسقط ممتدداً على الأرض . لم أنال بالآلام التى كنت أشعر بها ، وأسرعت متدلاً للمرة الرابعة قمزت فى الهواء . لكن لتسقط تـمـاى كلناهما على وجه المارد .

لست أدرى كيف حدث هذا . لعل شدة الألم هى التى دفعته إلى ما فعل أو لعل لم أعط عقله ما يستحق من تقدير . أيا كانت الأسباب فقد إرتفعت صرخته مدوية ، وطوح بيده بالآلام بقوة لتضطرم قصته بجنى الآلم . شعرت بالآلام جادة هرمت أن صلعاً أو أكثر قد تكسر فى قصصى الصدرى . طوحت فى الضربة حتى أبى وجدت نصى وسط جماعة من رجال القبيلة . انتهالت ضرباتهم يدهموني ثانية إلى الخلة .

وقعت أحاول أن أسس دور أن أفسر فى الوحش الذى أفاقه . كانت آلام صدرى لا محتمل حتى أنها طفت على كل شعور آخر . كنت أرنج ، وقد غشى عيني ظلام يجمع الرقبا ، وعذت أبى سأفقد الـمـعنى إن لم أفاوم ، من مكر ما فى أعمرى ، ربما من اليا ، النص ، أو من سحج ، انقوه الحيوية ، أو من آب ، الإرادة ، أيا كان المكان فانى إستجمعت قوة لا أدرى من أين جاءتنى .

فى دقائق كنت قد تطلعت على صغفى ، وزالت العشاوة عن عيني . لم ترأينى آلام صدرى ، لكننى تحكمت فيها . رأيت المارد ، ما يزال جالساً على الأرض واصعاً يديه على إحدى عبيه ، وهو يش ألباً . أعدت النظر فلاحظت أن يديه مخضبتان ، كما أن الدماء تسيل من أنفه بفرارة . إلتفتنى موجه من الرحمة

حيثما علمت أن حداثى فقاً إحدى عينيه ، وهشم أنفه .

تعالى هتافات الأهلالى تصم الآذان . ومع أبى لم أكن أفقه مايقولون إلا أبى سمعهم يرددون كلمة واحدة . كان من اليسير على الآن أن أقضى عليه بالرغم من آلامى إذ أن حالى أحسن كثيراً من حاله . ومع هذا لم أتقدم إليه . لو أن شيئاً دار فى خلدى وقتئذ فإني سأولى عما إذا كنت أجرؤ على مساعدته بحاطراً بأن أكون تحت رحمة يديه . لم ترايلنى الثقة أنه ، بالرغم مما هو فيه ، قادر على أن يقتلى ، صربة واحدة .

إذا كنت لم أفهم ما يردده الناس ، فإن تصرف الكاهن لم يجعل لى سبيلاً إلى عدم انهم . تقدم حاملاً سببى ، وصار متاهضاً وراء المارد ، يريد قتله . تعديت مظهراً أبى لم أفقه شيئاً حتى إذا ما أضفى خلف المارد تماماً ، قصرت عليه وأمسكت يده قبل أن تهوى بالسيف . تحرك الرجل الجريح قليلاً ، وبالرغم مما هو فيه رأى ، وهم . كان الكاهن الساحر فى مثل طولى لركبته أبعد ما يكون عن قوى .

صعقت على معصيه حتى سقط السيف على الأرض . لم أترك يده وإنما جدته بشدة قدوت به بعداً بين أحضان شعبه . وفى اللحظة التالية كان سيف فى يدي . ارتفع صياح الناس حتى أصبح صراخاً كائياً من أكلة لحوم البشر ورأوا الدماء تسيل ، ولهم منوا أنفسهم بولية على الجسد الهائل لميلهم ، ثم شاهدوني أحرمهم منه . جن جنونهم ، وحرصهم الكاهن الساحر ، فاندفعوا يحوى يملون ، ويهددون . وهمت مستعداً للدفاع عن نفسى ، وعن الوحش الجريح ، ولم أيقنت أم إلى هى إلا اللحظات ، ونوت .

لحظة صمتت الضوضاء ، وبدلاً من أن يتقدموا ليطلقوا علينا ، رأيتهم يتراجعون مرتين . أحسست بحركة إلى جانبي فالتفت ليهتفنى المزعج بدورى على قيد حيلولة مى وقف جدار أسود يترنح ، والذماء تسيل من عينيه ، وأنفه كان وجه المارد شعماً طبيعته ، أما الآن وقد فقد إحدى عينيه ، وهشم أنفه ،

وتورم غده ، فانه أصبح مغزاً رهيباً . كنت أعلم أنني أصبحت تحت رحمة تماماً فذبح أن السيف كان في يدي إلا أنني لم أتمكن من إصابته قبل أن يهوى بقبضته على ، وفي هذا الموت لامناس .

تسمرت في مكاني موقفاً بالموت ، إلا أن اللاردام يلتفت إلى ، واستمر تقدمه نحو الجماهير المحتشدة . تراجعوا إلى الوراء ، كل يود لو فر من أمامه إلا أن صعط الصفوف الخلفية منعهم من ذلك . نصايح الناس من خلف يحضون رملاءهم ، وبدأ الآخرون يستجمعون شجاعتهم ، خاصة بعد أن لاحظوا أن اللاردام يرنح في مشيته . التفت خلفي في الوقت المناسب لأرى جماعات أخرى تطلق عيها . تحرك سيني بسرعة فأسقط اثنين ، وتراجع الآخرون مذعورين .

من السماء تساقطت سهام كأثام الدنيا تمطرها ، وتعالى الصراخ ، والآن بين الجموع المحتشدة .

الفصل الثاني عشر

التمرد

كنت قد اعترفت ألا تنق في الخليج لاكثر من يومين حتى أستطيع أن أعيد تنظيم رحلة العودة ، ونموذجي ، لكن الواقع أنني رحت في غيبوبة حتى لم أفق منها إلا بعد ثلاثة أيام . حينئذ انتهت وجدت أن صدري جريحه تلفه الصدمات ، كما تبينت أنني في حالة ضعف شديد حتى أب أبية حركة كانت تقتضي مجهوداً .

أحسست بموج شديد فتململت محاولاً السواء على أن يسمعني أحد البحارة ، وفي لحظة ففرت مريت سحراً من الأرض لتعني على هراشي فسألني بلمحة عما أود . كان وجهها الجميل متحماً ، علكه صغرة توحى بأنها لم تدق النوم لأيام إلا لماماً ، ودلت نظراتها على مدى القلق الذي يعمل في نفسها . إنه سمعت انقسامه باهتة في محاولة أن أضغط ، وسألها أن تأتي بالطعام . لم أكد أتم كلامي حتى كانت قد اختفت من القمرة ، وبعد دقائق عادت ومعها حقائظ ، وصينية مليئة بالفاكهة ، وأنواع متعددة من الطعام .

لحمى الكاهن ثم ابسم علامة الرضا :

— إنك قوى ، لو أن هذا المارد الذي أنيت به ضم شخصاً آخر لتحطمت عظام صدره جميعاً وصغطت على رقبته . على أي ، فيلزمك بضعة أيام لا تتحرك فيها وتستطيع أن تأكل ما تشاء .

— بضعة أيام ؟ كم يوماً بقيت فيها في غيبوبة ؟

— ثلاثة أيام ، ولا أدري كيف جئت سائراً على قدميك .

— ثلاثة أيام ؟ كنت أظنها يوماً أو بعض يوم !

— كيف حال المارد ؟

— لا بأس ، وإن كان وقد إحدى عينيه تماماً كما أن به الكثير من
الرضوخ ، لكنها جميعاً بالنسبة إليه سطحية . إن غنخو قد اتخذ حليلاً .
هل ستحفظ به ؟

— لست أدري . إنني إذا أعدته إلى قومه فسوف يقتلوه . لا محالة .
حاولت أن أعتدل جالساً فشعرت بوحرة ألم شديدة في صدري . هرع
إلى حتما نحت ووضع يده برقى على كتفي .

— لا تحاول الحركة . سوف تقوم مروت سحر بتفديتك ، وخدمتك .
في الواقع أنها علمت ذلك طوال الثلاثة أيام الماضية . كانت تسقيك السوائل
والادوية في صبر وأناة عجيبتين ، كالم تمل من وضع الكدادات على جبهتك
حيثما تراد عليك الخي . ساعدك حين يديها الآن إذ أن لدى الكثيرين
من الجرحى .

— هلا أرسلت إلى نجم أب ؟

أوما رأسه وعادر الفمرة . تقدمت مروت سحر ووضعت بعض الوسائد
لترفع رأسي قليلاً ، ثم جلست تطعمني وتسقيني . كان أول إحساس هو
الخرج ، ورعاً الذأف . ثم اجتاحتني شعور بالعبطة ، ورغبة غامرة أن أراد
التصفاها . كانت لها رائحة خاصة دون أن تصع شيئاً من الطيب رائحة
حميمة تشدني إليها ، وتريني إحتلاطاً بها ، وقرأماً بها ، واستمرافاً بها .

وعلى هذا الحال دخل نجم أب . تلاعبت على شفتيه ابتسامة حميمة دعوت
الدم إلى رأسي خجلاً ، فنجيت الفتاة يدي قائلاً إنني إكدهيت . خامرتني
شعور بالندب لأدري له سبباً . حانت مني إلتفاتة لإرادة محورها ، ورأيتها
تجلس إلى جوارى كافلكم وقد رفعت رأسها ، وانظرت إلى الداخل متعذبة .
أشرت إلى المقعد ، ولما جلس سألته :

— من تعلم كم عدد الرجال الذين فقدوا في البحر أو في القتال ؟

— هل كتبت قائمة أسمائهم . مائة وتسعة قتلى وغرق ، وإثنان وعشرون جرحى ، معظمهم في حالة جيدة سوى ثلاثة لا يعتقد الكهن أنهم سيعيشون .

— والتقوين ١٤

— إن الرجال قائمون به ، ويكاد أن ينتهى . ربما غدا ، أو بعد غد .

— هل عاود الأهل هجومهم ؟

— كلا

— وحالة الجو ١٤

— زالت الرياح شمالية ، والسماء مليئة بالغيوم ، وربما تصادها عاصفة خلال ساعات ، وإن كنا هنا في الخليج لن تتأثر بها كثيراً .

كنت أذكر أن نبحر دون انتظار لإتمام التقوين ، ولكننى ترددت حينما سمعت بأن عاصفه وشبهه على أهول .

— حينئذ انتظر حتى تم التقوين ، وسوف نرى حالة البحر .

خرج نجم أب ، وحاولت مرة أن تستأجر إصمعى إلا أننى رفضت ورجعوا . أن تتركى لاستريح حيث أى شمرت لحاة بأية شديدة . ما كادت تخرج بدورها حتى أهدب نصي لوم عميق . استيقظت على أصوات عاصفة كانت الرياح ترجرج بشدة ، ووصلى أصوات الرعد بهدوء ومع أننا كنا نرسو في حبيح تحمية الصحور ، كما تمكننا من معظم الجهات الأشجار ، إلا أن السعينة كانت تتمايل ، والصواري تش تحت لطمات الريح . حاولت أن أقوم من فراشى وأحسست بألم شديد في عظام صدري ، جعلنى أبذل المحاولة وأحلد إلى النوم .

يبدو أنى أكملت اليوم الرابع ، إذ أننى حينما صمرت كانت الريح قد هبات ، والشمس تدخل من كوة الفمرة . على المقعد الأمامى رأيت مرة

مبهر جالسة وقد أسندت رأسها على يدها ، وراحت في ثبات مكثت أرقبها وأمتع ناظري شعرها العاحم الطويل وقد تهدل على كتفها ، وتدبت منه خصلات تخفى الجزء الأعلى من وجهها . كان كل شيء فيها حيلا . الأنف المستقيم ، وانهم الدقيق ، والجلد الأملس ، والصدر الناهد ، والذراعان الملمعتان ، وليد لصغيرة ، والأصابع الرقيقة . حتى العظام التي كانت ظاهرة في بعض الأماكن لم تبد كثرة بارزة إنما إنديجت بشكل مائع سائر الجسد . مصت دقات وأنا أتأملها معجبا .

— هل اكنيت ؟

ووجئت بالسؤال فارتبك واحمر وجهي ، حينما رفعت رأسها جابهتي عيناها

— هل أنت مستبطة ؟ لم أكن أعلم ذلك ؟

ارتسمت ابتسامة جميلة على شفاهها ، وهالت بهراحتها المعتادة

— هذا واضح . إنني إستيقظت لحظة تغلبك في فراشك ، لكن حينما رأيته تصحني كرهت أن أقطع متعتك . هل اجتزت الإمتحان ؟

إزددت إرتباكاً . الواقع أن بعدت عن المتبات ، والذساء مدة طويلة منذ زواجي الأول ، وكنت أتمشى مجرد لجلوس معهن ، لهذا دأبني وجدت نفسي في حيرة تامة لا أدري كيف أنصرف معها ، تعاشيت أن يبتني ناظرنا وقلت في صوت أجش محاولاً أن أغير مجرى الحديث :

— هلا ساعدتني على القيام ؟

في ثوان كانت إلى جانبي على الفراش تمسح برقة محاولتي النهوض ، وبدأ القلق على وجهها ، وصوتها حينما تكلمت .

— كلا لا تحاول الآن .

— سأجلس على الأقل .

ترددت لحظات ، ثم قالت وهى تسرع بترتيب بعض الوسائد خلف ظهرى :

— حسناً إنظر قليلا .

أعانتى بعد ذلك ، وعاودتنى الآلام فى صدرى ، ولكنها كانت أخف وطأة من الأولى . حينما اعتسلت فى جلستى ، شعرت بدوار حاد ما لبث أن زال ليحل محله شعور بالضعف الشديد . وكأىما قد أحسست بما أشعر . لم يتدرتنى .

— سأتركك قليلا لأحضر الطعام . لا بد أنك صعب .

لم تنظر إجابتى ، واندهمت فى رشاقة الفزال حارحة . جاءت بالطعام ، وحينما حاولت أن أطعمنى رفضت مقررأ أبى لست فى حاجة إلى معونة ، ومع هذا فإنها طمت جلستى إلى جوارى . دبت فى القوة شيئاً فشيئاً مع كل قطعة طعام ألقمها ، وشعرت بدماء الحيوية تعود متدفقة فى أوصالى الواصلة . أخذت الفتاة بقايا الطعام ، وأخرجته ، وبعد دقائق عادت بطست وإبريق . خرجت ثانية بعد أن اعتسلت ثم ما لبثت أن عادت يصحبها حقا نخت الطيب ، وجم آت . تقدم الطيب وقال وهو يتحسس الأربطة ويضعط بأمله على عظام صدرى :

— إنك أحسن حالا ، وقد زالت الصغراء التى كانت تعاو وجهك .

كيف حال نفسك ؟

— إن الآلام قد خفت كثيراً .

— لكنها لا زالت موجودة . لدع الأربطة كماهى ، وأرجوك

ألا تتحرك .

— لكننى فى أحسن حال ، وأعتقد أننى أستطيع الحركة .

لا ... ليس بعد . يوماً آخران وسوف ترى .

تردد قليلاً ثم أجاب :

— ربما أمكنتك أن تجلس اليوم ، ثم تقرر عدأ .

— أكتفيت مؤقتاً بهذا الوعد ، وسألته عن الجرحى .

— لقد مات ثلاثة رجال أما الباقون فلا بأس بهم .

تحول نظري إلى نجم آب متسائلاً وأجاب :

— إن السفينة مستعدة للاقلاع وقد ملأناها ، أطعمة ، وفواكه ،

وبعض اللحوم ، الطارئة ، والمجمدة .

— إذن ماذا تنتظر ؟

— أوامرك . سأصدر التعليمات بالإقلاع فوراً .

خرج مصطحباً الطبيب ، ولم تمض دقائق حتى وصلنى صوتة الجمهورى
يصدر الأوامر بين المظ السباب . دقائق أخرى ، وامتلاً سطح السفينة
لشباطاً ، ثم ما لبث أن أحسست بها تتحرك . وقد استراحت أعصابى
لشعورى هذا فرحت فى سبات عميق .

فى اليوم الذى بدأت الحركة فى السمرة بمساعدة سيجر أولاً ، ثم بمعدى
فى آخر النهار . فى اليوم الثالث ، السماع من أول مرضى ، كنت أستطيع السير
بمعدى دون ألم يذكر . عادنى عنحو ، ومعه العملاق الأعور . بمجرد أن
دخلنا أتى العملاق نفسه على الأرض ، وأمسك بطرف الفراش ، واندفعت
من فيه الكلمات . لم أفهم منها شيئاً إلا أبى أمسكت بيده أرفعه من الأرض .
انحسب واقفاً وهو ما يزال يتعم . وقال عنحو :

— إن اسمه سيمبا ، الأسد . وهو يقول إنه مديرك بحياته ، وأنه عندك
ما عاش ، وهو يعتز عما سنده لك من الآلام نتيجة القتال ، ويشكر الأرباب
والأسلاف على شمالك ، ولو أمرته لقطع ذراعيه جراه له تكراً
على ما فعل .

نظرت إلى الرجل . كان صادقاً فى شعوره ، وأحاسيسه ، فشكرته وقلت
إن هذا نتيجة لقتال شريف ، ولا صير . انتظرت حتى ترجم عنحو
ثم وجهت سؤالى إليه :

— كيف عرفت التمام منه ؟

— لأنه من إحدى بطون قبيلة الماء ، وأنا متبا إلى الشمال من هذه البلاد ، وإن احتلعت فوجدنا قليلا إلا أننى أستطيع أن أهتم ما يقرب ، وأستطيع أن أخاطبه إلى حد ما .

كانت رحلة العودة ممتعة ، سواء من ناحية الجو والبحر ، أو تمتعى برؤية مرت سحر . لم تكن الفتاة أثناءها تتركنى لحظة واحدة . عاونى في السير في الحجر ، ثم على سطح السفينة ، كما قصرت نفسها على خدمتى حتى أن غنحو رسيمها اللذين أوديا استمدادهما للخدمة أولا ، تسجيا عنها اكتماء ، على ما يبدو ، مهمة الحراسة . كنت لا أكاد أخطو حتى أرى أحدهما ، أو كليهما على مقربة منى .

في صباح اليوم الثالث ، وصلنا إلى الخليج الذى تركنا فيه السفينة ورفاقنا . كانت أول ملاحظة من بعيد أنه لا يوجد سوى السفينة الكبيرة فقط . درت ، ماظرى في جميع الاتجاهات ، ولم أر أثرا لسفينة ساحو وع . طلست من مرابب الصاري أن يحدث عنما لكنه صاح بعد دقائق أنه لم يرها ، ثم أصاب بصوت منفعل أن هناك ه الا على الشاطئ . فيما يعتقد ، أمرته أن يستمر في المراقبة ، وأن يحطرنى أولا بأول هما يدور .

بالرغم من أننا كنا نسير بسرعة معتدلة فالرياح تدفعنا أمامها ، والتيار يساعدنا ، إلا أننى أمرت أن يأخذ جميع المجدفين أماكتهم ، وأن يبذلوا أقصى جهدهم ، وما بهتت السفينة أن اندفعت تشق طريقها عذمة ورشوة . كان هنالك شيء في داخلى يحذرنى من خطر داهم ، ويدعنى إلى طلب المريد من السرعة . رحمت أصرخ في المجدفين أن يبذلوا جهودا أكبر ، ورأيت عضلاتهم بهر تحت الضغط المريع الذى يعانونه .

صلبت من نهم آب أن يكون الجميع مستعدين بالسقالات ، والملابس الحربية والسلاح وأصبحت السفينة شملة من النشاط . كلما اردادت السفينة اقتراما من البر ، وكلما بدأت الرؤية توضح ما يحدث ، ارداد اليقين أن قتالا حامى

الوطيس يدور على الشاطئ - بين جنودنا ، أو عدد قليل منهم ومئات الأهلالي في البحر ، رأيت عشرات الروارق الصغيرة ، تحط السفينة الكبيرة ويحاول من في الروارق الصعود إلى السطح فيدفعهم الجنود ، والدحارة .

لا بد أن رجال المريقين المقابلين . سواء في البحر ، أو البر ، رأوا وشاهدوا السرعة الفائقة التي تتقدم بها لأن القوارب بدأت تهرع بعيداً ، كما اسحب الأهلالي على الشاطئ . نحو القاعات . بعد ساعة كان ساحورع ، وأبوف عنخ ، ومستوسين مع نجم آب في مرق الخاصة يروون ما حدث .

علمت أن أبوف عنخ اعتقد أننا لن نعود بعد أن مر أسورع على رحيلنا وتولى القيادة . قرر أنه مبع أن الذهب إلى الجنوب من رهاباتا ، ومعنى هذا أنه يعتقد أنه يوجد في المنطقة التي ترسو فيها السفينتان . ذكر لساحورع أنه سيأخذ قوة توغل بها داخل البلاد بحثاً عن الذهب ، وحينما يعود ، سوف يبدأ رحلة العودة إلى الوطن ، حاول ساحورع أن يعارعه ، لكنه لم يملك في النهاية إلا أن يدعن للامر .

في اليوم الثامن من رحيلي أخذ أبوف عنخ أكثر من نصف القوة ، واتجه بها إلى الداخل تاركاً ساحورع لحراسة السفينتين . عاف ثلاثة أيام ، وجاء في الليلة الخامسة ، ومعه الكثير من الذهب وبعض النساء . ذكر أنه توغل في العابة حتى رأى قرية ، ولاحظ أن الكثيرين من أهلها يتحلون بأساور من ذهب مهاجمها ، واستولى على كل ما يمكن من الذهب ، وقبض على بعض النساء ، وساقهن معه حتى يسرى من رجاله أقاموا وليمة ، وشربوا النبيذ ، وعند العجرو عوا بأن السفينة الصغيرة تحترق ، كما اندفعت أعداد هائلة من الأهلالي يحوم ، يعمنون فيهم للقتل والجرح ، استمروا يقاتلون حتى وصلنا منذ ساعة أو تزيد ، ولولا هذا لقضى على الجميع بالموت .

استمعت إليهما يهدوه حتى انتهيا ثم سألت .

- كم عدد القتلى والجرحى ؟

أجاني إيفو عنخ دون أكثرات :

— لا أدري ربما مائة أو أكثر .

وتدخل ساحورع :

— كلا . إنهم يريدون على مائتين ، أو مائتين وخمسين لقد كان في سفيتي وحدها أربعون شخصا لست أظن أن أحدا منهم قد نجى .

— هل قتم بتموين السفينة ؟

— كلا ... إننا كنا نتظر قدومكم ، ثم كان هناك الإصـلاح اللارم لسفيتي ولم ير إيفو أن تتجمل التموين على أن تبدأ به قبل رحيلنا بيومين ، أو ثلاثة حتى تكون الأظعمة طازجة قدر الاستطاعة .

سألت إيفو :

— ما موقع التموين الموجود في سفيتك ؟

ربما يكفي لثلاثة أيام أو أربعة

— وماذا عن المياه ؟

— لثل هذه المدة أو أقل قليلا .

— أين الذهب والنساء ؟

نظر إلى إيفو بشده :

— الذهب في سفيتي أما النساء فقد هربن أثناء القتال .

— عليك أن تحصل من الذهب ، كما أريد تقريراً دقيقاً عن عدد القتلى والمفقودين ، والجرحى وحائهم ، وموقف المؤن خلال ساعتين . وأخيراً عليكم أن تكونوا على استعداد للرحيل في المدة نفسها .

صرح إيفو عنخ بمغضب :

— ماذا نأخذ منك ؟ إنني لن أتحلص من الذهب ، إنه ملكي . أما الذي

بحث عنه ، ووجدته ، وسوف أحتفظ به ، كما أني لن أتحلص من الذهب . وسوف أحتفظ به ، كما أني لا يمكنني أن أخرج دون إعادة التموين .

لم أكن في حالة نهمية تسمح بالمناقشة ، بالرغم من أنني كنت ما زلت ضعيفا إلا أنني لم أبال . فمرت من مقعدى لأقص يدي كلتيهما على رقبتيه أصمعه من النوح . ضغطت على حنجرتي حتى كدت أزهرق أناهيه ، ورحلت أمر رأسه ، وأقول في صوت متهدج من العصب :

— ليست هذه الرحلة لإرضاء نرواناتك ، ولا حق لك في الذهب أو غيره . بل ولم يكن لك حق في البحث عنه بما تسبب في ضياع سفينة ، وقتل عشرات الرجال . سلقى بالذهب في الماء ، وستعد باقي أوامري ، أما أنت فلا مكر لك في القيادة منذ الآن

دفعته بشدة سقط منها ، ومقعده على الأرض . وإلتفت إلى الرده الثلاثة :

— ساحو دح سيتولى قيادة السفينة الثانية بماوذك بحم آف ، أما إيه من عبح فيظل معي . عليك أن تفعدا أوامري كما عليك أن تفعدا رحا . إيوف بين السفيتين - إحتفظا بالثخين ، وإرسلا لكث إلى سميتي ، ثم كذا عدد رجالكما إلى نصف الرجال الموجودين على أن يكون رجالكما من كبح معكما في سميتيكما . إذا احتجتا إلى القوة لتنفيذ الأوامر فاستعملاه بلا رحمة . يتوسين عليك الاهتمام بشئون اتاوين ، وتقسيم المؤن ، وإيه الموجوده ، في السفيتين عليهما بالنساوي . أيها السادة سنبحر خلال سميتي أو ثلاث .

كان إيوف قد قام من سقطته ، ووقف ينظر إلى الشرر يتطاير من عينييه . لم يستطع في غضبه أن يتكلم ، كما وجد نفسه عاجزا عن أن يقوم بأي عمل . قام الرجال الثلاثة من معادهم ، وطلبت إلى متوسين أن يرسل إلى عنخو . تردد أن يتركى بمردى مع إيوف إذ لاحظ أنني في حالة ضعف شديد إلا أنني أشرت إليه بالخروج فعمل . وما كان بحاجة إلى الخوف إذ أنه وجد عنخو واقفاً بالباب .

— عنخو عليك أن تأخذ هذا المحرق وتعبسه في قرة متوسين ، مؤقنا

حتى أفسر في مكان أضعه فيه . إليك مسئول شخصيا عنه ، ولك أن تستعين
بسيما .

لم يتكلم صحو إنما حول نظره إلى إيوف الذي بدا أن العصب قد أعماه
حتى أنه كان يفكر في القتال ، ثم عدل عن تفكيره ، وبعد لحظات خرج من
القمرة يتبعه العبد الأمين .

* * *

بعد ساعتين عاد ساحر رع ونجم آب إلى القمر . أخبرني أن أوامري
قد نفذت . لقد وصفا على الشاطئ الذهب الذي جمعه إيوف عنخ من القرية
وكادت أن تقوم ثورة بين البحارة والجنود . حصر عدد الرجال فكانوا
ألفا ومائتين وعشرين وأشير ، وسماه ماصعة بين السبعين . فلا إن
بحارة إيوف عصب لم يرسوا في بادئ الأمر ، لكن نجم آب هدد كل من
يرفض الانصياع للأوامر بالموت ، وقبلوا على مضمض . أما المؤن فلها
قيلة جدا ، وكذلك مياه الشرب ، ولا بد أن يسرع بالقوي في أقرب مكان ،
وإلا تعرض الجميع للجوع ، والعطش ، أخيرا أنأى ساحر رع أن السعيدة
جاهرة للاقلاع تبعا لأوامري .

كان الموقف عصيبا ، فالسبعين صممتا لتجعل كل منهما حسيانة رجل فادا
بالعدد يزيد بأكثر من مائة رجل . كان هذا حملا ثقيلًا على السبعين خاصة
إذا صادفتها عاصفة ، أو ريح هوجاء . ليس هذا لحسب ، إن مائة رجل ،
يزيدون ، يحتاجون كمية ضخمة من المؤن ، وهذا حل إصاى أيضا . أخيرا
فان مكان نومهم سوف يقطع ، لا محالة ، من المساحة المخصصة لسوم البحارة ،
والجنود وفي هذا إصادة إلى متاعهم .

صارحتهما بأسكاري ، وطلبت منهما أن يتحلصا قدر استطاعتهما من
كل الاحمال غير الضرورية على سطح سفينتهما ، وإلا فان أحدا لن يسجو إذا
واجهتا عاصفة . حينئذ تساهل بنجم آب :

لماذا لا تترك بعض الرجال على الشاطئ ، وعليهم أن يدبروا أنفسهم ؟

كان هذا الرأي يحول في رأسي ، إلا أنني استمعدته لنهوى أولاً من أن
أترك رفاقي إلى مصير مجهول ، وثانياً خوفاً من عداة الإلهي نتيجة لما حدث .
ومع ذلك أجبته :

— قد ألتجأ إنني هذا لو اضطررتي الظروف .

على أن الأقدار ، التي لاقيت منها كثيراً في الأسبوعين الماضيين ،
فقدت سببتي ، ومعظم رجاءهما ، أضحت تهاوني أبحرنا في جو مناسب ،
وحملنا الأثقال حنونا . لم يسكن في بيتي أن أفزع للتمرير إلا بعد أن أعدد
مسافة مئة عن مرصاها الأول إذ أن من المؤكد أن الإلهي لن يسوا
بسهولة ما فعله يروف عنح ، ولهذا وددت أن أصح أكبر قدر من المسافة
يفتتا وبينهم .

من حسن الحظ أيضاً أنني كنت قد ملأت سفينتي بالوقود والمياه . صحيح
أما بعد أن اقدسناها مع السفينة لثانية نقصت إلى حد بعيد ، لكن ما فيها
مع ذلك ، ومع الاحتياط في الاستهلاك ، كانت تكفي للأسبوع على الأقل .
قضيت الثلاثة أيام التالية أدور ما مر من أحداث ، وأرسم خريطة للشواطئ
التي نمرها . في اليوم الثاني من إبحارنا شاعدت حليجا جميلا يقع عند مصب
نهر . كان حليجا مثاليا يمكن أن يسو فيه السفينتان حتى يستكمل النور
إلا أنه من ناحية ثانية كان قريب من مكاننا الأول ، فصرهبت النظر عنه
مكرها .

لم تسكن مرت سبج تسكاد أن تعارقي . إذا جئت للمكتبة جلست
أمامي دون أن تفوه بكلمة ، وإذا خرجت من الفهره لأعمال في السفينة مكثت
على السطح تشاهد الأمور . نظم بالسفينة ، إذا أردت الرياضة صاحيتي .
ومع أنني استعدت قوتي سريعا ، وخفت آلام صدري حتى أن حقنحت
قرر التحصيف إلى أقصى حد من الأربطة ، إلا أن العشاء استمرت تصر على
أن تعاملني كريض مدال . لا داعي لأن أسكر أنني كنت سعيدا بتدليلها ،
وسعيداً بقرعها ، سعيداً بكل لمسة من يدها ، أو نظرة من عينيها ، أو بركة من

صوتها . لكنني لم أنس في أي وقت أنها ليست ملكا لي ، وإنما هي أمة
للفرعون ، وما أنا إلا مجرد حارس لها ، وسيأتي اليوم الذي أسلم فيه الوديعة .
أحيانا كانت تنتابني كآبة ، وقد بصعب على المرء أن يصنع حذا فاصلا بين
التزاماته وحقوقه . إن التزامي قبل مرت سيجر واصح ، فهي وديعة ملك
الفرعون ، وعلى أن أحميها ، وأن أرهاها حتى أسلمها له . لكن ما هي مدى
حقوقى ؟ هل من حق أن أكون سعيدا معها ؟ هل من حق أن أسلم يدها ،
وأنا أشعر بسعادة ، هل من حق أن أمتع بصحبتها ؟ حينما كانت تفرق
ضميري هذه الأفكار ، وأمشاها تنتابني الكآبة ، وكانت مرت سيجر تشعر
بأي مدت عنها ، ولست أعتمد أنها عرفت السبب ، أو لعلمها حذسته .

حسب . مساء اليوم الرابع من إبحارنا ونحن نقف عند سياج السفينة
ننظر إلى المياه العاتمة وقد التصق كسماها . لقد شعرت وقتئذ بسعادة عامرة ،
خلت أننا انقطعنا عن العالم ومن فيه ، ولم أزد أن أستبعد هذا الشعور .
تحدت أحاسيس حسدى كله إلى ذلك الجزء الذى يلتصق بكعصيا ، ودراعاها
وأنه لنحيل إلى أنه لو سر لاحد أن يتر ساقى ما شعرت . وغناه لاح لي
وجه الفرعون ابتعدت عن الفتاة كما عما مسى شرر من نار ، وطبقت معها
أن تعود إلى قمرتها بحجة صعب طارىء : لم تتكلم ، إنما طالعى عيناها بنظره
عتاب فيها تعجب . تخاشيت أن أطيل الوقوف فاستدريت ، وسرت منى ،
ولم أكد أنهم في تلك الليلة .

تناولت إهطارها معى في الصباح صامتة ، وكان من اليسير على أن أرى
وجهها المجهد من أثر السهر . حينما اتجهت إلى مكنتي لاسطر بعض الملاحظات ،
لم تنظرنى كهانتها ، وإنسلت حارجة . بعد أن فرغت من الكتابة خرجت
إلى سطح السفينة بحجة التفتيش ، والواقع أنى كنت أخادع نعى ، لم يكن
بدور في فكري سوى أن أراها . فوجئت بها تسير بصحبة متوسلين يتكلمان
في ود ظاهر ، واتابتنى غيرة خفيفة . رأيتني واجها إلى ، وكطفل صغير أظهرت

اهتماما بالعمل الجارى فى السفينة ، وكأبى لم الحظهما . لما وقفا أمامى تسكمت مع متوسين عن بعض الاعمال متجاهلا الفتاة ومع هذا فقد طلت صاعته فى مكانها . أخيرا تنهت إلى سحابة ما أفعل . أى حق لى أدعبه إلى مجرد حارس ، ولم يعمل متوسين ، أو الفتاة ما يحسن جوابى .

عند الظهر ، ونحن نتأرجح طعام العشاء . واجأتى لبره الثانية بأن توسلت لأطلق مراح إيوف عى . كنت قد نقلته من غرفة متوسين إلى حجره مدحمة عجرن المؤن فى قاع السفينة ، ونسيت أمره . حينما رجعت ، طلت أن أدعه يتربص على الأقل ، وفلت إذا كان نقاؤه بصحة مستمره فى الحجرة المظلمة بمثابة حكم عليه بالموت . أصدرت أوامرى بذلك . قبل الغروب رأيت . مع أنه لم يكن قد مضى عليه فى الحجرة أكثر من يومين إلا أنه لاح شعصا آخر : نخل جسده ، وبتت لحيته . واصر وجهه ، وراعت عيناه . سمعت الفتاة إلى جوارى تشهق مذهشة ، وهى تراه وثما يسير وراءه المعلقان سيمبا وعجو . التفتت إلى كأنما تريد أن تقول شيئا ، ثم لم تفعل وصارت صامتة .

اعتذرت مبكرة ، وأجعت نفسها طوال الليل فى قمرتها . فى صباح اليوم الخامس من إبحارنا ، رأيت إيوف عى نطيفا حليما . سألت متوسين عى سمع بذلك فقال إنه فعل بهاء عى انه من مرات سجر . حينما رأيتها طلبت منها ألا تتدخل ، فأجابت بحده .

— لماذا ؟ إنه من البشر أليس كذلك ؟ أليس من حقه أن يرى النور ؟ أليس من حقه أن يكون نطيفا ؟ أليس من حقه أن يستشق الهواء النقى ؟ تسكمت بهدوء .

— والذين قتلوا فى سبيل زوانه أ ألم يسكن من حقتهم الحياة ؟ إسمعى إن ثلث رجاله على ظهر هذه السفينة ، أى أكثر من مائة وستين رجلا محاربين هل تتصورين مدى خطورته ؟

بهتت للحظات ، وخفت جذتها ثم قالت بصوت خفيض :
— لم أفكر في هذا !

— إذا دعيت أسوس الرجال بالطريقة التي أراها .

رأيت شرر الغضب يلعب ثانية في عينيها ، لكن قبل أن تمتنع فاهما ، تناهى إلى سمعها صوت مرأب الصاري يعلن رؤيته لخليج قد يصلح للإرساء . تركتها ، وهرعت أصدر تعليماتي . أصدرت إشارات إلى السفينة الثانية أن تتبعنا ونحوات الدفة نعب من اتجاه السفينة ! وتسير باتجاه الشراع ينمض بالرياح ، ويدفعها نحو الشاطئ . سرنا ببطء متمدد خشية الشعب المرجانية والصخور التي لا ترى أحيانا إلا بعد فوات الوقت .

بدأ حاييجا صغيرا لكن يسكن السفينتين ، كانت مناظرة خلافة ، برماله البيضاء الناصعة ، وأشجار جور احمد ، التي تكاد أن تلامس مياه البحر اللازوردية ، حينما دخله . إنصحها أنه لم يكن صغيراً كما بدا من البحر إذ أن لسانا طويلا من الرمال والأشجار إمتد يحجب خليجا كبيرا وراءه ، سكنت مياهه ، حتى كأما هو بحيرة صغيرة تستمد مياهها من فتحة صغيرة متصل بالبحر . كان اللسان طويلا ، وعريضا إلى درجة ظلت معها مياه الخليج الداخلي وعرافة هادئة لا يمكن أن تنأثر في أعنى العواصف .

ألقينا المراسي بعد أن أرحى الليل سهوله لهذا لم أجادف بالنزول إلى الشاطئ . لم نظهر مرت سجر ويبدو أنها اعتسكت في قمرتها ، شعرت بوحشة غريبة لم أشعر بمثها منذ زمن طويل ، وحشة ذكرتني بالأيام الأولى التي نلت هجر زوجتي لي . قام بيما حاجز غير مألوف يباعدنا ، ويضع السعادة الرينة التي كنا نتمتع بها ، أحسست بشخص يقرب ، وبعد لحظات كان متنوسين يقف إلى جوارى .

— سيدي القائد إن السحارة والجنود قنفور ، ولا أحنى عليك لاني قلق كذلك ،

— من ماذا ؟

— إن لما شهورا في هذه الرحلة لديها جاورت السنة ، ونحن دائما نتجه إلى الجنوب ، في بحار لا نعرفها ، وأجاس لا نراها ، ولا يبدو أن هناك نهاية . هل عند سيدي القائد علم لا يريد أن يبوح به .

كان بحث عن الطعام يئس ، وله كل الحق ، ما كان لدينا هو بمصر أهواا متارة لا ترقى حتى إلى مرتبة الشائعات ، إن البحر يحيط بليبيا (أفريقيا) ومعنى هذا أن شرفها متصل بمرها عن طريق البحر ، لكننا لم نعلم أن أحدا فعل هذا ، بل ولا حتى مصدر هذه الأقوال ، إنما نبحر منذ أشهر ، والرياح تساعدنا ، وقد قطعنا آلاف الأميال ، ومع ذلك ظل إتجاهنا دائما إلى الجنوب الذي يبدو لا نهاية له ، لم أشأ أن أعطى باثي أملا كادبا .

— كلا يا مستر ليس لدى علم أخيه .

بانت الخيرة على وجهه .

— أعذرني يا سيدي ، لكن إلى أين ينتهي منا كل هذا ؟

— لست أدري . إن كل ما أعلمه أن لدى أرامر من الفرعون يجب أن أنقذها ، أو أمهلك دونها .

سكى إن الفرعون نفسه لا يعلم إذا كان في الاستطاعة تمديد هذه الأوامر .

— لا أستطيع أن أفرص هذا . متوسين إنك صايط كفف ، والضابط الكفف . لا يطرح الأسئلة على رئيسه ، هو بعدها فقط .

اعتدل في وضعته ، وقال في صوت جامد :

— إننى قلق على البحارة والجنود يا سيدي القائد ، إننى أسمع هممة قدامى ، إن الكثيرين قتلوا وهناك جرحى ، وهم يريدون السبب الذى من أجله يخاطرون . ليست هذه الرحلة للتجارة ، وهى أيضا ليست حملة حربية ماذا إذا ؟

— هي رحلة إستكشافية قد تنهى بالتجارة والحرب مما .
أسعدت مصاد .

تركته واتجهت إلى قمرت لكن الشك كان يساورني . إنه على حق . هل
لهذه الرحلة من نهاية سوى أن يلاقي حتماً شكلاً أو آخر .

• • •

ما أن مدت أول خيوط النهار حتى كانت الحركة تدب في الميادين .
لقد ملل البحارة ، والبحود البحر ومرحوا بكل فرصة تنبجهم الغداء
على اليابسة أياماً . أرلوا السجلات . وصبوا الخيام ، وأشعلوا البيران ،
وقطعوا الأخشاب ، وسدوا الأبواب ، وأخذ الخراسان ما كنهم ، وأرلوا
براميل المياه ، وما يحسب به من مؤنة مؤقتة . عند الظهيرة كان المعسكر
معداً تماماً ، وكأبه قائم مد أمام .

رفعت مرت سحر أن ينزل إلى البر ، ووصف البقاء على سطح السفينة
وظننت أني أعرف السبب حينما لمحتها تقف عند الحاجز إلى جوار أبي
عني ، وعلى بعد يسير منهما وقف سيماء نهشت العبرة فلي ، لكن دوامة
العمل شملتني عن التفكير فيها ، وما ليشت أن نسيها تماماً . وفي الخيمة المعدة
لي اجتمع القواد الثلاثة يناقشون لنصع الخطط للمسور ، والاستكشاف .
تناولنا طعام الغداء ونحن نتحدث ، حتى علم كل واحد واجبه . بطرق
الحديث إلى ما تسأل عنه متوسلين في الليلة الماضية وكان المسائل هو
نجم أب :

— أليس لهذه الرحلة من نهاية ؟

انظر إلى متوسلين ، وأجبت بهدوء :

— ما يفتنا أن نعد أوامر المرعون ، أو نموت دون ذلك .

— إنا نتجه دائماً إلى الجنوب . صبح على الأقل حداً زمياً معقولا يعود
بعده أدر اجنا إن لم يتغير اتجاهنا إلى الغرب ، أو الشمال .

كان طلبه معقولا ، ويضع حداً للقلق الذى ساد الجميع ، لكننى لم أكن مستعداً لأن أهل تنفيذ الأوامر .

— كلا . لكننى سأصع حداً آخر ، هو أما سمود أدرأجنا إذا استعان علينا التقدم .

— معنا هذا أنه من الجائز أن تستمر الرحلة سواك ١٥

— أجل ، واعتقد أنه هذا تكون المناقشة قد انتهت .

قام غاصباً ، ونعمه متوسلين ، بينما استقر ساحورع جالسا يفكر . لم يكن قد تكلم فى الموضوع أو اشترك فى مناقشته فاندبرته :

— ما رأيك أنت يا ساحورع ؟

هز رأسه وأجاب بحذر :

— إنه على حق يا كين . إن الرجال فى هلق متزايد ، وأخشى أن يهت زمامهم . ولا تنسى أن رجال إيوف عبح عاصمون لعزله من القيادة ، وسجنه ، وهم نصف القوة تقريبا .

من الوتر الحساس . كانت هذه هى مشكلتى الكبرى عدلاء . إن نصف القوة لا يؤمن جانبها . إلىى اختهدت أن أو رسم لكى يكون دائما أقلية . حتى فى المعسكر فسمتهم بحيث يسي شطر مهم عن سطح كل من السميتين ، وشطر فى المعسكر ، والبايون يعملون فى السمث عن المؤن التى حصصت لها أربع فرق ، ومع هذا ولا شك أنهم كانوا يمشون قوة لا يستهان بها . قوة بدس بالولاء لا يوف عبح ، وتضمر لى كل الشر . لعل ما كان يدور فى حلقى ظهر أثره على وجهى ، فشجع هذا ساحورع على أن يضيف :

— فكر فى الأمر يا كين ، ولا تعصب نجم آب ورجاله أيضا .

رفعت نظرى وأجبت بإصرار وصرامة :

— لا مجال للمكيد .

...

بدأت حملات الصيد ، وجمع المؤن ، والمياه مع مطلع العجر وما لست

أن تجمعت كميات من الفواكه ، والعرلان ، والهاموس الوحشى ، ونعم
أفراد الرحلة بعشاء فاخر لم يذوقوا مثله منذ أيام . كان من ضمن الفواكه
كثيرة من العنب البرى ، وقام بعض الرجال بصنع النبيذ ، واختزنوا
بعضه وشربوا بعضه . كانت جماعة هائلة تلك التى نامت تلك الليلة ، أو
هكذا بدت .

تكررت عملية التزويج فى اليوم الثانى ، وانتهزت الفرصة ، وأمرت
النجايرس أن يقوموا بمراجعة السفينتين ، وتقوية جوانبهما ، واستبدال
الألواح الخشبية التى نأكل ، كما أمرت جماعة من الجند بأعداد الأخشاب
اللازمة . وكان هذا من حسن الحظ إذ أنهم اكتشفوا نأكل فى قاع كل سفينة .
بل إن إحداها كان الماء قد بدأ ينسرب منها فعلا . كان من نتيجة هذا أن
غيرت خططى ، فبعد أن كنت قد اعزمت ألا يطول بقاؤنا على اليابسة
لأكثر من أربعة أيام أصبح جليا أنه يلزمنا أمهوان على الأقل .

كوت فرقة نقل بعض الخيال من ألياف الأشجار ، وجددت المؤن
بصفة مستمرة بحيث يكون استهلاكنا للتقديم سهلا ، وبحيث تكون السفينتان
على أهبة الاستعداد للامحار فى أى وقت يشئ فيه النجارون من أمهائهم .
توغلنا فرقة الصيد إلى داخل القارة ، وأرادوا تعلمها يوما بعد يوم
نتيجة لحرب الحيوانات ، واستعدادها من ناحية ، ولنقص الخمار من
ناحية أخرى .

• • •

سرت رؤيتى لحرب سيجر فى هذه الأيام إذ أنها أصرت على رفضها لبرول
إلى الشاطئ . واختارت البقاء فى السفينة . كنت ألمح خيافا بين الحين ،
والآخر سكناها كانت دائما بصحة أبوى عنح مما أراد من حنقى عليه ،
وعلمها . كثيرا ما خطر فى بالى سؤال : هل سوف يتكرر ما حدث لزوجتى ؟
ومع هذا فلم أكن أملك التدحرج . لئلا لا يلتقيان إلا على سطح السفينة ،
ودائما تحت أعين عمحو وسيمافلا حجة لى فى منع إلتقائهما .

في مساء اليوم العاشر من رجب ما كان القمر يدرأ ، والجو صحو لا أثر فيه
للحرارة أو الرطوبة . خامس حيين قوى أن أرى الفتاة ، وأحادثها ،
فأصعبت نفسي بأنه يلزم التفتيش على المؤن في السعيمة والتأكد من وضعها
في مكان ملائم ، ولم أحاول أن أراجع الرأي بأنه لا ضرر من الانتظار إلى
الصباح ، وأن الليل ليس أنسب الاوقات ، أو أحسنها للتفتيش .

لحظة أن وصلت قدمي على سطح السعيمة رأيتها . كانت نقف إلى الخارج
إلى الداحية الأخرى . إلى جانبها ، يكاد أن يلتصق بها ، وقف ابوف عبح ،
وعلى بعد خطوات رأيت عنجود . لم يكن هذا كل ما رأيت وراء عنجود ،
في ظلام القمريات ، والصوري ، شهدت أشباحا تتحرك ، عشرة رجال
أو يربسون . بدا أن مكبرهم كان مركزاً على الشيخ المائل أمامهم حتى أنهم
لم يلاحظون ، ولو أن أحدهم أدار رأسه لرآني .

صرحت منها عنجود ، وأنا أندفع نحوهم شاهراً سبني دغل المتسللون
للحطبات ثم دسروا أنفسهم فرقبين . هاجمي أربعة مسلحون ، في حين قصر
الآخرون على العبد . لم يكن أحدهم يحمل سيما ، وإنما انتمت الخناجر في
أيديهم . قدمي واحد بأحدهما ، وسمعت صوت ارتطامه في الخشب ورني ،
كما سمعت صرخة ندت من هم مرت . في الملاحظة التالية كان سبني قد احترق
صدر الرجل .

لم أستطع أن أسحب سبني في الوقت المناسب ، وانتهر الرجال الفرصة
فانقضوا علي ، ارتفع بصل في الهواء ليهبط على صدري إلا أنني بادرت
صاحبه بضربة قوية من قبضتي ألقته على زميل له . لم أتوان في الهجوم
على الرابع . قبضت على يده ، التي تحمل الخنجر ، وثبتت ذراعه خلفه ،
وصرح الرجل من الألم ، وسقط الخنجر من يده ، فدهمته بأقصى ما أستطيع
من قوة نحو زميله . وارتطم بأحدهما ، وسقط الإثنان على الأرض في حين
اندفع الآخر نحو شاهراً خنجره . كنت أحاول أن أتفاداه وأفكر في

كيفية الخلاص منه بسرعة قبل أن يتقدم زميلاه ، حينما امتدت يداها طويلاً ،
تقبضان على الرجل ، وترفعانه في الهواء كأما هو دمية صغيرة ثم المقيان به
بقوة على زميله .

من الظلام ظهر جسد سيما المارد . لم يلتفت نحوي ، ولا هو إلا تمت إلى
الثلاثة الذين لم يتحركوا من مكانهم على الأرض . تقدم نحو الرجال الذين
يفاتلون عنحو . ارتفع دراعاه في الهواء ليمطاً على رأسين ، وسقط رجلان
ولم يتحركا . انفتح الدراعان الهائلان أفقياً هذه المرة ، ثم انصبا بقوة مرعبة
ليرتطبا بصوت محيف ، وتنطلق صرختان ، ويسقط رجلان آخران . وظهر
عصو يقاتل رجلاً واحداً ما ليث بدوره أن لحق زملائه .

لا شك أن أصوات القتلى كانت قد وصلت إلى كل من في السمية إذ
ازدحم سطحها بالرجال .

كان معصم من رجال إيوف ، لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً . بل
وقموا بهوتين أمام استعراض القوة الهائلة التي شاهدها . لم أعر أحدهم
إلتفاتاً ، و التفت ناحية العتاة وإيوف عنح ، كانت العتاة تقف بمفردها ،
سألها أين هو فهرت رأسها مرتفعة . لم ترفع نظرياً عن الجثث المسجاة ،
والدماء المتدفقة وكأما قد سمعت في موقفها ، انجذبت نحوها أحجب المنظر
عها ، وألقاها بين ذراعي قبل أن تسقط على الأرض ، وينمى عليها .

حملها إلى قمرتها ، ومكثت إلى جوارها أرطب رأسها بالدماء ، ولما فتحت
عيونها انبسمت لها مطمئناً . قبضت على ذراعي بشدة وهي تقول في عصبية :
— لا تتركى بمردى ، ذلك الوحش ، لقد انتثر الملح من رأس أحدهم ،
نهشت عظام رأسه كيف . كيف يمكن أن يحدث هذا ؟

— لا تراعى ... إنه مخلص لنا ، لي ولك ، إنه كان يدافع عنا .. اسمعى
على أن أذهب الآن لأبحث عن إيوف عجم ... إنه كليل بأن يحجب انما
متاعب نحن في غي عنها .

ازدادت قبضتها شدة على ذراعى :

— لا ... لا تركنى .

نزع يدها برفق ، وحزم :

— لن أغيب صوبلا ... وسأعود ... حاول أن تنامى .

أسرعت خارجا ، كان الرجال على سطح السفينة ما زالوا في هرج ، أمرتهم أن يلقوا بالقتلى إلى البحر ، وأن ينقلوا الجرحى إلى أسرتهم ، سألت عمحو عن ايوف عني ، ورد على بأنه لم يره ، ويعتقد أنه مر ، أمرت بالبحث عنه في السفينة ، وهرعت عن سفالة إلى الشاطئ . وهالك عرفت الحقيقة ، بعد مر ايوف عني واصطاحب معه لا أقل من مائة من رجاله .

• • •

جلسا بح الأربعة ناقش الوضع الجديد . كان من رأى نجم آب أن نتركه ورجاله وتم لإصلاح السفينة ونرحل . ورأيت أنه يلزم أن تتبع القارين ، وأن نقضى عليهم ، وانهم ساحورع ومثوسين إلى رأى نجم آب . عزز ساحورع الرأى بأن أضاف :

— ماذا سوف نجنى من تتبعه . إن السفينتين كانتا نجلان أكثر من العدد المقرر لهما ، وقد أراحنا إيوف عنيخ من نصف الخولة الزائدة . أضيف إلى هذا أنه قد أراحك بالذات من توقع الحيانة ، والنمرد كل لحظة . هزئت رأسى نعيما :

أعتقد أنكم محطون . إن ترك التمرد دون عقوبة تشجيع عليه . ثم هل تطون حقا أن ايوف عنيخ سوف يتركنا نرحل في سلام ، ويضع بالبقاء هنا إلى أبد الأبدن ؟ كلا يا سادة إنه يعلم أن أمامنا تسعة أيام على الأقل قبل أن نستطيع الإبحار ، وسوف يحاول الاستيلاء على سفينة على الأقل قبل هذا الموعد .

ضحك نجم آب :

.. وماذا سوف نفعل نحن ؟ هل سنقف مكتوفى الأيدي ؟ إن أول ما نحتاج له هو أن مجرد باقى رجائه من السلاح ، ونحصرهم بحيث يصبحون شبه مسجونين . ثم ليأتى بعد ذلك ، ويقان لنا .

لم أقتنع بمنطقه ، وحاولت أن أثبتهم عن رأيهم فلم أفلح . كان فى استطاعتى أن أستعمل سلطتى ، واسمرادى بالرأى ، إلا أننى فى الواقع لم أكن واثقاً من صحة رأى ، لهذا تركت الأمر ، ونزلت على رأيهم ، وإن طلبت تشديد الحراسة على المعسكر ابتداء من الساعة .

طلع علينا الصباح مبكراً جديداً . لقد تسلسل أثناء الليل مائة آخرون من رجال إيوف . بدأ على وجوه الرئاسة الثلاثة استعدادهم للنزول عن رأيهم ، إلا أننى رأيت أنه أصحى من الخطر تعمق الفارين . كانوا قد أصبحوا أكثر من مائتين ، وهم يحتشدون فى الغابة ، وإذا أردت أن أضعهم فلابد أن أترك قوة كافية لحماية السمر ، والحدود ، ثم علينا بعد ذلك أن نقيم حراساً على من بقى من رجاله ، وهم يساهرون الثلاثمائة . لا ... كان يجب أن يبعد الرأى البارحة مساء ... أما الآن فقد فاتت الفرصة .

الفصل الثالث عشر

في الأسر

دخلت جيمتى باكية متتحة ، ألفت نفسها عند قدمي ، وهي تشيح بعصية . كانت تتكلم ، ولم أستطع في نادى الأمر أن أنبئ ما تقول :

— افطنى ... إننى أنا السبب في هروب إيوف عنخ . أنا السبب في قتل وجرح الرجال ... أنا السبب في مرار عشرات الرجال ، والموقف السيء الذى أنت فيه الآن . إنما التى كنت أنقل رسائل إيوف عنخ إلى رجاله ... لم أكن أفسر خطورة ما أفعل كان يقول إنه يريد أن ينجو بحياته وأنتك لاد قاتله ... وساعدته ... أرادت أن أهرمعه .. ورفضت ... أقتلنى ... إننى أنا السبب في كل ما أصابك من كوارث .

أخذت بيدها أرفعها يهدوه :

— إننى أعلم ذلك يا مريت ... وربما كان خطئى أى لم أبعذك عنه . توقفت عن الشيخ دفعة واحدة وبات إلى مسعته .
— تعلم ... من أين لك العلم ؟

— لم يكن هنالك شخص آخر سواك يدير الاتصال بين إيوف ورجالهم على أخطأت إذ لم أبعذك عنه عنوة كن يجب أن أقدر أنه سوف يستعمل سداجتك ، وطبيعة قلبك ، ولكن العيرة اختفاء ، والكبرياء المستخيف أعينى ... إننى ملوم في ما حدث، مثلك تماماً .. وربما أكثر .

كان هذا أقرب ما يكون إلى الإعتراف بحجى ، ولكنى أردت أن أخفف عنها ما تشعر به من تأنيب للضمير ، أسرعتم مسح دموعها بيدها ، بحركات بدائية لطيفة ، وتلاعت الإبتسامة السعيدة على شفثيها :

أجل لقد أردت أن أثير غيرتك ، خاصة بعد أن شعرت أنني في بظارك
أمة للفرعون .
بالهدوء نفسه أخبرتها :
— وما زلت كذلك .

طهر عليها التعجب ، وراحت تطلع في وجهي ، وكأنا هي تبحث عن
شيء ، لم تكن تفهم مقدار ما يشعر به رجل مثل من عبء المسئولية ،
ولم تصور أن إنساناً يمكن أن يصرف هدد البساطة ، ويتنازل عن أمر
شخص لديه في سبيل مبدأ ، لكنها فهمت شيئاً واحداً ، أنه لا فائدة من
وراء هذا الحب ، وأما أن يكون لي أبدأ ، هي أمة الفرعون الخاسر .
سكنت رأسها وهمت .

— إذاً لا فائدة ؟ !

— أجل يا مروت لا فائدة .

جاء إقناعها غصب شديد ، تحولت من الهدوء ، والاستكانة إلى نمرة
متوحشة . إلى باكا القطة .

— أمت تقوى ، هي أمة الفرعون ، وأنا أعود ، إني لك ، ولن يأسى رجل
سواك ، سوف أظل أحارب في سبيل هذا إلى أن أنتهـ الأمن تماماً ، وعددت
من يمان من فرعون أو غيره سوى جثة هامدة .

ثم بقصر ، أولتى طيرها ، وخرجت وتركته ، رداً في بحر الذاكرة ،
على أبي رجب عمن تطيعني هذا سرعان ما طرحت مشكها ، جـهاً موقلاً
إنها إلى حية ، واشتلت بمسكة ، إلى المشكلة التي أنا بصدد حلها ، إني أوقف عنح .
كان يرم أن يكون خراسه — يسه في كل الاوقات فإني شري جداً مكره
وحبه ، سوف يصرف في وقت لن يفكر فيه ، وكـ إني ن أعرف هذا
الوقت حتى لا أؤخذ على غرة .

تركت الخيمة ، واتجهت إلى السمينتين سأل الجارين عن امدته اني ألومهم
للانتهاء من أعمالهم ، فالوا أسبوعاً فكلها صلحوا شيب ظهرت عيوب أخرى ،
كانت السمينتان في موقف يسهل الهجوم عليه من الجانبين ، فهما ترسان
(١٥ - رواد)

بين شاطئيه لبيد (أمريقيا) ، وشاطئيه اللسان الممتد في البحر ، كان هذا أحسن حماية لها من الأنواء ، أما الآن فإن خطر إيوف صبح ورجاله أكثر . سألت إن كان يمكن أن يتم الإصلاح ، مبدأً عن الشاطئ ، فأجابوا بالنفي . إذا كانت ولايت إذا فشاطئيه واحد ١٤ حذروني أن أحرك السفينتين أو إحداهما وإلا تعرضت للعرق ، وإصطارت مكرهاً أن أتركها في موضعي . ولم يبق سوى أن أتعجل الإصلاح .

مرت ثلاثة أيام أخرى دون أن يظهر أثر لإيوف صبح أو رجاله . عادت علاقتي عرت سيجر إلى طبيعتها الأولى ، لم نشر إلى ما حدث بكسفة . وسارت الأمور عادية ، في اليوم الرابع جاءني ساحورع وقد ارتسمت على وجهه علامات الفلق ، أخبرني أنه أثناء تفتيشه رأى براميل مياه قد كسر الكثير منها ، وأن الماء تسال وأفسد بعض المؤن ، وأنه من الضروري إعادة تموين سفينته ، سألته وإن كان قد عرف شخص الماعل فأجاب بالنفي .

كنت قد تماديت إعادة تموين ما يستهلكه البحارة ، والجوود من مؤن ومياه حتى لا أصر إلى إرسال فرق تمييز داخل الغابة ، أما الآن فانه أصبح لا صبر من المجارفة ، كان لدى إيوف مائتا رجل ، وكان تحت أمرى ألف ، ومع هذا فإن الأرقام تبدو خادعة ، وانواعه أنه لم يكن إلا تحت قدرتي إذ أن منهم ثلاثمائة من يتواووا عن قتلنا ، ولانضمام إلى إيوف ، وربما كان الأيسر لو لم يكونوا معنا إذ كان يلزم وضع حرس عليهم دون أن نزيد من الشعور العدائي الذي يكتونه .

* * *

نار نجم آت . ارفع صوته يكيل في السحاب . قال إنني بمحور إذ أحسب أنه سوف يدخل إلى الغاب بمائة من الرجال ليلقوا جميعاً حوهم على أيدي إيوف صبح ورجاله . خرج من حيمتي قبل أن أجيب ، وبادرت بالحقاق به . لاحظت أن هداً من الرجال قد تجمع يستمع إلى ما يدور . كان الجميع في حالة شديده من التوتر الأعصاب ، ولم يكن منهم من يرعب في استئناف

الرحلة ، وقد أثرت شهور الغربة بهم ، ثم جاءت أحداث أيوف فخرج
غزادتهم توتراً .

كان على أن يفعل شيئاً سريعاً ، وإلا أفلت الزمام من يدي . إن جراء
الفرار هو الإعدام ، لكى كنت في موقف عدائى مع رجال أيوف ، ولم أود
أن أضرم إليهم نهم آب ورجاله . ومع هذا فقد كان يلزم أن أعطيه درساً .
لم أكن أملك أن أركه يعلت بمصياه ، خاصة وقد جاهر به ، وسمعه
عشرات من الرجال في المعسكر .

لحقته من أن يسمع حيلوات عن الخيمة ، وقبضت على كتفه بقوة .
لم أود أن أسمع السلاح ، وشأجه عبر مصموبة ، أعنى أى قد أقتله ،
هم يكن لدى أدنى شك في أى أمر منه كثيراً . كنت أود أن ألقنه درساً ،
ولم أكن أريد قتله . إلا أن الأمور لم تسر حسبما ظننت . ما أن شمر يدي
عن كتفه حتى استدار موجهاً إلى وجهي لكفة قدوتى بعيداً ، وألقى
على الأرض . وقبل أن أنهض من سقطى كان يمتشق حصاه ، وقد وضع
نصله على عنقي .

وقف مدبهاً ، ولم أستطع حراكاً . بطرف عيني لاحظت الرجال .
كانوا ، سواء عن عمد أو عنو ، مجتمعون . انضم رجال ساحورع إلى
رجال في حين تشكل رجال نجم آب . كان مجموع الرجال على الشاطئ لا يريد
على مائتين وخمسين ، منهم مائة وخمسون من رجالى . فكان لى هذا اليد
طولى إذا نشب قتال . لكن أين أيوف عبح نفسه ورجله ؟ لابد أنهم
راقبوا مايجرى من العاتات ولاشك أنهم سوف يتدخلون إذا ماحدث قتال
بين الطرفين ، وإن يكون تدخلهم لصالحى .

دارت هذه الأفكار بسرعة البرق في عيني ، إلى جانبها دارت أفكار
أخرى . على أن آت من من ابوف الذى أنا فيه . كنت أعلم عن ضعف
رجل نجم آب ، ولم يكن أحد من اللوجودين يعلم شيئاً عنها . بسرعة هائلة

تحركت . رفعت قدمي لأركبها في ساقه العرجاء ، وفي الوقت نفسه حركت
رفعتي بعيداً عن البصل . انشأت ركبته مع الضربة ، ورجع بجسده قليلاً إلى
الخلف في محاولة لاستعادة توازنه . وكانت فرصتي . اعتدلت في جانبي ،
وانتهت دراعاي حول ساقيه ، ثم رفعت جسده الصم كأملاً ، وقدوت به
على الأرض ، ثم انتحست واقفاً منتصباً سيقاً .

انقلب الأوصاع في لحظات أضيق هو طريقاً وبصل سيقاً على رقبته
يخز فيه ، في حين كان سيقه قد أدلت منه . ارفعت المشاطات من رجالي ،
ورجر رجائي بعم آف . تراجعتم إلى الخلف هائلتك أحبال لأن أفتله ،
كما ذكرت وكنت أريد أن أفتنه درساً على مرأى من رجاله . رفعت صوي
صائحاً ليسمعي الجميع .

— نجم آب أبدا لا أريد أن أفتلك دع الحسام ، وسألق حسامي ،
وانتعارك بالأيدي إن درصتك أكر . لقد عصيت الأوامر . وسوف أفتك
درساً . وإني أتعهد من ناحية أخرى إن هرمتي أن أقود جمعة القويين بنفسي
نظر إلى مليا . كان يعلم أي وضعته في مارق حرج ، وهو لا يستطيع أن
يرفع دعوته إلى العراك ، لا يدي ، خاصة أمام رجال مقبلين ، وإلا سقطت
هيبته ، وهو من ناحية أخرى ، اتق من أبي سوف أهرمه ، لأى أعظم عن
الغيب في ساقه تردد لحظات ثم د رأسه مرادفاً ألقيت حرمي من جانبه ،
واقدم عنحو يلتقط الحسامين . رفع نجم آب مستعداً .

أحاط بنا الرجال مكونين دائرة كائنة . و دفنا على بعد فتي ، ت جلال
ثم تحول حسامي من مكانه ، ورجل لي صموم رجلا ط به الأفعوى ، يه ،
ولم يرفرف من أسنن صموم ساقه . سكة كان يحطه ، بالرغم من صموم في
الأيام أسننه بديجة لما أصابني على يد سيمب ، إلا أني كنت الأفعوى بديعة ،
والأدري بمسود القتال . كانت موته حيوانية محنة ، ولم يعم بالندرسات ،
وقد بدا أثر هذا جلياً في ترهل بدنه ، وكيفية الشحم على صدره . ومع ذلك
فقد كان خصماً يرهب جانبه .

تقدمت منه محاذراً فلم أكن أود أن تصيبنى الكدمات من القبضتين
الضخمتين ، ولم يتحرك . وقف فأرجأ ساقيه يراقب حركاتي كالنمر . باوشة
بصرات حبيبة أصوات صدره وكتمه . وبأدلى المكبات دون أن يتراجع
أو أن يتعاضد . استمر التبادل لحظات ، وعلت هتافات الجود يشجعونه مرة
ويشجعوني أخرى . مد ذراعه كأنما يتقى إحدى لكاتي ثم قص بسرعة
فائقة على ذراعي الأيمن وجذبني نحوه .

لعله كان يريد أن يمصرني ، أو لعله كان يريد أن يستعمل عندهم الإلتحام
الكامل لتمام صدري نتيجة معركتي مع سمها ، وودنا كان يعلج في هرعتي ،
دني ركنه على عرصه . بالسرعة نفسها التي اندفعت بها نحوه إثر جدية ،
إمضاء يدي بسرى بسكة شديدة راد من قوتها اندفاعي . صويت الضربة
إلى معدته ، وشمرت اللحمه يثني ، وشاخصت قبضتي فيه .

تحرك ذراعه بحركة لا ارادية وانحنى واصمأ يديه على معدته ، محاولاً
استرداد أنفاسه المقطوعة . ارتفعت قبضتي ، لتلتقي بنفسكه في ضربة رفعت
في الهواء صعة دججيات (الدجج عررض الاصبع) ثم سقط على الأرض
لصوت رهيب . تركته يلتقط أنفاسه الصائغة ، ووقفت أرفه . كان هدق
أن ألمه درسا ، ولم أكن أريد هزيمته .

تمهل جالسا ولم يتعجل النهوض . ارتفعت صيحات الاستهجان من
رجالي ، والاستهجان من رجاله . راحوا يشجعونه على القيام ، بل أن منهم
من طالبه بتعريتي لإرباء . تصدى لهم رجالي مستهزئين ، وتبادل الفريقان
السياط . ربما كانت سوف تقوم معركة بينهم ، لو لم يتحرك نجم آب . قام
منحاملاً ببطء ، ثم بسرعة مذهلة ، وعلى حين غرة ، اندفع بحوي قبل أن يتم
نهوضه مصوباً رأسه نحو بطني .

قدمتي الصدمة بعيداً ، وحيثما ارتطمت بالأرض أحسست كأن سداسي
الفرقة انكسرت . انقطعت أنفاسي ، فلم أستطع الاستنشاق ، وبدأ كأن

عمامة سوداء تعشى عيني، فكشكت مكاني ملقى على ظهري لا أستطيع حراكا لم يدعني أسترد أهداسي الضائعة، وهبطت بركبتيه على بطني، يخرج القليل من الهواء الذي استنشقتة، وأحاطت أصابعه العولاذية برقبتي تمنع عني التنفس تماما. لم يكن في استطاعتي أن أفسد شيئا، ومكثت تحت رحمته، كأنني من مكان حقيق أتني صيحات عذيب من رجال الذين شاهدوا الهجمة العادرة، وجاءتني ضحكات استغزاز، وسحرية من رجاله

قاومت العمامة السوداء أن تزداد قتامة، وحاولت جامدا أن أهدأ الأصابع التي تمرس في عنقي، لكن مجهوداتي ذهبت هباء، ربما أقدر من الموت إختناقا فوط ثقة عريمي في قدرته، أو أمله تعجل النهاية، فأنحى بكل جسده يريد من الضغط على عنقي. كان من نتيجة هذا أن اوترب رأسه مني أكثر مما ندعوه الحياة، وفي ثانية ارتطمت يداي بكل ما بقى لي من قوة بأذنيه.

صرح متألما، وودع قصتيه إلى أذنيه، وراعت عيساه كالمدهون في اللحظة التالية كشت عذوبة، ع صدرى. وبدأ الهواء يتحرق طريقه ممسكة إلى رتي. ظل كلاهما لا يدرى لا يستطيع حراكا. حرا محالان على نفي، ونهضت أنزع. كان ما بران جالسا واسمعا يديه عن أذنيه وهز رأسه ينهض أصواتا وهمية. ووقعت أنظار. بدأت العمامة تنقشع من أمانى، واسترد صدرى عذوبته عن التنفس، وإن كنت ما أزال أنفس بصعوبة إلا أنني شمرت كأن دكتائ غير قادرين على تحمل جسدى.

مضت أنات (أت — دقيقة) ونحى على هذا الحال. لم تنقطع صيحات الرجال، بل ألبسوا إزدادات انهالا، ولم أعزم انساها. بدأت الانهاس تزداد في صدرى ناعمة، وإنقضت العمامة عن عيني تماما، فوصحت الرقوبة، وازدادت قدمي استقرارا على الأرض، مع أنني بدأت أشعر بالآلام حادة في عضلات عنقي.

تعالى صيحات رجال نجم آت يشجعوه ، وتعامل واقفا ، لم أَدع له فرصة أدومت نحوه أكبل الضربات ، واللكمات ، هبطت ضرباتى على وجهه وفكيه ، وصدره ، وبطنه ، لم يستطع أن يفعل شيئا سوى التراجع ، ومحاولة نفاذى الصربات المنهالة ، ظهر أثر ترهل الجسم ، وانعدام القرين فى حركاته المتساقطة ، ومحاولاته الماشقة فى الدفاع عن نفسه ، وتردد أنفاسه اللاهثة .

تابعته فى تراجع . . . انبثقت الدماء من أنفه ، وفمه ، وتورمت عيناه ، وظهرت الكدمات على جبينه ، وفكيه ، وما زال يتراجع وهو يطلقها ، لم أرحمه ، وإن كنت لم أتمكن أن أعجبت بقوة تحمله ، ألمتى عظام يداى ، ومع هذا لم أتوقف ، ولا خمنت حصة صرناى ، أحيرا جادت نتيجة الحتمية ، تلص لكمة هائلة فى فكيه جمدته يتراجع خطوات . وعلى غير انتظار عادت ركبته ، وسقط على الأرض ، وهن دون حراك .

لست أدري من بدأ القتال ولا متى ، ولا السبب فيه ، وإنما لحاة تحول الشاطئ إلى مساحة نجرب كسبت ما رلت أقرب نجم آت ، وأنا أتحمس عظام يداى مرة ، وعضلات عنقى أخرى جميعا وجدت نفسى وسط معركة ، لعلها بدأت بانفراط سباب ، أو سحرية ، ثم تحولت إلى تلاطم بالأيدي ، وأخيرا انقضت الأسلحة .

لم أكن أحشى النتيجة ، فرجائى هم الأكثر عددا ، والأكثر تدريبا ، إلا أننى لم أكن أريد أن يتضاعف عدد المقاتلين إذا ما استوعب الأمر بحجة لأبوء عسح ورجاه ، لم أحاول أن أشارك فى القتال الدائر حولي ، واكتفيت بأن أعجو ، وسيمبما وقفا يحرسانى ، ويح لآن دون هجوم أى شخص على ، سمعت صوت ساحو رع يحاول تهديته الرجال دون جدوى ، ولم أعره التمعنا .

كان الشخصان الوحيدان اللذان يستطيعان أن يوقعا القتال هما نجم آت وأنا ، وكان نجم آت فى عيبوبة لا يبدو أنه سيهيق منها فى الزمان القريب .

أشرفت إلى سبيلها أن يعترف من برميل المياه القريب من حيمتي ، وتتم غنحو بكلمات رأيت المارد بعدها يشق طريقة وسط المعاتلين .

عاد بعد لحظات حاملاً برمته . وراح يصب الماء على الرجل المسجى ، يحمل حم آب وفتح عيديه المورمتين ، وجوته أن يتمالك ، منه محراً إياه أن الرجال يتعاملون بأسلحة ، ارمكرك على كبريه وهذا كآبه لم يصم ما أعى ، لا كآبه لاحظ شيئاً غريباً حوله ، بل ظل متدبراً يحاول أن يستمع شبات أفكاره ، ولم يستطع التركيز ، كان عامل الزمن يهوى ، فأشرفت إلى سبيلها الذي كان ما يزال وادماً يحمل البرميل ، وبدقت المياه تهبط على الرجل المدهول ، انتمص كقطر صمغ بلذ القطر ، واعتدل في حالته ، نظر حوله أولاً كأنما يستوعب ما يرى ثم التفت إلى .

أخبرته أن رجالنا يقتلون ، وأنى أخذ أن يشير أيوف الفرصة ، ويكر علينا رجاله . كانت عاتره متدابة وهو يتعامل على نفسه سطه شديد . حينما اعتدل واقفاً كان ما حسبت حـ ربه قد حدث

من العناية اندفع عشرات الرجال بصرخون وياه حور ، تنفسهم رجل لم أكن في حاجة إلى التحقق منه لأعرف أنه أيوف ، ج ، كانوا يصيحون مشحون رجال نجم آب ، واداد وطيس القتال ، حية وتجلد رجال لقر يقن . لم يكن هناك وقت أضيعه مددت يدي إلى عنحو مسلحي سلاحي وكذلك جعل عريبي السائق .

لم تكن المسافة بين ساحة القتال والعادة لتزيد على حـ واحد ، (مائة ذراع) ، أو حـ ونصف ، الأكثر ، قطعها أيوف عنح ورجاله في إناث (دقائق) قليلة ، تصدروا أهم ، وهم ماتل ، وقد انصموا إلى رجال نجم آب ، أضحووا أغلبية ساحقة تزيد عن ثلاثمائة رجل يقالون نصف عددهم ، وأن المسألة لا تعدو دقائق ، ويلتئ القتال .

اندفعوا وسط المعركة ملوحين بأسلحتهم ، يقودهم رئيسهم . لم يلحظوا أن الرجال المقاتلين قد أمسحوا هم الطريق . لم يعلموا بالخدعة إلا بعد أن

أحاط بهم الرجال جميعاً ، رجال نجم آب ورجالي ، رأوا أن الدين كان يبدو من بعيد أنهم قتلوا ، أو جرحوا من رجال الفريقين ، يهون واقفين ، ويصمون إلى زملائهم ، وابتدأ القتال الحقيقي .

هست دقائق قبل أن يستوعوا الحقيقة كاملة ، وكان أوني ورجاله في هذه الدقائق يحددونهم بسماهم ، رأوني ومجم آبه يقاتل جنأ إلى جنب ، ولم تصدق عيونهم ، أخذت أشق طريق بين الممانطين حتى رأيت إيوف عسع ، ولم يكدراني حتى ارفع محوى وإلتحم سيهانا .

أيأ قيل عن الرجل فهو لم يكن حياً ، كان مدارراً ماهرأ حفيف الحركة ، لين الجسم . بالإحصاء إلى ذلك كانت يديه أسماك هوية تدعوه إلى القتال ، كان يعلم أنه قتال لا أن يقتل إما بهوره ، أو يقتله ، هو قتال حياة أو موت ، بلاعب بسيمه وكأما هو في كل مكان في آن واحد ، ما من هجمة إلا وحدها ، وأقبل بعدها من الدفاع إلى الهجوم ، دأ كأبه يقابل بعشرة أسياف لا واحدا ، حيثما امتد سبقي لأفاه بحسامه

كأنما مايناق سابق كان المقابلون يتنحرون لنا عن المكان ، وشيئاً فشيئاً وجدنا أنفسنا نقاتل عمر دأ في العراء ، وحاطته بشيء أعمدت فيه الهدوء .

— إيوف عسع لماذا لا تأمر رجالك بالكف عن قتال ؟ أعتقد أنه قد قتل منهم النصف على الأقل ، دع حسامنا يقرران النتيجة وإما أن أقتلك ، وأما أن تقتلني ، وتفوز بحريتك .

جاء رده في صيغة هجمة شديدة لولا يقطقي لاخترق حسامه صدرى .
عدت ثانية أخاطبه :

لقد تسببت حتى الآن في قتل وجرح عشرات الرجال ، فلم تصر على أن تمنى جميع رجالك ؟

كنت أهدف من وراء كلامي أن أستثير غضبه فينسى حذره ، وكان ما أردت ، إزداد هجومه شدة ، وإزداد تموراً ومصيت في خطابي .

— إنك مغفل يا إيوف لقد أردت أن تستدرجني إلى الثعالب بإراقتك للدماء ، وإسداك للوئ ، واستدراجك إلى العراء على الشاطئ ، خدعتك تماماً قتالي مع نجم آب ، كما خدعتك تمثيلية المعركة بين رجال نجم ورجالي

التمع سبعة تحت أشعة الشمس وهو يتدفع بسرعة خارقة نحو صدرى فى هجمة جريئة ، وتحرك جسمى حركة خفيفة أمدت النصل عن هدفه ، أعماه الغضب فتجلى عن صدره ، وترك صدره مكشوحاً ، ببساطة امتد ذراعى بخبرة لو أنها أصابت هدفها لانهت القتال ، كانت موجبة إلى القلب لكن ليونة جسمه أفقدته ، مع اندفاعه وراء جسمه نحو الهدف المراوغ أنشئ جروءه الاعنى فى محاولة التعادى ، لم يفلح تماماً إذ مرق النصل كسبه الأيسر ، لكنه ما لبث أن استعاد توازنه وواجهنى .

— هذه أول الدماء يا إيوف ، ألم أفل لك إنك مغفل ؟ لابد أن رجلى يصحكون منك الآن ساحرس ، وأن رجالك يلعنونك على ما أردتهم .

سالت الدماء من كفه مرارة ، ولابد أن حيويته كانت تتناقص بسرعة ومع هذا فقد استمر هجومه الوحشى ، أصبحت المسألة بالأسفة لى مجرد وقت لن يلبث معه خصمى أن يفقد كفاءته عن القتال ، كان يحرق ما بقى له من حيوية بهجماته المتتالية ، ولم أدر على أن أتحقق موقف اللطاع ، لم يطل الوقت حتى دست حركته أكثر ثقلاً ، وأفل انزاعاً . لابد أنه لم يكن يرى جيداً حينما اندفع فى آخر هجمة له ، اندفع بحوى ، ولم ير سيقى الممتد فى طريقه ، واحترق النصل صدره .

وقفت أظفر إلى جثته لحظات ، ثم استدوت إلى ساحة المعركة . كان القتال ما يزال دائراً ، وإن تسكن حذته قد دعت إلى حد بعيد ، صحت بأعلى صوتى أن إيوف غنم هدمات ، وأن على رجاله أن يستسلموا ، وبلغوا بأسلحتهم ، بعد لحظات توقف القتال تماماً وأحاط رجالى بالمقبة المتبقية من الأعداء ، كانوا لا يريدون على المنة ، أخبرتهم أننى لن أقبلهم ضمن

رجائي في السعيتين ، وأني أتركهم وحظهم في القارة ، إلى أن رحل عليهم أن يعملوا في نقل المؤن ، وحمل ، المياه .

• • •

جلسا نحن الثلاثة بسائل الحديث ، تساءلت عن عدد قتلاتنا وسررت إذ علمت أن ساحورع قال لهم لم يتعدوا عن الأربعة عشر ، وأن عدد الجرحى إنسان وعشرون ضحك بهم آب وانمرجت أساير وجهه المتورم وهو يقول :

— انما استنى درسا كما قلت مع أن الأمر لم يكن يعدو الثقيل .

— إني آسف ونحس ، لكن هذا الجرح من النبيلة كان لابد أن يكون حقيقياً حتى يقتنع إيوف عنح .

ابتسمت وأنا أتفحص رجلي ثم زدت .

— وأنت كنت أن تقتلني حقاً ، ترى هل كنت تفعل هذا حقاً ؟

— كلا إذ أعطيتك الفرصة لتقلب الاوضاع ... إن رأسي ما زال يطن حتى الآن ، وأحسني أن أكون قد فقدت السمع حرياً . صحكنا ، وقت :

— على أي الاحوال أضأهم من الأمور إلا أن رداً في تمويح السعيتين . وكنت محطناً

• • •

ربما كان ما حدث بعد هذا هو نتيجة لمرط الإغمسان الذي شعرت به بوقاة إيوف عنح ، وربما كان نتيجة لتوتر الشديد بين الرجل . لم أحلمهم عبء العمل مساء يوم المعركة ، وتركته لهم حرية التصرف ، وما لبثوا أن ادشروا على الشاطئ ويمرحون ، ويسحون ، ويأكلون ، ويحتسون البيرة .

صعدت على كل من السعيتين ، وجهت رجال إيوف ، وأحترتهم بوقاة قائدهم ، وحيرتهم بين البقاء مع زملائهم على أرض القارة ، أو أن يرحلوا معنا على أن يقسموا بين الولاء لي ، مهدداً أي ما كص للفهم بمقوبة

الإعدام . فصل معظمهم إستئناف الرحلة ، ولم يرهص سوى عدد قليل لا يتجاوز الأربعين ، إصبوا إلى زهلاتهم الآخرين . أمرت بإعادة السلاح إلى من أوسم بين الولاء ، وأن يعمل من آثر الغناء في القفارة في نقل المؤن والمياه .

في الصباح قامت فرقتان تسكون كل منهما من مائتي رجل للبحث عن ادور ، إحداهما بقيادة منتوسين ، والأخرى بقيادة نجم اب . كنت أعلم أن المنطقة القريبة من الشاطئ قد جردت تقريباً من الثمار ، كما جردت الحيوانات ، ولهذا أمرت أن يأخذوا معهم ما يلزمهم للمبيت ليلة أو اثنتين في الماء ، وحالم يكن لي بعد رحلتهم عمل على الشاطئ ، فضلت الانتقال إلى السفينة لمراقبة التجارين ، وحفهم على الإسراع .

مره واحده خاطبني فها مرت سجر في اليومين التاليين . لم أكن قد رأيتها حينما صعدت إلى سطح السفينة ، ولابد أنها إعتكمت في قعرها . لكنها جاءت إلى قرقي بعد قليل وصرخت في وجهي أني قابل ، وتهمني بأني قتلت إيوف عنج عمدا لعبرتي منه . كان هذا الموضوع قد أعلق نهائياً ما يدبني لي ، فلم أشأ أن أدهص مراحمها ، ولم أزال بالرد . حينما رأت صحتي ، وإستعدت غضبها حدة تركت القمرة ، ولاحات بعد ذلك أنها أصحت قليلة الاتصاف لي .

عادت الفرقتان في اليوم التالي محملتين بالمؤن والمياه ، وقرر قائداه أن المناطق القريبة قد جردت تماماً من الثمار ، وأنه لا يمكن للمؤن يلزم التوغل أكثر في الغابة ، ومعنى هذا أنهم لن يعودوا من رحلاتهم التالية إلا بعد يومين . لما كانت هذه هي آخر رحلة يقومون بها كما أن التجارين كان لهم عمل لا أكثر من اليومين فلم أر بأساً من ذلك . وعقدت العزم على أن يبحر في اليوم الرابع ، أو الخامس على الأكثر .

تركوا صباح الغداة ، وقضيت اليوم أنتقل بين السفينتين أتعجل التجارين ، والعمال . كانت أعصابي مشدودة ، ولم يكن عندي شك في أن

السحب هو عدم رؤيتي لموت سحر . كنت ساحطاً عليها ، وعني نفسي ، ووددت لو انزعجت من رأسي لمفكير فيها ، لاني لم أستطع . ما أن انجبت الشمس إلى أمتي (الغروب) ، وتوقف النجارون عن العمل ، حتى صعدت إلى سطح سمعي آملاً أن أراها ، لكن يبدو انها ظلت معسكة في قرنها .

شعرت نصيق نفسي شديد حتى أنني تركت للسحابة ، وصرت السحاب إلى الشاطئ . . كان (شمس الغروب) ما زال يتسكأ في الأفق ، والجو يميل قليلاً إلى البرودة . سرت بمحادثة البحر وقد نكست رأسي أفكر في حي لموت سحر . وعدم جدوى الإستمرار فيه . كان علي أن أبعد كل أمل في أن أحظى بها فهي ليست ملكاً لي ، ولي تكون . إنها ملك للمرعون . كدت أتمنى ألا تنتهي الرحلة ، وأن نجد بقعة من الارض يستقر فيها ، وما أكثر القناع الحيلة التي مرت بنسا . لن يعثر علينا أو يقف على أثرنا أحد ما لبثت أن طردت هذا المخاطر . لاني صابط بحرية الفرعون ، وأمامي مهمة يجب أن أؤديها ، أو أموت دونها ، ولا يوجد لي خيار ثالث

مع تصميمي هذا ، لم أملك في قرارة نفسي إلا أن يعاودني الحنين إليها ، ووددت لو كانت تسير معي الآن ، تفتت أديمها . وأستمع إلى صوتها . ملأت نفسي رعدة عارمة أن أحصلها إلى صدري وأقبل عليها لثماً أحسست بمراع عظيم في قلبي ، وطرف رجائي أكثر من مرة أن أعود إلى السحابة ، وإليها ، أصرق باب قرنها ، وألقى نفسي عند قدميها ، وأخبرها كم أحبها ، وأهواها .

تمش حينها يتراجع سائراً أمامي مبسماً . هاش . أمرعت الخطي كـ... لا عن ها... و... وأصابني بضربة على مؤخرة رأسي . أحسست بسهم من نار يمرق داخل جمجمتي ... وعشيتني عمامة سوداء حجبت الرؤيا ، وصعدت ركبتني عن حمل ثقل جسدي ، فتهويت على الارض وغبت عن الوجود .

الملكة

تملكت في رقدتي . قل أن أنحرك شمريت بألم حاد في مؤخرة رأسي .
فتحت عيني وطالعتني أعالي الأشجار ، والسماء الصافية يضيئها القمر . كنت
أهتز ، وأنحرك ، وأداراقت على طهرى ، حاولت النهوض ، فصعنتى جبال
مفتولة تبينت منها أنى مقيد إلى محفة يحملها حصص الرجال ، وأهم يتوغلون
داخل الغابة .

دعمت رأسي قليلا ، وهاودنى الألم الحاد . نظرت حولي ، ورأيت
رجالا كثيرين يسبرون على جانبي المحفة ، وأمامها ، دون أن يعيروني إلتفاتاً
رجعت برأسي إلى الخلف حتى استقر على أحشاب المحفة ، وتطلعت إلى السماء
أفكر . لابد أنى كنت مستغرقاً في حيالى فلم أشعر بالعدو وهو يقترب ،
لم أدر كم من الوقت مضى على في الخنثى ، ولا المسافة ، أو الاتجاه الذى نحن
سائرون فيه ، أدت رأسي أبحث عن الجواب في نجوم السماء ، وسرعان
ما تحققت أننا نتجه إلى الجنوب الغربى .

أغمضت عيني أخفف من الآلام التى كانت تدفع في رأسي كالسهم بين
الحين والآخر ، تدالت الأفكار في رأسي ، إنى بين أيدي جماعة من أهالى
المنطقة ، ترى ماذا يريدون منى ؟ لو شاءوا قتلى لفعلوا ذلك منذ مدة ،
وما احتاجوا إلى حلى ، ترى هل رأى أحد من رجالي ؟ أين عنخو وسيمبا ؟
كم مضى على وأنا في عيبوبة ؟ احتارت الأسئلة ، وتوالت دون أن أجد إجابة
شافية عن أيها ، وما لبثت أن اتتاني الإرهاق ، لعل أحس ما أفعل الآن هو
أن أنام من بدري متى احتاج إلى قواى .

أيقظتنى أشعة الشمس الحارة ، وجدت أن أسرى ما يزالون يسبرون ،

لكن الماظر تغيرت ، بدلا من الاشجار الباسقة ، والنباتات المتشابكة ،
اكتست الارض بساط أخضر من الأعشاب ، ولم تظهر سوى أشجار قليلة
منفردة ، وبعض غيضات متباعدة ، على طول الأفق امتد جبل أشم ، بدا
من إتجاهنا أما بقصده ، أو بقصد مكانا عند سمحه .

شعرت بحرج شديد لكن لم تكن هنالك وسيلة حتى للطلب ، وعجبت
هل سوف يتوقف الرجال ولو لتناول الطعام ؟ كانوا يسرون بحركات رتيبة
دون أن يبادلوا الحديث ، يتقدمهم قائد متوسط القامة ، بمشوق القدر ، يسير
بخطه العزال ، لم أر سوى ظهوره ، لكن كان في هذا الكفاية لأعلم أنه يختلف
عن سائر الرجال ، كان جلده أملس كجلدهم ، فقد لاحظت أن معظم الرجال
السمرة قليلو شعر الجسم ، لكن لونه كان أميل إلى السمرة منه إلى السواد ،
كان يرتدى موعا من القماش يستر به جسده وكان القماش نفسه يغطي رأسه
ويخفي شعره ، ولم تكن هنالك وسيلة لأعرف إن كان يشارك باقي الرجال
في الشعر المملح الخشن .

رفعت رأسي قليلا لأتحقق من القائد ، وشعرت بدوار وألم حامين ،
أحس الخالون بحركتي فتكلم أحدهم بلغة لم أعرفها ، والتفت نقاد ، وكانت
المرأة جاءت ، هم يكن القائد رجلا ، لما كانت امرأة ، ناصجة الاوثة ، رفعت
برها ، وتوقف الخالون عن السير ، ثم تمتعت بصعلة كدمات بلهجة أمره ، غير
أن رجلا بعدها سطر سيرهم ، وانجسوا إلى إحدى الاتجاهات القريبة تتقدمهم
المرأة .

عندما وصلنا إلى العيصة أصدرت المرأة أوامرها ، ووضح الخالون الصورة
رفعني عن الأرض تحت ظل شجرة كبيرة ، انحست المرأة لتحل قيودي وتمكني
أن أراها جيدا ، لم تكن قطعة من أصل زمني خالص ، بل إن آثار أسلحة
الرنجية كانت دائرة تتش في الشفتين عليتين ، والجسد الأملس المشوق ،
والجلد الأسمر ، كانت حجة بأية معايير الحال ، حينما لاحظت أبي أمحصها

والخود الذي صغ وجهها ، وانسمت ، ثم جاءت دهشنى التالية حينما
تكلمت بالسواحيلية ، بصوت ناعم رهيق :

— هل تتكلم السواحيلية ؟

— قليلا .

— هل أنت عربى ؟

— كلا ، لىنى من تامرى .

— أين هى هذه البلاد ؟

— أقصى الشمال من بلادكم على مسيرة أشهر كثيرة .

بانت الحيرة على وجهها .

— هل هناك أناس آخرون غير الزنوج ، ومن يقطنون بلاد مأرب .

— هناك أقطار كثيرة فيها مختلف الأنواع ، والأجناس .

حينما أتمت حديثي عدلت جالسا ، لم أشأ أن أقوم دفعة واحدة
حتى أتأكد أن الدوار لم ينتهى ، وقمت امرأة أمامى بظن وتنفضى
بإعجاب لم تحاول أن تخفيه .

— لك صحم الجسد جدا ، هل تريد أن تأكل ؟

— أجل .

والفتت إلى الرحا ، وأصدرت أوامرها ، فأمرع بعضهم بوضع أدمى
بعض الفواكه .

جئت إلى جوارى ، وبدأنا نأكل ، وكذلك تعرق رجل حولنا يطعمون
ويستريحون ، تدورنا الطعام لفترة فى صمت ثم سألتنى :

— ألا تريد أن تعرف أين ستذهب ؟

— سأعرف حينما يحين الوقت .

— أليس خائفا أن يقتلك ؟

— لو شئت لعلتم من مدة طويلة .

انطلعت منها صيحة جدلة رنانة هي أقرب ما رأيت إلى الانوثة . أعادت النظر إلى وجهي ولم تخصص عيها :

— إن مايا ستسربك كثيرا .

— من هي مايا ؟

— الملكة طما ... إنك ستزوجها أولا .

توقفت عن تناول الطعام إذ كادت أن تصيبني عصا .

— ماذا تعين أتزوجها أولا ؟

عادت إلى الصحت ، وما لشت أن ردت على سؤالي :

كما أهول إنك ستزوجها ، ثم لك أن تنقذ من شئت من الشريكات بعد ذلك .

سألت بهياء :

— ماذا تعنين ؟

— اسمع إلى قصتي ، وربما تفهم بعد ذلك من أرماني حقيقة جاء بعض الأعراب ، إذ تحطمت سميتهم عند هذه المنطقة ، كان عدد من نجوا لا يريد على عشرة أشخاص ، أقدمهم الآلهي ، ونوا لهم أكواخا خاصة ، فلم يكووا فد رأوا رجلا أيضا قبلهم ، اعترضهم آفة ، أو من نسل الآلهة ، اردادوا اقتناعا بهذا عندما شرع الأعراب في بناء منازل من الأحجار لانقسام واستعملوا الحساجر وانسيوف ، والرماح الحديدية ، إن الحديد موجود بكثرة في الجبال سكن الآلهي لم يكووا يعرفون شيئا عن استعماله . تراوح الأعراب من الآلهي ، وأقاموا معهم ، من سلمهم تكوت الطبقة الحاكمة ، لكن شيئا غريبا حدث إذ أن معظم النسل الأبيض كان من النساء ، وكان من النادر أن يولد رجل أبيض ، حينما يولد مثل هذا الرجل لا يكون ملكا لحسب ، وإنما يعتبر من الآلهة . كان من نتيجة بكرة المواليد البيض من (١٦ - رواد)

الذكور أن استولت النساء على الحكم ، والقيادة بأوامرنا ، ومع تعاقب الأجيال
ابتدأ اللون الأبيض ينعدم ، وبالزعم من أننا نحشا عنه بين الأهالي في البلاد
المتاحة فإنما لم نعثر عليه إلا حينما حضرتم ، كنتم دائماً تتحركون كجموعة ،
وخشينا أن نهجمكم ، لكن حينما رأيتم منكم منفردا سهل على أن أخطأكم ،
هذا ستكون أنت روح الملكة ، وستعامل كإله ، كما لك أن تعاشر من شئت
غيرها ، وبذلك تتجدد دماء الأشراف ويولد جيل جديد مهم .

وبما كانت مثل هذه الحياة تروق لغيري ، إلا أنني رأيت نصي أعيش
كالثور يؤوى به لصحبي السلالة ، لا يقوم بعمل حتى يتوهل ثم يدع . لم أكن
أريد أن أكون إلها ، إنما مجرد رجل له زوجة ، وأولاد ، ومنزل . صابط
في جيش الفرعون عليه بيعات ، وأمامه مهمة كلفه بها رئيسه فالترم بنعيمها .
وأت رجوى فقالت غامرة :

— ألا تروق لك هذه الحياة ؟ سوف أنزوجك بعد مايا ، إذ أنني التي
اكتشفتك وأسرتك .

لاحلت أنني لا أناول الطعام فأصامت :

— ألا تريد مزينا من الطعام ؟

— كلا ، شكرا .

— إذأ هيا بنا ... هل تستطيع السير ؟ أم أمرهم يحملك على المحمة ؟

— أعتقد أنني أستطيع السير . شكرا .

— إذأ هيا بنا فإن رحلتا طويلة ، وإن نصل قبل العروب ،
في اليوم لتالي .

فمرت من مكانها بحصة ، وراحت تصدر الأوامر ، وسرعان ما كتب
في طريقنا . تناولت ربحا طويلا ذا رأس حديدى وسارت في المقدمة ، وسرت
إلى جوارها ، لاحلت أن عددا محدودا من الرجال يحمل رماحا ، وأنها جميع
خشية ، مجرد عصي عذبة مديبة أحد الطرفين ، بحث عيناى عن سبيى ،
لكنتي لم أره ، ولعله كان محبسا بين سلال الطعام .

سربا ساعات وسط الأحراش ، وشاهدت أنواعاً متباينة من الحيوانات :
الغزلان ، والحير الوحشية ، وبعض الراف ، والأهبال ، والوعول ،
والجاموس الوحشي ، ووحيد القرن ، والحنازير . كانت جميعاً تصر بعيداً عنا ،
حتى الأفيان كانت تتعد عن طريقنا ... رأيت وحيد قرن وأثناي يريان ،
ولعل رانحتنا وصلتهما فما لنا أن استعدا بدورهما .

عند الظهيرة ، حينما اعتنى رع كبد السماء جلسنا في إحدى العيصات نتناول
طعام العدا . ونعصى ساعة يستريح فيه الرجال حتى تخف حرارة الشمس .
لم يبد أننا اقترينا من الجبل بالرغم من المسافة التي قطعناها ، وبدأت أشد
أن المسكن الذي تقصده لا بد أن يكون بدوره بعيداً عن سمع الجبل ،
هذا إذا كان حقاً ما قاتته القائمه الحساء من أننا سوف نصل بعد غروب
اليوم التالي .

واستأنفنا السير ، وبعد حوالي الساعتين حدثت الواقعة . على بعد لا يريد
على مائة متر مرق أمامنا غزال يعدو مرتعاً . وراه البدوم جسد ضخم
لأسد هائل الحجم من الأعشاب فرعت غزلان لم أكن قد رأيتها ، لكنني
الآن شاهدتها تقهر في كل اتجاه . لم تسم المطاردة طويلاً إذ مالبت الأسد أن
توقف عن المطاردة في حين اختفت الغزلان .

توقفت القافلة عن السير ، وتجمدت الفتاة إلى جوارى ، واستعد الرجال
بالحراب . أخيراً همست الفتاة :

— إنه أسد جائع عهود ، لابد أن له أياماً لم يدق فيه ضماماً .

هممت مرماها . إنه سوف يهاجمنا ، وحقاً استدار الوحش تجاهنا ،
ووقف شامخاً رأسه الضخم صارباً يديه في الهواء . وعادت المشاة
تشكلهم بسرعة :

— إهرب أنت مع الرجال ، وسوف أقتله ثم ألقى بهم .

كانت تريد أن تحتط ما شور للإلتاح ، ولا بأس إن هي فقدت حياتها .
لكنني لم أكن لأدع امرأة تدافع عني .

— أعطى الرمح .

— لا ... لا ... إذهب أنت .

لم يكن هنالك وقت للمناقشة إذ رأى الأسد ، وأدفع نحونا رفع الرجال وماحهم وأموها عن الوحش الذى أضفى على بعد أمتار منا ، ثم هروا والحالون ، متعرقين في الأحرار . ربما كان بعض الرماح قد أصابت الجسد الحائل ، لكنه لم يتوقف عن اندفاعه . عندما أصبح على بعد لا يزيد على ثلاثة أمتار قمر في الهواء قاصدا القناه . بعف وقوه رمت رمحها ليستقر في كتفه وصرح الحيوان ألماً .

سقط عن الأرض ، وسقط عنه الرمح . لم تكن الصريرة من القوة بحيث يسرع النصل إلى مسافة كافية تعوق الوحش عن الحركة . انشأ الأسد وقهر على القناه شدتها من ذراعها أسحبها بعيداً عن طريقه ، ودفعها فسقطت بين الحشائش . قهرت ، بدورى لكن هدفي كانت الرماح التي ألقيت . عثرت يدي عن رمح حشى فضضت عليه لكن القبضة كانت من ناحية النصل .

حدث كل هذا في ثوان ، لكنها كانت كافية لأن يرد الوحش ويهجم هجوماً ، قهرت وانما أستقبله بالرمح ، مسعلاً إياه كهراب . لم أكن قد اعتدلت تماماً هذا لم تأخذ الضربة قوتها الكاملة . لكنها كانت ضربة مؤلمة هبطت على أنفه ، وأوقعت هجوماً . ومع هذا أحسست بأطراف محاربه نرس كتني لمرق ملاسى ، واجلد من تحتها ، ونسيل دمائي . وقففت توارى .

أطلق زئيراً ، وكرهاحى إلا أنى كملت قد اعتدلت ونسجيت عن طريقه . هبطت العصاة على وجهه بقوة جعلته يميل برأسه صارحاً . تحته عير متوقعة من مثل هذا الجسد الضخم انشأ قبل أن أدنبه ، رأيت الموت على بعد لا يزيد على مترين ، ولم تسكن لدى وسيلة أتهدى بها القصبة القوية التي لاشك ستهبط على قبل أن أستطيع الإفلات منها . في هذه اللحظة مرق رمح خلقي ليستقر في صدر الوحش .

فهر في الهواء يرأر غضبا ، وألما ، واعتدل الريح في يدي . بأقصى ما أستطيع من قوة دفعته في الصدر العريض إلى جانب أحيه . جن جنونه ، وأحد يصرب الرحين بقدميه الأماميتين ، وسقط رشح ، وانكسر الآخر . في هذه الأثناء كانت الفتاة قد ناولتى ريحا آخر ألقىته بقوة سابقة في جانب الأسد . هز مرتين ، أو ثلاثة حتى استقر على الأرض ، ولم يتحرك من مكانه .

وقعت الفتاة إلى جانبي شاهد الحيوان يلمظ آخر أعماه ، وعاد الرجال يلهمون حوله . كانت نظراتهم تنقل منه إلى ، وسمعتهم يتكلمون منهملين — وبات الفتاة :

— إن من يقتل أسداً هو بطر الأبطال . وكمن رجل مهم فقد حياته في محاولة لأن يكتسب هذا اللقب .

مست كمنى الحريح بأامل رقيقة ، وأخبرتها أنها جروح لا أثر لها إذ حنى الملابس . أصدرت أوامرها إلى الرجال ، وسمعتهم يتعمون ، ثم انصرفوا يجمعون الرماح ، ويرفعون الأحمال التي ألقيوها وهم يهرون . وخاطبتني الفتاة :

— إنهم لا يريدون أن يتركوا الأسد قبل أن يقطعوا شرائح من لحمه وينتزعوا قلبه ، فإنهم يعتقدون أن من يأكل قلبه يصير مثل شجاعته ، لكن ليس لديها وقت بضيقه إذا كسا سوف يصل إلى قرينسا الليلة القادمة .

بعد دقائق بدأ بالسير شاهدت بعد الضباع وقد تجمعت ، تنتظر رحيلنا ابتداء وليلتها ، إلا أن أحداً لم يمرها إلتفاتنا لابد أننا سرنا أكثر من ساعتين حينما بدأت ألحظ أن النسانات قد دخلت ، وبدأت الأرض تتعري منها في أجراء متعركة ، كما كثرت الحجارة والحصى . كان الجمل قد ملاق الأفق وإحسنت الشمس ورامه ترسل أشعتها باهتة محتضرة .

أَمْضِينَا اللَّيْلَ فِي إِحْدَى الْعِصَافَاتِ ، وَاسْتَيْقَظْنَا عِنْدَ الْفَجْرِ لِنَتَنَاوَلَ طَعَامَنَا
وَبَدَأَ بِالسَّيْرِ . لَمْ يَحْدِثْ شَيْءٌ ، وَلَمْ نَتَوَقَّعْ سِوَى مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ لِمَتَنَاوَلَ طَعَامُ
الطَّيْرَةِ ، وَبَدَأَ رَعَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى أَتُومٍ .

رَأَيْتُ عَنِ بَعْدٍ ، مَا بَدَأَ كَفَيْضَةً كَبِيرَةً نَحْبُهَا الْأَشْجَارَ . أَشَارَتْ الْقَتْفُ
مَقْرَرَةً أَنَّهَا مَقْصِدُنَا . كُنَّا نَسِيرُ بِيْطَاءَ ، فَقَدْ أَضْحَتْ الْأَرْضُ صَحْرِيَّةً ، وَتَرَانِيْدَ
إِرْتِفَاعِهَا كَالْمَا تَقْدَمُنَا . عَلَى صَوْنِ الشَّمْسِ الْبَاهِتِ خَيْلٌ إِلَى أَنْيِّ رَأَيْتُ سِوَى
حَجَرِيَا بَيْنَ الْأَشْجَارِ ، وَلَمْ أَتَأَكَّدْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ مَضَتْ مَا يَقْرُبُ مِنَ
الْعِشْرِ لِمَاتِ (دَقَائِقُ) . كَانِ سِوَا هَائِلًا مِنَ الْأَحْجَارِ الضَّخْمَةِ يَرِيدُ إِرْتِفَاعَهُ
عَنِ خَمْسَةِ أَمْتَارٍ ، وَلَئِنْ أَرَأَيْتُ أَنَّ الْأَهْلِيَّ أَقَامُوهُ بِالْأَحْجَارِ لِدَفْعِ حَطَرِ الْوُحُوشِ
عِمْهُمَ ، لَكِنَّهُ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى كَانَ آيَةٌ فِي هَذَا السَّاءِ . لَاحِظْتُ وَجُودَ أَرْبَاحٍ
لِلْمَرْقَبَةِ عَلَى أَعْدَادٍ مُتَسَاوِيَةٍ ، وَكَأَنَّ مِنْ الْقَرْيَةِ ، أَوْ الْمَدِينَةِ ، يَخْشَوْنَ أَيْضًا
مِنْ جُورِ أَعْدَاءِهِمْ .

كَانَ اللَّيْلُ قَدْ جَنَّ حِينَما تَوَقَّفْنَا عِنْدَ الْبَوَاةِ الْحَشِيَّةِ الضَّخْمَةِ . صَاحَ
الْقَائِدُ عَلَى الْحِرَاسِ وَمَا لَبِثْتُ إِحْدَى الصَّفَفَيْنِ أَنْ تَحَرَّكَتِ . لَمْ أَدْهَشْ ، وَ
أَرَى أَنَّ خَمْسَةَ رِجَالٍ أَشْدَاءَ كَانُوا يَشْدُوْنَهَا ، وَكَانَ جَلِيْلًا أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ مِنْ
أَخْشَابِ الْأَشْجَارِ الْعَمَلَاةِ . مَا أُنْ ظَهَرْتُ أَمَامِي الْمَدِينَةَ حَتَّى تَبَيَّنَتْ أَنَّ
مَدِينَةَ حَقِيقِيَّةٍ نَظَرُهَا وَأَرْقُفُهَا ، وَمِمَّا رَأَيْتُهَا .

مَدِينَةُ حَمَمَتِ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَظَاهِرِ الْخَضْرِيَّةِ صَحِيحٍ أَنْ أَعْلَبَ الْمَذَلَّ
تَسْكُنُ سِوَى أَكْوَاحِ خَشْيِيَّةٍ ، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ مُنْظَمَةً ، حَسَنَةً لَصَدْمَةٍ (١)

(١) - مَوْصُوعُ الْمَرْأَةِ إِذَا كَدَّ لَيْسَ لِقَاتِنَا مِنْ رَوَايَاتِ رَابِعَادَرِ هَعْدَرْدَ ، وَ
فَصَحْ أَلْفَ بَلَّةٍ كَمَا قَدْ يَسَادِرُ إِلَى فَعْلِ الْقَارِيَةِ ، إِنَّهُ حَقٌّ وَاقِعٌ لَهَا وَالْهُوَ
السَّائِدُ لَدَى مَسْأَلَتَيْنِ كَمَا أَنَّ الْمَدَائِنَ الْعَجَرِيَّةَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا هُوَ مَعْرُوفٌ بِاسْمِ حَصْرٍ
فِي مَسَاوِيٍّ ، وَإِنْ يَكُنِ الْعَلَمَاءُ لَمْ يَرْجِعُوْهَا إِلَّا إِلَى الْأَلْبِ الْأَوَّلِيِّ بَعْدَ الْمِيلَادِ عَلَى أَيْمَنِ
وَالْمَا كَانَتْ حَضَارَةً رَمَائِيٍّ أَوْ قِيٍّ مِمَّا وَصَفَتْ كَثِيرًا فِي حَيَاتِ الْكَتَابِ هُوَ الَّذِي أَوْحَى
تَدْمًا الْحَضَارَةَ فِي هَذَا الزَّمَنِ الْحَقِيقِيِّ .

انخرج الباب أولاً عن ساحة واسعة جداً ، وأثناء دخولنا هالتي ضخامة
الاحجار التي بنى بها الخائط . على بعد يريده على حدة (١٠٠ ذراع) ، أو
أكثر ، تصدر الساحة مبي صخيم من الحجارة . كان مبنى ذا قلب ، وجناحين
ويرتفع فوق سطح الأرض بطابقين . لاح كما هو حط آخر للدفاع عن
المدينة . إلى جانيه كانت مبان حجرية أخرى ، فلبها الأكواح مصطمة في
نظام مكنونة الطرافات التي غلفت بها مشاعل على مسافات معقولة سكنى لتلقى
أضواء تنير السبل .

رأيت الإلهي يهرون في الألفة ليمتعوا مشاهدتي ، وكلما تقدمنا
في ساحة تزايدت كثافة النظارة . لاحظت أن كثرات من النساء تناس
الواهن ، وليس كذلك الرجال ، تماماً كما أحررتي الفتاة . ومع هذا فقد
كان منهم ذور وجوه وسيمة ، وأجساد قوية مشوقة . كان الجميع يتطلعون
إلى كأنما أما حيوان عريب هبط بينهم فجاء . سرت متحاملاً على نفسي
أحاول أن لا يظهر على أثر مما أشعر به من تعب ، وألم . كان رأسي ما زال
يقولني ويرسل طيننا مرعباً في أدنى ، كما شعرت بأن كفتي قد تصلب من أثر
محالب الأسد .

تقدم موكبنا نحو العصر ، أو الحصص ، وشهدت رجالاً يهرون
بمشاعل إصافية حتى غشيت أصواتها لصعرة اسكان . امتلأت الشرفة الطويلة
بالنساء ، ولابد أنهن الشريقات ، وتوسطهن الملكة عينا ، عروسي المنتظرة .
هالتي منظرها . ربما كانت أكثرهن بياصاً ، لكنهما كانت سميكة متهلة حتى
أها ملأت مقعداً صحناً لعله العرش . اتصلت دقتها بصدورها فاختفت الرقبة ،
واكتنز الجسد شعباً ، وبرزت بطنها إلى الأمام حتى أنه خامرو الشك في أنها
لن تستطيع النهوض من مجلسها .

إيسمت وهي تنظر إلى كأنما أنا قران يقسم إليها لانتهاهه . لم يكن في
يتى أصله أن أزوجها ، أما وقد رأيتها فإن الشعور الذي حاصرني هو الرعدة

في الفرار . ركعت الفتاة أمام ملكتها ، وخاطبتها تلك اللعة التي لم أفهمها ، وارتفع صوتها رباناً وسط السكون الذي حل على الساحة . ما إن انتهت حتى تصايح الآلهة مهلين . أشارت المرأة المترهلة واعتذلت الفتاة في وقفها بعدما هرعت بعض الشريعات يحلين مكاناً لمقعد صخري آخر وصع إلى جوار حبل الشحم .

ترددت برهات ، ولاحظت أسر في ذلك موضعت يدها على دراعي برؤي وقالتي إلى المقعد كنت مرهقاً فلم أقاوم وجلست مكشأة في الركن القصي بعيداً عن عروس المستقبل . التفتت إلى وما زالت ابتسامتها تشطر الوجه المكتنز ، وخاطبتي بالسواحيلىة .

— مرحبا بك في ربما . سنقدم لك كل ما في استطاعتنا ، لنجعل إقامتك سعيدة ، وإذا أردت شيئاً فما عليك إلا أن تأمر .

انتهزت الفرصة وأجبت :

— شكرا لك أيها الملك . إني متعب من أثر الرحلة الطويلة

ما لاعينه فيها من مشق . هل أطمع في أن أستريح ؟

نار القلق على محياها . وخاطبت السماء حولها بنهجة أمره سرده . وما من إلاخطبات حتى جاءت أسرته ، وضبت منى أن أتبعها ، أعدت شكرتي للمملكة وصوت أثر الفتاة ، قالتي إلى داخل القصر ، أو الحصن ، ونسيت صحابته من الداخل ، كان جمع بناته من الاحجار ، حتى الأرض كانت حجرية وإن صنعت بحيث أمحت ناعمة ملء ... رأيت بهواً مسيحاً يسير منه من الرياش سوى بعض مفاع خشبية متناثرة ، ويتصدده درج يقود إلى الطابق الأعلى نحت على الجانبين حجرات أخرى إلا أنني لم أتبين ريشاً

كان البهو مصفاً بالمشاعل ، وكذلك الدرج ، وحينما تبعنا الفتاة إلى شرف انجهت هوراً إلى ردهة على الجانب الأيمن ، ثم فتحت باباً خشبياً ، ودعوتني إلى الدحول . رأيت حجرة واسعة أرضها من الحجارة ، وبها نافذة واحدة

تطل على الساحة . في أحد أركانها سرير خشبي عريض ، وإن كانت الحبال
المجدولة قد حلت محل الحشايا ، بالقرب من النافذة وصمت منصدة ،
ومقعدان ، في أحد الأركان وصندوق كبير ، وفي مهابلتهما منصدة كبيرة
عليها طست ، ولم يبق من الفخار .

أعلقت النافذة الباب وجلست على أحد المقعدين .

— هل تريد شيئاً ؟ أعي طعاماً أو شراباً ؟

— كلا شكراً ، إن كل ما أريده هو أن تطلقوا سراحي لأعود إلى إنعام
المهمة الموكلة إلي .

بان الاهتمام على وجهها :

— إنك لا تريد أن تبقى معنا ... إنما سوف نفعل كل ما نستطيع
لإسعادك .

— إن سعدتني أن أعود إلى سميتي .

— إن ما يا أيتها أحلما ، سكرها أكثر ما يياصاً ، ويمكنك أن تتسرى
بمن تختار منها .

— المسألة بالنسبة لي ليست مسألة نساء ، إنما موكل من ملكي مهمة
على أن أقوم بها .. وإن استقر حتى أمها .

— أرجوك ألا تفكر في الفرار ... إنه الشيء الوحيد الذي لا نستطيعه .
لم أرد على هذا كنت أفكر أنني لو حصلت على السلاح فأني أستطيع
أن أحاول على الأقل ، سكر كيف أحد سبي ، أو حتى مجرد حنجر .
انسمت النافذة وقالت محاولة تسليتي :

— إن الأهلالي سوف يقيمون وليمة الليلة بمناسبة العثود عليك ،
طبعاً ستكون الليلة الكبرى عدداً ، ليلة عرسك ، لكن الليلة أيضاً تعتبر
عيداً ، سوف يأكلون ، ويشربون ، ويرقصون ، حتى وقت متأخر من

الليل ، ويمكنك أن تشاهد كل شيء من الدافدة .

— أعتقد أنني سأنام ، إنى سأنام ، إنى أمتع .

رددت قليلاً ثم قالت وهي تقوم من مجلسها :

— إنى لم أنس أنك أتت حياتى . إنى لا أستطيع أن أساعدك على

الفرار ، لكننى على الأقل أستطيع أن أحذرك ، إن لدينا هذين مدرسين ، هما حيوانان سريعان جداً ، ويقومان بحراسة القرية مساء .

شجعتنى كلماتها على أن أسألها إن كانت تستطيع أن تعطينى سبي ، وحجرتى ونظرت إلى نظرة طويلة ، ثم أولتني ظهرها ، وخرجت دون أن ترد على سؤالى ، ما أن خرجت حتى جلعت ملائسى ، واعدست ، ثم ألقيت بحصى المنك على الفراش ، كان أثر الضريرة ما زال يؤلمنى فى رأسى كما أن كنى كان به أيضاً تصاب خفيف . هذا أثرت الراحة التى أعلم أنى سوف أحتاجها فى القريب . إن المداومة ببس و بين الساحل مسيرة يومين على الأقل ، هذا إذا لم أصل الطريق ، أو لم يعقنى حيوان مفترس ، لهذا كان يلزمى أن أدخر كل قوى من الدافدة جاءت أصوات حركة غير طبيعية لقد بدأ الاهمال لإعداد الويلة للاحتمال ، إلا أنى لم أبث أن نمت .

استيقظت على أصوات الصباح ، خرجت عيالى مكنت برهات فى شبه دھوء ، حتى تذكرت الأحداث التى مرت ، أنت الأصوات من الدافدة المفتوحة ، ومما أيضاً دخل صوته القمر ، ميا يبير الحجر ، أردت أن أعرف الوقت ، ولكن لم تكن هنالك وسيلة أتمكن بها من التأكد . صحيح أننا فى النصف الثانى من الدورة القمرية ، وأن نافذتى شرقية ، ومعنى هذا أننا قد جاورنا منتصف الليل ، لكننى لم أستطع أن أحدد الوقت بدقة ، ولا كم ساعة تبقت ، حتى مطلع النهار .

نهضت من فراشى وبدأت أرتدى ملابسى ، وكانت المعاجاة الأولى إذ لم تكن هذه ملابسى ، إذأ فقد جاءت الفتاة ، وأبدلتها ، وأنا بائم .

لم تكن هذه من المعاجزة الوحيدة إذ لاحظت وجود سلة كبيرة حوت
أبراًها متعددة من الفواكه ، إلى جانبها وجدت حصص اللحم المطبوخ .

تناولت الطعام ، ووقفت أمام النافذة ، راقبت الأهالي لعترة وهم
ما يزالون يهربدون ويرقصون . لقد أمضوا فترة طويلة من الليل يأكلون
ويشربون ، حتى استلقى معظمهم نائماً حيث كان ، بينما ظل الباقون يرقصون
ويصيحون ، ويترنمون . كان هذا أفسس وقت أتسل فيه ، لكن إلى أين ؟
لأنني ناظري عبر الساحة إلى السور الضخم . كانت السلحة ومجاً من صياح
المشاعل ، وزادها القمر ضوءاً .

رأيت السور واحراس الواقفين عند الباب الضخم ، وأيقنت أن لا أمل
يرجى من محاولة إفتحام الباب . ببطء انتقل ناظري إلى الجهة الشمالية من
السور . كانت الأبراج متفردة بحيث تكون بحافة كبيرة إن حاولت التسلق .
كذلك تقاربت الأبراج من الساحة الجموسة ، لكن على بعد من السور ،
والباب ، رأيت شجرة ضخمة ربما يمكن أن أسلقها . ركزت إهتمامي
عليها ، إمتدت الفروع حتى غطت مساحة هائلة تتوج جدد الشجرة ، لكن
ما أحي في الأمل هي الفروع الممتدة ناحية لسور حتى تكاد أن تلامسه .

لأنني انتقلت إلى التفكير في مشكلة المبرط من الماحية الأخرى . إن اردت
السور يريد على حصة أمتار ، ويمكنني قمره ، لكن خطر إصابة الساقين ،
أو الكاحلين كبير ، وإن أستطيع بعد ذلك الابتعاد كثيراً قبل أن يلاحظني
المطاردون الذين ولا شك سوف يتبعوني . تركت النافذة ، وصعدت عيناى
بالحجرة تبحثان عن أى شئ يمكن أن أستفيد منه . لاحظت الصندوق الكبير
هاتجته إليه وفتحته ، كانت أن تفلت مني صخرة وزح حينما شاهدت سبي ،
وحجري . هل أنت هما الغناه لتساعدني في الفرار ؟

بمجرد أن إلتفتت فبصت على سبي شعرت بأمان عريض . إحساس
بالطمأنينة بصدق لا يحل . سميت ما تبقى من ألم إثر الضربة التي تلقيتها

على رأسى ، وسيت تصلب كفى ، ولم أعد أفكر إلا فى الفرار . بمجردى
قطعت جدران نعرash وصعدت منها أولاً منطقة لسيقى ، وحججى ،
ثم ربطت الباقي سعضه ، فأصحبى لىدى جبل يريد طوله على أرملة أمتار ،
وامتيت من مشكلة القفز من السور .

كانت المشككة السكرى فى إحصاء هذه الأشياء ، إذ أن كل الملابس التى
تركها آمرق لم ترد على إزار من قماش سميك يلتصق حول الوسط ، بحثت
فى الصديق ووجدت إزاراً آخر لعله ترك حتى أتمكن من استبدال ملابسى
حينما أشاء ، ردت أسدائى على ألا تنهر قدر الاستطاعة ، وارتدت الإزار
الذى يعطيها تماماً ، واعتدلت على أن الالهالى فى حالة شديدة من السكر ،
وأن صوره المشاع لا يعطى إماره كافية .

فتحت باب حجرتى وخرجت متلصصاً ، والواقع أبى مأكلى فى حاجة
إلى التلصص إذ أبى قادت فى القصر أكثر من شخص ، وداًى ، ومرى
كأنه لم ير أو طوح بيده بإشارة غير مقبولة ، وهو يترنح ، شجعى هذا على
أن أسير غير محاور إحصاء نسي ، ولم يعترضنى أحد سوى امرأة ثملة تهرج
حاولت أن تحيط عتقى بذراعيها فدفعتها بعيداً ، وسقطت على الأرض .
دون أى تردد إتجهت إلى الشجرة . لابد أن حراس السرايه أيضاً كانوا
قد شربوا ، ذلك أبى لا أشك فى أن واحداً منهم على الأقل رأى ، لكنه
لم يلبث أن ارتسكن على حرقته ، وانجبه نظره ناهاً إلى ناحية أخرى دون
أن يبدو عليه أى شعور .

عند الشجرة جاءت مفاجأة أخرى إذ رأيت آمرق منظره حين رأى
أسكت ، راعى وهات بسرعة وهى تناولى صرة :

— عليك أن تتعجل . لا تحش شيئاً الآن فإن الجميع ثملون ، حتى
الحراس أمرت باعطائهم بعض الشراب ، أما الفهدان فقد قيدتهم . عليك
بالإصرار قدر استطاعتك فإن المعجز لن يلبث أن يبرز ، وسوف يكشفون

هرارك دون شك إن الفهدين سريعان جداً ، وهما مدربان ، ثم إن لدينا أيضاً رجالاتاً اعتادوا على الجرى لمسافات طويلة . لئسى أعددت لك بعض الطعام حتى لا تتوقف .

أمسكها من كتفها ، وقلتها . حين تركتها كانت الدموع تساب من عينيها فمست في أذنيها :

— شكراً .

بعد لحظات كنت قد اعتليت الشجرة وهبطت من الناحية الأخرى من الدور . ما حدث بعد ذلك كان سبباً من العدو ، والإرهاق . لم أتوقف إلا لدقائق لا تقط أنفاسي . كان اتجاهي دائماً إلى الشمال الشرق ، واتخذت خطوة سريعة واحدة لم أرهق نفسي ، فبسي أجمع أن الوقت الذي يضيع في الراحة من الإرهاق ، يفوق ما أستفيد من فارق السرعة .

ساعة إثر ساعة ، وحتا (١٠٠ ذراع) إثر حث ، دون توقف تقريباً كنت أعلم أن الآهالي مدربون على السير لا توقف ، فقد شهدتهم وهم يحملون ليلاً كاملة ، وجرءاً من هارم يدوقوا فيها نوماً ، أو راحة إلا ما اختطموه في الساعات القلائل التي استرحا فيها . كان كتي به نصيب خفيف لكن رأسي هو الذي أعجزني . لقد تلغيت مد أقل من ثلاثة أيام ضربة شديدة أفقدتني رشدي ، وبالرغم من أن الراحة التي بعثت بها فإن أثر الضربة كان ما يزال موجوداً .

ربع حبر (شمس الصباح) وما دت مستمراً في خطواتي السريعة . مع هذا فإن أشعة خبركات قوية بحيث بدأت أشعر بالحر ، وبدوار خفيف في رأسي حاصني حسن الحظ فلم يصادفني حيوان مفترس يعرف طريق . رأيت بعض الغرلان ، والحر الوحشية ، لكنهم كانت قفوز حينما ترائى ... التقيت بقطيع من الثيران ، وتهاديته . ذات مرة اضطرت أن أعود بأفصى ما أستطيع

من معرفة حينها هاجني وحيد القرن إلا أنه بعد فترة ، كأما سم العدو في الحر . توقف واستمر يرعى .

بالرغم من أن رأسي كان يؤلمني ، وأن عيني بدأت تفتشها سحابة ، وأذناي أحدهما تطنان ، إلا أنني لم أتوقف . كان عدوي الأكبر هو الشمس ، هو جبر يتحول إلى رع (شمس الظهيرة) . أردت أن أصل إلى حمى العانة ، حيث الطل ، بأسرع ما أستطيع . كما قد قطعنا منطقة الأعشاب في يومين كاملين للراحة والنوم حينها حملني أسرى إلى العمرة ، لكننا كنا نسير دون سرعة ، كما توقعنا ، عندما هاجم الأسد . قدرت من هذا أنني سوف أصل إلى العانة بعد نظير تقريباً ، أي بعد وبوت (ساعة) أو اثنين .

انفضت ونوت ، وبدأت تلوح أشجار العانة من بعيد . صاعقت جدي بالرغم من أن ساقاي بدأتان يهملان ، وأن عضلاتي كانت تؤلمني أعطيت رؤية الأشجار أملاً جديداً دفعني إلى عدم التوقف . ساعة أخرى وصلت بعدها إلى أوائل الأشجار ولم أستطع أن أستمر . أقيت بجسدي المهلك على الأرض في ظل أول شجرة ، وشعرت بإغماء خفيف . آلمتني ساقاي ، وكنتي ، ورأسي ، ونوات أنفاسي لاهثة ، ولم أستردها إلا بعد أكثر من عشرة دقائق .

تماوتت بصمة لقيات ، رادت من شعوري بالظلم ، ومع هذا فقد شعرت بحيوية جديدة تندفع مع دمائي . حتى بعد مضي أكثر من نصف (نوت) كنت مازلت مجهداً ، لمكنتي كنت أعلم أنني لن أستردها قواي كاملة ولو مكثت يوماً . تحامنت عني نفسي وعدت إلى المير . أحسست بتصب عضلات ساقاي حتى أنني أحسرت نفسي على الحركة في كل خطوة ثم ثلاثي التصلب شيئاً فشيئاً . لم يكن في استطاعتي أن أعدو مثلما فعلت في الأحراش ، فللمعابة دروب ، ومسالك لا أدري عنها شيئاً . لقد قطعنا الإهالي في ليلة تقريباً ، وحامري شك في أنني أستطيع أن أصل إلى الشاطئ قبل أن يحين الليل .

مضت ساعتان ، وأما أتلنس طريق ، ثم دون سابق إنداد هبط على جسد صبحم ليأتمني على الأرض ، ولم أكن محتججا إلى عشاء كبير لأعلم أنه أحد المهديين . تدحرجت ، حيداً ، ومددت يدي لأستل سيق ثم توقفت . كشر الوحش عن أبياته ، وإلى جانبه وقف المهد الآخر متحيراً . تذكرت كلمات أسرني إن المهديين مدبران . أن يقتلاني إلا إذا حاولت قتلها . طعت على موجة يأمن مرير ، وآلمني أن أفتش في هروى بعد هذا المجهود المفضي ، لكن لم يكن في استطاعتي أن أفعل شيئاً .

من بعيد جاءني أصوات الإلهالي . سوف يأتون ، ويجدونني حديساً لا أستطيع التصرف تراجع ، بعد قليلاً ، واعتدلت جالساً لأرى أن الوحشين ينظران إلى يريهان حركاتي . مضت ربع ساعة تقريباً قبل أن يصل الإلهالي لم نتمكن أسرني معهم ، وإنما كانت اقودهم امرأه أخرى . لاحظت أن معها خمس نساء أخريات من الشريعات . لبدأً والملكة لم تطعن إلى أن توسل واحدة ، فأرسلت ستاً حتى تضمن عودتي .

خاضعتي القادمة بهجة شديدة آسرة إياي بالقيام ، وتحملت على رمي . فجاء انقلاب الموقف ، من بين الأشجار ظهر عدد من الرجال ، وسمعت صوت نجم آب وهو يقول في بساطة :

— هذا أنت أيها القائد ، لقد انتابنا الضيق لغيابك .

كان جنودهم يحيطون بجميع الإلهالي ، وإلى جانبه وقف أوى وقفته المهمة وقد أمسك بسهامه ، وهو سه . كشر المهداني عن أبياتها ، ونحاطت النساء بتلك اللعبة التي لا أعرفها وبدأ كأنما القبل أصحى لا مهابه منه ، ودخلت . وتكلمت بالسواحلية

— ابعثن هديكما ، وإلا سوف يقتلان اسمعن إن العرض من كل هذا هو مجرد الحفاز على النسل إذا كان هذا ولا داعي لأن تقتلن ، ويقتل رجالكن . عوضاً عن هالك أكثر من مائة وحسين رجلاً أبيض .

رأس العواصف

— ابن كنت ؟

بهاتين الحكمتين العاصمتين استقبلتني مرت . ولم أنمالك أن أبسم .
كأنما أنا زوج تاجر عن مواعده . حينما رويت لها ما حدث سألتني عن أسرتي
هل هي جميلة ؟ لما أجبت بالإيجاب رمت شعيتها ، وتركني .

تمت عمية إزال رجال إيوف عنح ، ولم أدهش إذ لاحظت أن الذين
تركوا السمينتين ، وفضلوا اللقاء على أرض القارة كانوا أكثر من ماتتين ،
بل إنني أشك في أن بعضهم لم يكن من رجال إيوف . كان الجميع سعداء .
كنت سعيداً ، هودتي ، وبأنتي تحببت من العدد الزائد من الرجال . وكان
الرجال سعداء ، إذ علموا أنهم ضيوف مكرمون ، ورسل آلهة ، وكانت
النسوة سعيدات ، صحيح أن أوامر ملككنهم كانت العودة في بأي ثمن ،
لكنها لاشك سوف تتقي نفسها رجلا يعوصها عن ، كما أن باقي الشريعات
سيحل دون أي تصرف أخرق منها . هذا إذا فكرت فيه .

ارحلنا مع أول حيوط هار اليوم التالي . كانت السمينتان قد أكلتا
تموينهما ، وملأت جرار الماء ، ولتتهى النجارون من أعمالهم . إلى
الجنوب ثانية . هل لهذا الجنوب من آخر ؟ أمضيت الهار في تـوين أحداث
الأيام الماضية ، ومن الغريب أن مرت سحر عادت إلى سابق عهدها معي
وكان شيئاً لم يحدث . سميت إيوف عنح ، وما أتمنى ، وأبست
إهابها لي ، وإذا جاز لي أن أقول فإن معاملتها أصبحت أرق ، وأكثر
ألمة ، ومودة .

استمر التيار يدفعنا نحو الجنوب بشدة ، ولم يكن في معظم

الأيام في حاجة إلى التجديد (١). أردت أن أوفر بعض الوقت الذي صاع
منا في زيمبا فلم أتوقف إلا لمرات قصيرة لجرد تجديد المؤن والمياه ، بل
أبى كثيراً ما استعجيت عن تجديد المياه إكتفاء بمياه الأمطار . فقد فقدت
أكثر من ثلث القوة إلى سألنا بمسند ثمانية أشهر ، ولم أكن أدري متى
تنتهي الرحلة ، إن كان لها نهاية ، وهل سأفقد المزيد من السهم ، والرجال ؟
ولذا كان يلزمي أن أظهر دائماً عظم السعيد خالي الدال ، الوثائق من
نتيجة هو في الواقع أبعد ما يكون عن تصديقها .

لاحظت تغيراً في الجو إذ بدأ يميل إلى البرودة ، أو على الأقل يبعد عن
الحرارة الشديدة ، التي عانينا منها في الشهور الأخيرة . لاحظت بعد ذلك ،
ساعة بعد أن مررنا بهر كبير (هر لمويو) ، ارتفاع التيار شدة وهو
يمر في الجيوب ، وارتفاع الأمواج ، وكثرة هطول الأمطار .

ربما كان من الأوفر هنا أن أذكر أن كلا من السميتين قد صممت
بحيث تحمل بالإضافة إلى الرجال تموينهم ، ومياههم لمدة أسبوع ، هذا طبعاً عدا
العلال التي حملها معنا من تمر ، والتي احتاط كما لم أفر ، قائد السائق ،
فحرم ما يكفي كل سبعة لمدة عام على الأقل (٢) . حينما لاحظت أن الجو يميل
إلى البرودة . وإلى كثرة الأمطار فكرت أن أستعني عن تموين المياه ، إلا
القليل ، وأن أستعصم عنها بزيادة التكوين الطارج من فاكهة ولحوم ، ويقول
إلا أنني نهر الجمل بالأمساك التي سوف رتادها خشيت معه ذلك فاحتفظت
بكميات المياه كما هي .

(١) يار مورمين ، ثم تيار أحواس بعد ذلك ، وهو الذي دور حول رأس
الرجاء الصالح .

(٢) أذكر القاري أن قدماء المصريين كانوا يزرعون جدا في نهرين العلال
حتى أنه قد نثر في بعض حبات القمح من صورههم ومازالت جيدة حتى الآن على
ويمكن إنباتها .

من ناحية أخرى قدرت أن العلال سوف تنفذ بعد شهر أو ثلاثة على الأكثر ، ورأيت أن الجو يسمح براعتها ، ففكرت جداً أن أتوقف بحيث أدير ما بقي لدينا من قمح ، وأنتظر حتى حصاده إلا أنى أرجأت ذلك مؤقتاً حتى أستعمل التيار الجنوبي إلى أقصى حد ممكن ، وصعدت حقلتي بحيث لا أتوقف إلا حينما تهبط المؤن إلى ما يكتفى يومين ، ثم ، حينما أجد المكان المناسب ، والجو المناسب ، ألقى امراسي لأكل نموين الأسبوع .

كـ. في نصف الثاني من الشهر الرابع من شهر شعبو (يونيو) حينما لاحظت أن المناطق التي يسيل فيها الرسو تتباعد نظراً لأن الشواطئ صحيرية حتى تكاد الجبان أن تنتهي في كثير من الأحيان عند حافة امياه ، بددت أيضاً المناطق التي استطعنا فيها النموين للسبب نفسه ، لهذا اضطرت أن أغبر من حقلتي التمويضية لتتواءم مع الظروف الجديدة .

أصدرت أوامري أن تودع الاطعمة بحيث تسكني المؤن لمدة عشرة أيام بدلاً من أسبوع . ومن حسن الحظ أن أمرت أن تملأ السعيتان بالنموس أكثر مما يحتاجان عادة ، وحينما لاحظت أن الجو تميل إلى البرودة ، وأن الأمطار تزداد هطولاً بالرغم من أنها قاربا الصيف (١) فإني جادوت بأن اكفيت بنصف النموين اللازم للمياه حتى لا يزداد الحمل على السعيتين في هذا الجو الماصف .

في آخر لقاء لي مع ساحور دغ وعجم أب أكدت تعمياني السابقة فيما يتعلق بحالة هبوب عاصفة ، ذكرت أنما يجب أن يتعد عن الشاطئ ، وعن بعضاً ، حتى نفل فرص الاصطدام ، وأن عليها بعد هدوء الجو أن يرسو في أقرب مكان مناسب على الشاطئ حيث سأكون في انتظارهما ، أو حيث

(١) ذلك لم أسس من شهر الصيف بحسب تفكير بعض القصة كاتب في نصف الكرة الشمالي ، وأن أشهر الشتاء قد بدأ في الواقع في النصف الجنوبي .

أوامرهما . فان لم تلق ، فكل سفينة وشأها . على أن يكون الهدف دائما هو
إتمام الرحلة .

أقلعنا من مرسانا في السابع عشر من الشهر ليتلفها التيار الشديد ، لم
يكن هنالك شك في أننا مقلون على عاصفة ، اكفرت السماء ، وتلبدت
بالغيوم ، وارتفع عويل الرياح ، وتقاذفت الأمواج السفينة تلطمها من كل جانب
ولا هوادة ، اسمر الحال هكذا طوال النهار ، واستمر كذلك في الليل ، لم
تخف حدة الجو ، ولم يقلب إلى عاصفة . كان الجو ردينا خصب ، مع هذا
بدأ لي شيء واحد يضر بالخير ، إن اتجهنا لم يكن إلى الجنوب فقط وإنما
كان إلى العرب كذلك ، صحيح أننا سبق أن اتجهنا إلى الجنوب الغربي ، ثم
إسما في حجاز ، وأما لم تمك هاية ليبيا الجنوبية ، إلا أننا في هذه المرة
طال اتجهنا إلى العرب عن المعتاد ، فإما أن نكون في خليج كبير جداً ،
وإما أننا نتحول قليلا إلى العرب (١) .

لم أبح بأمالى هذه لأحد إذ خشيت أن يعود الاتجاه مرة ثانية إلى الشرق ،
أو الجنوب فثكون صدمة خيبة الأمل شديدة . في صباح اليوم
التالي جاءني متوسلين يسأل عن اتجهنا ، وعرفت أنه وصل إلى النتيجة التي
وصلت إليها ، طالبت بالتريث وعدم الاندفاع في الاستنتاج دون أن أعطيه
بارقة أمل ، ما أن تحول رع (شمس الظهر) إلى أتوم (شمس المغرب)
حتى قطعت الشك باليقين ، ليس في اتجهنا ، وإنما في أن عاصفة
مدمرة بدأت .

إذا كنت قد وصفت الجو بالرداءة قبل ذلك فإني أعدل عن وصفي ، إنه
لم يرد على بسمة رقعة إذا ما قورن بالأواء التي صادفناها بعدئذ ، ألفت
نظيعة بكل ثقلها في الأيام التالية ، لم تتوقف الأمطار عن المطول ، وتصايح
الرعد متتاليا يعم لآذان بأصوات صياح الجس والعماريات ، إلتمع البرق ،

يرسل العاصفة تلو الأخرى تصيح في جوف المياه ، وزارت الرياح هادرة كأنما سقى العرار من الجحيم ، ولم يقبل البحر أن يقف ساكنا أمام كل هذا العصب العارم ، فثارت مياهه تتلاطم في قوة ، وعنف ، لتتكون وبدأ تتحطمها الرياح وتثرها في الجو ، يرتفع بالسفينة أمطاراً كما يريد أن يتحص منها ، يقدحها في الهواء ، ثم يهبط بها أخرى محاول إشلاعها في جوفه العظيم ، وحيثما آخر يضرب حاسيها بعشرات الأضغان من المياه بعمق تحطمها تنث صواري السفينة وألواحها الخشبية ، وتأن الرياح لجوده الدجر كأنما لتعاونها على دفعها لتتحطم على الشاطئ الصحري .

حيثما هبط الظلام كان لراما على أن أبتعد بالسفينة إلى عرص البحر ، بعيداً عن الشواطئ التي لم يكن يراها إلا لحظات ثمنا ومضات البرق أخفيت عن رفاة رعدا حقيقيا إذ لم أكن أعلم بعرجات الشاطئ ، وعمما إذا كنا قد دخلنا خليجا صحرانيا أن لينبا عسبا تنحرف نحو العرب ، وظلت طوال الليل قنفا أنرفع الاصطدام ، بالصخور والجبال الشاحنة ، في أية لحظة . لم أذوق طعم النوم ، وأخذت أتقل في أرجاء السفينة لأتأكد من أن كل شيء متحرك قد أحكم وباطله .

دخلت قبرة مرت سحر فوجدتها نتحب ، وهي منشئة بعراشها تكاد دراعاها أن تكلان ، لم أرها في مبدأ الأمر إذ لم يكن هناك ضوء كاف حتى إذا اهتزت أترع كدت أسقط عليها : العراش . وعندئذ علت ما تمنيه ، صرحت عندما أحست بوجود شخص عريب ، ثم هدأت حيثما سمعت صوتي ، أخذت أهدئ من روعها بصوت عال تعطيه أصوات العاصفة ، ثم تماولت ملامة وفيدتها إلى العراش ، لم أكن أستطيع أن أوثقها بالخال حتى لا يؤلمها الوثاق مع شدة ناراجع السفينة ، تركتها ، وانتقلت إلى غرفة القيادة ، كان متوسمين يحاول أن يسيطر على الدفة يساعده ضحو ، وسعيا ومعهما رجلا آخران يتناوب كل اثنين منها القيادة تحت إشراف متو . انضمت إليهم فلم يكن هنالك رجل يستطيع أن يستمر في توجيه الدفة في

مثل هذا الجو لا أكثر من نصف ساعة ، لم تبدأ العاصفة طوال الليل ، ولا هي سمعت من حداثها حينما برح النهار .

لم يكن مراقب الصاري في مكانه فما كان من المستطاع أن يرتقى شخص الصاري ، هذا كان على أن أدور ، تناصروا في هذا الجو المكهرب باحتضار الشاطئ . ولم أر له أثرأ ، واحتار عقلي في التفسير ، كما لم ير لتجه إلى الجنوب الغربي ومع هذا فلم أر شيئاً ، هل معنى هذا أن ليبيا قد انتهت في وقت ما أثناء الليل ؟ أم هل معناه أننا اتعدنا عن الشاطئ . لا أكثر من اللازم ؟

كان على أن أتخذ قراراً حاسماً . هل أنجه إلى الغرب وأجازف في هذه العاصفة العاتية . بأن أصطدم بالصخور والجبال ؟ أم أستمر في الإبحار إلى الجنوب الغربي ، وأنتهى بأن أصل طريقي وسط هذا البحر المتلاطم ؟ لم يكن من المسير على ، إذا صلت طريقي في البحر . أن أعرف الطريق السليم إلى العودة ، لكن كانت هناك عقبات كثيرة أولها العاصفة ، وثانيها التيارات المائية التي لا أعرفها ، وثالثها الشواطئ المجهولة ، ورابعها ، ولطه أمها ، التمويه . لقد مضى علينا يومان ، وليتأتى في البحر ، ومعنى هذا أن مالىدى يكنى للتمويه أسوعاً آخر ، أو ثمانية أيام . ماذا لو حملتنا العاصفة إلى مسافة لا نستطيع فيها العودة إلى البر قبل هذه المدة ؟

ماذا لو استمرت العاصفة . أو على الأقل الجو الرديء ، أكثر من ثمانية أيام ؟ إن ما أراه من علامات الجو لا يبشر بأن العاصفة سوف تبدأ في القريب . كان على أن أتخذ القرار بمفردى دون استشارة متوسمين . لم أرد أن يعلم أحد بمقدار الخيرة التي أنا فيها ، ولا مدى الجهل الذى آتخبط فيه . أيا كان القرار فإنه يعنى الحياة ، أو الموت بالنسبة لثلاث الرجال ، ويعنى فشل المهمة أو استمرارها . ترى ماذا فعلوا في السفينة الأخرى ؟ لقد احتضمت عنا منذ مدة ، ولا أعلم مصيرها ولا شك أنهم يعانون مما أعانى منه ...

أمضيت النهار جميعه وأنا أفكر دون أن أجده حلاً للمشكلة . لم أتوقف

عن التفكير وأنا أقود السفينة ، ولا وأنا أنطلق إلى مغرب عسى أن أرى شاطئاً ، ولا وأنا أتناول عداً مع مرت سحر ، ولا وأنا جالس معها أحدثها ، وأحسها بأن كل شيء على ما يرام . زال عنها الرعب الذى أصابها حينها بدأت العاصفة ، لكنها كانت مصفرة لوجه لا تأكل إلا لساناً ، وأصابتها دوار البحر فالتزمت مرآشها لا تفرجه أرغمتها على أن تأكل لعلنى بأنه لا شيء أضر من الإصابة بدوار البحر إذا كانت المعدة خالية .

حينما حل ظلام الليلة الثالثة أحسست بأنى منهك القوى ، وبأنى أن أستطيع أن أابع السمر ، إذا لم أبل قسطاً من النوم . طلبت من ممنوسين أن يفيض كمية الطعام إلى النصف ، ورأيتهم يرفع حاجبيه فى دهشة . اعترض بأن الرجال يميلون إلى الإكثار من الطعام فى الجو السيئ . لا إلى الإقلال منه ، إلا أبى . أصررت على رأي دون أن أعطى له سبباً ، سألته بعد ذلك أن يتركى لأنام أربع ساعات كاملة يوقظنى بعدها ، إلا إذا وجد سبب يستدعى إيقافى .

ما أن ترك متو القمرة ووضعت رأسى على الفراش حتى رحلت فى سبات عميق لم أشعر فيه بالعاصفة وأصواتها ، ولا بالسفينة وتأرجحها . حينما أيقظنى استمدت لشاطى الدهسى دومة واحدة . سألته عن حالة الجو ، ولم أك فى حاجة حقيقية للسؤال فإن الأصوات التى آتت وأصواء البرق ، كانت كميكة بالإجابة . سألته عن اتجاه السفينة فأجاب بأنه لم يتغير ، ما زال نحو الجنوب الغربى وأنه لم يلق منى قبل أن أنام أية تعليمات بتغييره . سألته إن كان قد رأى هو ، أو أحد زملائه ، الشاطىء فى ومضات البرق فأجاب ، لئن أغبر سألته عن يمسك الدفة فأجابى بأنه مرحب فائد الدفة ، ومساعدته ، وأن عبحو ، وسيمبأ أيبا الذهب للراحة ، وبقياً معها . طلبت إليه أن يذهب إلى قرته لينال قسطاً من النوم ، وأحدث طريقى إلى غرفة القيادة .

بمجرد أن خرجت من قرق رأيت إلى أى مدى وصلت العاصفة .

استقبلتني الرياح العاتية تكاد أن تنزعني من سطح السفينة لتلقيني في اليم . ولم يكن البحر أقل مهالمة ، إذ تطاولت أمواجه من كل جانب لتعطى السطح ، وترتد في محاولة لجرف ما تصادفه في طريقها . أتلاعب بالسفينة في كل اتجاه ، هراحت السفينة تتأرجح ثملة لا تدرى لها مستقراً . تلبدت السماء بالغيوم فاختفى القمر ، واختفت النجوم ، وساد للكون ظلام ، إلا من ومضات خاطفة للدرق . ملأ الجو حليط مرعب من الأصوات . زئير الرياح والاطم الأمواج وهي تتحط مع بعضها ، وفي حواش السفينة ، حلجلة الرعد في السماء يمز العالم حوله ، ثم يتلاشى في الأفق البعيد لينتدى . صوت جديد .

مع أن الأمطار توقفت عن المطول إلا أنني ، حينما وصلت قرة القيادة كنت متلام رأسى إلى القدمين . تساوت الدفة من مرحب ، واضطرت أن أرفع صوتى إلى ما يشبه الصياح ، وأنا آمر كلا من عجو وسبسا ، أن يتوجها إلى هراشيها . لما رأيت زردتهما كررت الأمر ، وصحسته بالإشارة فلم يريا ندا من الإذعان ، وبعت في عرفة القيادة يعاوننى مرحب ومساعدته .

رفضت أن يسلك الدفة غيرى . وكان لى من وراء هذا هدفا . كنت أريد أن أعلم مدى قوة التيار ، وإلى أى اتجاه يحدنا . لم أقاوم ، ونحركت مع الدراع الطويل للدفة . لم أكن قد اصعدت هراى بعد عن الاتجاه الذى أقود اليه السفينة ، وأردت أن أتأكد من قوة التيار واتجاهه قبل أن أحرم رأي . بعد أقل من ربع ساعة عرفت . بالرغم من أن العاصفة تأتي من الجنوب متجهة إلى الشمال ، وبالرغم من لطافتها المتتالية للسفينة فإن الاتجاه كان إلى الغرب .

أنجحت القيادة أسهل ، وأذا أجازى التيار ، لكن كان على أن أظل مراقباً العرب حتى إذا ما ظهر شاطئ . أمكننى أن أتعاذى الكارثة ، أو على الأقل

أحاول أن أتمادها . طلبت من قائد الدفة ومساعدته أن يركزا اهتمامهما على النظر إلى العرب ، أو على الأصح إلى حيوزهم (مقدم) السفينة ، وأن يخبراني إن رأيا الشاطئ . أو حتى شكاً في رؤيته . على هذا المنوال قضينا دقية الليل .

جاء الصباح "ببشرى جديدة . خرجت حدة العاصفة . لم يصف الجو ، فما زالت الأمواج عابية ، وما زالت الريح تعوى ، وما زالت السحب تعطي السماء ، لكن مع هذا لم لا شك فيه أن العاصفة قد هدأت نسبياً ، وتوقف الزعد والرق . وتوقفت أصواتهم من روع أول حيوط الصوت . جاء متوسلين لتسلم القيادة ، وجاء عبحو يصحبهم سيمبا ليهابوا ، في حين ذهب مرحب ومساعداه إلى فراشيه . نظر إلى متوسلين مذهولاً حيناً أمرته أن يسائر التيار إلى العرب ولم يتمالك أن سأل :

- هل سيدي القائد واثق من أن هذا هو الاتجاه الصحيح ؟

— كلا .

إذا كانت دهشته قد ازدادت فإنه لم يحاول المداخلة . كان جديراً بمصائب في جيوش العرعور ، كان يعلم أن على القائد أحياناً أن يحدد قراراً دون أن يكون لديه أحسن فائدة ، وأن عليه أن يحارب تاركاً للحظ ، وعناية الآلهة نصيباً أكبر مما يجب أن يترك عادة ، كان يعلم هذا ، ويقدر مدى المسؤولية التي يأخذها القائد على عاتقه ، فلم يداخس .

انجهت مناظري إلى الشمال أبحث عن أثر للشواطئ . ولم أر شيئاً ، فصورته أن هذا ربما يعود إلى ارتفاع الأمواج فإذا كان هذا صحيحاً فلا بد أن تظهر ، ولو قمة الجبال بين الحين والآخر ، ومع أنني لم أرفع عيني لحظة من أكثر من ساعة مضت دون أن أرى شيئاً سوى أمياه ، والسماء ، حدثت الرجال الثلاثة أن يركزوا جهودهم على النظر عند حيوزهم (مقدمة) السفينة ، وإلى الجانب الشمالي فإن شاهدوا أرضاً أن يخبروني فوراً ، وذهبت إلى قرية مرت سحر .

ربما كانت نعلم حين دخلت ، لأننى رأيتها تنقلب فى قرأشها متململة حتى خشيت أن تسقط منه ، هممت أن أوقظها ثم أشفقت عليها ، فتناولت مقعداً أدبته من المراش وجلست عليه ، لاشك أبى غفوت بعد فترة لأننى حيناً انبهرت كأننى هى مستيقظة تنظر إلى ، انبهرت معتبرا ، وردت الانسامة بتحيةة الصباح ،

سألته عن صحتها وأجابت أنها تشعر بصعب شديد ورفضت تناول الطعام ، أرسلت فى استدعاء حقا تحت فأعطاهما بعض الأدوية ، ودالها بأن تأكل ، وجلس معها حتى أرعبها عن تناول بعض الطعام .

زكتها وخرجت . كان حقا تحت يتطارنى ، ليخبرنى أن حالة الفتاة حرجة ، ولما سألته إن كانت حياتها فى خطر قال إنه لا يوجد خطر حالياً لكن إذا استمر الجو على هذا الموال وربما يوجد خطر . لم يكن لدى حيلة سوى أن أجبرها على الأكل بصفة مستمرة .

ثلاثة أيام أخرى بلياليها ، والجو على ما هو . إردادت حالة الفتاة سوءاً بما أفقتى وأهمى ، وأصبحت أفضى معظم أوقات فراغى وقرنها . تناقصت المؤونة بشكل حيف حتى صار شبح الجوع يهدد من بالسعيه . كانت وجهتها دائم إلى العرب ولم يعد لدى أدنى شك فى أن ليبيا (أفريقيا) وداشيت ، لكى كنت أحشى أن أنجمه إلى الشمال ، استمرت الريح جنوبية بدفعها شئ لا ومع هذا استمر أيضا التيار يحملها غرباً .

فى صباح اليوم التالى ، النام من أفلاعننا الأخير ، تحولت الريح إلى عاصفة لم أشهد لها مثيلاً . لم يعد فى الإمكان السيطرة على السفينة ، أو حتى توجيه الدفة دون خطر كسرها . وارتفعت الأمواج لتصل إلى عشرة نبوات (عشرة أمتار تقريبا) أو يزيد ، وتلاطمت مع بعضها بأصوات مرعبة ، وتقادمت السفينة فى كل اتجاه ، اتجهت إلى قرة مرت سجر ، وهناك كان لكاهن الطبيب حقا تحت . حينما رآنى ابتسم ابتسامة باهتة غير مطمئنة ،

ومس أن الفتاة مائة . لقد أعطاها مهدئا لكن حالتها اوردادت سوءا .

تأكدت من إحكام الأربطة حولها حتى لا تسقط من الفراش ، ولم يكن في استطاعتي أن أفعل شيئا غير هذا ، قبل أن أعادر الغرفة سمعت صوتا هائلا يدوى على سطح السفينة . وهرعت إلى الخارج لأننا كد بما عرفت أنه قد حدث ، على السطح شاهدت الكارثة التي جاءت بنا . انقد أصابت صاعقة الصاري الأكبر ، وسقط مهشما . لم تنفهم آثاره عند ذلك ، وإنما جاء سقوطه متحرفا إثر اهتزاز السفينة ههثم بمصا من فرة القيادة ، ومس جرم منه ذراع الدفة ، إنسكر الدراع إلى ما يريد على بصره ، وقتل معه مرحب ومساعد .

إن طول ذراع الدفة يساعد على سهولة توجيهها ، أما وقد فقدنا أكثر من نصفه فإنه أصحى من العير جدا للتوجيه إذا كان البحر في حالته العادية ، أما الآن ، في مثل هذا الجو ، فإنه أصحى مستحيلا ، معنى هذا أننا أصبحنا تحت رحمة العاصفة تماما دون أى نوع ، أو أمل ، في الحماية . لم يقتصر الأمر على هذا إذ سرعان ما أناب جبر فرعت له ، قال متوسلين إن الصاري قد هشم جزءا من سطح السفينة ، وحرك بعض ألواح الجانب الأيمن بحيث بدأت المياه تنسرب إلى الداخل ، وأنه يحشى أن تصفك الألواح .

جمعت النجارب الذين فرروا أنه من العسير عليهم أن يقوموا ولو ببعض الإصلاح في هذا الجو ، إن السفينة دائمة الحركة ، سرعة الانكسار في كل اتجاه . لم أنه لاعتراضهم ، وأمرهم أن يفعلوا ما يستطيعون ، لأنه بعير ذلك تعرض جميعا لموت غرقا ، وتركهم تحت إشراف متوسلين .

صعدت عرجو وسيمسا إلى غرفة القيادة ، كان جانبيها الأيمن قد تهشم ، ودخلها مياه الأمطار ، والبحر ، وعصفت الرياح تهدد بأفقيها ، أما باقي ذراع الدفة فقد بدا كأنما به مس من الجن . لم يستمر في مكان ، وراح يتحرك حركات لجانية عشوا . بحيث أصبح من الخطورة بمكان مجرد الاقتراب منه ، ومع هذا كان لا بد من محاولة فعل شيء أى شيء

تعاوننا نحن الثلاثة ؛ سيما من ناحية ، وصحو وأنا من الأخرى ،
استدعى الأمر تصاهر قوانا جميعا حتى يقلل من التحركات العجائية ،
أخبرتهما أن علينا أن نتأكد من مرمى التيار ، وأن نحاول فيسادة الدفة
في اتجاهه ، كانت مهاجأة سارة حينما اكتشفت أن التيار ، والعاصفة يتجهان
اتجاهها واحدا إلى الشمال ، إذأ وقد انتهى امتداد ليبيا إلى الغرب ، ومعنى هذا
أنها شبه مثثة من الجنوب ، ثم هل هى حقيقة قد انتهت عن الامتداد غربا ؟
ألا يجوز أن يجرى التيار ، وندفعنا العاصفة إلى شواطئ صحيرية ؟

لم تكن لدى وسيلة للتأكد ، أو ربما الأصح أن أقول لى لم يكن لى
حيرة فى الأمر . إن ثلاثنا قد تصاهرنا لجمع من حدة أرجحة السفينة ،
وإن نستطيع أن نفعل أكثر من هذا ، أعنى أننا سنستطيع ، هذا الدراع
القصير ، أن يدير اتجاه السفينة ، فسكوت أن أهيئ الدراع إلى الصارى
لأنه كان من المستحيل أن نستمر نحن الثلاثة ، أو غربا على هذا
الوضع لأية مدة ...

من حسن الحظ أن حال الصارى كانت قريبة نسبيا ولم أترك الدراع
لزميل إلا لفترة ضئيلة . كانت حال الشراعات ما تزال مربوطة إلى الصارى
الثقيل وكل ما فعلته أن بدأت أحكم قيده. ما استطعت إلى الدراع ، تاركا
طولا كافيا ، لإمكان تغيير الاتجاه بعدد محدود . تصاهرنا نحن الثلاثة بعد
ذلك لإحكام الرباط ، بل وقيدنا الدراع من الناحية الأخرى حتى لا يكون
من اليسير قطع الحبل ، كما تركنا أيضا مسافة كافية لحركة الدراع خشية أن
تحدث حركة فجائية قد تكسر الدفة ، أو تقطع الحبال .

داخل السفينة أصلمع متوسين ، ورجاله ما استطاعوا الألواح غير الثابتة ،
ليس فقط فى الجانب الأيمن ، وإنما أيضا فى السقف ، أعنى أخشاب سطح
السفينة التى تهشم بعضها من سقوط الصارى الضخم ، لم أكف بذلك . وطلبت
منهم تدعيمها وأدت لهم أن يتزعموا من أخشاب الأمرة والمقاعد ما قد
يحتاجون إليه .

دعيت إلى قرية مرت سجر لأجدها في حالة يرثى لها . جلست إلى جوار
 فراشها ، وأخذت يدها في قبضتي ، كانت نائمة ، ومع هذا فإن شبح ابتسامة
 ماهرة لاح على شفتيها ، وانذمت أصابعها الضعيفة تقبض على أصابعي . كان
 يجب على أن أفهم لاتباع عمي بالسعيمة لسكنى لم أجد الشجاعة الكافية لأن
 أترع يدي منها . لم أكن قد تناولت طعاماً طوال النهار ، وشعرت بضعف
 شديد من جراء ما قمت به من مجهود وددت معه أن أترك نفسي للوم ، لكن
 كان أمامي الكثير قبل أن أستطيع الراحة ...

استيقظت ، وعندي إحساس بأن شيئاً غريباً قد حدث . ثم قعيت كل
 شيء فجأة . توقفت أصوات العاصفة ، وكانت ليلاً .

فناو الكهوف

ألا صوء القمر على صفحة وفراقة من الماء ، كانت السماء صافية لا أثر فيها للغيوم ، أو السحاب ، وكأها لم تكن هي التي أرعدت وأبرقت . للأمام خلت . إذا كانت هناك أرض فيلزم أن تكون إما شمالا أو شرقا . تلمعت إلى الساحيتين دور جدوى . على مدى النظر لم تر عيناى سوى المياه . سرت على سطح السفينة أشهد مدى الدمار الذى أحدثته العاصفة ، وأعطى أوامرى للإصلاح ، خاصة ذراع الدفة .

سكنت الريح سكوا ، تاما ، وأصبح من اللازم أن تستعمل المجاديف ، خاصة وأن الصارى الأكبر قد نهشم ، أمرت مراقب الصارى أن يرتقى أحد الصواري الباقية ليحبرنا إن كان يرى أى أرض فى أى اتجاه ، أو ليعينه ثانية ، فأرسل صوته عالما بأنه لم ير شيئا . للمرة الثانية كان على أن أتخذ قرارا دور أية معلومات عن الشواطىء ، حولنا ، أو الرياح ، أو التيارات المائية كان يلزم أن يكون قرارا سريعا نظرا للتناقض الشديد فى المؤن . واتخذت لقرار الوحيد المعقول فى مثل هذه الظروف . إننا تركنا الأرض واتجهنا إلى الجنوب الغربى ، فالمودة إلينا ، إذا لا تكون إلا فى الاتجاه العكسى تماما ، الشمال الشرقى .

مع هذا وإننى لم أصدر قرارى إلا بعد أن ذهبت إلى قرق أستشير ما تجمع لدى من معلومات ، قوة التيار ، شدة العاصفة ، سرعة السفينة ، الوقت الذى قطعناه فى الاتجاه الجنوبى ، وحساب الزمن الذى استغرقناه إلى الجنوب الغربى ، ثم الغرب والشمال ، عن هدى هذه المعلومات الضئيلة قدرت درجات الانحراف والميل .

ما أن انتهيت من الاطمئنان على سير الأمور حتى انتهت إلى قسرة
مرت سحر . كان حقاً نحت إلى جانبها ، وقد وضع أمامها أنواعاً متعددة من
المأكولات يحثها على تناول أكبر كمية منها ، جيبار أني يتسم بإسامة وقوره
هائلا إنه سيسحب تاركاً إلى العناية بها . لم يكن هناك شك في أن حالتها
تحسنت كثيراً ، بل أي لاحظت على ضوء انصباح الدهت أنها إعتت بتصعيب
شعرها ، وأن وجهها زالت عنه تلك الصفرة الكئيبة التي ظلت تلامرهم أياماً
حتى لا يسامة التي رحمت في كانت مشرقة ، وأداني صوم ، حايا من الوصر .

— أنت ترى أنه ليس من اليسير التخلص مني .

— عليك أن تأكلي جيداً ثم نامي .

— إنني أريد أن أخرج من هذه القمرة ، إنها أشبه سجن . أريد أن

أتنفس الهواء .

— ليس الليلة . ربما في الصباح إن كنت في صحة تسمح لك .

— لكن ضوء القمر ساطع ، وأتخى أن أخطر معك على سطح السفينة .

— سيكون أسطح مساء الغد ، عليك بالصمت ، وتناول الطعام إن كنت

تريدين الخروج غداً من القمرة .

* * *

مضى الليل لم أكد أيام فيه ساعة ، كانت المؤونة قد انصفت إلى درجة

أنما لن تمكبي لأكثر من يومين ، هذا مع الإقلال منها إلى حد كبير . حتى

العلال لم تمكن مطحونة ، ولم أرد أن أوزع منها شيئاً لعرص في يسي ،

لكنني أعلم أن لا شيء يوفد الرجال إذا عظم الجوع . ليس هذا خسر ،

ذلك أني كنت أعلم أن السفينة ليست في أحسن حالاتها . صحيح أن التجارين

قاموا ، ويقومون ، بصلاح الكثير مما دمرته العاصفة ، لكن مع هذا فـ

لا يمكنني الاطمئنان عليها إذا ما هبت عاصفة أخرى . مسألة نائلة طدت تلح

على . أين السفينة الثانية . ماذا حدث لها ؟ إن عليها نصف القوة ، هل تمت

من العاصفة ؟

كانت مرت سجر أول من أدانى بأشجار طيبة . تحاملت على نفسها وخرجت من القمرة بمساعدتي ، ورفعا على السباح تنطلق إلى الشرق وتتحدث . ورأيتها تتوقف عن الكلام دفعة واحدة ، وتحدق النظر في بقعة معينة

إلتفت لأرى ما رأته نسكني لم أشاهد سوى المياه . بعد فترة وجيزة قالت :
عامسة وهي تشير بيدها :

— أليس هذا صاريا ؟

لم أر شيئا حيث أشارت ، فصحت في مرافق لصاري ، أوجه نظره ، ولم يلبث أن جامت كلامه مؤكده لما رأت مرت سجر ، أصاف أنه يظن أن السفينة راسية على الشاطئ ، وإن يكن متأكداً ، لم أكن في حاجة إلى حديث المجددين إذ سمعوا صياحا ، فتصاعمت جهودهم بشكل ملحوظ حتى أن السفينة بدت كأنما هي تسير على صفحة مياه الساكنة ، دقائق أخرى وجاء بأ كيد المراقب أنه يرى الأرض ، لاحظت أن المتاع لم تنالك نفسها ، وأنها على وشك أن تطوى عني بدراعيها ، فأسرعت مستعداً ، وأذا ألقى أوامري بارتباك .

* * *

جلست أستمع إلى قصة ساحورع . لم يصادفهم أي حادث إذ أنهم لم يكونوا يعرفون كيف يتجهون وتركوا أنفسهم للعاصفة ، والتيار ، وإن حادروا قليلا من الاقتراب من الشواطئ ، منذ ثلاثة أيام جنب بهم السفينة وحاولوا مقاومة العاصفة إلا أن الدفة انكسرت ، وارتطمت السفينة بشاطئ . رمى ، هذالك بعض الإصلاحات التي يجب أن تتم ، وهذالك بعض الجرحى ، سواء من آثار العاصفة ، أو الارتطام ، لكن لا شيء خطير

إنتقل تفكيري بعد هذا إلى المشكلة الرئيسية ، أعنى الطعام . سألتهم عن حالة المؤن لديهم وعما إذا كانوا قد نجحوا في المنطقة عن طعام ، وقال ساحور

— إن المنطقة كما نرى شبه صحراوية (١) ويبدو أن نسبة الأمطار فيها قليلة إذ أن بها بعض الكلا المتناثر والأشجار المتفرقة لكن لا يوجد ثمار أو مياه .

— والحوانات ؟

— لم أر شيئاً منها في الثلاثة أيام التي قضيتها ، وربما كان يوجد بعض أنواع العرامل نظراً لوجود الكلا لكن يبدو أنه نادر . لقد أرسلت فرقة بقيادة نجم آب إلى الشمال عسى أن يعثروا على مياه ، فية أو فواكه ، والمفروض أن يعود الآن . على أي الأحوال فأبى وفرت كثير من المؤن عن طريق الأسماك .

كانت أمامنا أحمالاً كثيرة قبل أن أستطيع معاودة الإبحار ، هالك المؤن ولحياه أولاً ، ثم البحث عن مكان توجد فيه أشجار بوفرة على أن تكون مناسبة لإصلاح السفينتين ، وعمل صارجيد ، لم أر فائدة من فرقة الإستطلاع التي أرسلها ساحورع ذلك أن من الواضح أنها كانت في منطقة تكثر فيها عواصف ، والأمطار وأنها تخف حينها تتجه إلى الشمال ، دلائل وجود الصحراء ، معنى هذا أن أية فرقة يجب أن تتجه إلى الجنوب ، وليس إلى الشمال .

ما أن استفرغنا المقام حتى أرسلت متريين مع مائة من الرجال إلى الجنوب وأمرتهم ، بالبحث عن منطقة قريبة المياه دائية الأشجار والقطوف لتدنا بالثمار والأحشاش لإصلاح السفينتين ، كان ما توقعته . في اليوم نفسه عاد نجم آب متبرراً أن المنطقة الشمالية يرداد فيها الجفاف ، وليس بها ماء (٢) وإن كان قد استطاع اصطيد غزالين أحدهما رجلاه .

(١) جنوب صحراء كهارى ومتوسط أمطارها بين ١٠ ، ٤٠ بوصة في السنة .

(٢) صحراء ناميبيا .

أقام الرجل وليمة في المساء كان الطعام الرئيسي فيها لحم الغزالين ،
والأسماك . ولأول مرة منذ أتم امتلات البطون وهجم الخبج في مرادهم
آمين . ولأول مرة أيضا نصبت الدل حبيبه نائماً يوماً غير متقطع ، فلفقد
بعدة الاخطار ولو مؤقتا .

عاد مسوسين عصر اليوم التالي وجاء بدوره بحمل وحاله عزالي
إحتلت أحاراه تماماً عن بحم آب . قال إنه كلما نوع حيواناً إزدادت الأعشاب
وكثرت الأشجار . لم يشاهد عادة إلا أن الأشجار مع ذلك موجودة بوفرة .
قال إنه رأى عطيخاً من الغرائ ، كما رأى بعض الحيوانات الأخرى . عني أن
أهم مناقبه هو أنه رأى سراكده آ (١) يحترق الصحراء من ناحية بينما ترتفع
سده الأخرى لتكون حصه بها الكثير من الأعشاب ، والساتاب . وإيه
رأى مريسا منه حليجا صغيراً به حياية للسن من أعاصير البحر ،
وعواصفه .

كان هذا مكاناً مثالياً لأهداني حبيبها ، ولم أنوان عن إصدار أوامري أن
يستمد الجميع للإبحار في اليوم التالي بردت مشكلة سفينة ساحورع التي
كان جزء منها مستقراً عن الزمان إلا أنها مرغناها تماماً من كل مؤناتها
وحواتها ، فارتفع غاطسها قليلاً . وصمت بعض الرجال عليها مجدودون ،
وربطتها بسعيسى في محاولة لأن أظرفها . استعرفت هذه العملية اليوم التالي
بأكمامه ، وهللنا جميعاً حينما طعت السعة مرة ثانية .

لمالم نكن نعلم مدى الخسائر التي لحقت بالقاع فإن معظم بحارها ،
وجودها توجهوا مع منتوسين سيرا على الأقدام ، ولم تتركها إلا عدداً
يسيراً يكفي للمياده ، والمساعدته في التجديف . كان من نتيجة هذا أن مرنا
بطء شديد ، وأنسالم نصل إلى الخليج الذي ذكره متو إلا بعد يومين .

مجرد وصولنا رأيت أن كل مقال من المنطقة صحيحاً ، وبدأت من
قورى أعين .

قسمت الرجال إلى فرق لكن منها عسكراً . منهم من تفرغ للتموين ،
سواء من ناحية حيث الحيوان ، أو الأسماك ، أو جميع الفاكهة ، وما قد
يصلح من النباتات كخضروات ، ومنهم من كان يبنى ثكنات خشبية ،
وأكوام لإقامة ، ومنهم من اخص بالمساعدة وجمع الأخشاب اللازمة ،
ومنهم فرقة للحراسة . على أن أكثرهم عهت إليه بعلاحة الأرض الصحراوية
إلى جانب السر . عرفت أن أزرع القمح حتى تنمو لنا الهلال لسنة أخرى
على الأقل . كان الجور يضرع شهور برت (الشتاء) في نامري (مصر) وهو
هذا يصلح للزراعة .

في الأيام التالية كانت معالم المنطقة تتغير بسرعة . أقيمت مستعمرة كاملة
من الماني سواء سكنية أو المستودعات ، والمخازن ، صنع النجارون محاريث
خاصة يجرها الرجال ، وصنعت الفئوس تخدم لأرض ، وتقطع الحشائش ،
وتشق المساقى ، ولصاف ، وتقسم الأحرار بعد أقل من ثلاثة أسابيع
كانت مساحة ترو على مائة وعشرين فدان قد زرعت قمحاً .

طوال هذه المدة لم أدرت سحر إلا لماذا كنت أفضى اليوم كاملاً في
الحقول ، وحيثما أعود في المساء يكون الإنهاك قد أخذ منى وألقى بنفسى على
الفرش لأدوم ، وأسقيظ مع فجر اليوم التالي على أن المرات القليلة التي رأيتها
فيها ظمأ شديداً استردت صحى ، كاملة ، وعادت إلى ساقى فونها وحيويتها
حيثما انتهيت من الزراعة وكربت جهودى ، وجهود الرجال على إصلاح
السميتين . استمعت الأمر أن ترو عن داخل ليديا ، وأن رتقى الحجاب الآخر
من السر تحت عن الأخشاب ، وأمواد اللازمة .

كان كل شيء مختلماً تماماً في الجانب الآخر من النهر في حين كان الجور
حاراً نسبياً حيث أقما ، إذا نه يميل إلى البرودة على المصصة . في ناحية

الأرض شبه صحراوية ، وفي الأخرى أرض مراعى وفيرة الصيد . شئ واحد آثار حيرى . إنما مع إقامتنا الطويلة لم نرأى إنسان . ربما لا يثير هذا تعجبا في الصفة شبه الصحراوية ، أما في المراعى حيث الكلال ، والصيد ، والنكهة والأشجار ، والثمار ، فلم يكن معهودا .

لا أعتقد أن أحداً فكر في هذا حق جابهتها الحقيقة في مكان لم تكن تتوقعه . كنا نبحث في المصبة عن بعض الثمار ، والأشجار ، وأحدنا مكانا جملناه مركزا مؤقتا ينشر منه ويسود إليه . كان هذا كهما في جبل جمعنا فيه حصو لانتاء ، واتخذناه مسكنا بأوى إليه حين يحن الليل . ذات ليلة جاني أوى وسأ . إن كنت قد رأيت كهما آخر لا يبعد عن مأوانا كثيرا ، وحيثما أجبته بالنق ، طلب أن أتوجه معه في الصباح ليرى ما شاهد . سأله ، فأخبرني أنه رأى رسومات متعددة على الصخور ، وفي عدة أماكن شاهد نخنا .

صحته في الصباح إلى حيث الكهف ، ورأيت رسومات لحيوانات متعددة وأشخاص . بلغت الرسومات درجة كبيرة من اللبس ، كما أن ألوانها كانت ثابتة ، وجداية إلا أن أحجام الأشخاص بدت صغيرة إلى جانب الحيوانات . هذا كان الدليل القطعى على وجود البشر ، لكن أين هم ؟ لماذا لم نر لهم أية آثار أخرى ؟ هل تركوا المنطقة حينما رأونا ؟ توالت الأسئلة في ذهنى وأنا واقف أتأمل الرسومات ، ولم أجد إجابة شافية لأى منها .

حينما عدنا إلى معسكرنا انحدت بعض الإجهادات الاحتياطية . شددت الحراسة ، وصمت أن يتمد أى شخص عن المعسكرات إلا في صحة جماعة ، ولو كان ذلك عند جمع الثمار ، والخضروات وأصدت أوامرى أن يكون الجميع دائما على أهبة الاستعداد ، وأن يحملوا دائما معهم أسلحتهم . وردت على هذا بأن أمرت أن يكون في كل مجموعة تبعد عددا من راعى أسلهم .

انقضت أربعة أشهر منذ أن وطأنا الأرض لأول مرة . ثبت القمح ،

وارتفعت عيادته ، وتم إصلاح السيفيتين كأحسن ما يمكن أن أشتى ، ولم
تفقدنا أى أنواع المؤن ، سواء اللحم ، الطارح ، أو الأسماك ، أو الفاكهة
أو الخضروات . بل أن بعض الجنود وجدوا حلأيا نحيل جلية ،
واستطاع أن يحضر لنا عدداً كبيراً من الفاكهة ، كما استطاع آخرون صيد
بعض الأسماك ، وأمكننا بذلك أن نصعبنا في حظائر ، وأصبح لدينا لبناً
وجبناً ، وسمناً .

كانت يوم أرست محم آف ، ومائة من الرجال في حطب المؤن . كنت في
المدة الماضية قد مسحنا المنطقة المحيطة بنا تمام ، وكذلك القرية ما على الضفة
الأخرى . اصطلحنا مع عربين يمكن لكل منهما أن يحمل عشرين رجلاً ، أو
ما يعادل ذلك من المؤن ، وتركنا واحدة على كل ضفة . وسلكنا من السبيل
على العرقلة أن نستقر عبر النهر في خمس من ساعة . وقفت مع مرت سبيل
أرقت عمدة العمود حتى استمر جميع الرجال على الضفة الأخرى ، ثم ابتدأوا
يرتفون الضفة .

صحبنا إلى المعسكر ، ودخلت الحقول أنصفد حال الرعدة . بعد أن
انتهينا من زراعة القمح ، وإصلاح السيفيتين ، ولإعداد المعسكر ، أصبحت
حياتي في الواقع دعة هادئة لا أعني حقيقة فيها سوى حب المؤن الطازجة
من وقت إلى آخر . قمت بعدة رحلات إلى الداخل ، سواء في الصحراء ، أو
في الضفة ، وجمعت أنواعاً شتى من الأعشاب ، ونباتات القرية ، كما جمعت
أنواعاً مختلفة من الحجارة لأغراضها رعب تحتوي على معادن .

فيما عدا هذه الرحلات ، لم تستغرق في نحوها أسبوعين ، كنت
مأبياً بصحبة مرت سبيل . كانت أياماً سعيدة قضيتها في الحديث ، والرياضة
حدثني عن حياته ، وحياته أهلها ، والعائل المحيطة بهم ، وكانت ذخيرة من
المعلومات أصعب في كذايتي ، ومدكراتي . لم تجر بيننا كلمة حب أو إشارة
عرام ، ومع هذا فإن الألفة التي ربطت بيننا أصبحت بادية لكل من بالمعسكر
أصبحوا يعتبرونها امرأتى ، والواقع أنني لست أدري كيف كانت

تكون الرحلة بالسياسة إلى إذا لم تكن معي ؟ حينما أرتحل كنت أصطحب معي
أولى نهاره الخارقة في استعمال القوس والسهم ، وأترك عنخو معها لخراسنها
وكانت رحلته العودة بالسياسة إلى كلها سعادة . كانت تستقبلني بالترحاب كلها
فرح ، وسرور ، وكثيرا ما شهدتني من بعد نقف عند نهاية المعسكر
منتظرة متطلعة .

مضى أسبوع منذ أن أرتحل نجم آب وجماعته ، مع هذا لم يرد منهم أحد .
كانت هذه مدة طويلة لا يبررها البحث عن المؤن ، حتى ، وإن كنا جردنا
الما إلى "تربية" منها ، ذلك أن الرحلة أصلا لم ترد مطلقا على أربعة أيام ،
على "سما" في المساواة فلا أتصور أن يرد على يومين . بدأ القلق يتساي ،
وأصحت وذهبت المفصلة عند صفة السهر ، أرتقب المعبرتين فسكرت أكثر من مرة
أن أذهب بنفسى للبحث عنهم ، ثم راجعت رأيي متعللا بأن الجماعة ، ربما
توغلّت أكثر من اللازم .

مضى يومان آخران ، واستقر رأي على أن أبدأ عملية البحث في اليوم
الثالث . حاولت مررت سجر أن تنبئني عن غزوى ، أو على الأقل أن أوكل
أهمية إلى أحد . لعاده الأحرار إلا أنني رفضت مقررأ أن سلامة الرجال هي
مهمة القائد . انتهيت بمجموعة من مائتي رجل وعدت بهم في الصباح إلى
الضفة الأخرى . كان الطريق الذي سلكته الجماعة السابقة وأصحابهم الافتداء ،
ومع هذا مضى يومان قبل أن أعثر عليهم .

ربما كان الأصح أن أقول إنني عثرت على من بقى منهم ، ذلك أنني رأيت
نجم آب يتقدم جماعة لا يزيد عددها عن لعشرين . لقد حرح ومعه مائة مقاتل
وإذا نى أراه يعود بأهل من حمهم . حتى هذا العدد الضئيل ، بدت حالته تدعو
للرثاء . وجوه مكفورة ، وأسمال مهلبة وسيفان تنوء بحمل الأجساد ، وأقدام
متعثرة تخرج من نفسها عبر المراعى ، والحشائش .

مأان رأونا حتى تهالك معظمهم على الأرض لا يستطيع حراكا . وبدأت

أسأل عما حدث . يبدو أن جماعة منهم توعلت إلى درجة كبيرة في الداحل ،
وظاجأت بعضاً من الأهالي في أكواخهم العشبية . لم يكن موجوداً في ذلك
الوقت سوى النساء ، والأطفال ، والعجائز . فرح الجنود بالنساء فاحتفوا
لثنتين وثلاثين منهن ، وحيثما حاول بعض المسلمين المقاومة قتلوا أربعة .

فضى الجنود تلك الليلة يتسرون بالنساء . كن صفار الأجسام نسيباً (١)
إلا أنهن كن شرسات ، شدييدات المقاومة . لم يطلقوهن في الصباح ، وأرادوا
الاحتفاظ والعودة بهن إلى المعسكر ، تركوهن في المقر إذوقت تحت حراسة
عشر رجال ، وتمرقق الباقون بحثاً عن أدوى ، حيثما عادوا إلى المقر المؤقت
قبل النساء اكتشفوا أولاً أن الجنود العشر قد قتلوا ، وثانياً أن النساء
اختفت ، وثالثاً أن عدد من عاد يقص أكثر من عشرين .

غضب بحم آب لقتل رجاله ، وصمم أن يعاقب المعتدين متناسباً تماماً
أبه هو لدى بدأ بالاعتداء ، وأن الأهالي تركوا لنا المنطقة بجنى ثمارها ،
وتصيد وحوشها دون أن يتعرضوا لنا طوال امددة الماسية ، جمع باقي القوة
وانجحه إلى حيث كانت الأكواح ليحدها خاوية لا أثر فيها للحياة ، قصوا
الليلة فيها ولم يتعرض لهم أحد بسوء . في الصباح شمل فيها الميران وتركها .

منذ تلك اللحظة لم ينعم هو ورجاله ، بالراحة والأمان ، لم يروا أحداً
من الأهالي مطلقاً ، كل ما هنالك كان ينطلق منهم ، بين الحين والآخر ،
يقتل واحداً من الرجال . حيثما عادوا إلى حيث مستقرهم المؤقت لم يجدوا
المؤن التي جمعوها ووجدوا المكان حطاماً ، في السماء تساقطت عليهم السهام
وهم هاجمور ، فهبوا مذعورين ليجدوا أن عدداً آخر منهم قد قتل ، لم
يكن أمامهم بعد هذا إلا الفرار ، وثانيتهم السهام ، اضطروا أن يدسوا المؤن
وأن يساموا ثماراً ، فرح ما معهم من الراد ، والمياه ، ومع هذا هم يحرق

أحدهم على البحث عن الطعام ، أو الشراب ، أكلوا ما نالته أيديهم ، وهم يهربون ، ولم يدوقوا نقطة مياه منذ يومين .

كنت أقدر موقف الأهالي . لقد تركوا لنا المكان نتمون منه ، ونصطاد كيفما شئنا ، وارتحموا بعيدا ، ومع هذا فقد كادوا بهم باغتصاب نسائهم ، وقتل شيوخهم ، وترك الأطفال الرضع دون أمهات ، وإحراق أكواخهم . لم يكن أمامهم إلا الدفاع عن أنفسهم حتى لا يكرر الوضع ، خاصة وأنهم لا يعلمون أننا نقيم بصعة مؤمنة فالشواهد جميعها تدل على أننا أننا مستعمرون مقبضين .

مع تقديري لموقف الأهالي فإنني كنت قائدا حقة ، ولا أستطيع أن أترك رجالي يحدسون دون أن أفعل شيئا . إن أمامنا شهرين على الأقل حتى يتم حصاد القمح ، وكان على أن أحضّر الرجال لكي عادا أفعل ؟ سهام تتطاير في الهواء دون أن يطر وراءها أشخاص ؟ بدأت بالسؤال عن نوع السهام فأجروا أنها قصيرة رفيعة ، لا تكفي . أن يحدث حدثا في جسم المصاب ، ومع هذا فهي الموت الرؤم مسمومة إذا ؟

تساورت مع أوني ، ونهض وراء السهام في المدى الذي يمكن أن نطلق منه مثل هذه السهام وكانت الإجابة مبهمه . إن هذا توقف على قوة ساعد الرجل ، وعلى اتجاه الريح ، وسرعته ، ووزن السهم ، ونوع القوس المستعمل . تذكرت الرسومات التي رأيناها في الكهف . لقد كان الرجال صغار الأجسام . لم يسكنوا أفزما ، لكنهم أيضا لم يكونوا عاديين . تذكرت ما قاله رجال نعيم آب من أن النساء كن صغيرات الأجسام ، وأن السهام صغيرة . كان كل شيء أقل من المعتاد . وأخبرتني أن الرجال وراء السهام لا تزيد قوة سواعدهم ، كثيرا على نصف قوة الرجل العادي . تشاوروا فيما بينهم ثم أفتوني بأن المسافة لا تقل عن خمسة عشر يبيو (حوالي عشرين ذراعا) ، ولا تزيد على عشرين (حوالي خمسة وعشرين ذراعا) .

كأن رع (شمس الظهيرة) يعتلي كبد السماء ، حينما أمرت الرجال بالعودة

إلى المعسكر . ثار نجم أب معرراً ب يجب أن نسقم من الغلة الذي اغتالوا
رجالنا ، وأنه لا يقبل أن نسحب كالأخراف ليصطادوا . تركته حتى أتم كلامه
ثم خاطبته بلهجة قاسية .

— إنك أنت السب في قتل ثمانين من الرجال . وأنت السب فيما نحن
فيه الآن من عذاب مع الأعداء ، ولعل حياة جميع من في المعسكر الآن
في خطر ، ولا أريد أن أسمع منك رأي أو نصيحة . عيت أن تبصا ،
وإلا فسوف تتركك حيث أنت .

كاد الغضب أن يمس به فعد كان صوتاً واحداً عالياً سمعه كثير من الرجال
وهم تهمست ذلك حتى أصعب الأمور في نصاها ، وحتى يتعلم الجميع ألا ينافشوا
سلطى . لو تراء به عن هواها وبني كنت وانما من أنه سوف يهاجمي ،
وربما فعل لولا عليه بأنني أستطيع أن أمه في أي وقت ، حتى دون ساقه
العذبة . نصل في مكانه رهات بطر إلى بعينين محترمين . كما الشرر أن يتطاول
مهما لم يمت . أن يد ، خاصة أمام الجود ، وكان من لعبير عليه أن يتهمقر .
إمعانا في دله لم أحاول أن أحجب عنه ، ونمت أُنشر خطواته لتالية . بعد
فترة حمص عيبه ، وأرجل صحكة مضطربة ، وتتم فذلاً إلى اللامات ، وإني
المستول على نتيجة هذا الفراغ .

سرتنا ساعتين في طريق العودة ، لم أعمل أثناءها عن مراقبة الحشائش
الطويلة ، والأشجار المتباعدة . كان هدفي أن نفحص أمله في مكان معين
لاحظه في اليوم السابق ، وكنت أعلم أننا نستطيع أن نصل إليه قبل
حلول الظلام إذا أسرعنا الخطى ، لهذا لم أعط للرجال راحة ، ومرت
في المقدمة أجد السير ، حتى ليحسب الرائي أن هدفي حقيقة هو الفرار .

قل أن نيل أنوم (شمس الغروب) نحو الغروب ، كنا قد وصلنا إلى
هدى . أسررت بضعة كلمات إلى أوى اختفى بعدها ، وانست معه جماعة
عن راي السهام . اتسوا أفراداً بحيث كان يخفى المرء منهم بين الحشائش ،

ثم يرحم ليتحد مكانه . كان الوقت ملاماً إذ أن أنوم كان ما يزال يعطى صواباً ،
ناهنا بحيث لا يستطيع أحد من أعدائنا الاقتراب بدرجة كافية دون أن نراه ،
كما هبت نسمة حميقة تلاعت معها الحشائش لتحكي أى أثر لحركات المسلمين .

كان المكان الذى اخترته لا يختلف كثيراً عن غيره . مجرد أرض مسطحة
تنظيها الحشائش ، وتنتثر فيها الأشجار . لكن ما كان غيره وجود عيصاً
كثيفة . اتعدت عنها بحيث يكون آخر رجائى على بعد لا يزيد على ثلاثين
فديو (هو إلى أربعين ذراعاً) وأعلنت أننا سنبيت الليلة ، وجاءنى بهم آب يقول
إننى لاشك أريد أن أسحر ، وأن من جميع من معى فهذا العراء هو أنسب
مكان للأهالى يتصيدوا فيه . أجنه مخشوة إننى القائد ، وإننى المسؤول عن
حماية أرواح الرجال .

تصرفنا بعد ذلك تصرفاً طبيعياً . أوقدنا ناراً تدفأنا عليها ، وورعنا
الزاد ، والمياه وجلس الرجال على الأرض ، أو عدوا ينامون أقت الحراسة
العادية ، لم أزد شيئاً ، ولم أنقص ، وحلست إلى جانب النيران مع نجم آب
مساول بعض الطعام ، وانظرت . بعد حين هبط الليل فتمددت على الأرض
متظاهراً بأبى سوف أمام ، وبصحت نجم آب أن جعل منى . بعد حوالى
ونوت (ساعة) كان كل من بالمعسكر ينام إلا من عليهم نوبة الحراسة .

مضى من الليل نصفه ، أو أهل قليلاً ، واعتلى سين (القمر) السماء يرسل
أشدة القصية . من مكان ما ارتفع زئير أسد يتحدى ، وتجابهه الاصدقاء .
ثم عاد السكون . فجأة مرق الكون صوت صرخة آدمية ، تلتها أخريات ،
وهب كل من فى المعسكر صاحياً . استمر خيط الأصوات دقائق قليلة ،
وتصايح الجود يدسألون ، فى حين اعتدلت جالساً إلى جوار النيران الخافية
ومكنت أنظر . نظر إلى بهم آب مدعشاً . كان قد هب واقفاً وحسامه فى يده
يثلث حوله دون أن يدري ماذا يفعل ، حيناً لاحظ أنى لم أعنى حتى بالوقوف
حظر فى عقله المتبلك أنى لابد أن أعرف شيئاً مسأل فى تردد :

— ماذا ؟ ماذا حدث ؟

أجبت ببساطة :

— لقد أعددت كمينا ، وأعتقد أنه نجح .

كانت الأصوات قد نحدث نسيباً فرحت صوتي مناديا :

— أوني :

وجاءني الرد . ظهر أوني وبدأ تقريره . لقد جاءوا كما توقعت ، اتجهوا إلى الدغل متجمعين ، يرقوننا حتى تأكدوا أننا هنا ، ثم تسللوا من أماكنهم ، ليقتربوا إلى مسافة كافية لرمى السهام . عندئذ اصطادهم أوني ورجاله . ربما نجما منهم اثنان ، أو ثلاثة أما الياهون ، ثلاثة وعشرون شخصاً فقد قتلوا .

تبعته إلى حيث توجد الجثث شبه العارية وتأملت أعضائنا . رجال قصار القامة جميعهم . لم يكونوا زنوجاً ، وإنما كانت تملو وجوههم صفرة غريبة ، عظام وجناتهم بارزة ، وأظفارهم رقيقة . وشعورهم حشنة مفضلة . كانوا جساماً عريياً ، لم أر مثله من قبل . (١) إذاً هؤلاء هم صيادو الكهوف . أولئك أصحاب الرسومات الخيلة ، والألوان الجذابة . لم يمسد عليهم أى عداة ، ولا ظهرت على وجوههم أية وحشية . وانتبهي أسعف طائر لقتلهم ، اسكن هذه هي محتلوظ القتال .

الفصل السابع عشر

غابة الأقزام

عدنا إلى المعسكر بعد ثلاثة أيام جمعنا فيها كل ما استطعنا من مؤن وصيد ، ولم نتعرض لهجوم . يبدو أن الجماعة التي أصيدناها تقريباً لم تكن قبيلة ، وإنما مجرد مجموعة أفراد يعيشون سوياً . تصورت أن هذا الجنس يقضى حياته في تجمعات صغيرة كالتي صادفناها ، كل منها يختص بمساحة معينة من الأرض يتنقل فيها ، ويعيش على خيراتها دون أن يسكور هنالك ارتباط حقيقي بين المجموعات . ربما اجتمعوا في أعياد معينة ، أو مواسم محددة ، أو بمناسبة إجراء طقوس معلومة ، أما فيما عدا ذلك فكل مجموعة تعيش منعزلة تماماً عن سائر الجنس .

إذا كان تصوري هذا صحيحاً فلم يعد هنالك ما أخشاه ، أما إذا تجمعوا فلا يعلم أحد مدى الخسائر التي سوف تلحق بنا . مع هذا مرت الأيام دون أي حادث ، واقترب وقت الحصاد الذي كنت أفدريه بعد شهر على الأكثر ، أعني أول شهور برت (نوفمبر) . فيما عدا أعمال الحراسة ، وهذه لم أقصر فيها ، أو أترأخى بعد حادث نحم آب ، لم يكن هنالك عمل حقيقي أقوم به ، لهذا قضيت معظم الوقت مع مرت سجر .

منعت في هذه الفترة أن أرسل فرقا لتقوم بالصيد ، وجمع المؤن من الضفة الجنوبية للنهر ، واكتفيت بأن أرسل الرجال إلى رحلات صيد الغزلان في الصحراء . أخيراً جاء الوقت الذي اختفت فيه الحيوانات تماماً

من شبه الصحراء لمحيطة بها ، وأصبح من الضروري ، إما أن تتوغل فيها إلى مسافات بعيدة أو أن تحاول في الصفة الأخرى ، بالإضافة إلى هذا فرغنا تماماً كيات الحضر ، والمواكبة التي جمعناها في آخر مرة ، وبالتالي لم يعد هناك مناص من تجربة مختلفة .

اعتزمت أن أتولى بدو قيادة المرفقة التي ستؤتي جمع المؤن . حاولت مرت سحر أن تشيى عن عرمى ، باكية هذه المرة ، إلا أبى رفضت أو سلاتها . طلبت أن تصحبني ، ورفضت . أحدثت مائتي رجل . وحذرتهم أن صادف أحدهم بعض رجال أو نساء من الكهوف ألا يمدوا أيديهم إليهم سوء . أصدرتهم بأن أي عصيان لأمرى سيكون جراؤه الموت .

عني العكس بما اعتدنا سابقاً ، لم أنقل الرجان في الصباح ، سكر إلى الصفة الأخرى ، وإنما نقلتهم تحت ستار الليل . كانت لدى حطة أريد تجربتها ، أوحيت إلى من حقيقة أن القبيلة لم تحاول مهاجمتنا طوال الفترة الماضية . تصورت أنهم ، وهم لمانون ، يميلون إلى السلام ، لم يكونوا جساء ، كما أنفتوا ذلك قديماً ، لكنهم كانوا يحصلون السم ، طاب لنحس قد تركناهم لحالمهم فقد تمسوا الموضوع .

أمرت الرجان بالتسلل دون صوت ، واتخذت طريقاً رأساً إلى الكهف . كان تصوري أن القبيلة تتجد منها مأوى تختمى فيها من البرد ، والمطر ، وأهم لم يتركوها ، ويقطنوا في أكواحهم العشبية إلا حينما رأونا نهم النهر . قبل بروع صوء الفجر كنا عند مداخل الكهف . بصدت ، ودرعت رجالى على أكبر عدد ممكن وأحدثت لضفى ما بدا كهف كبير . انحدنا أما كنا ولم يحدث أى صوت ، ومكثنا مدطر .

عند أول خيوط النهار خرج من مدخل الكهف الكبير ، حينما رصت مع رجلى ، أحد رجال القبيلة ورآنا . وقف مذهولاً ، وقبل أن يصرح كنت أقدم منه راعماً يدي في اهواء . كانت وسيلة التفاهم الوحيدة التي

أستطيع أن أوحى بها إليه بأى جئت سالماً . بسرعة مدهلة كان قد حرك قوسه من كتفه ، وانزع سهما من جعبته وراء ظهره ، وشده إلى الوتر ، وصوبه . لم أت بحركة واحدة لأدافع عن نصي . لم أحاول أن أقدم صوبه ، ووجهي رهاق متبادل للنظر . لم يبد عليه أنه اقتنع أبى جئت سالماً ، وكان ما راى يفكر فى إصلاق سهمه حينما استدرت ببطء شديد ، وأوليه ظهري ، واتجهت إلى رجالى .

وقعت أن يصيبى السهم فى ظهري فى أية لحظة ، لكن هذا لم يحدث . وصلت إلى لرجان ، وأمرتهم بالهوض إلى الوادى وأن يسدأوا فى إقامة معسكر ، كما هتفت إلى ناي الفرقة أن تنضم إلينا . أثناء هذا كانت جماعات أخرى من القبيلة قد خرجت ، ووقفت تماهده ما يحدث . شاهدتهم من بعد يتجمعون ، وينشاورون ، أو يلوحون بأيديهم ، إلا أبى لم أعزم إلتفاتنا ، وأمرت رجالى أن يقيموا المعسكر دون مجرد النظر إلى القبيلة ، وأنهمك الرجال فى العمل ، يدقون الأوتاد ، ويصبون الخيام .

مضت حوالى نصف ساعة ونحن على هذا الحال وحدث الخيام نصب . حولت نظرى نحو الكهوف ، ورأيت أن بعض الرجال قد انصرفوا عن سائر القبيلة ، وأهم يتجمعون نحو ناي وأبىهم الأفواس والبال ، فى حين وقف الباقون يتطلعون ، ويرقبون الأحداث . أمرت الرجال أن يستمروا فى العمل ، وأمام أجماعة المتقدمة برعت سيقى بطء ، ووجهته على الأرض ، وعلقت كذلك بالخنجر ، ثم تقدمت بمردى للفاقهم .

كانوا حوالى عشرة أشخاص يتقدمهم شيخ بدأ الشيب بخط فى شعر رأسه . وقف على بعد خطوات ، وأبدأ الشيخ يشير بيده لإشارات عصبية . فهمت إشارته . إنه يريد أن يقرب إن عديما أن رحل إلى الضفة الأخرى ، وأهم أن يقاتلونا طالما لم نعتد على أراضيتهم . كان يهدد ، ويتوعد ويشير إلى قوسه وسهامه ، ورجاله . أوامرت برأسى إشارة إلى الموافقة ، ثم أشرت

إلى في ، واطى ثم إلى الأشجار ، والغابة ، والمراعى . أشرت إلى ملاسى ،
وإلى سبى ، وخنجرى الملقبان على الأرض . وفهم الشيخ أننا جئنا مسلمين ،
وأننا نبغى التمسك .

تحول إلى من معه ، وبدأ معهم النقاش تلك اللغة العربية غير المعهودة .
ووقف أنظر ، صر دقاتى أخرى ، وهطت الأفراس والسهام . سار كل
شئ بعد هذا بسر . اقترب رجال القبيلة ، وسانها وأطعها بطوفون
في المعسكر ، على استحياء أولاً ، ثم بمرأة وفضول طبيعيين بعد ذلك .

حينما حل صباح النالى جاءت ، جماعة منهم يقوده الشيخ . أشد إلى
أهم سوف يصحبونا في صيدنا ، وفي جمعنا للثمار ، ولم أر بأساً من هذا .
لا شك أنهم كانوا يريدون التخلص عنا في أسرع وقت ، ورأيت من جانبى
أهم يعرفون المنطقة ، حيواناتها ، وثمارها ، وفاكهتها وأن هذا سوف
يساعدنا كثيراً . حدثت حادثة واحدة في مساء اليوم النالى . حاول أحد
الجنود الاعتداء على امرأة ، وحينما صرحت توتر الجو ، ولجأ رجال القبيلة
إلى أقواسهم ، وسهامهم ، بسددون ، إلا أبى مرغان ما تداركت الأمر ،
وانتهى الموضوع بسلام حينما رأوا أن الرجل يجلد بلا رحمة . وعادت
الأمور إلى مجاريها .

بعد ثلاثة أيام كنا قد جمعنا من المقد أكثر من احتياجنا ، وساعدنا
الاهالى في نقلها إلى الهر . جاء الوقت الذى أعبر فيه النهر . أشرت إلى
الشيخ بأنه يمكن أن يأتى مع رجاله لريادنا في أى وقت في الضفة الشمالية ،
لكنتى قلت إن النساء مجموعات من الحضور . لم يمكن من اليسير التحكم
في هذا العدد من الرجال طوال الوقت ، وربما أيضاً النساء . أشار إلى بأنه
هم مرادى ، وأنه سوف يأتى مع جماعة من رجاله في القريب .

جاء بعد أهل من أسرع ، يصحبه أكثر من عشرين رجلاً ، أحمرى
حراس المعدتين بأهم يقفون على الضفة الأخرى ، ويرعون في العود ،

وحيت بهم ، ودهشت لكفة الهدايا من الموز التي جاءوا بها معهم ، فقاموا شاكراً ، وأمرت ساحورع أن يصحب الرعيم ورجاله في جولة في المعسكر ، ثم صحتهم شخصياً ، مع ساحور في زيارة إلى السميتين . كانوا كالأطفال فضوليين ، مرحين ، لا يتوانوا عن إظهار مشاعرهم .

طلب مني الزعيم أن أصطحبه وساحور إلى الضفة الأخرى لبرقي شينا . وقبالت . أحذونا رأساً إلى أحد الكهوف ، وكما كانت دهشتي حينما رأيت رسماً يمثلني ، وآخر يمثل السميتين . طلب الرجل من ساحورع أن ينتظر ، وشاهدنا شاماً يحمل جمعة أخرج منها ما يشبه المرشاة ، وأحد عشر لونا ، وبدأ في رسمه بمهارة ومروعة . لم أمن من المراقبة . ولم تمض ساعة إلا كان الرسم قد اكتمل وبدأ لشبه واضحاً .

توالى تبادل الزيارات بعد هذا ، حتى كان من النادر أن لا يحضر الشيخ ، أو جماعة من الأهالي . لاحظت أن ساحورع يكثف من الانتقال إلى الضفة الأخرى ، وأنه يقضي بعض الليالي حينما يكون خالياً من الخدمة . لمسا سألته عن السبب أجاب بأنهم جماعة طيبة ، وأنه يستريح إلى الخلاء معهم . لم أرد أن أتبع الموضوع فتركت الأمر ، وتهد ساحورع بارياح .

جاء موعد الحصاد ، وأمرت بالاستعداد مقررنا أنا وسوف يبدأ في غرة اليوم التالي ، وأن على الجميع أن يخلدوا إلى النوم مبكراً ، فالحصاد يجب أن يتم في الساعات الأولى من خطوط النهار ، ثم يتوقف بعد بزوغ الشمس . فترة عصيرة ، وذلك حتى تتأثر حبات الصبح . في هذا اليوم جاءني الشيخ مصطحباً معه فتاة صغيرة جميلة الوجه ، ذقبة الأطراف ، وآخرين أهاهم به منه ، رفضت الهدية شاكراً ، وأهديته بدوري سيعا ، وحجراً كاد أن يطير بهما فرحاً . ولعبه من الطريف أن أدكر أن مرت سجر عصيدة من دون سبب أدريه ، ومضى بعض الوقت قبل أن تقبل عذري أنني لا ذنب لي في عرض الرجل هديته ، كما أني لم أقبل .

انتهى الحصاد ، وصنع الرجال ربحي للطحن ، وطحنا بمص العلال ،
وخرنا الباقي ، وحين موعد تموس لسقيين . قدم لنا الالهالى مساعدات قيمة
للتموس ، والصيد ، وفي آخر زيارة لى للضعة الأخرى بدأ الحرب الحقيقى على
الشيخ حسبا علم أناسوف ربحل بعد يومين . طلب منى أن أمكث مع رجائى
وبدا روضت ، أشار إلى السماء ، وأدومى أنه يستطيع أن يأتى بمجموعات من
تسكى الرجال .

— إنقسمت شاكرا ، وهررت رأسى يمينا .

حدثت حادثة كادت أن تقضى على هذه الصداقة التى كنت ، وتعلقت .
فى تلك الليلة سلك جماعة من الرجال إلى مقر القبيلة ، واستقبلوهم بترحاب
إلا أنهم كانوا ثملين مهددوهم بالسيوف ، وأرغموا خمس نساء على اصطحابهم
إلى العانة قبل أن يختتموا بهم وصل ساحور رع ، فقتل اثنين من رجالنا ،
وهرب الباقيون تاركين النساء قبل أن يمسوهن . وانتهت الأزمة بسلام .

فى الصباح جاء نجهم أب متدمرا يشكو أن ساحور رع قد قتل رجلين من
رجالنا ، ولم أكن قد علمت بالحادث ، ولما سألت عن ساحور علمت أنه قضى
الليلة فى الضعة الأخرى ، فأمرت أن يأتى بمجرد حضوره . بعد حوالى
الساعة جاء معه الشيخ ، واستمع إلى القصة ، وأمس عنا رعم القبلة .
حاول نجهم أب أن يسكر أن رجالنا حاولوا إغتصاب النساء إلا أنى أسكنه
مخشوة قائلا إن من حسن الخط أبى لم أكن موجودا ولما لأمرت
بإعدادهم جميعا .

خرج نجهم أب ، وبقي ساحور رع ، والشيخ . رأيتهما يلكآن فاستصممت
عن السب ، وتعلم ساحور وهو يفور إنه يرجو اللقاء ، ولا يود الرحيل .
جنته بأه جمدى ، وأنا مكلمون مهمة ، وليس لنا الخيار فى لقيام بها ،
أو تركها حينها يحلو لنا ، قال بإلحاح ورجاء إنه يعلم هذا لكنه أحب إحدى
فتيات القبيلة ، وتروجها ، ولعلها الآن حامل ، ويرجوني أن أعفيه من الخدمة

وأركه يعيش مع قوم أحبهم ، وأحبوه ، في بلاد مليئة بالخيرات ، ولا تحتمل حتى في جواهرها كثير ، عن تاملرى (مصر)

أحبته بخشونة أنى لا أملك أن أعفيه ، وأر كل ما أستطيع أن أفعله من أجله هو أن أمحه أجارة مساء اليوم على أن يكون ها في الصباح لمبكر . أصحت أنه إذا لم يعد في الموعد المحدد ، فسأصطر إلى اعتذاره هاربا من الخدمة ، ولرحيل بدونه . فهم ما أرى إليه وشد على يدي شاكرا إلا أنني سحبتها منه قائلا بالخشونة نفسها :

— لماذا تشكرنى ؟

صحك بسعادة وأجاب .

— على معنى أجازة الليلة .

— آه هذا ... لقد سميت على أى الأخوان فعليك عمل تؤديه اليوم لا أحببك سوف تمصر فيه . عليك متابعة شخص يأتى المسؤن ، والقمع ، والدقيق ، وسائر الأدوات . وبالماسبة إن محمولنا كان أكثر مما توقعت ، ولا مانع من أن نترك للقبيلة التى استضافتنا بعضا من العلال ، والدقيق كذلك لا بأس أن نترك لهم بعض الأدوات ، والملابس المستهلكة ، أو التى لسنا فى حاجة إليها .

كاد أن يطير من المرح

— إن هذا أكثر مما أطلب . على أننا لسنا فى حاجة إلى القمع فأنت ترى أن الكثير منه قد دخل شقوق الأرض ، ولن يأتى الموسم القادم إلا ويست على الأمطار ، وسوف يكون عندنا أكثر مما نريد .

عادت الخشونة إلى صوت ثانية :

— إنك تتكلم كما لو كنت سنبق ، وهذا مالا أسمع به .

إنسهم ، وتركى مع الشيع الذى ظل واقفا لا يأتى بإشارة . كان سائر اليوم جميعه عمل متصل . وفي المساء ، وكانت آخر ليلة أقصاها على ذلك (١٩ - رواد)

الشاطئ ، جاءنى ساحور مع والشيخ . شدا على يدى مودعين ، ورأيت
الدروع تترقرق فى عيى صديقى ، فى حين ان البحر جليا على وجه الرعيم .
قال ساحور :

— لقد علت من الشيخ أن الشاطئ . وعلى لمسافة سير أيام طويلة ، وأن
الأرض بعد فترة صغيرة تتحول إلى صحراء لا نبت فيها ، ولا مياه . عليك
يا صديقى أن تقتصد فى صرف الثوب والمياه ، وإلا تعرضتم للجحاة والمطش
ساعد بقدر الإمكان بصد الأسماك ، وهى وفيرة فى الشواصى . أصدر
أوامرك باستعمال مياه البحر فى كل ما لا حاجة ماسة إلى المياه العذبة به .
رافقتك السلامة يا صديقى .

احتق الاثنان فى الطلام ، وأحسست بهراع كبير اعقدى صديقى ، وراقى
للشيخ الطيب وقيلته . عندما حل الصباح لم يحضر ساحور مع . أمرت بالبحث
عه ، ولم يجدوه ، حينئذ عشت بهم آب قائدا للسمية الثانية ، وتركته لحرية
إحتواء ذاته . أحبرته أبى أتوقع أن تكون الشواصى ومالية خالية من
المرروعات ، والمياه ، وأن عيه أن يقتصد فى توديع المؤن ، والمياه ثم
أصدرت أوامرى بالإقلاع .

أفلعنا فى اليوم الرابع عشر من ثانى شهر برت (ديسمبر) وكانت السماء
هادئة ، والجو صحو ، وهبت رياح لطيفة ندمنا شمالا . فردنا انشراعات ،
وسرنا على مسافة آمنة من الشاطئ ، ولم يكن هناك ما يحذر هذا الصحو .
طاما أن اجهنا إلى الشمال ، فابى واثق من أننا فى طريقنا إلى العودة .

الواقع أبى كنت أتوقع أن يكون اتجاهنا إلى الشمال العربى ، أو أن يعرج
إلى الغرب قليلا ؛ لأنى أعلم أن البحر الشمالى (البحر الأبيض) كان أطول
كثير من الجنوب الذى قطعناه ، أعى أن ليبيا من الشمال أعرص كثيرا من
الجنوب فمى ، إذا شبه مثله . ولما كان صلحها الشرعى يكاد أن يكون مستقيما
ولا بد أن العربى منحرف إعرافا شديدا نحو الغرب هذا معجب من أن يكون
اتجاهنا إلى الشمال غريب ، وأن الميل نحو الغرب ضئيل يسيرا .

تأملت الأيام رتيبة لم يحدث فيها يستدعى الذكر، سوى أن علاقتي بمرت
سجر ازدادت توثقا، إن صح لى أن أقول هذا. زال خوفى من اتيجها،
فأنا الآن أعرف أمه الانجاء الصحيح؛ وأما سميل إلى هدهنا إن قريبا؛
أو بعيداً. ظن الجو أيضاً صحواً، واستمرت الرياح لطيفة تدفعنا شمالاً. حتى
املاحين لم يكن لديهم عمل حقيقى يقومون به. كل ما ألقنى فى تلك الأيام
هو التمويه، والمياه كلما مر يوم تحققت من صحة ما أخبرنى به ساحر وعزرايدت
الحرارة بشكل ملحوظ، وندرت الخصرة على الشاطئ، حتى أصحى صحراء
مترامية على مدى النظر. لم تكن هنالك وسيلة للتمويه إلا فى صيد الأسماك.

على أن نقص التمويه لم يحتل فى تفكيرى المركز الأول إذ أن السفينتين
كانتا محتلين تماماً بمسكاة أنواع الموز، والعلان، أما الماء فكان المشكلة
الحقيقية. صحيح أن السفينتين كانتا يحملان عدداً من الرجال لم يكن يربو
على ثمانمائة وحسين، أو ستين، وصحيح أيضاً أنى كنت أصدرت أوامرى
بالتوفير فى المياه بحيث لا يأخذ أحد أكثر من حاجته، إلا أن شدة الحرارة
ألزمتى أن أريد قليلاً من نصيب الفرد. زاد الطين بلة أما لاكتشف أن المياه
فى بعض الجرار قد أسن لسبب أو آخر، لم أجروا أن ألزم الرجال بالشرب
مما خشية الأمراض.

دأت ليلة، بعد أن مضى أسوع تماماً منذ رحيلنا الأخير، رسو عند
شاطئ. رمى تترامى وراءه الصحراء. كانت أول مرة رسو فيها إدائى رأيت
أن أنتهز فرصة الجو، والرياح، لأقطع أكبر مسافة ممكنة على أن تنتهى
الصحراء، أو يتغير الجو، وتطر السحاب. عقدنا مجلساً نبحث فيه الآرمة بحجم آب
ونائبه الجديد، ستنا أمون حيت، ومنتوسين، وأنا، نتباحث فى الموقف.
لم تكن حال سفينة بحجم آب أحسن من حالنا كثيراً، بل ربما كانت أسوأ إذ
أنه لم يعد تعلقاتى حرديا، وساعل فى توزيع حصص المياه.

بعد أن استمر بنا الموقف؛ وجدنا أننا أمام تهديد حقيقى منظم.

قررنا أنه مع التشديد في التوزيع لن نبقى نقطة مياه عديدة واحدة بعد خمسة أيام ، أو ستة ، وما كنا لا ندرى متى سصادف أول مصدر للمياه فبدأ أن الخطر حال ، سألت إن كانت هناك وسيلة لإنقاذ الحصص ، ورد نجسم آب :

— إن الرجال يتسرعون من حالتها الآن ، ولو أنقصناها فإني أحشى أن يثمدوا .

— ماذا عن النيفذ والجمعة ؟

— يوجد ماقد يكفي ليومين ، لكن هذا لن يعي عن المياه ، كما أنك لا تستطيع أن تعطى أية كمية حقيقية منهما ، وإلا نمل الرجال وتقاتلوا .

— إني لم أقصد أن أعطيهم حتى يثمدوا ، وإني مجرد ربيع كور في اليوم ، على أن أضع كمية المياه ، وبدأ يستطيع أن سعد حطر النظام ثلاثة أيام ، أو أربعة أخرى .

— ثم ؟

— لست أدرى ، لكن كل يوم يعتبر مكسبا .

انضمنا على هذا ، وأقلعنا في الصباح . لم يصب يوم واحد بعد هذا دون هراك بين الرجال من أجل الماء ، تروث الأعصاب حتى أنهم تقفلوا ذات مرة بالختاجر ، والمندى ، واضطربوا إلى التسجل شخصيا ، ثم أمرت بتجريد كل الرجال ، لإقلاص أحترتهم ، من السلاح . ومع هذا فلم يترفع العراث . تزايدت الحرارة بشكل ملحوظ ، وترايدت معها حاجة الرجال إلى الماء . كنت أسير بهارا بينهم أنفق الأعمال ، وأرى أمامي عيويا زائفة ، تنطع من الحين ، والآخر إلى السماء عسى أن ترى سحبا تتجمع ، وشدها تشفت نحاول السنة جامعة أن ترطبها ، وأيد غير ثابتة ، تهتز وهي تؤدي العمل للموكولة به ، وأجسادا عارية تنكش جهدها في الظل مبتعدة عن أشعة

الشمس الحارقة (١).

يوم إثر يوم ، والحرارة تزداد شدة ، والحالة تزداد سوءاً ، وقدوة
الرجال على التحمل اتصال ، حاول بعضهم أن يشرب من مياه البحر
فقتلهم لاني أعلم مدى الضرر الذي يصيب عقل الرجل ، وبده إذا ما ارتوى
من ماء أجاج . بلغ بهم الأمر إلى أنهم كانوا يتصيدون ندى الصباح ،
والأخيرة المتصاعدة من المطيح ، ليكتموها على صآتها يوطبون بها شفاههم .
جاء حما نخت في اليوم الثامن وتساءل :

— كم بقي من المياه ؟

— لن يكفي ما يزيد على يومين .

— ثم ؟

— لست أدري .

— ماذا لو كسبنا بعض مياه البحر ؟

— وأين الخشب ؟ هل تعلم ضخامة الكمية اللازمة من الوقود لتكثيف

مياه تكفي تسعة رجال تقريباً ؟

— لا . لمكتنا نستطيع أن نستعمل كل ما يمكن الاسماء عنه

في السفينتين وهي كمية لا بأس بها .

— والوقت ؟ إن هذه العملية تستغرق وقتاً ليس بالقصير ، ونحن

لا نستطيع أن نصيحه ، أولى بنا أن نستمع في الرحيل عسى أن تشفى

هذه الصحراء اللعينة ، أو تهطل الأمطار ثم ماذا عن وقود المطبخ ؟ هل

يشرب الرجال ، ولا يأكلون ؟

لم يسلم حقاً نحت وظل يحاور .

(١) أعود ما ذكر القارىء ، أن شهرى نوفمبر ويناير هما أشد شهور حرارة في نصف

— إنك تكنتسب وقتاً أطول إذا ما ارتوى الرجال قليلاً ، إننى فى الواقع أهتم بحالتهم النفسية أكثر ، أنت تعلم أن سبعة رجال شربوا فعلاً من مياه البحر ، وأن أحدهم جن ، وألقى بنفسه فى الميم ، كما أن باقى الرجال قد فقدوا ، أو يكادون ، قدرتهم على التحمل ، وإذا جاء اليوم الذى يضطر فيه إلى إخبارهم بعدم وجود مياه فسوف ينهارون تماماً ، ولن تجد فيهم من يقاوم ، أما عن المطبخ فإن المياه أهم من الطعام ، ويمكن للرجال إذا استدعى الأمر أن يتناولوا وجبة واحدة أو أن يتناولوا طعامهم نيئاً .

كانت هذه مناقشة لها وجهاتها ، نظرت إلى منتو سين الذى حضرها ، ورأيت أنه يميل إلى رأى الكاهن . وافقت ، وأصدرت تعليماتى أنا سمرسو فى المساء ، وأن على الجميع أن يعدوا ، أو ينتزعوا كل الأحشاب غير الضرورية ، ويجمعوها على سطح السفينة ، وأرسلت إشراقتى بسلك إلى نجم أب .

. . .

عند ما حل المساء كان حقاً نعت قد درس العملية دراسة وافية بمعونتى ، ومنتو سين . لم يكن يريد أن يذهب أية كمية من البخار هباء ، ولا أن تضيق قطرة مياه ، ولا أن تستهلك كمية لا داعى لها من الوقود . بالوسائل القليلة التى تحت يدينا ، قررنا أنه يلزم عمل حجرة كبيرة نوقد فيها النيران حتى لا تزيد الرياح اشتعالاً دون فائدة ، وأن نوصع الاواني النحاسية معها حتى لا تتعرض بدورها للرياح ، فتضعف من حرارتها وأن يحكم إغلاقها بعد ملئها بمياه البحر ، على أن تمتد منها أنابيب طويلة توصل مياه البحر تحتها عن طريق قنوات لتزيد بها ، على أن يوصع فوقها رمال رطبة حتى يتكثف البخار فى أسرع وقت ممكن ، وتتلقى المدور ، مضخة ومدفونة بدورها ، قطرات الماء المداقطة من الانابيب .

إن تقينا مكاناً يليه منخفض من الأرض حتى يمكن أن يحفر قناة يتجدد ماؤها بصورة مستمرة . استغرق إعداد العمل ، وإحكامه ثلاث ساعات ،

بذل فيها أكثر من سبعمائة رجل أقصى جهودهم ، بعد مضي تلك المدة كانت النار مشتعلة ، ومياه البحر تملأ الآواني النحاسية . احتاج الأمر أيضاً إلى تجرية يسيرة لمعرفة المدة التي يلزم بعدها إعادة ملء الآواني ، وإعداد غيرها وتنظيمها من الإصلاح المتراكمة .

ما أن تمت جميع الترتيبات حتى قسمت العمل إلى دوريات كل منها ساعتان إذ اقتصر العمل بعدئذ على تغذية التيران ، وتنظيف الآواني ، وملء غيرها ، ورفع القدور ، والبرامل بعد أن تمتلئ بالماء العذبة ، ووضع العارغة . لم تكن هذه الأعمال تستحق أكثر من ربع القوة التي تحت إمرة هذا كان التقسيم إلى دوريات لباخذ كل شخص قسطه من الراحة .

في الصباح كان قد تجمع لدينا ما يكفي الخبزة من المياه ثلاثة أدم أخرى ، سوى ما كان موجوداً أصلاً ، وبدأ أحسن مالدنيا بكعبنا خمسة أيام أو ستة . لكن زت مشكلة ثانية كنا قد استهلكنا معظم مالدنيا من الوقود ، ولم يبق ما يكفي المطابخ لأكثر من يومين ، وبعدها سوف يصح لنا أن نسأل طعامنا تبناً إذا لم تنته هذه الصحراء .

اليوم هو الثامن بعد رحيلنا من الشاطئ . حدث قطربا المياه من البحر لقد استهضت عن الطعام المطبوخ ، في اليوم الخامس ، والسابع ، بالماكلة ، والمياه ، وفرغت كميات المأكلة ، وسافقت المياه . كانت الحرارة تزداد يوماً عن يوم ، ولا أثر لآية عذبة ، أو سحابة في السماء ، أو لآية شجرة أو نبت على الشاطئ . من السعينة الثابتة صدرت إشارات استغاثة ، فطلت من مراقب الصاري أن يدلنا على خليج تستطيع السفيتان الإلتجاء إليه . أشار إلى خليج قريب ، ولا عجب فالشواطئ جميعها كانت رملية ، ولم يكن من العسير العثور على مكان يصلح للرسو .

أعطينا الإشارات للالتجاء إلى الشاطئ . وغيرت السفيتان إتجاههما . بعد أقل من ساعة كنا قد ألقينا المراسي ، وأرسلنا السفالات . قال نجم آب إنه

كان مهدداً بتمرد حقيقى على سميته . فرح الوقود، واحتضت العاكمة، ودرت المياه ، واشتدت الحرارة . انضح أن جماعة من البحارة قد خأوا كمية من العاكمة ، وحيثما اضطروا الآخرون لتناول اللحوم المجمدة نبتة كانوا هم يأكلون العاكمة سرّاً . اكتشف أمرهم ودار قتال ، لولا شخصية نجم آب ، ومعاونة بعض رجاله ، لانتهى الأمر بدمية . والواقع أنه قتل ثلاثة أشخاص وملا ، وجرح كثيرون . سأل :

— ماذا سوف يفعل الآن ؟ إن العاكمة فرغت ، والمياه فى تناقص مستمر ، ولا يبدو أن هنالك نهاية لهذه الصحراء . ماذا سوف يفعل ؟
نظر إلى الرجال الثلاثة ، نجم آب ، ومتوسين وستنا آمون حث
— هل لدى أحدكم اقتراح ؟

تبادلوا النظرات ، وقال ستنا آمون حث
— لا حيلة لنا إلا الإقتصاد فى المياه ، وأن يتناول الرجال وجباتهم ببطء .
إعترض نجم آب بشدة على ذاته
— لقد شاهدت ما حدث . كيف يمكن أن نجبر الرجال على هذا ؟ إنهم لن يقبلوا ، وستجد نفسك فى مأرق لا مفر منه إلا بدمية لقد فصياعلى تمردهم هذه المرة بصموية ، وأخشى أن يعقدوا أعصابهم ، ولا نستطيع كبح جماحهم .
كيف الحال عندك ؟

كان السؤال بطبيعة الحال موجهاً إلى :
لا يختلف كثير عما عندك لكنه ، لم يصل إلى درجة التمرد . مارأيك أنت يا متوسين ؟

إلتفت إلى نائى وقال متردداً :
— إن المشكلة ليس فيها رأى ، إن الحل الوحيد فى تصورى هو ما ذكره ستنا ولا يخرج آخر .

كاد نجم آب أن يعترض مرة أخرى إلا أننى قاطعته متسائلاً :

— هل لديك اقتراح آخر ؟

— كلا

— إذا أخبرني كم يوما تطل أن في استطاعة الرجال أن يتحملوا الاقتصاد في المياه ، وأكل الطعام نيشاً .

— لا أكثر من يومين .

— حسناً لك أن تحرمهم أن عليهم أن يتحملوهما ، وسنجد الحل لنشأ كلها في اليوم الثالث .

سترسو ثمانية عدت ، وسوف يلغمون كما يحلو لهم .

— وأين ستجد الوقود ؟

— لأشأنك بهذا . فقط أخبرهم ، وأترك الباقي لي .

هر رأسه مرادفاً وإن بدا عليه عدم الإقتناع ، حينما أنصرفنا إلى السفينتين رافقني منتوسين وسأل :

— هل حتماً ستوفر الوقود ؟

— لم أعتقد الكذب .

— أعتذر إنني لأعني هذا ، لكن من أين الوقود ؟

— أرجو أن تجده قبل مرور اليومين .

* * *

لكننا لم نثر عليه . سقطت بعض الأمطار الخفيفة ، وترودتنا بقليل من المياه لكن استمرت الصحراء جرداء تماماً دون شجر ، أو عشب . وحل اليوم الثالث ، وصاح مراقب الصاري أن لا أثر للشجر . أمرته أن يوجه السفينة إلى مرسى ، وطلبت من منتوسين الذي ظل ينظر إلى بتعجب ، أن يتولى القيادة .

جاءني مرت سحر ووجهها شاحب ، وقد ظهر أثر الهزال عليها ، لم

تكن معتادة على مثل هذه الحياة ، فالعذاب موجود في بلادها بوفرة ، وكذلك المياه . لكنها لم تبد تبرماً ، الواقع أنها تحملت كل ما صر بشيعة نادرة ، بل إنها كانت أقل الموجودين تبرماً وتذمراً . سألتني قلقة :

— لقد حل اليوم الثالث ، من أين ستجد الوقود ؟

— إنه موجود .

لم يبد عليها الاطمئنان . وألحقت في السؤال ، وما زال القلق يبدو على محياها :

— إن البحارة توترت أعصابهم ، وسوف يثورون إذا لم نفهم يهودك

— لا تقلقي سأى بوعودي .

تركها ومصيت أراقب السفينتين تتجهان نحو أحد الخليجان . لاحظت أن أوتى وعنحو ، وسيمما ، كانوا في الأيام الأخيرة يتبعون كظلي وهمت أنهم يحشون على حياتى من اعتداء البحارة . لم أعر الأمر اهتماماً فقد كان الحزن يملأ قلبي من النصر الذى سأقوم به ، والذى دفعت إليه دعماً ، لكن لم تكن لدى حيلة .

على الشاطئ . عقدنا مجلسنا نحن الأربعة ، وابتدئ بحم آب متحدياً :

— إننا في اليوم الثالث ولا أثر للوقود .

أجبتة بحزن :

— بل موجود يا نجم ، عليك أن تأمر رجالك بالبدء في تكسير سميتك وإنزاع كل ما يستطيعون من أحشاب داخلية ، أريد أن يستمر الهيكل الخارجى فقط .

نظر الثلاثة إلى بهلاهة . وصاح نجم بنضب :

— هل ستعظم السمينة ؟ إن أسمع بهذا .

قدرت عصيته فان أى بحار لا يفكر فى تعطيم سفينته ، ولعله يفضل الموت . لهذا لم آخذه بالشدة فقد كان قلى مثقلا للثلاثة أيام الأخيرة .

— أنا آسف يا نجم . لا حيلة أخرى لدينا . على أننى سأحتفظ بالهيكل الخارجى ، وبما يكفى لأن نستمر فى الإبحار ، وإن كنت لى أترك عيبها أكثر من مائتى رجل ، وسيتقل باقى رجالك إلى سفينتى .

— لى أسمع بهذا ... أى نوع من القادة أنت ؟ أنتظم سفينتك بيدك ؟ أحذته بالحزم ، وإن لم يكن بالشدة .

— بعد أوامرى . . . إننى مسئول عن حياة أكثر من ثمانمائة شخص . إن لم أفعل هذا فالجميع معرضون للموت ، وسقف السفينتين .

رفع عينيه يواجننى إلا أنه رأى أن لا فائدة من المناقشة فقام غاصاً . أمرت منتوسين وستباحث أن يساعدا ، وأن يعطوا أوامرها إلى البحارة لصيد الاممك ، وإعداد وجبة دسمة للرجال ، وتركتهما وسرت هلى الشاطئ . بعيداً من سطر السفينة فلم أكن أريد أن أراهم يحدوونها إذ كان شعورى كمن يجلد والدته أمام عينيه .

لم تمض أربعة أيام بعد هذا حتى كان المنظر غير تماماً . صحيح أن الجو قد ازداد حرارة ورطوبة إلا أن السحب بدأت تظهر فى السماء ، كما ظهرت هلى الشاطئ . بعض الأعشاب ثم الأشجار المتفرقة ، فى اليوم الخامس هطت الأمطار بشده وأصبحنا نرى أن الشاطئ الذى كان صحراء جرداء تحول إلى مراعى وغابات .

سارت الأمور عادية بعد هذا ، صادفنا أنهار عديدة ، وملأنا بحارن المأون والمياه ، ولم يبق سوى أن استكمل بناء السفينة الأخرى . والواقع أننا نجد أشجاراً مناسبة يمكن أن تملأ بها مساحة من أخشاب . ولما كان المنظر أمامنا يتغير باستمرار ليتحول إلى أشجار باسقة فقد فصل النجارون الانتظار

حتى يجدوا المكان المناسب الذى يستطيعون فيه استعطاء أشجار قرية من الشاطئ - تصلح للسفينة .

توقفتا كل ثلاثة أيام تقريباً ، وتوغلنا فى بعض المناطق إلى الداخل بحثاً عن الأشجار المناسبة ، وانتهر أوى وهرقته من رماة السهام الفرصة ، وموينا المرة تلو المرة باللحوم الطازجة ، إزدادت كثافة الأشجار بشكل ملحوظ ، ورسوبنا على شاطئ - رملى قريباً من بحر عظيم تتدفق مياهه هادرة (١) . إلى هنا قرر السجاريون أن المكان مناسب والأشجار تصلح لتسدينا بما نشاء من أحشاب .

أقما معسكرنا على انشاطىء ، ولم يمض يوم حتى كان العمل على أشده . بالرغم من ارتفاع درجة الحرارة والرطوبة ، بدا أن كل شيء يسير على ما يرام ، لكنى مع هذا لم أكن مرتاحاً ، كان هناك شيء عجيب فى المكان ، ليس سودك (التمساح) فى النهر القريب هو الذى أرعبنى ، ولا الأفيال ، ولا زئير الوحوش هو الذى أرهبنى ، ولكن شيئاً آخر لا أدري ما كنهه .

شعرت أن هناك عيوناً ترصد حركاتنا بصمة مستمرة . عيون أعداء تترصد ، وتنتظر فرصتها لضرب ، رحت أطلع إلى أشجار العابية الكثيفة القريبة منا ، حدثت لنظر فى كل شجرة ، وفى كل فرع ، ومع هذا لم أر ما يريب ، طلت قلقاً متقص الصدور طوال النهار ، ولا رالى إلا كتاب حينما يحول دوع إلى أنوم (شمس العرب) . أشعلنا ليران ، وأمرت بالإكثار منها كما صاغت الحراسة العادية حتى أن منتوسين سألنى عن السبب ، ولم أدر بما أجيبه سوى أما فى أرض غريبة ، وأنى لا أريد المجازفة .

هضيت الليلة الأولى على الشاطئ - مسجداً أنام يوماً متقطعا . حيل لى أثناء الليل أننى سمعت صرخة مكثومة ، فخرجت من الخيمة لكنى لم أشاهد شيئاً

غير عادي ، عدت إلى فراشي ، وحاولت النوم إلا أن الشعور بالخطر استمر يلاحقني ، ويجهو عني النعاس ، ما بدأت حيود العجز ببدد الظلام حتى سمعت صرخة تليها صيحات رجال ، وهب من في المعسكر جميعه يتساءلون السبب . حينها خرجت من الخيمة رأيت الرجال متجمهرين ينظرون إلى شيء لم أتابعه حتى أفسحوا لي طريقا ، وعنده رأيت . كانت حثة أحد الرجال ، أحد الخرس ، ملقاه على الأرض وقد برز من أعناقهم صغير .

تأملت السهم بدهشة ، كان صغيراً إلى درجة أنه لم يكن من المتصور أن أي رجل يستطيع الإمساك به وشد القوس عليه . كان أقصر بمراحل من سهام قبيلة هباني الكهوف ، إلى جاني سمعت صرخات بهم آآ يقول بتعجب :

— ما هذا بحق الآلهة ؟

جاءني الرد من حفا نخت :

— إنه سهم مسموم إذ لا يتصور أن مثل هذا السهم لصغير يمكن أن يقتل رجلاً بعير ذلك ، لا بد أيضاً أنه سهم شديد ، سريع المفعول ، وإلا لكنا سمعنا صيحات الرجل ، أو أسيه ، لكن كيف يمكن أن يطلق مثل هذا السهم الدقيق ؟

سألت الكاهن الطيب :

— ما هو عمق الجرح ؟

أنهى الكاهن على الجثة ، وتحاشى حذراً أن يمس رأس سهم ، وانزعاه برفق ، لم يقتص انزعاه قوة تذكر ، ولا كانت هنالك دماء كثيرة حول الجرح الصغير الذي تركه .

— إنه لم يحدث أكثر من حداث خفيف لا يزيد عمقه على دجج (عرص الأصم) وربما أقل . . . لا بد أن السهم شديد جدا وسريع المفعول ، وإلا لما أثر مثل هذا الجرح في الرجل . . . إن ما سال من دمائه لا يزيد على نقطة أو اثنتين . . .

اعتدل واقفاً وهو يمسك بالسهم الرقيق من طرفه وهز رأسه ، وعاد
يكرر أسأله :

— كيف يمكن أن يطلق أى رجل مثل هذا السهم ؟

تناول السهم بحذر ، وأمرت الرجال بأن يتفرقوا لتناول الطعام ،
والعمل ، واستدعيت أوى . أريته السهم ، وسألته ، لكى هز رأسه نفاً ،
وقال إنه لا يتصور قوساً يشد فيه مثل هذا السهم ، حتى لو كان الرامى طفلاً ،
يحتاج إلى ثلاثة أصابع الخيول على أقل تقدير ، عرضت السهم على سائر
الرماة ، والقواد ، لكن أحداً لم يعرف الإجابة ، واستمر اللعز بلا حل .

بعد تناول الإططار جاء فى أحد بحارة سميتى ليحبنى أن مرت مسجراً
تطلب أن تنزل إلى الشاطئ . كنت قد منعتها عن النزول فى اليوم السابق
خشية وجود أخطار ، ولم أكن مستعداً لأن أدر لها الآن وقد تحقق الخطر
أحرته أوى سأذهب بنفسى إليها على سطح السفينة ، وأن عليها أن تنتظرنى
والأتحاول المجئ . برهق وضعت السهم على قطعة من القماش ، بعد أن
أحطت رأسه بورق شجر عريضة ، وحملته معى إلى قرقى .

استقبلتنى مرت مسجراً على سطح السفينة ، وصحبتنى إلى الصخرة . رأتنى
أضع اللعافه على المنصدة . وسألتنى عما بداخلها لم تنتظر الإجابة ، وإنما
توالت أسألتنى عن سبب منعى لها من النزول إلى الشاطئ ، وعن المرح
الذى شاهدته جراً . أردت أن أقنعها بخطر استصحابها فصحت اللعافه ،
وظهر السهم بداخلها . ما أن رآته حتى تسمرت فى مكانها . وكمت
عن الأسئلة .

جحدت عيناها رعباً . وظلت تحديق السهم الرقيق ، ورافتها دهشاً
من تصرفاتها . أخيراً تكلمت سألتنى بصوت متحشرح دور أن يتحول
نظرها عن السهم :

— من أين ؟ . . . من أين أتيت بهذا ؟ . . . إنه الموت !

إردادت دهشة ، وجاء دورى فى سؤالها .

— هل رأيت مثله من قبل ؟

— أجل . . . فى عناق شخص متوفى . . . ورأى قوما كثيرا منه

. . . إنه الموت ! !

— ماذا تعنين ؟

هذه السهام لا يستعملها سوى قبائل الأقزام ، لأنهم بدائيون إلى أقصى درجات البدائية ، لا يعرفون الميراث ، أو النيات ، أو حتى المتارل ، أو الأكواح ، لأنهم لا يتكلمون بل يقططفون كما تفعل القرود ، لأنهم نمطيون ، يأكلون لحوم البشر ، ولا صديق لهم فى العابات . . . هم الرعب الذى يسيطر على كل المخلوقات ، سواء الحيوان أو الإنسان . نادرا ما يراهم المرء ، لكنهم دائما موجودون . أشرب من الفهد ، وأخبت من الثعلب ، وأسرع من الفزال .

كانت تتكلم كأنها فى حلم . لم ترفع عينيهما عن السهم ، وجاء صوتها هامسا ، كس لبه سحر . سألتها :

— هل تعرفين كيف ينفذون هذه السهام ؟

— أجل . . . بأهواهم ؟

— ماذا ؟

— لأنهم يصعوبون فى استخوانات خشبية مجوفة ، ويصعوبها ، وقنفا يخطىء الهدى .

بالرغم من الدهشة التى اعترتني إلا أنى تبست ما فى قولها من صحة ، أجل ، إن مثل هذا السهم الرقيق لا يمكن أن يطلق إلا بالوسيلة التى ذكرتها مرت سحر ، استمرت الفتاة فى تساؤلها ، ولم تتوقف :

— لكن كيف جاءوا إلى هنا ؟ إننا بعد مسيرة أشهر عن بلدق حيث يوجدون .

— لست أظن ذلك إننا نكاد أن نكون أمامها تماما . وهي على الشاطئ الشرقى لليبيا ونحن على الشاطئ الغربى ، لهذا يعطى أفكارا جديدة ، وعلى أن أعيد حساباتى لكن أولا على أن أضمن سلامة رجالى ، لا أترك السفينة وسوف أعود إليك ثانية .

لم أكن فى حاجة فى الواقع إلى هذا الطلب إذ أنها بعد أن رأت السهم لم تحاول أن تطلب الهبوط إلى الشاطئ ، تركتها ، وذهبت ، ثم جمعت القادة الثلاثة ، وعرضت عليهم ما علمته ، وطلبت منهم أن يبتعد المعسكر ليلا عن الأشجار ، وأن يضعوا الحراسة فلا يترك شخص بمفرده ، مع جميع هذه الاحتياطات فإننا اكتشفنا فى صباح اليوم التالى جثتين لاثنين من الرجال بينما اختفى شخص ثالث ، وتذكرت قول مرت سجر إن الأقزام نمميون .

ذو الشعر الكثر

قضيّا طوال اليوم كله في بناء سور حشى . حصصت ستائة رجل يقطعون الأشجار ، ويحرقون الحشود ، ثم يقيمون السور من ناحية العتبة ، وتركته مفتوحاً من ناحية البحر فقط بحيث لو شاء أحد الخروج ، أو الدخول من البحر لا يستطيع . لم يحل المساء حتى كان السور قد تم بنؤه ، ولأول مرة صلح عليه الصالح دون أن يعتقد أحداً من الرجال ، بل إن عبدنا قد جعلوا واحداً من الأهل لإدخال أن يعنى السور ، ورآه أحد رماة السهام قد قدمه ، وأصابه ، لكنك لم ير له أثراً في الصباح ، ولا بد أن رفاقه قد حملوه معهم .

كان علينا أن نعمل في العتبة الكثيفة ، ونحشيت السهام المسمومة ، فكونت فرقة للحراسة أمرتهم أن يحملوا معهم الدروع دائماً ، وأن ينفخوا متجاورين بحيث لا يمكن لعدو أن يخترق صفهم ، كما اعتديت أن تكون جميع الدروع خشبية أو جلدية ، إذ أن حراره الجو لم تكن تسمح بالمعدنية مع هذا ، فإيه يبدو أنى لم أدر عدوى حق قدره . كانت تعبئة موطنهم ، يعرفونها ، ويعرفون مسالكها ، ووحوشها ، وهوامها . وكانوا يصار الأجسام بحيث يستطيعون أن يبروا وسط غبضات كثيفة ، لا يستطيع الرجل العادى أن يخترقها ، كما كان من اليسير عليهم الاختفاء في أماكن لا تخطر على البال .

بالرغم من جميع الاحتياطات لم يأت منتصف النهار إلا وكنا قد وعدنا أربعة رجال . تراخى أحدهم في وقفته ، أو يظهر أى جزء من جسمه ، لتوان معدودات ، ويمرّق سهم من تلك السهام الرقيقة الصغيرة ، ليحدث حدثاً خفيفاً ، ولا تمنى دقائق إلا ويكون الموت قد اختطفه . كان أوفى (٢٠ - رواد)

أول من اكتشف أحد الأفرام . رآه يختبئ عالياً في إحدى الأشجار بين
فروع لم يكن أحداً يتصور أنها تتحمل ثقل أى رجل ، وقد أخفته تماماً
أوراق الشجرة ، ومع هذا فقد مرق سهم أولى ليسقط القرم

أحدث من هذه الحادثة عظمى . جمعت أكثر من أربعين من حملة السهام
وأمرتهم أن يطلعوها على أعالي الأشجار القريبة عشوائياً ، دون التقيد بقوة
الأفرام . إحترت عشرين آخرين من أمر الرماة ، وأمرتهم أن يبقوا على
استعداد لإصابة أى شئ . يتحرك من الفروع . في الدقائق التالية تساقطت
السهام على الأشجار عشوائياً ، ولكن بكثرة مريعة . أحسب أن كل حامل
قوس قد رمى عشرة أسهم على الأقل .

هدفت من وراء هذا أن يسيطر الدرع على الأفرام المختبئين فيكون
أماكنهم هاربين وكان لى أكثر مما أردت . سقط من الأشجار ثلاثة ، ثم
رأينا شيئاً عجيباً . رأينا عشرات منهم ينقلون بحفة بين الفروع كالقردة .
حيثما كانت الأشجار ساكنة لأحياء فيها أمثالات فجأة تلك المخلوقات
الصغيرة نمر مدصورة أمام وابن السهام المتساقط . ويأبى عنهم وأمر
السهام قتلوا منهم ثمانمائة آخرون قبل أن يخطئ الساقون تماماً بين فروع
الأشجار الكثيفة .

وهنت أتمعن في جنث الأفرام المتناثرة . كانوا حنيلي الأجسام لا يتجاوز
طول معظمهم نصف قامة الرجل الطويل . أطرافهم صغيرة ، ودقيقة كالأطفال
ولشربهم سوداء ، وشعورهم ممدلة . بدت على وجوههم شراسة ، لم يستطع
سكون الموت أن يمحوها كان أحدهم يحمل معه جعبة صغيرة ، وما يزال
يقص بين أصابع يده على إسطوانة خشبية بجوفة . فتحت الجعبة بحذر ،
ورأيت كثيراً من السهام الدقيقة . أحدثت الجعبة ، والاسطوانة ، وإحتفظت
بها للذكرى .

استمر العمل في هدوء . بعية المرد ، وقيل أن بين الظلام عاد الجميع إلى

حماية المعسكر ، فضينا الليلة دون حادث ، ومرت ثلاثة أيام أخرى لم أتصور أن الإفزام قد اكتملوا عما تساهم ، وبعثوا في غاباتهم خائفين . حينما خاطبت مرت سحر في الأمر ، أكدت هذا ، وقالت لهم لاشك يجمعون أعدادهم ، ويعدون العدة لصريه قاصية ، وأهم في تاريخهم الطويل كانوا دائماً رعب الأهل في جميع المناطق المجاورة . يحتظرون النساء ، ليتزوجوهن فهم يحبون النساء الطويلات ، ويقتنون الرجال ، والصبيان يطعمون من لحومهم .

كان لارال أمامنا مهمة أيام أخرى قبل أن ينتهي العمل ، وعسكرت جدياً أن أكني تساهم أدائه ، أو أحضر المهمة ، إلا أنني كرهت ليعسى أن أفر أمام مثل هذه الطعمة . كان هذا خطأ ، فالقائد الحكيم يجب أن يفكر أولاً في رجاله ، ومهمته ، وأن يسع الكرامة جانباً ، وجع هذا ولم تمكن كرامتي هي التي عسكرت فيها ، ولما تاملت . إننا جنودها ولا يجوز لنا أن نفر ، أيًا كانت الظروف .

في تلك الليلة جئت عنخو . أبقظي من نومي يرفق وحييها إنتهت سمعته يتكلم :

— سيدى القائد أعتقد أن الإفزام ممدون على شيء .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن هالك حركة على طوان السور من الخارج

— ماذا ؟ هل يحفرون ؟

— كلا لهم يحملون أشياء ، وأظن أنها أحشانا ، أو أروع شجر ، وأوراق .

كست قد مضت من فرائي وهو يتكلم ، وبدأت في ارتداء ثيابي .

— إذهب وأوقف نجم آب ، ومتوسين ، خبرهم بما أخبرني به ، وقل

لهم إنى أظن أن العدو سوف يشعل النار في السور ، قريباً من البحر .

وأوقف أوني ، وعليه أن يكون مستعداً مع حملة الأقواس . لكن على الجميع

أن يتظاهروا باليوم بهيئاً عن السور على الأقل بعشرين يلو (ما يقرب من خمسة وعشرين متراً)

المصحح عنحرقى خمة الشبح، وأنتمت إر تداء ثياني، ثم خرجت من الخيمة. كنت أود أن أنعرف قدر الإستطاعة على خطه أعضائي حتى أعد العدة للقائم، ولم يكن لثنائي هذا دون الإستماع إلى حركاته وراء السور مباشرة، فرددت أن أفعل ما يجلبه على واجبي، مع ما في ذلك من مخاطرة .

لاحتف وأنا أوجه إلى السور، أن أخذ قدراً من الماء في الاستحمام البدرى، ولم أتمالك من الإعجاب بجود العرعرون وهم يتحركون في صمت وكأهم فرد واحد. انجذبت من فوري إلى طرف السور الجنوبي، إذ نصقت تماماً به سرت بظه وحذر مستتلاً لاس الاصواب . قطعت مسافة لم أسمع فيها شيئاً ثم بدأت تصل أدنى أصوات حقيقة، كأنما يتحرك أشخاص، ويصمون أحمالاً على الأرض إلى الجانب الآخر من السور وصمت علامة عند المكان الذي سمعت فيه لأول مرة الاصوات، ثم واصلت سيرى بجوار السور .

استمرت الاصوات الحقيقية تنبعث من الجانب الآخر ثم انقطعت بعد ذلك . وقعت لأصع علامه حيث انقطعت الاصوات للمرة الثانية، فجاءت سمعت ورائي صرخة مكتومة، وانتمت دون حاجت خنجرى من منطقتيه، لكنى رأيت سيمب واقفاً جلتي، وقد قص يده على رقبه أحد الأفزام ينقصه في الهواء. ونحفته . كان سيمب عملاً من الرجال أما إذا ما قورن بالقرم وقد بدا ماراً ثوان معدودات وإنهت حيه القرم . بسهولة عجيبة طوع سيمباً الجنة لتعطي الحاجز، ونفع على الأرض . سمعت صوت إر نظاماً، ثم صرخات متعددة، وأصوات أقدام تعدو هلمة نحو الفاه .

شكرت العملاق فلا شك أنه أنعدى من إحدى السهام المسمومة، وإذا بدا جلياً أن القرم كان قد اعتلى السور في مكان يقرب من موضع وقوفى،

وكان على وشك التمتع في القصة حينما قبض سيمبا على رقبتة يمنع خروج الهواء . أغمست ووضع العلامة ثم انسحبت بعيداً عن الحاجز . جاذبي نجم آب ومتوسمين ، وستما حث ، يستفسرون عن خطتي . وأخبرتهم .

— إن الأفزام سوف يشعلون النيران في وسط الحاجز من هذه العلامة إلى تلك تهريباً كما سيحتلون السور على ما أعتقد عند الخانمين .

قاطعي متوسمين لأولى مرة :

... معدرة ياسيدي القائب ... أنني لا أعتقد أن هذه خطتهم .

— ماذا تعني ؟

أعني أن الأفزام ، حسماً رأيت ، قصار الأرجل جداً لا يستطيعون الجري ، وهم فوق هذا رجال عابثات ، وليسوا رجال أرض مسطحة ، إن قوتهم في النعانة عن الأشجار ، وبين الأدغال ، والآكبات ، وليس على الأرض . وجدت أن منطقهم سليماً فأومأت برأسي :

— أكمل .

— لهم لا يريدوننا في منطقهم ، لهذا سيحرقون الحاجز ، ويتركوا بلا حماية ، ولن نستطيع الاقتراب ، وبناء السور مرة أخرى إلا بمسائر فادحة .

— لاشك أنهم جمعوا من بي عشريرتهم أعداداً كافية ، وإحتموا بالأشجار القريبة . أما في المساكن سيكون مكشوفين تماماً لهم .

— والرأي ؟

— أن نسحب . إننا لن نضار كثيراً . إن في استطاعتنا الإبحار ، وإتمام عملنا في مكان آخر بعيداً عنهم ...

ومدادا عن المؤون ، والأحشاش ، والأدوات هل نتركها هم ؟ ...

إننا لن نستطيع أحدها معنا قبل هجومهم .

ومدادا يعني بعض الأدوات ، والمؤون ، والأحشاش ؟ إننا نستطيع

أن نعوضها في مكان آخر .

نظرت إلى نجم آب وستما حث وسألتهما وأيهما فقال نجم آب :

كذلك . لا يمكن أن نسحب أمام مشهه .

وافق ستناحب على رأى متوسين ، وعاد القرار إلى . لم يكن هناك شك
فى أن متو كان على صواب ، لكننى أكره أن أترك مجهود أيام يصعب لمجرد
الخوف من القتال ، كما أننى لا أقبل أن يدسحب جنود العرعون أمام مثل
هؤلاء ، حتى وإن أدى الأمر إلى بعض الخسائر . المهم أن تكون الخسائر
أقل ما يمكن . هادت بين الرأيين .

— لنؤجل القرار النهائي إلى حين دعونا يا سادة ننتظر إلى الصباح نرى
ما يسفر عنه . وإلى أن يقرر نهائياً ، أريد من فرقة رماة الأسهم ، أن
يطهروا ما وراء الأسوار ، وكذلك الأشجار القريبة .

بينما نستعد للخروج من الحيمة دخل علينا أوتى ليحربنا أن الأهرام قد
أشعلوا النار فى السور ، وأنها تمتد بسرعة رهبة لتأكل الاحشاش الجافة
بسهولة ، ويسر . أعطيته أوامرى بأن المنطقة القريبة من السور يجب أن
تنظف تماماً من العدو ، وأن تكون هناك فرقة من الرماة على استعداد
لمقابلة أى هجوم .

لم تمض دقائق بعد هذا حتى كان الرماة قد انقسموا إلى قسمين ، بدأ
أحدهما فى إلقاء الأسهم عالياً فى السماء لتسقط عند السور جاء الرد فى شكل
وأول من السهام يتساقط . لم تكن تلك السهام الصغيرة المسمومة ، وإنما
كانت نوعاً عادياً . إذأ فقد استعان الأفرام بمقاتل أخرى ، أو لعلم أنفسهم
عبروا من طريقة هجومهم ، وإن داحنى شك كبير فى هذا .

كانت مرمى سهامهم أقصر من أن تصل إلينا ، خاصة وأننى لاحظت أنها
جميعها تأتى من الأشجار ، ومع هذا فقد جرح خمسة رجال . استمر الحال
على هذا أكثر من ساعة حتى بدأت أول خيوط الفجر تظهر ، وحببت لنيرانى ،
بعد أن أنت على السور ، وصار مجرد أكوام من الرماد ، والاحشاش
المحترقة . انتهت فرصة اللطم ، والقراشق البعيد ، وأمرت بإقامة حاجز

صغير يكون سائرًا من سهام العدو عند الهجوم المنتظر ، كما أمرت باخلاء الشاطئ من كل ما ليس له ضرورة في القتال .

أصبحي المعسكر شعلة من نشاط . فكان البعض يقيم السائر ، وآخرون يحملون الأخشاب والآلات ، والمهمات الخاصة بالنجارة ، والحياكة وغيرها ، وينقلونها إلى السفينتين ، وفريق يوالى التراسق بالسهام مع العدو وآخر يحمل بعض المأكولات ، أو المياه ، إلى الرجال .

جاء الهجوم المتوقع بعد أول حيوط الفجر . فجأة اسدع من بين الأشجار عشرات من الروح ، لا بل مئات ، وربما آلاف . ملأوا الجو بصراخهم ، وضجيجهم . لم يكونوا من الأقزام ، بل إلى لم أخط قرما واحداً بينهم . اندفعوا يحدثون الرماد ، ودقايا السور المحترق ، يمززون فوق الأخشاب المتناثرة ، وهم يلوحون بهبيهم ، ورماحهم ، وسهامهم . نوقف أوفى وجماعته عن رمي السهام حتى اقتربت الجماعة ثم طار سدد من السهام يصد الروح ، ويورد عشرات منهم إلى حتفهم .

على أن هذا القتل الدريع لم يوقعهم . لم تكن ، وإحق يقال ، تقصم الشجاعة تخطوا جيش زملائهم ، واندفعوا يهاجمون . انطلقت السهام مرة ثانية تصدهم ، لكن فئة منهم كانت قد وصلت فعلا إلى أماكن رجال . تطايرت الرماح في الهواء ، وارتفعت صرخات الموت من كل جانب ، ولم يعتن أوفى ، ورجاله سوى صد الأمواج المتتالية من الرجال المهاجمين ، تاركاً من أفلت منهم لبقية الجند يقاتلونهم سواء بالسلاح الأبيض ، أو بالرماح أو حتى الأيدي ، والخناجر .

أشرقت الشمس ، والقتال ما يزال دائراً . تناثرت على الأرض عشرات من الجثث في أوصاع غير طبيعية حتى أصبح المنظر رهيباً ، كئيها . وفي السماء حطقت العقبار تنتظر دورها لتنهش من لحوم الموتى ، كما رددت الغابة أصداء أصوات الضعاع . لم أضطر إلى الاشتراك في القتال إذ أن عنقو

وسيسا ، وعمما يحولان يدي ، وبين أية جماعة من الاعداء ، تقترب فتركا الى فرصة إدارة دفعة المعركة .

لكن لم يكن مثل هذه المجردة أن تسوم . رأى الروح أنه لا قبل لهم بالسهم ، والرماح المساقطة عليهم ، كما أن جنود المرعون كانوا أكثر من بد لهم في القتال بالأيدي . فجاء كما بدأ الهجوم ، بدأ الاستحباب . كما باتفاق سابق . أولوا ظهورهم ، وهربوا عدوا إلى حماية الأشجار .

أراد نجم آب أن يتبهم فسمته مذكرا إياه أن الافزام لم يشتركوا في القتال ، وأهم لابد منتظرون أن يرتكب مثل هذا الخطأ .

عندما توقفت المعركة بدأت من فوري عملية إحصاء القتلى ، والجرحى ، من جنود المرعون ، بالرغم من شراسة القتال . فابا لم تنقذ أكثر من أربعة عشر قتيلًا ، وسبعة وثلاثين جريحًا . أصدرت أوامري بدمس قتلتنا ، ونقل جرحانا إلى سفيتي ، ون تنقل باقي المؤن ، والمعدات ، والأحشاب إلى السفيتين .

لم أكن أستطيع أن أستمى سوى عن عدد ضئيل سببا من الرجال في عملية النقل ، فبدأ استمر العمل حتى قرابة الظهر . طوال هذه المدة ظل الجنود على أهبة الاستعداد ، ووقفت أدهب أطراف العادة . لم يحاول الروح أن يحمو أنفسهم بل استمروا يصيحون من بين الأشجار ، متحدين مهددين ، كما يستفزون بالمتاهتهم ، بل إن جماعة منهم تركت فعلا عن العادة ، وإن اعتموا ألا يقتربوا من مرمى السهم .

عند الظهر أصدرت أوامري بالاستحباب ، وترجع الجند نحو لشاطي . هنا خرج الأوامر بمصاحبة الروح من حماية الأشجار ، وأحد الجميع يتصايحون ، ويلوحون بحراهم ، وسهامهم متحدين ، دعت اخافة بعضهم جدا جعلتهم يتدفعون وراءه أكثر مما يجب ، وكان جرائهم سهاما استقرت في

صدورهم العارية . بعد هذا لم يجرؤ واحد على التقدم حتى أتىها انسحابها دون حادث آخر .

أبحرت السفينتان ، ووقف الأهل على الشاطئ . يهددون . أنت مرت سجر لتقف إلى جوارى عند سور السفينة ترقب الشاطئ . وسألتى برقة :

— كان القتال شديدا ؟

لم تكن في الواقع تستعهم إذ أنها لا بد قد رافقت سير المعركة ، إلا أنني أجبها بالإيجاب . بحول بالحديث :

— هل لاحظت أن الشمس أصبحت فوق رؤوسنا مباشرة ؟

لم أكن في رحمة أعمالى في الأيام الماضية قد أقيت ، إلا إلى موقع الشمس ، لهذا رفعت عيني وبحثت من جهة قوها . وأجبها

— كلام لاحظ ، وإن كنت على حق . منذ متى وهى كذلك ؟

— طوال مدة وقوفنا .

— شكراً .

— لماذا ؟ هل لهذا أهمية ؟

— أجل . معناه أى أتوقع أن تصبح الشمس على يسارنا قريباً ، ومعناه أيضاً أننا اقتربنا من الوطن .

لاح عليها الحزن وسألت .

— متى توقع أن تصل .

— لست أدري تماماً ... ربما بعد أربعة أشهر .

— وعنده سوف تسلمى إلى ملكك ؟

لست أدري لماذا شعرت بأنى أجرم في حقها إلا أنى أجبها

بصوت خافت .

— أجل ... إن هذا واجبى .

شعرت بها تثبت نظرها على وجهي ، وتناديت أن أطار إليها ، وفي اللحظة التالية كانت قد تركتني وذهبت إلى قريتها .

كانت الرياح الجنوبية قد خفت إلا أنني لاحظت أن نمة تياراً مائياً ما يزال يحمل السفيتين ويثبته بهما شمالاً (١) لهذا اكتفيت بالشرع ، ولم أحمل الرجال مشقة التجديف ، بعدما لا قوه من غذاء اليوم .

توالى الأيام ، والتيار يرداد شدة يحملنا إلى الشمال ، بينما خفت الرياح الجنوبية حتى أصبحت مجرد نسيم لا قيمة له . كان ما يزال هنالك بعض الأعمال اللازمة لسفينة نجم آب ، وكان يلزمي أن أختار المكان المناسب لرسو السفينتين .

مرت علينا أماكن كثيرة كان في الإمكان أن نرسو فيها ، إلا أنني أردت أن أبتعد عن منطقة الأفرام قدر الاستطاعة ، لهذا لم أحاول الرسو إلا حينما بدأ التموير يتناقص . أمرت ملاحظ لصاري أن يخطري عن الأماكن الصالحة للرسو على أن تكون أشجاره أبعد ما يكون على الشاطئ ، إلا أنني أردت أن أحفظ الجردى أكبر مساحة من الأرض المضاء يستطيعون فيها المناورة أثناء شر هجوم مفاجيء من الأدغال .

رسونا في مكان مثالي ، حليج يدخل في الأرض بدرجة تكفي لحماية السفينتين من الرياح ، يحده من ناحية لسان صخري ، وتحف به الأشجار من الأخرى ، كان يمكن من الدخية الصخرية أن نمسك مطمئنين من أي هجوم إذا أن شذمة صغيرة تسكن لأن تصد جفداً كاملاً حيث أن الصخور كرات حاجراً طبعياً يحمي المدافع ، في حين أن المسافة بينهما وبين الأشجار كانت شائناً وملبياً لا يمكن أن يحتويه فيها إنسان أو حيوان . لم يكن به عيب سوى أن مكان العمل ، وهو إلى جوار الأشجار بالطبيعة ، بعيد عن المأوى الذي اعتزمت أن أقم فيه المعسكر ، على أي الأحوال فإنه لم يكن أمامي عمل

يستغرق أكثر من خمسة أيام ، أو أسبوع على الأكثر بما في ذلك تموين السفينتين .

قسمت الرجال ، بعضهم للحراسة ، والبعض للعمل في إتمام بناء سفينة نجم آب ، وآخرين للتموين ، وغيرهم للصيد إذ كان من المهم أن يأكل الرجال خا طازجا . ما بزغ فجر أول يوم بعد رسونا إلا وكان المسكان شطعة من مشاط طلبت مرت سجر منى أن تتصل إلى المعسكر مقررة أنها قد سمنت الحياة على السفينة طوال المدة المأصية ، وأنها تود أن تشعر بالأرض الصلبة تحت قدميها ، ووافقتها على ذلك بعد أن وعدت ألا تتبعد عن منطقة المعسكر على الصخور ، والشاطئ . الرمي . من ناحية أخرى لم أدع لها مطلق الحرية ، حتى في هذه المنطقة فأمرت سيمبا ، وعنحو أن يتناوبا حراستها ، وأن يكون أحدهما دائما قريبا منها .

سار العمل على ما يرام ، وبعد اليوم الأول ، حينما اتخذ العمل مسيره الطبيعي وجدت أن لدى من وقت الفراغ ما يسمح لي أن أتعم بصحبة مرت لفترات متعاقبة أثناء النهار ، كما يسير على الشاطئ . أو نسلق الصخور . اكتشفنا أنها تمتد متدرجة إلى الداخل ، فقد كانت نهاية جمال داخلية ، كما نلتقي الممرات بينها ، وترتقيها ببطء حتى نبتعد عن صوصاء العمل ، وجلة الجند ، بين الصخور كالسكون مطبعا حتى لكأنك قد انتقلت إلى عالم لا حياة فيه ، ومع هذا فإن المرء لا يعدم أن يرى أربيا يعدو ، أو ماعرا جبليا يقفز برشاقة ، وقدم ثابتة .

في عصر اليوم الخامس صعدنا في عمر جبلي كماداتنا . كنت سعيدا برفقتها فلم أشعر بالوقت ، ولا المسافة التي قطعناها ، وإن كنت قد فكرت في أننا لانتعدنا عن المعسكر ، فإني لم أحش أن نضل طريق عودتنا إذ أن البحر كان يبين من وقت لآخر من بين الصخور ، وهو علامة واضحة لا يسهل معها أن نفقد طريقنا . صعدنا الممر بعض الوقت ثم انحدر كاشعا جزءا من غابة

قريبة عند السطح . إلى أسفل ، عند حدود العادة تقريبا ، على بعد حثين (٢٠٠ ذراع) رأينا ما خيل إلى أنها جماعة صغيرة من قرود صخرة الحجم .

توقفت مرت سيجر حينما شاهدت الجماعة . اتصلبت في مكانها ، وشدت يدها الصمط على يدي ، وسحبها تمسك مرتعبة .

— كونجا ...

لم أفهم معنى الكلمة ، ولا عرفت سر الرعب الذي سيطر عليها ، ولما سألتها أجابت بصوت هامس :

— دعنا نبتعد عن هنا ، إنهم جماعة من المتوحشين . طلق عليهم كونجا ، ذوى الشعر الكث .

أنا لم أدرهم قبل ذلك ، لكنني سمعت عنهم أنهم أقوى من الأسود وأشرس من الصود .

لكن هذه مجرد مجموعة من القرود ، وإن كان يخيل إلى أنها أكبر حجما .

هذه هي الإناث والأصفال . إن كونجا ، الذكر ، ليس يدها . هل تحب أن تعرف مدى قوتها ؟

ادظر هناك عند أطراف العادة تماما سمرى مجموعة من أشجار البامبو إن هؤلاء المتوحشين يحبون أكل بيها . تعالى تقترب حتى تستطيع أن تسمي كيف يطعمون ، لكن حذار من أية حركة أو صوت .

بطء وحذر ، تم كما في حماية الصقور حتى صرنا على مساواة لا نريد على نصف حث (٥٠ ذراعاً) توقفا بحثينين ، وأشارت الفتاة نحو الجماعة ، من وراء صخرة صخرة تلتصنا وأمسكنا أن نرى جليها . كانت مرت بحفة حينما قالت إنها مجرد جماعة صغيرة من الإناث ، والأطفال ، والواقع أنني رأيت اثنين ، وثلاثة أطفال لحسب . ركزت نظري على إحدى الإناث . أول

ما استرعى انباهي أن حجمها أصبح كثيراً مما ظنت حينما شاهدتها عن بعد . كانت الأني أطول من الرجل الطويل بالرغم من عدم استقامة وضعها . إلى جانبها ، بدلى ذراعان هائلان يوحيان بقوة خارقة . إذا أصعب إلى هذا ساقان قصيرتان ، ورأس صغيره لا تناسب مع الجسد ، وشعر أسود كثيف يغطي جميع أجزاء الجسم سوى الصدر ، فإن من الممكن أن تتجمل المرأة صورة عامة لما رأيته على هذا النحو (١)

لم أصدق ما رأيته عياني بظنه تحرك الجسد الهائل نحو أكمة البامبو . وامتد ذراع الأني الوحشية لتكسر إحدى الأشجار الطويلة ، ثم وقعت تهصر العود ، لتستخرج منه لبه ، وبدأ كل منه تاره ، وتمطى الصغار الذين تجمعوا حوله تاره أخرى . تصورت القوة اللازمة لتكسر البامبو مثل هذه السهولة التي رأيتموها . إن مثل هذه القوة تكفي ضربة واحدة منها لقتل رجل . راقبنا الجماعة لفترة قصيرة ثم راجعنا ببطء وحذر شديدين . أثناء عودتنا قالت مرة :

— هذه هي أول مرة أرى الإنسان المتوحش . ترى ما شكل الذكر ؟ لابد أنه حارق القوة . هل رأيت السهولة التي اقتطعت بها الأني شجرة البامبو ثم كسرتها ؟

سرفنا في صمت بعد هذا ، ولعلها كانت بمكر دينا أفكر فيه . إننا سندأ رحلتنا خلال يومين أو ثلاثة على أكثر تقدير ، وكل يوم يقرنا من وجهتنا ولم تكن نريد ذلك . تذكرت ساحر رع ولم أملك أن أشعر بعبطه منه . إنه وجد من يحما ، وبقى معها ، واتخذ موطنها موطنه ، ليتى كنت أستطيع أن أفعل ذلك ؟

وجدت نفسي في اليوم السادس في دوامة من العمل لم أستطع معها أن

(١) لاشك أن «قاري» قد وصل إلى أن هذه إحدى «ذات القروا» ، ولكنهم لم يكونوا يعرفونها كإحدى الحبيبات ، وإنما ظنوها نوعاً من البصر .

أصطحب مرت سحر في جولاتنا المادية ، فاعتذرت لها قائلاً إننى ربما أستطيع أن أراها قبل المروب . أمضيت صدر النهار ، والظهر في مراقبة بقل المؤن إلى السمينتين . تناولت طعام الغداء مع مرت سحر ، ثم عدت إلى عملي ثانية إلا أبى بعد ساعة أو ما يريد شعرت بأبى لا أستطيع أن أجد تفكيرى عن الفتاة كان هذا هو موعد رحلتنا اليومية ، وتناقت نفسى إلى مصاحبتهما .

اعتذرت لمتوسمين ، وتركته ليتولى إدارة العمل . انجذب إلى خيمة عرب لىكتنى لم أجدها . بحثت عنها في أنحاء المعسكر دون فائدة . تملكى القلق ، وبدأت أسأل عنها حتى أحمرنى أحد الجنود أنه رآها متجهة إلى الصحور . سألته إن كان قد رأى أحداً معها . وأجاب بالنفى . تحول قلقي إلى خوف حقيقى ، وساورتنى أهواجس والأوهام ، تذكرت حديثها معى في يوم السابق ، ورعتها في أن ترى ما أصطقت عليه كوجها ، واستبعدت التفكير ، لا يمكن أن تكون الفتاة من الرعونة بحيث تذهب للبحث عن مثل هذا الوحش منفرداً ؟ أم هل فعلت ؟

اتخذت سبيلاً إلى المعمر الذى سلكناه في اليوم السابق . توغلت بين الصحور دون أن أرى أثرها . رومت عقيرتى بالنداء عسى أن تكون قريبة قد سمع ، وردت الصحور الصدى كدت أجن من التفكير أن يكون قد أصابها مكروه ، ليس فقط من الوحوش ، وإنما مجرد الارلاق من الصحور ورحلت أعدو وأبأ أنطلع في كل اتجاه .

جاء ارتفعت صيحة ارتج لها الجبل ، صيحة وحشية لم أسمع مثلاً من قبل جمعت كل أنواع العصب ، والتحدى ، وأعقب ذلك صرخة لم أشك أنها صدرت من مرت سحر . سقط قلبي بين صلوعى ، واندفعت بأقصى سرعة لأعدو في الممرات ، وإنما قمر أعلى الصحور ، أحصر الطريق إلى مصدر الصخرة . تسكررت الصرخة وأبأ أعدو لتدفعنى إلى مريد من السرعة . كانت صرخات الفتاة تؤكد لى أبى أسلك الطريق الصحيح ، لكنها أيضاً كانت تؤكد أنها لا شك قد وقعت في قبضة ذلك الإنسان الوحشى .

في دقائق قليلة وصلت . كنت أهب على صحرة عالية ، وتحت مباشرة وقف جبل آدمي يصرب يدي من حديد على صدر من صخر . أمامه وقف سيماء متحسبا ، ولو لا الموقف لأطلقت صرخة هارثة . كان سيماء ذلك المارد بين الرجال ، لا يريد على مجرد طفل صغير أمام الوحش المتحدى ، ومع هذا فقد وقف متحسبا ، كطفل شجاع يحابه رجلا ناصجا . على الأرض لمسلعت الفتاة تطلق صرخات الرعب ، والاستغاثة .

لمست أدعى شجاعة غير عادية ، ورأيت لو توقفت للتفكير لم أكن فعلت ما فعلت ، لكنني وجدت نفسي أسن حجري ... وأقفر من الصخرة لأهبط رأسا على الوحش . إنني رجل صرح الجسم بأى المعايير ، وقفرة كمدى كان لابد أن تلتى بأعنى الرجال على الأرض ، ومع هذا فقد وجدت أبى كأنا اصطدمت بحدار . لم يقع الوحش ، بل أكاد أن أقول إنه لم يتحرك من مكانه . ربما يكون قد اهتز بصفه الأعلى ، لكن جسمه لم تنتقلا .

تشبثت بشعره الخشن الكث حتى لا أفع على الأرض ، وطرفت أنى رائحته الكريمة . ارتفع خجري بهبط على كتفيه بصرية أودعتها كل قوى . ابتثقت الدماء حاره تبللى ، وصدرت من الوحش صرخة ألم مرعبة وثى دراعيه فى محاولة أن يقبض على ليتزغنى عن ظهره إلا أنه من حسن حظى يبدو أن تكويره الحسبان لم يساعده ، وكل ما فعله أن لمست أظافره ملاسى فزقتها ، ومرت معها بعضا من جلدى . حاول أن يثالى من فوق كتفيه ، وربما كان يطلع لولا أنى تعاديته .

انتهى سيماء المرحه ، وهجم على الوحش يكبل له اللكمات ، وسرعان ماثنين خطاه فى لحظه سقطت عليه مضط من حديد لتطوح به أقصى المساحة الصغيرة . لم أخط ما فعل إذ أنى كنت فى شغل عه ، أحاول أن أتعادى الأصابع الصخمة وهى تلمس طريقي إلى جسدى . للمرة الثانية هبط حجري على ظهر الوحش حاولت أن تكون الصربة فى العنى ولم أفلح . إندفعت

الدماء عريرة لزجة تبللني . صرخ ألماً ، وغير من حيلته . أخذ يتعثر في الهواء ويهبط في محاولة لأن ينمى على ظهره ، لكنني كنت أعلم أنني لن وفقت فلا أمل لثلاثتنا من النجاة .

أحسست كأنا اللدبا ترلزل ولراها ، وبدأ لي كأنما سوف أسقط حتما من ظهر الوحش ، بينما ارتجت رأسي فوق عنقي تكاد أن تنلج من مكانها ، فيما يشبه السراب ، رأيت شبحاً يتحامل على نفسه ، ويقوم من سقطته . كنت أخشى شيئاً واحداً ، أن يعكس الوحش في أن يصرب ظهره في الصحور المتناثرة فأحظر أن أتهد عنه حتى لا أتمشم بدمه وبين الصجر ، لكنني لم يعكس في هذا . لم أتمكن أثناء ذلك أن أطمعه ، وصرفت بجهودى جميعه في التثبيت بالشعر الكث الذي اكتسى بالدماء العزير حتى أنه أضحى لرجاء . من اليسير أن تعزلق أعصابي فيه .

كان سيما هو الذي كاد أن يقضى على . فقد الرجل عقله تماماً ، ولم يستمد من الدرس الذي تلقاه في محاولته الساقية ، فاندفع بكل جسمه صادماً معدة الوحش برأسه . ويدو أن الأخير قد انتبه بعض الضعف من جراء صدف منه من دماء وكما أن الصدمة كانت من القوة بحيث كاد أن يفقد توازنه وتراجع إلى الخلف واصطدم بشدة بالجدار الصخري وراءه ، تنفست أنا عنه هذه الصدمة ، وشعرت بأن عظامي قد تم شمت كما دخاب . ودأت في طيري . محركة لاشعورية فقدت قبضتي وارتقت على الأرض . كان يمكن أن يكون في هذا ما يتنا جميعها ، الفتاة وسيميا ، وأنا ، لكن سيما سرعان ما كرر فعله الأولى . لست أدري فيما كان يعكس سيما ، فلم يكن من الممكن أن يتغلب على الوحش بهذه الطريقة ، أعلاه كما قلت فقد عمله . في المرة الثانية تأتي الوحش الصدمة في معدته ، وانشى ألماً . صدرت منه رجرة خيفة إلا أنه مد ذراعه الطويل ، وقصص على كتف سيما ، وجره إليه ، وفي اللحظة التالية أطبقت اليد الأخرى على العنق .

أصابني الدهول من جراء الصدمة العنيفة ، إلا أنني لم أفقد شعوري ، ولا زلت على صفا عقلي . دارت الأحداث أمامي أسرع كثيراً مما يحيطها قضي ورأيت الوحش ما يزال منحنياً وقد فبص على سبما يهره كما يهر الفط العار أسرع باعقلاته مرة ثانية ، ولم أنال عما إذا كنت فريسة من قبضته . ركزت كل جهدي على أن أطعمه في رفبه العليظة القصيرة . يبدو أنه كان قد بسني مؤقتاً ، وهو مستغرق في قتل روعي لهذا لم يولني أي اهتمام حتى هبط حنجري صادقا في رفته ، وابثقت الدماء بمرارة حتى أنها غطيت .

صرح الوحش صرخة عالية ، وطوح سبما المسكين في اهواء ليرتطم بالصخور ، ويقتط على الأرض والاحراك . جاءني صرخات مرت سجر افسيرية . وأنا أمر أمام القبضة الحديدية التي تحمل الموت ، والتي هبطت حينما كنت مفدثو أن . عرفت أنني أصبته في مقتل ، وأن مامن مخلوق يستطيع أن يستمر في الحياة بعد أن يفقد كمية الدماء التي ترفق من هذا الوحش ومع هـنا فقد رأيتـه يترنخ متجها نحوى ، وقد إكتسى وجهه الكتيب الوحشية مرعبة .

كانت مهمتي أن أفقت منه لأطول مدة ممكنة ، وأنا واثق من أنه لن يمشى لأكثر من دقائق قليلة ، لكن المرء ليندهش كم تكون الدقائق طويلة أحيانا . كانت الساحة التي يدور فيها القتال صغيرة نسبيا ، وزاد من ضيقها أنى أردت أن أبعد عن المكان الذي استلقت فيه مرت سجر هامده صامتة ولا بد أنها راحت في غيوبة من هول ما رأت . لاحظت مرجة بين الصخور ولا بد أنه الممر الذي أنتت منه الفتاة إلى هذا المكان ، لكننى لم أكن أستعملها خشية أن أترك الفتاة تحت رحمة الوحش . تقدم الوحش يطوح بذراعيه الطويلين في كل اتجاه كست أخف منه حركة بمراحل ، لكنه كان أوسع حظوة كما أن المساحة لم تعطى حرية المساورة بدرجة كافية .

تقدم منى في ترنحه ، ولاحظت أن إحدى ذراعيه تسكاد أن تكون مشلولة ، ولا بد أن طعنات في كتفه بدأت تؤثر على حركتها . ركز عيني (٢١ - رواد)

الخبيثين على ، ثم ، بخفة غير متوقعة قفز ، ومد ذراعه السليمة ليقبض على . فوجئت بهذه القفزة ، ومع هذا فقد كان رد فعلى سريعاً . ما أن شعرت بتلك الأصابع تقبض على كفى حتى أصابنى ، مجرد حركة غير مقصودة ، ومع هذا فقد وجدت نفسى أرتفع عن الارض طائراً فى الهواء لأكثر من ثلاثة ثباتات (ثلاثة أمتار تقريباً) ثم أعود لأرتطم بالصخور تنحنى . أهلت منى الخنجر .

كان ارتطامى بالارض شديداً حتى السهول للحظات ، ولعل حظى الحمن فقط هو الذى أنقضى من الموت إذ أن الوحش وقف بدوره ، مشدوداً يطر إلى الدماء اندسابة من جرح يده . قبل أن يتنبه كنت قد نهضت وعدت إلى حيث الممر ، ووقفت . كان فى استطاعى أن أهر منه إذ وصح لى أنه لم يعد يستطيع الاستمرار فى الحركة ، إلا أنى خشيت أن يصب جام غصه على العانة العاقدة الرشد .

أزاد ترمحه ، وهو يسير حتى بدا أنه يتمايل ، ومع هذا فقد ظن تقدمه حينما طنت أنه اقترب بدرجة كافية تراجع ، وتقدم ، كررت العملية ، وأدعت . فى المرة الثالثة توقف ، وظهر جلياً أنه لن يستطيع الاستمرار ، خاصة وأن الممر كان ضاعاً . رأيت يستند يديه إلى جدار الممر ، وشاهدت بركة من الدماء تتكون بسرعة تحت قدميه . توقفت بدورى أنتظر . كن يصارع الموت ، بكل جبروت الحياة .

أخيراً لم تحمل سقاء ثقل جسده الضخم . تراجع هابطاً الخطوات التى ارتقاها فى الممر ، ثم حارت ركبته فسقط كالجلل دون حراك .

ما أن تأكدت من موته حتى هبطت بدورى . وتخطيت جسده ، وأندفعت إلى مرت سجر أطمشها ركمت إلى جوارها ، ورفعت رأسها أخاطبها بأرق الألغاز . لم أشعر أنى أقبلها أثناء كلامى ، ولم ألحظ أنى قد لظها بالدماء التى كانت تغطى . أحسست فقط أنها الآن بعيدة عن كل خطر ، وإنى أحنسها

في صدري . لا بد أنها أفاقت من غيبوبتها أثناء ذلك ، إذ شعرت بها تادلتني
الهبلات ثم فتحت عينيها ، ونظرت إلى صدرت منها صرخة مكتومة واعتدلت
في جلستها .

— إنك جريح ؟ ... إن الدماء تنزى منك وتغطيك ... !
هزأت رأسي مطمئنا .

— هذه دماء الوحش ، أما جروحي فطامية .

احتضنتي ثانية غير مبالية بالدماء ، وتركت رأسها على كتفي ، ثم اعتدلت
مرة ثانية متسائلة :

— سيمها ؟

— لقد مات ... لا تنظري ، إن رأسه قد تهشم ... سأرسل من يدهه ...
هل تستطيعين النهوض ؟

أومات برأسها بحزن ، وتعاملت على رمسي . حينئذ شعرت بالآلام في
كل جسد خاصة ظهري ، وكتفي . أحسست بالضعف ، يسرى في أطرافى ،
واحتجوت إلى كل إرادتى لأنفادى السقوط على الأرض ، ولاحرك ساقي
في طريقنا نحو المعسكر .

الشعب المرجانية

لزمنا الفراش ثلاثة أيام ، عاذني أثناءها حقا نحت ، ولم تفارني
مرت سجر . حاولت أن أتنامي ما حدث بيننا على الجبل ، ولم تشر العتاة
إليه بكلمة أو حركة ، كل ما هنالك أمما كانت شديدة العطف ، والاعتناء بي ،
وفيما عدا هذا تصرف كإن شيئاً لم يحدث ، وتمسكني الإعجاب بها . في هذه
الأحوال يستطيع المرء أن يفرق بين الرعاع ، والبلاء .

في اليوم الثاني لللازمي الفراش ، جاءني متوسلين ليخبرني أن كل شيء
معد ، وأن السفينتين متاهبتان للرحيل ، أصدرت إليه أمري بالإفلاع ،
وبأن يخطروا أولاً بأول عن حال الجو ، والرياح ، والتيارات المائية ،
والاتجاه . أفلعت السفينتان ، وشعرت وأنا في قرقي بالحركة الرتيبة المألوفة .
بعد حوالي الساعتين جاء متوسلين ليخبرني أن التيار المائي ما يزال يحملنا
شمالاً ، وإن كان يشك أنه ينحرف إلى الغرب قليلاً .

حينما نهضت من فراشي في صباح اليوم الرابع ، وصعدت إلى السطح
نأكدت من رأي متوسلين . لم يكن هنالك شك في أن التيار المائي يدفعنا
شمالاً مع انحراف يسير إلى الغرب . تتابعنا الأيام بعد ذلك على نمط واحد ،
وكنا نقف للتمويس قريباً من مصب أحد الأنهار الكبيرة (النيجر) حينما
لاحظت أن الشمس أصبحت دائماً فوق رؤوسنا تماماً . كان هنالك شيء آخر .
لقد انحرف بنا التيسار حتى أننا كنا نتجه إلى الغرب بحسب دون أي ميل
نحو الشمال .

طالما كان إتجاهها إلى الشمال الغربى وإننى كنت مطمئناً لما سبق أن قررته من أن البحر الاحضر (الأبيض المتوسط) واسع شمالاً حين أن جنوب ليبيا ضيق ، وهذا كان استنتاجى أنها ستوجه دائماً إلى الشمال الغربى عما يجعل القارة مثثة ، لكن هذا الاتجاه نحو العرب قرب نيل أمكارى - فإن معناه احتمال أن تكون ليبيا متصلة بأرض أخرى ، ولا تحوطها الماء من كل جهات كما جاء عن الاندلسيين ، وما شئى وإنما قد لا يصل مطلقاً إلى تامرى ، أو أنها ستأخر إلى سنوات لا يعلم إلا رب الآداب عددها .

فيما عدا هذا القلق ، الذى بدأ يساورنى ، سار كل شئ على ما يرام . والرياح لم تنك . شديده ، ه لبحر هادئ فى معظم الاوقات ، والجو جميل مطير ، أمداً بصحة دائمة تمريراً بالمياه العذبة للشراى ، وسائر احتياجاتنا . مع هذا وإبى أعترف أن قلنى ترايد كلما مضت الايام ولم يتغير اتجاهنا عن الغرب . كان أول ما أمله كل صباح بعد استيقاظى مباشرة أن أحدد الاتجاه ، ومضت الايام دون أى تغيير يذكر . يبدو أن القلق استولى على سائر الفوائد حتى أن ثلاثهم سألونى ، أثناء إحدى محطاتنا للتموين ، عن معنى الاستمرار فى الاتجاه نحو العرب ، ولم أستطع أن أعطيهم إجابة شافية .

كنا فى أول الشهر الاخير من شهر شمنو (يوليو) وكان الجو حاراً وطيباً يثير الأعصاب . ولاحظت أن نجم آب يتكلم بعصية لا يبررها مجرد القلق الذى يعاينه جميعاً ، وحينما وجهت نظرة إلى هذا أجباني بحدة :

— إن لنا قرابة العاميين فى رحلتنا المدعومة هذه ، ولا أرى نهاية لها . كلما نظرت أننا أوشكنا على الوصول ، ظهرت لنا عقبة جديدة ، لقد قاتلنا فى البحر ، والر ، قاتلنا قصار القامة ، وطوال القامة ، قاتلنا الوحوش ، وتمردنا للسمات الناموس ، وسائر الحوام . تعرضنا للرياح ، والتيارات ، وأنواء البحر . نالنا العطش ، والجوع ، واستعدنا عن أهليتنا ، وعشيرتنا . أما لهذا من نهاية ؟

تركته حتى استبعد غضبه ثم سأله :

— وماذا تقترح ؟ أن نعود أدراجنا ؟

نقلت بصري بين الرجل الثلاثة ، وساد الصمت برهة قطعه بهم آه .

— ولم لا ؟ إننا على الأقل أصحى لدينا بعض الخبرة عماسه لاقية ، إن عدنا .
بهذوه أجبتة :

— معنى هذا أن أمامنا سنتين آخرتين لكي نعود ، في حين أنني أعتقد
أنها مسألة أشهر قليلة لنصل إلى نامري .

— وهذا الاتجاه إلى الغرب ؟ هل تقع نامري غربا ؟

— كلا إنها إلى الشمال الشرقي . لكن تذكر أن البحر الأخضر عريض
جداً ، وأن ليبيا من الجنوب تكاد أن تكون مثلثة ، وهذا يعني حتما وجوب
الاتجاه إلى الغرب إلى مسافة .

— إلى أية مسافة ؟

— أنني لست أعرف . كل ما أود أن أقوله إنه لا داعي لكل هذا القلق ،
فالسيفستان في حالة جيدة ، والشواطئ مليئة بالخيرات ، كثيرة الخنجان ،
وليس هنالك ما يضايقتنا سوى هذا القلق الذي لا أرى له مبررا .

انتهت المناقشة عند هذا الحد ، لكي رأيت أن ثلاثتهم لم يقنعوا بما
بالرد . الواقع أنني أنا أيضا لم أكن مقتنعا . انتصب لشهر ، وما رأت اتجاهها
نحو الغرب دون أي انحراف ، وراقبت التوتر يتزايد ، ويتقل من الصباط
إلى البعارة ، والجنود . بقيت مريت سحر الشخص الوحيد الذي يتأبه القلق .
لم تكن لها مصلحة في الذهاب إلى نامري ، بل العكس هو الصحيح . كانت
تعلم أنها ستنتقل إلى حوزة لفرعون بمجرد وصولها ، ولم يرد هذا ، وباتتالي
سرها أن تطول الرحلة . بل أعلم أنها أرادت ألا تنتهي ، لولا أبي القائد ، وأبي
المسنول عن الرجال لشاؤكتهما فرحها .

أسبوع آخر ، ولا أثر لأي ميل نحو الشمال . استمر التيار يدفعنا غربا ،
وجاءت إشارات من سميعة نجم آه إنه يريد التوقف للتشاور . أدركت
من هذا معنى التمرد . كان أمامنا أربعة ، أو خمسة أيام حتى يبدأ في التعمير

في القور ، ولم أر ثمة داع لأن نرسو ، وأرسلت إشارة بهذا المعنى . أملت من التأجيل أن تبدو أية علامة تشير إلى احتمال تغير الاتجاه ، ومع هذا مضى يومان دون أن يتبدل الموقف . وفي اليوم الثالث أيقظني منتوسين من نومي قبل الفجر ليحبرني أن هناك رياحا شمالية ، تأتي من البحر ، وأنه يعتقد أننا ننحرف إلى الشمال الغربي قليلا (١) .

أمرعت بارتداء ملابس ، وحينما ذهبت إلى سطح السفينة تأكدت من أقواله . أحيرا إبدأ انتهى اتجاءنا إلى الغرب ، وبدأنا نعود صوب الشمال الغربي . على أن لرياح كانت شمالية تقاوم اتجاءنا ، ونذهبنا نحو الجنوب ، بما اضطرني أن أضاعف عدد المجريين . منذ ذلك التاريخ ، أواخر الشهر الأخير من شهور شمنو ، بدأ جهاد حقيقي ضد الرياح لم يمان مثله البحارة منذ أن تركنا الوطن .

من الشهر الأول من شهور آحت (يوليو) ، وتلاه الثاني (أغسطس) ، وانضح جليا أن اتجاءنا الرئيسي هو الشمال . وبما انحرف غربا قليلا ، أو شرقا نارة لسكنا لم نزد على مجرد حجاب ، أو انحرافات في أرض ليديا ثم لا يلبث الاتجاه أن يأخذ مساره العادي ، نحو الشمال . مردنا في منتصف الشهر الثاني مصب هر كبير (٢) ورسونا عنده لتزود بالمياه ، واللحم الطازج ، والخضروات ، والفاكهة . طوال هذه امددة الماصيه استمرت الرياح الشمالية تعارضا ، ولم يكن لنا حيلة سوى التجديف . لم نجرؤ في أي وقت على استعمال لشرع ، وأرهق البحارة حتى أبى أمرت أن تقتصر نوبه التجديف على ساعتين لحسب ، ومع هذا فإن هذه المدة القصيرة كانت كافية لإرهاقهم .

في أواخر الشهر الثاني من شهور آحت (أغسطس) قال مراقب الصاري في الصباح أن لون البحر قد تغير إلى اللون الأبيض ، وأنه يرى على البعد بعض التيارات المائية المتضاربة . كذا نتعد عن الشاطئ بأكثر من عشرة

حذات (نف ذراع) وبدأ ما قاله مراقب الصارى غريبا : أمرت المجديين بالتوقف وأرسلت إشارة بذلك إلى نجم آباء. أمرت بهياس عمق قاع البحر : ووجدت أنه يريد على عشرة فامات

كان كل هذا غريبا حتى أبى سعدت الصارى بنمى لأرى ماذا يقع أمامنا كان ما قاله المراقب صحيحا . أكثر من هذا لاحظت أن المياه البيضاء تمتد إلى الغرب حتى ما بعد الأفق ، نخوفت من منظر البحر ، واليارات التي رأيتها فأصدرت أمرا بالانحياز غربا كما أرسلت إشارة بذلك إلى نجم آباء . جاء رده عيبا . إنه لا يرى دعبا ، الانحياز إلى الغرب ، في حين أن البحر هادئ ولا توجد عوائق أمامه . أخطوته أبى أرى علامات لا أرتاح إليها ، وأحشى أن يكون الشاطئ . ملينا باشمب للرجانية ، والرمال البيضاء ، المتحركة (١) خاصة وأنه كان يمكن ملاحظة ن الارض وراء الشاطئ . صحراوية على إمتداد النظر .

انجمت بالسهمية غربا ، ورأيت نجم آباء يحذى حذى . صواب ، نهار لم يتغير لون المياه ، وصواب النهار ظل إتجاها غربا حتى احتق الشاطئ . وأضحى سرا . كثر نجم آباء ضلبي ، أن يتجه إلى الشمال ، ورفضت . كلفت متوسلين أن يتناوب الرجال في هياس عمق المياه طوال الليل ، وأن يحرقى إن تعير . والواقع أن الفلق إلتابى إلى درجة أنني لم أتم جيدا في تلك الليلة . كما يتعد عن الارض في كل ساعة تمر ، ونخوض في بحر لا تعلم عنه ، وعن أبوابه شيئا . سألت نفسي ألا يمكن أن يكون نجم آباء على حق ؟ ألا يجوز أن يكون مبالغا في حذرى ؟

طلع على الصباح بمحاجة ، لقد إختفت معينة نجم آباء !! أحبرني بهذا ،

(١) شاطئ " رحوبين و دو شاطئ " نهر تسم في غرب الكبر من ادمي ، وهناك مئات من الأشعاس ، ولعل أشهرها مرق - ميه الأ - طول المرسى مدورا في يوليو . ١٨٩٦

وأما على مائدة الإفطار ، مع مرت سجر ، وتركت الطعام ، وهرعت إلى السطح . كانت حالة البحر كما هي دون تغيير ، المياه الأبيض ، واليارات المتصاربة إلى شمال السفينة . والبحر هادئ لكن لا أثر للسفينة الأخرى . لم يكن هذا سوى معنى واحد . إن حجم آب قرر أن يمد رأيه ، ويتجه شمالا بالرغم من تحذيراتي . ولم يكن أمامي أيضا سوى حل واحد . على أن أعود أدراجي للبحث عنه ، فإما هو في مارق فأعوانه ، أو هو قد احترق الحاحو الذي تصورت أنه موجود .

عادت السفينة أرنجر ، يوم - ثلاث ساعات شاهدنا السفينة الثانية . كانت واقعة وسط المياه البيضاء لا سحر . ساعة أخرى ، وأصبحنا حذاءها تماما ، وأمرت بأن يسرع عور المياه ، صفة لا تنقطع ، وأوعت . لم يبق عندي شك في أنني أدخل منطفة شعب مرجانية ، ورمال بيضاء واقعة . جاتي صوت الرجال يسرون العور ، عشرة قامات . تسع قامات ، ثمان قامات ، سبع قامات ، ست قامات ، خمس ، أربع ، هنا أمرت بالتوقف وإلقاء المرسى . هذا هو أدنى عمق أستطيع المجازفة فيه بسفيتي . لو أن عاصمة هبت الآن فقد تدفعني إلى لشعب المرجانية ، ولا أستطيع الخلاص بدوري .

كان ما يزال بيننا وبين السفينة الثانية أكثر من ستة حثات (٦٠٠ ذراع تقريبا) وأمرت بالزوال قاربي المجهز . لو أن هدير القاربين كانا من النردى ، لصنعت أن يصلا إلى السفينة دون أية عقبة تذكر ، أما وهما من الأخشاب فلم يكن لدى حيلة سوى المجازفة ، وإن كنت أعتمد أنها مجازفة بسيرة . كان على أن أعطى نفسي أكبر فرصة مستطاعة إن أردت أن أساعد السفينة الأخرى ، لهذا تقدمت بأحد القاربين ، وتبعني القارب الآخر ، ووطئت الاثنين بحبال من الألياف المتينة بحيث يستطيع الرجال أن يجرونا . إذا ما غاصت مقدمة قاربنا في الرمال الساعية ، أو أطبقت عليها الشعب المرجانية

جذفاً بحذر شديد ، كانت المياه صافية زرقاءة ، حتى أنني إستطعت بسهولة أن أرى الرمال ، والشعب المرجانية . لكنني رأيت شيئاً آخر أثار الرعب في قلبي ، كانت المياه تحتنا تمتلئ بالحيتان . إن هذه الأسماك المفترسة القاتلة توقعت ما سوف يحدث لركاب السفينة ، وهي تنتظرهم . وصلنا بسلام ، ورفعنا رجال نهم آب إلى السطح . رأيته يقف بينهم متحدياً ، لكن لم يكن وقت حذاب ، كان أربعمائة شخص يلرم إنقاذهم من مصيدة الموت أولاً ، سأله عن الموقف وما حاول اتخاذه من إجراءات قال :

— إن هذه الرمال اللعينة قد أحاطت بمقدمة السفينة ، والرجال كالأطفال ليس لديهم من القوة ما يكفي للتجديف وإخراجها من ورطتها .
— هل هذا هو كل ما فعلته ؟

— وماذا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا ، لقد جرت الشراع ههنا لك رياح شمالية كما تعلم لكن ذلك أيضاً لم ينفع .

— طبعاً لا ، يدور أدك نسيت الجور . إن السفينة تغوص أكثر ، ولا ينفعها المد حينما يأتي . كان يجب أن نخف من الاحمال ، على أى الأحوال ليس أمامك الآن فيما أتصور إلا أن تهجر السفينة .

أهجرها ؟! إنها لا عيب فيها ، بعض الرمال حولها ، هذا هو كل ما هناك كلا ... لن أهجرها .

— ليس أمامك خيار ، إن عاصفة واحدة كفيلة بأن تحطمها ، ومع مرض عدم قيام عاصفة سوف تموتون من الجوع ، والاعطاش بعد أيام قليلة حينما تفرغ المؤن

— أيجون أنت ؟ أهجر سفيتي وليس بها حشر ؟ كلا .. لن أفعل
كاد صبرى أن ينع و مع هذا فقد ظلت متهاكاً أعصابي ، وقلت بهدوء :
— ليس أمامك خيار .

— ساء... على الخروح ، إن سميتك تستطيع أن تسحب سفينتي إلى الخارج .

— كلا ... إن المسافة بين الاثنين بعيدة جدا ، وليس لدينا حال كافية وحتى إن وجدت فسوف تنقطع عند أول محاولة

— إذا أدن بسفينتك

— كلا .. لن أجازف بها ، ورجالي أيضا ، لست أظن أن عمرك وقت طويلا ، ويستحسن أن تبدأ الآن بنزال الفارين ، وأن تضعهم بالمؤن ، وترسلهم إلى الشاطئ ، إن ثلاث أو أربع رحلات قد تكون فيها الكفاية لتحويل المؤن ، على بحاريتك أن يبدأوا الآن بعمل رمث (طوف) فهو أصعب الوسائل لنقل رجالك إلى الشاطئ ، وما معهم من بقية مؤن ، أما أنا فأظن أنني أستطيع أن أقبل مائة ، أو حتى مائة وخمسين رجلا في سفينتي . عليك أن تفعل ما أقوله لك بلا نوا

— صاح وقد استبد به الغضب :

— لن أفعل شيئا من هذا !

إمتدت يدي بسرعة لتلقى قبضتي بمسكة في ضربة هوية طرحته أرضا ؛ قبل أن يمهض كان نصل حسامي يمس عنقه ليقبضه طريق الأرض ، انفتحت إلى بابه :

— حث إنك الآن القائد ، وعليك أن تعد الأوامر

تردد الرجل قليلا ثم أدى التحية العسكرية وبدأ ينفق سلسلة من الأوامر واشتعلت الحركة في السفينة المكدودة : بعد دقائق رفعت حد الحسام ؛ وتراجعت إلى الخلف ، مهض يبط . ثم اعتدل بحسه الصمخ وجاهته قائلا :

— إنك سوف تنتقل إلى سفيني وسأصحبك لتحاكم على عصيانك

الأوامر ، وتردك ، وأحمد الأمة أنني لم أقتلك دون محاكمة .

نحوس من وحش غاصب إلى حمل يرجو .

... لا تعمل في هذا ؛ دعني أواجه الموت مع رجالى وسفيتى . أعدك أن
يسكون مصرى كاسوأ مصر لأدنى رجل .

ترددت إن هنالك جماعة لن تسع سفيتى أن تستوعبهم دون خطر العرق ،
هؤلاء عليهم أن يستملوا الروارق أو الزممت إلى الشاطئ ، ثم لا يعلم مصرهم
بعد هذا سوى رب الأرباب ما على لو تركت قيادتهم له ؟ انه رجل لا يهاب
الموت ، ما في ذلك من شك ، وهو قائد رجال بالسليقة ، نادا أدعه يجابه
مصر هؤلاء الرجال ؟ أحدث رأسى مواضعاً

— عليك إذا أن تعود الجماعة الى أن أستطيع استيعابهم في سفيتى حاول
أولاً أن تشرح لهم وتجعل الخبرة من : من شاء اتباعك فعل ، ومن شاء أن
أصبحه أحده إلى سفيتى .

فعل ما أمرته به ، وكانت النتيجة مذهلة إذ أن أقل من خمسين شخصاً
هم ادس أرادوا الاتصال إلى سفينة الأخرى ، أما الباقون ، ومهم ستاحت
فقد أثروا صيحة نجم آب ، ربما كانوا مخلصين له ، فلرجل ميزات قيادية
غير مسكورة كما ذكرت ، لكن ما أهمى هو اعتقاده أن عدداً كبيراً أثر
صحته لأنه سم حياة البحر ، وأراد أن يستقر على الأرض ... أى أرض ،
جعلنى هذا أتساءل عن شعور رجالى ؟

ظلمت في السفينة حتى بدأ تنفيذ البرنامج الذى وضعته ، وانتقل الرجال
إلى سفيتى ، ثم رأيت أنه قد آن لى أن أرتحل ، أحبرت نجم آب باعتزامى
الرحيل مقررأنى لا أستطيع لللكؤ أكثر من هذا إذ أن سفيتى تقف
قرية جداً من الشعب المرجانية ، ولو هبت عاصفة الآن فإنها تعرض
للخطر ، كما أن أى تأخير في الرحيل إنما ينقص من المؤونة وأضعت .

— إني لا أعلم إلى أية مسافة في البحر تمتد هذه الشعب ، كما أبى لاحظت
أن الشاطئ صخراوى ومعنى هذا أنى لا أدرى إلى أى مدى سأطول
بلا تموين ... الوداع يا نجم ، أرجو لك حظاً سعيداً ، عند ما تصل إلى الشاطئ
مع رجالك لاتخذ الطريق إلى الجنوب وعلى الأقل نحن تعلم أن بعد بضعة أيام

ستجد المياه و طعام ، أما إلى الشيا فلا يعم أحد مدى امتداد هذه الصحراء .
شد على يدي ، ونمى لي حننا حسنا ، وكذلك فعل سد ، حت ، وعدت مع
رجالي إلى السفينة قبل أن يرحل ، غلام سبوله بماذا كنا قد استعدنا مرة
ثانية عن المياه العذرة ، وأوغلنا في البحر متجيين نحو الغرب . سرى صوان
الليل ، وحينما حل الصبح ، رأيت أن المياه البيضاء ، مازالت مستمرة . بدأ
العلمي يساورني إلى متى سنظل نتجه غربا ؟ إلى أية مسافة تمتد هذه الرمال البعيدة
والشعب ، المرجانية ؟ هل سيكفي ما لدينا من مؤونة وماء حتى نعود ثانية إلى
الشاطئ . ونستطيع التكوين ؟

مع أن الوقت كان مائلا مسكرا لكي أريح نفسي في التكوين إلا أنني
وصلت أن أبدأ من هوري في تحديد الحصص سواء من الطعام . كان هذا
تصرفا قاسيا خاصة بالنسبة لرجال دائبين عن ، ومات التجديف ، إلا أنني
فضلت القسوة على الموت جوعا ، وعطشا . جاءني متنوسين ليبلغني تفهم
الرجال ، إذ هم يقررون أنهم لا يرون داعيا لنظام الحصص ، والماء ، والطعام
وفيران ، وأجبتهم :

— دعهم يتدهرون . إنني لأدري متى تنتهي هذه لشعب ، ثم أنا بعد
ذلك لأدري متى تنتهي هذه الصحراء ، ربما أحفف من القيود على المياه
إذا أمطرت السماء .

ظهرت المياه الرقراء طهر اليوم الثالث بعد إغتراقنا عن نجم آب ، وهو
الرابع بعد ابتعادنا عن الشاطئ . أمرت بالاتجاه شمالا بجاءلا مسافة آمنة
ينسأ ، وبين المياه البيضاء . توالى الأيام بعد هذا دون أن أرى أثرا
للأرض ، وهلل الرجال ، فقد أثرت بهم أيام الإبحار المتتالية ، كما أثر فيهم
نظام الحصص في التكوين ، ولإعتقدوا أن ظهور الأرض فيه نهاية لكل
آلامهم .

على أنا ماكدنا بقرب منها حتى حابت الآمال . كانت أرضا صحراوية
لا تبت فيها ، ولا شجر على طول امتداد النظر . مجرد كتبان من الرمال لانهاية

لها مع هذا أمرت بأن نرسو . أردت أن يشعر الرجال بالأرض الصلبة تحت أقدامهم ، وأن يستريحوا ليلية أو اثنين من التجديف . كنت أعلم أن في هذا مخاطرة كبيرة ، خاصة وأن الطعام قد تنافص إلى درجة خطيرة ، إلا أنني أملت أن أعوض ببعض صيد البحر .

نظر إلينا رب الأرباب معطف ، فلم تكن الأسماك وفيرة بحسب ، بل إن أولى شاهد غرالا وسرعان ما أرداه بسهامه حقا إن لحم غزال واحد لا يكفي لإطعام أكثر من أربعين رجلا ، لكنه كان حورا من لا شيء . على كل حال ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك ما اصطادوه من الأسماك فصبنا لينة جيله على الشاطئ . وأكل كل فرد كفايته ، وفي الصباح أقمنا ثانية .

استمرت الرياح الشمالية تزداد قوة ، وأضحي تقدمنا بطيئا ، والتجديف قاسيا ، واقتصر الطعام تقريبا على الأسماك إذ أن القمح بدوره تنافص حتى أنني فكرت في أن أوقف لأعيد زراعته ، لكن الشاطئ ظل على حاله ، رميا لا أثر فيه لساعات أو شجر ، وبدأ أشج الجماعة يظل عليها بوجهه القبيح .

نحن الآن في أول شهور برت (نوفمبر) ولارالت الأرض صحراوية لقد عاف الرجال الاستمرار على طعام واحد ، وفصل كثير منهم أن يقضوا يومهم دون طعام ، على أن يأكل الأسماك ، والخبر . لم أعد أسمع صرخة واحدة ، وحيثما نظرت رأيت عيوناً زائغة ، ووجنات صامرة ، وأجسادا هريئة ، وأصابع مرتعشة ، وأيد لا تقوى على التجديف . اضطرت أن أنقص الوردية إلى ساعة ونصف ، ثم إلى ساعة ، وحتى هذه المدة اليسيرة كانت عبئا كبيرا على قدرة الرجال ، وحيويتهم .

في صباح اليوم الخامس من أول شهور برت (نوفمبر) وقع حادث كاد أن يكون له أثره السيء على نفوس الرجال لولا أن تداركنا رب الأرباب . كنت في مقصورتي حينما سمعت صياحا على سطح السمينة أعقبه أصوات هرج

ووقع أقدام كثيرة تمددوا إلى المؤخرة ، ثم ددا إلى أن حركة السفينة قد توقفت . أسرعوا إلى المسطح وهناك رأيت متوسمين واقفاً بين الرجال ، وقد تجمعوا عند المؤخرة يشيرون إلى شيء في المياه . ذهبت إليهم ، وأحرق متوسمين أن أحد الرجال قد فقد عقله ، وألقى نفسه في البحر ، مفصلاً الموت على الجوع . حاولوا إنقاذه ، لكنهم رأوا أسماك لقرش تفترسه ، ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً .

وقعت مهمتنا لثوان . لقد أوضححت لي الحادثة مدى الإضطراب النفسي الذي يعانيه الرجال بما لكنت نفسي سرعة ، وأمرت بالاستمرار في التجديف صائحاً فيهم أنهم إن تركوا السفينة عرصة الرياح الشمالية فسوف تحملهم جحيماً حيث الصحراء ، وسيؤخرهم هذا عن الوصول إلى الأرض الطيبة التي طبقاً لحساباتي لا يمكن أن تكون أبعد من يومين ، أو ثلاثة . لم يبد على أحد أنه صدقي لكن إعتيادهم على تمديد الأوامر هو فقط الذي دفعهم إلى العودة إلى التجديف .

أثناء عودتي إلى القمرة سمعت مراقب الصاري يصيح بأنه يعتقد أنه يرى جبلاً على الشاطئ . عند الأفق . هلل الرجال فرحين ، وصاعقوا من مجهودهم وبالرغم من هذا فقد حل الطلام دون أن نصل إلى الجبل ، وأن كان مراقب الصاري قد أكد الحقيقة بعد حوالي الساعتين . في منتصف اليوم التالي ألقينا المرسى عند خليج تنتهى عنده الجبال . ولم يتوان أوني ورجاله عن القصر إلى الشاطئ . ومانشوا أن اختفوا .

كوت فريقاً آخر وطدت من حقاً نحت أن يصحبه . كانت مهمة الفريق هي البحث عن العواكه ، والتحصينات ، مهمة حقاً أن يستبعد ما قد يكون ساماً منها . بعد أهل من ساعة عاد عشرة من رجال أوني يحملون وعلاصيحاً ولست أحسى في حاجة إلى وصف الإستعداد المسكن الذي لا فوه . منذ هذه اللحظة إمتلك بطون الرجال ، وعاد إليهم مرحهم ، وابتدأت محارن السفينة تزدحم بأطباق كولات ، شيء واحد كان يفتقنا ، أعنى الخبز . كان يلزم

أن أعثر على مكان أستطيع أن أزرع فيه قمحا . إن المص في الحزن لا أثر شديد له إذا ما عرفت أنواع متعددة من الأطعمة الأخرى ، لكن لا شيء يعمله إذا نقصت الأطعمة ، أو انعدمت .

بعد أيام عثرا على مساحة شبه مسطحة من الأرض ، إلى جوار غدير ، وأقنا معسكراً ، وبدأ تهذيب الأرض لزراعة القمح . في أوائل الشهر الثاني من شهر برت (ديسمبر) بدنا الحطب ، ونصرع فريق للصيد من الجبال ، والعياب القريبة . بعد ستة أشهر أى في أواخر شمتو (يونيو) حصدنا ، وامتلات مخازن السمينة بما يكتفيها من التمور . في منتصف الشهر أفلعا بسعية قوية ، ورجال أشداء لا يأهون لما يلاقون من مخاطر .

اليوناني

الرحلة تقرب من نهايتها. لقد احتزننا مدة أيام مصيق البحر الأحصر مدى صالما سمعت عنه ، وإن كنت لم أبحر إليه قبل ذلك . ساعدنا ريح عريسة شمالية كان من اليسير أن تتلقفها الشراعات للمساعدة لنفسية لتدفع شرة . وهدد استراح الرجال بسببا من التجديف ، بعد أشهر طويلة من حمل المصير . على أن هذا الجزء من الرحلة في الواقع كان أخطرها جميعا . ذلك أن عرب البحر الأحصر يقع في منطقة يهود قرطاجنة ، وهي مدينة أسسها الفينيقيون منذ زهاء ثلاثة قرون ، وما يشك أن استقلت المدينة عن الدولة الأم ، مكونة دولة بحرية قوية عالت في البحر فساداً ، خاصة في جزئه الغربي . هم قراصنة لم يدعوا سمينة تبهر آمنة .

منذ ثلاث سنوات تقريباً ، حينما بدأنا رحلتنا لم تكن تامري في حالة حرب مع قرطاجنة . لكن ثلاث سنوات مدة طويلة ، تحدث فيها أشياء ، وتغير أحوال . بالإضافة إلى هذا ، بنا كما قد حاربنا الفينيقيين واستولينا على أراضيهم ، وحاربهم أنا شخصياً في معارك بحرية ، والفينيقيون أجداد القرطاجنيون . أم من هذا كله أن سمينتنا لم تكن تجارية ، ولا تحمل بضائع للتجارة ، بل إن بعض الأسئلة البسيطة سوف تكشف أننا من بات من الشرق ، فن أين إذا أتينا نحن التامريون ؟

إن القرطاجيين رجال بحر ، كما ذكرت ، وهم أيضاً نجار ، ولو علوا بالرحلة فسوف يدركون أهميتها ، وإن يدعونا نذهب إلى تامري ، ومعنا مثل هذا السر . سوف يسألون على مداراتي ويستخدمونها لأغراضهم الخاصة . ولعل يعلم أحد من تامري عنا شيئاً . أكثر من هذا ، ليس من المستبعد مطلقاً أن يكون عدنا إليهم بشكل ، أو آخر أساء رحلتنا ، صحيح

أما أشعنا أننا مهدف إلى التجارة مع بلاد بونت ، لكن هذا كان منذ ثلاثة أعوام ، فإذا أضفنا إلى ذلك الاتجاه الذي أبحرنا منه ، فلن يعدو الأمر سوى مجرد استتاع بسط ليصلوا إلى الحقيقة .

كان يمكن أن أشمل السفينة راراً ، وأنتم رحلتى سيراً على الأقدام عن طريق البر . وقد فسرت في هذا ، لولا أن معظم البلاد تغطها قبائل الطومياح ، وهي في عداوة مستمرة مع تامرى ، ولن يدعونا نمر بسلام ، شيء واحد فقط كان في صالحنا ، إن السفينة بنيت على الطرار الفينيقي . وهو نفس الطرار المرطاجي ، وربما ساعدنا هذا على الإفلات من التفتيش ، أو إن لم نعت ، ربما أعطانا عامل المفاجأة .

أمرت بالارتفاع أعلا تامرى على السفينة ، وابتعدت عن الشواطئ . عسى أن نعلم دون أن نعلم لما سمعهم التي تداوم على تفتيش البحر ، صار كل شيء على ما يرام حتى تجاوزنا أكبر منطقة خطره ، أغنى تلك التي تقابل تماماً مدينة قرطاجته ، وبدأ لي أن الآلة جيتنا بعطفها ، وأما ستملت دون حادث عسير ، وحينها بدأت أطمئن ، وقعت الواقعة .

مع خيوط الفجر كان مرءوس الصاري يصيح أنه يرى في الأفق سميتين تقتربان . لم يكن هنالك أدنى شك في أنهما قرطاجيتين ، هما من سفن أخرى تجرؤ على اقتحام البحر المحاصر في هذه المنطقة ، ولم يكن هنالك شك أيضا في أنه لن يمضي سوى ساعات قليلة ، وتلقان بنا ، فقد اعتنينا عند بناء السفن أن تكون قوية لتحمل البحر ، لا أن تكون سريعة حفيضة . لو صادفتنا هاتان السفينتان قبل الغروب مثلا ، لسكان هنالك أمل في الإفلات مهما عندما يحل المساء ، أما ونحن في مطلع النهار فلا أمل البتة . الأمل الوحيد هو في الخداع ، وعنصر المفاجأة .

انتصف النهار قبل أن تقترب السفينتان بدرجة كافية للتمكن من التعرف على قدرتهما نفعية . كانتا أصغر حجما من سميتي . وربما تحمل كل منهما مائتين وخمسين ، وثلاثمائة رجل ، لكنهما كانتا أحب ورأى ، وأسرع

حركة . وأقدر على المناورة ، ومن اليسير عليهما أن تفصيا عليتنا إذا ما دخلنا معركة بحرية متكافئة ، ولهذا اتجه كل تفكيرى فى الحيلة ، مستغلا ثقل السفينة ، وعنصر المفاجأة .

أمرت متوسل أن يصدر تعليماته بأن تحمل جبال الشراع الرئيسى بحيث يستطيع الرجاى نشرها فى دقائق ، وبحيث تبدو للرائى من بعيد وكأنها غير محكمة الرباط . ونظر إلى نائى بتعجب وتساءل :

— هل تريد مرد الشراع الرئيسى ؟ إن الريح شمالية ، وستدفعنا إلى الشاطئ . ولن نستطيع إيقافها فى وقت مناسب .
— افعل ما أمرت وسأشرح لك خطتى .

ذهب لتتعيد الأمر ، ثم عاد بعد قليل ، وأخذت أشرح له الخطة . ما إن استوعبها حتى جمع صباط ورؤساء الفرق ، وأشرف على توزيع الرجال ، وأجعت اثنتين ، ثم ذهبت إلى مرت سجر ، وأخبرتها بما أعزم ، وهديتها إلى فراشها ، وأسرعت بالعودة إلى سطح السفينة لأعيد تقدير حساباتى .

كاتب السفينتان على بعد لا يزيد عن ثلاثة حثات (٣٠٠ ذراع) ، وكانت ترسلان إشارات تأمرنا بالتوقف عن التجديف . أصدرت أوامرى بذلك ، وما لبثت السفينة أن تمهلت فى الاندفاع ، بينما راحت الرياح الشمالية القوية تدفعنا قليلا نحو الجنوب . حدث ما لم يكن فى حسابى ، وما كاد أن يعصى على خطتى بأعشى ، استدارت الرياح الشمالية ، وما لبثت أن عصفت بالشراع الرئيسى وأهمل الرباط ، ومالت السفينة بشدة على جانبها مع لظمة لرياح وكادت المدفة أن تهلل من يد قائدها . أصدرت أوامرى بأن يصعد الرجاى الصوارى ، وأن يتظاهروا بربط الشراع ، وأن يتكأوا فى ذلك كان معى . أبى قد أصبح ببعض الرجال لكن لم يسمعنى تفكيرى بشىء آخر . انصرفت سفينة العدو إلى طاجية ، واتحدت إحداها الجانب الشمالى للسفينة ، لآخر بجانب الجنوب ، فاما كما توقعت . أصبح العدو الآن

قريباً ، بدرجة كافية للحديث عن طريق البوق ، وجاءتني أسئلتهم عن هويي ، ومن أين أبحرت ، إلى أين أقصد ، ومن صاحب السفينة ، وماذا تحمل . إنني أتكلم الصينية ، لكن ليس بدرجة كافية لأن أخرج فيديفا ، لهذا تعددت أن يكون كلامي غير واضح ، بحيث يسعون الإدغام إلى تشوش الرياح .

أحذرتهم أننا تجار ، وأما أبحرنا من الجرد العربية في طريقنا إلى فيفييا ، وأننا نحمل بضائع مختلفة .

لا بد أنهم كانوا قد بدأوا يشكون في أن المصير غير عادية ، وأن مطربا لا ينني . عن خبرنا ، لأنني رأيت سطح السفينتين ، وقد ظهر عليهما الجلود على أكمة الاسماء . توقف المجذوعين فيهما وحادثنا لسفينة

كانت هذه من اللحظة التي ألتطرها . أصدرت الإشارة المتعين عليها . وفي ثوان كانت السفينة تسبح بالحركة . حل الرجال على الصواري الحبال ، وشدها آخرون من أسفل . قبل أن تعمد الشراعات تماماً كانت قد امتلأت بالرياح الشمالية ، ومالت السفينة بشدة إلى الجنوب وساعدها قائد الدفة . شاهد من في سفينتي الإعداد هذه الحركة ، وأعلمهم للحظات لم يصعدوا ما نحن مقدمون عليه ، ثم تعال صرخاتهم . وداقت سهامهم كوابل على سطح سفينتي .

حاول دبان السفينة إلى الجنوب أن يفلت من الكارثة المحققة ، وسمعت أصواتاً مختلطة من الأوامر إلى الله . من سرعة لتجديف ، وإلى البحارة مرد الشراعات ، وإلى قائد الدفة أن يذبح إلى الجنوب . لكن كل هذا جاء بعد فوات الآوان .

انحرفت سفينتي بشدة حتى كاد جانبها الأيمن أن يغيب من ماء البحر ، واصطدمت معدنها بالسفينة إلى الجنوب صدمة هوية كادت أن تعقدني وارتني مع أبي كمت منشئاً بأحد الحواجز . رأيت الجلود ، والبحارة على سفينة العدو ، وقد طوحت بهم الصدمة فألقت ببعضهم في البحر ، وطرحت لدافين أرسا في حليط غريب من الأجسام ، والاحشاش ، والأسلحة ،

عند صرخات الرعب ، والالام مع أصوات تهمش الأحشاب ، ولطم الأمواح
 لم أكن قد قدرت أن تكون الصدمة مثل هذه القوة . اعتقدت أن صوتي
 المسافة من السفينتين مسجوع من وقعها ، لكن شدة الريح الفجائية صاعقت
 من نتيجة الاصطدام حتى أنني رأيت ، والرعب يلاقي ، أن مقدمة سفيني
 قد دخل برمه وسط سفينة العدو ، مما جعلها عاجزة تماماً عن الحركة . كان
 على أن أعبر خطتي بسرعة . تركت حوالى الخمسين جندياً تحت إمرة صابط
 في الجهة الجنوبية ، من السفينة أمر آيها أن يقضوا على من بقى من الجنود ،
 والحدادة في السفينة العارقة كانت مهمتهم بسرعة نسبياً إذ أن الاصطدام كان
 قد مضى ، كثير منهم ، لم يسع في تصوري ، واحداً من الناجين إلا وقد
 أصابه حروح ، وكدمات ، وكسور .

أصبحت مهنتي الخفيفة الآن في الساحة الشمالية حيث السفينة الأخرى
 التي لم تصب سوء . كان رامو السهام فيما يرسلون وإيلا من الموت . تمت
 شطر مؤخرة سفينتي ... تساقطت السهام حولي ، وأنا أشتغل بين الجرحى
 والقتلى ، وازداد رعي وأنا أرى العدو يرمي بالسهم السارية . وأن السار
 اشتعلت في القتراعات كما أمسكت في مواضع متعددة من السفينة . أصابني
 أحد السهام في كتفي إلا أنه كان سهماً طائشاً هابطاً من أعلى فلم يرد أثره على
 مجرد حرج طفيف . رعت السهم ، وأنا أنتحرك صوب المؤخرة لأرتب
 ما يحدث فيها .

حينما وصلت نهدت نار رايح . رأيت عشرات الكلابات تمسك في سفينة
 العدو ، ووراء كل حبل عشرات الرجال يشدونها نحو سفينتنا . رحت أصرح
 في الرجال إنني لأهدف إلى إغراق السفينة وإعما أسرها ، فقررنا أن سفينتنا
 أصبحت في حكة انتهيبة ... دفع هذا الرجال إلى مرید من الخماس ، وطاوت
 كلابات أخرى تتساقط على سفينة العدو ، وبدأت حبال أخرى تشدها نحونا .

إذ كان العدو يطار بإسهمه ، فقد قام أوني ، ورجاله بدورهم أيضاً
 في نشر الرعب ، والموت . كان بعض رجالى يسددون السهام مباشرة إلى رجال

العدو ، فيما خصص آخرون أنفسهم في إمداد السفينة القرطاجية بوابل يتساقط عليها من عل . كدت أن أقهر فرحاً ، وأذا ألحظ أن أوفى قد جمع عدداً من أمهر الراميين ، وراحوا يقتلون من جنود العدو كل من يقترب من حبال الكلابات بغية قطعها بقأس الحرب .

كانت النيران تزداد اشتعالاً في سميتي ، ولم يعد لديا وقت نصيحه . شعر الرجال بهذا فضاءهموا من مجهوداتهم حتى التهمت السميتان ، وشهرت بسميتي ، وفهزت إلى سفينة العدو ووافقتي متوسلين ، وعنفوا ثم اتبعا الرجال . توفف دور حلة الأقواس تسبياً ، ودار القتال بالسلاح . السيف والخنجر والبلطه وقأس الحرب ، بل والأيدي ، والأرجل . كان قتالاً عنيفاً استعلت فيه كل الوسائل ، والتحم فيه كل الرجال . لم يكن القرطاجيون ، على شجاعتهم ، أساداً لمثل رجال الدين قضا قرابة ثلاث سوات ، دافوا فيها أحوالاً لا تحظر على بال . وسرعان ما بدأ العدو يتراجع أمام الوحوش المكسرة التي انقضت عليه .

هجأة وأنا أقاتل ، تذكرت مرت سجر . لقد تركها مقيدة إلى هراشها ، والمار مشتعلة في السفينة . طارت نفس شعاعاً . عالجني خصمي بضربة هوية من سبق قصت عليه ، ثم نظرت نحو سميتي . كانت النيران قد أمسكت بها حتى بدا لي أن كل جرح . مها قد اشتعل . كالجنون أخذت أشق طريق بين المقاتلين . قبل أن أصل إلى الحاجز اعترضني اثنتان من العدو .

كنت أعلم أن كل ثابئة لها قيمتها ، وأني ربما أكون قد تأخرت فعلاً ، بل لعل مرت سجرت ذهبت طمعاً للبراز . جن جنوني ، وفأنت بوحشية ليس تقتل لرجلين ، وإنما لتخلص منها ، وتحطى حاجزي السفينتين ، أصابني أحدهما في دراعي الأيسر ، وسقط الخنجر من يدي ، وتراجع بعيداً عن حسام الثاني ، لتبني يأس مرير وأنا أقاتل ، إن حياة مرت سجر ، إن كانت ما تزال حية ، تتوقف على حياتي ، وسرعة تحلصي من الرجلين ، لم أعبأ بالجراح تصيبني ، وهاجتهما بوحشية ، وسقط أحدهما صريعاً .

كان الوقت يمر سريعاً ، وأنا أراقب النيران ترداد توهجاً حتى خيل إلى أن السمينة أضحت شعلة واحدة ، وبدأ أن أرى أمل في إنقاذ الفتاة بخيو . صمت أدنى عن أصوات القتال ، ولم أعد أسمع أبين الجرجى ، وإنما ملاً سمعى فحيح النيران ، وطقطة الأخشاب المحترقة . خيل إلى أنى أسمع صرخات مرت سحر ، وهى تتألق فى النيران ، وازداد جتوئى . هاجمت الرجل بشدة إلا أنه كان مبارزاً حادفاً ، رأى تلميح على إهماء القتال ، ورأى الجرح من ذراعى الأيسر يذوب بشدة مراوغ مبتعداً عن سنى .

ترأخ إلى الخلف وقمر على درجا ، وأملا . وراه ظهر عنقور . أظففت يداى القويان على عنق الرجل ورفعتاه من الأرض لتطرحا به بعيداً . لم أنتظر لأرى ما حدث له . صرحت فى عنقور أن يتبعنى ، وفمرت إلى السمينة المشتعلة . كانت الرياح الشالية تحمل الدخان ، والنيران إلى الناحية الأخرى من السمينة ، لهذا لم أجد صعوبة فى الجزء الأول من رحلتى . أحدث أعود وأما أقمر فوق جثث القلى التى اعترضت طريقى .

أمامى مباشرة كان مكان القمرات ، لكن معالم السمينة تميزت تماماً . إن من اليسير جداً على المرء أن يصل طريقه وسط النيران ، ومن اليسير جداً أن تختبئ ملامح سفينة مشتعلة . وسط الصارى الأكرهشم جراً كبيراً من السطح ، والقمرات ، وسمعت سقوطه دويّاً يصم الآذان تطايرت قطع من الأخشاب المحترقة والمتفحمة ، فى الهواء . وأصابتى بعض شظاياها ، ومع هذا فلم أتوقف .

وصلت إلى الباب الخارجى للمدر المؤدى إلى القمرات ووجدته مشتعلاً لم أعبأ عما قد يصيبى ، ودفعته بأقصى قوى . لم يكن متاسكاً فسقط بسهولة ، ونخطيته إلى الداخل ، كانت النيران قد أمسكت فى كثير من الأماكن وأحسست بلهب يلمح وجهى ، وابتدأ الدخان يملأ المكان حتى أبى شعرت بصدرى يضيق ، وانتابنى السعال ، ولولا هذه الرياح التى كانت تسدع من لكوات الضيقة لما أمكننى أن أتقدم ، ومع هذا فقد دمعت عيائى ، وشعرت بوجتى تلتهمان ، وبأنى أكاد أن أخنق من شدة الحرارة .

تخطيت قرني إلى قرة مرت سحر ، كان الباب موصدا ، حاولت أن أفتحه دون جدوى ، يبدو أن قوة الاصطدام قد حركته من مكانه ، ولم يعد في الامكان فتحه . رميت سمسي عليه ولم يتزحرج . إزداد سعالي ، بدأت أشعر بدوار من أثر الدخان الذي أستنشقه ، والدماغ لقي نزف من ذراعي . شعرت بد فوية نفس كئي ، وإلتمعت لأرى عبحو . كنت في غمرة إحساساتي قد نسيته فيما طهر عاودني الأمل ، لم يتوان الرجل الجبار . ألقى ثقل جسده على الباب ثلاث مرات ، وفي الرابعة افتتح .

استدعت إلى القمرة لأرى مرت سحر ما نزال مهيبة إلى الفراش هالي منظرها حتى حسبت أنها مانت إحتدافاً ، ولكن ما أن قرئت منها حتى أحسست بأحاسيس صعبة ترداد ، ونضات قلبها تنطق . كان عبحو يمرق الحسان التي تميزها ، وإن من إلا حظا حتى كدت أدخلها خارجاً . أراد العبد الأمين أن يحملها عني إلا أني رفضت ، وبصوت متعجج صرخت ، طلست منه أن يدخل قرني ، ويأتى بالصندوق الذي أحتمل فيه مذكراتي . نظر إلى دهنشاً ، وهتف بكلمة واحدة .

— الذهب ؟ ؟ —

هرزت رأسي بعباً ، أعدو بالفتاة خارجاً ، ولم يعد صدري يتحمل أكثر من هذا استعبلي هو أ البحر المبعث لبرد إلى الحياة ، ويعيد ما طار من رشدي . توقفت أتمالك نفسي وأستشق الهواء يشده وبدا الدوار ينحسر عن رأسي ، والنظر يعود بمعنى الكليلتين . بعد أقل من دقيقتين خرج عنخو حاملاً صندوق البرديات التي سطرت فيها مذكراتي ، وملاحظاتى ، ورسوماتي عن الرحلة .

ثوان أخرى ومخططنا الخارجين . كان القتال قد انتهى ، وجمع منتوسين الأسرى على سطح سفينة الأعداء منتظرا أوامري فيهم لا شك أن منطري كان شعماً لأنه ما أن رأني حتى هرع إلى ومعه حقائض وتناولوا الفداء الفاقد الرشد من ذراعي ، هنا أحسست بمدى الأعياء الذي يتأقن . لو أرى

ركبت نسي لأحاسيسى اسقطت على الأرض ، وفقدت الشعور إلا أبى كنت أعلم أن أمامى مهمة يجب أن تكتمل .

أصدرت أوامرى إلى الرجال سرعة نقل جرحائى ، وقتلانا من سفينتنا الصانقة إلى الخالية ، وأحطرت متوسلين بنقل أسرى العدو إلى سفينتهم الثانية على أن يتركوا وحظهم فى البحر إن استطعوا انقاذها بجرا ، وإلا... لم يكن البيران قد أتت عليها كما فعلت سفينتنا ، ولهذا كان ما يرال لديهم فرصة للنجاة . لم أنتظر أن أتابع تنفيذ تعليماتى ، فقد حارت ركبناى ، ولم أعد أشعر ، و... الظلام يحجب من كل جانب .

فى أواخر شبور احب (أكو بر) وصلنا إلى مامرى دون حادث يذكر سوى أن حرم من سواحل طنوا فى مبدأ الأمر أننا فينيقيون يواجهون الساحل ، وكاد أن يقع بسا ويدهم قتال ، لكن سرعان ما تبينوا خطأهم خاصة وأن مصهم تحمى من شخصيتى ، علمت بأن أمورا كثيرة محزنة قد حدثت فى السنوات الثلاث أتى أمضيتهاها فى رحلتنا .

علمت أن الرب الطيب المرعون يخاف الأول قد بوى ، وأن بجلة المرعون بسامتيك الثانى قد اعتلى العرش ، وأنه وب منه الاكو ايوشا (اليو دايين) أكثر عما فعل أبوه ، حتى أن سلطنتهم شلت هل صغيرة وكبيرة فى البلاد ، أشأ لهم مدينة خاصة بهم ، فى أحصب بقعة فى الدنيا ، واستعملهم فى التجارة ، والجيش ، والإدارة حتى أن وزيره ومستشاره الأول كان منهم . يستمد المرعون كل أهل مامرى ، وأحاط بفسحه هذه النعمة من الأجانب علما منه أنهم سوف يدافعون عنه... لقد أنفقت الأيام فيما بعد كم هو محطى... أردت أن أتوجه من فورى إلى تران (صالحجر) حيث كان القصر الفرعونى ، إلا أن حقائقى نصحنى بالتروى وقال :

— إن الفرعون كما تعلم يحاط بأواملك اليوتايين ، ولن يدعوهم يعرف أهمية الرحلة ، بل وسيتقلون بردياتك جميعها إلى اليونان ، إن كل من مات أو فقد من رحلتنا إنما فقد فى سبيلها ، وله بذلك نصيبه فيها . أعطى أسبوعاً

واحدًا ، وسأجند كل معلمى دار الحياة ، وكنهة آمون رعا عمل نسخة أخرى منها لتعوض في المعبد ، ربما يأتى يوم نستعيد منها .

رأيت أن فى رأيه الكثير من الوجاهة موافقت ، وأمضيت الأسبوع مع مرت سجر فى قصرى فى ثبوت نصح (متف) . كان أسبوعاً حزيناً ، كلما غربت شمس أحد أيامه تناقل اليوم الذى يبه ، وارد دناهما .
قبل اليوم الاخير لم وعد حقاً نمت سألتى :

— هل حقاً سوف تسلمنى إلى فرعونك ؟ .

أجبت بحرن :

— أجل .

... لكن الفرعون الذى كنت تخدعه مات ، وهذا هو فرعون جديد ، وأخى إنا وهى إلى ذلك الذى مات .

— كلا يا مرت إن هذا وريثه ، وصاحب الحق الشرعى فيك .

— هل ستضحي بى من أجل شرك وكرامتك ؟ وأنا ... ما ذبى ؟
ألا تراعى شعورى ، وأحاسيسى ؟ دعنى أقول لك إنه لن يبالى أحد سواك .
كان قلبى يتمزق وهى تتكلم ، وصرخت :

— كفى يا مرت ... ألا ترى ما فعلين بى ؟ ! إننى لا أستطيع أن أفعل سوى ذلك .

* * *

إذا كنت قد ظنت أننى سأقابل الفرعون بمجرد وصولى فقد وهمت ، وقف الحرس الاكويوشا (اليوتائى) يمنعنى من الدخول ، وجاء أحد ضباطهم ليحبنى أن على أن أقابل الوزير أولاً ، وهو الذى سوف يقرر إن كنت سأحظى بالمقابلة السية أم لا . لم أقبل هذه المعاملة وصرخت فى الضابط :

— إبنى قائد فى جيش الفرعون ، وبحريته وأحد نبلاء تامرى !

— هذا لا يعنينى .

وضعت يدي على قبضة حسامى ، وكذت أن أصرع الوقح لولا أنى
تذكرت أن أمامى مهمة على أن أقصمها أولا . تفاضيت عن الإهانة ، وطلبت
أن يرشس إلى مقر الورر اليوانى فأجاب بصلافة .

— إن عليك أن ترى أحد سكرتيريه ، وهو الذى سوف يحدد لك
الموعد المناسب .

أشار إلى أحد الجمد لبصحنى . كان السكرتير يسوره يد مايا . سألتى
عن اسمى ، ورتنى ، وسبب المقابلة ولم أرى بدا من إحابته . بعد أن استمع
إلى قال :

— أيس البرديات التى تتكلم عنها ؟

— إنها فى قصرى هنا .

— إداً عليك أن ترسلها إلى ، وسأرفع الامر إلى جناب الورير ، وربما
اطلع عليها وحدد لك موعدا لمقابلته .

— متى ؟

— حينما يكون لديه فراغ كاف لقراءة البرديات ، فاذا رأى أن المسألة
تستحق ، فسوف يحدد لك موعدا لمقابلته .

— إنى لا أرغب فى مقابلته إنى أود مقابلة لهرعون .

— هذا يسوره جناب الوزر أرسل لنا البرديات ، وانتظر فى مصرك ،
وسوف يرسل إليك لتحديد الموعد فيما بعد .

لم يكن أمامى إلا أن أفعل ما يريدون . أرسلت الصندوق ، وقضت
فى قصرى مع مرت فى إنتظار الموعد مع الورير ، مر شهر كامل قبل أن يأتى
رسولهم ، وحينما ذهبت أدخلنى سكرتير آخر إلى حجرة واسعة ، فاخرة
الرياش ، جلس فى أقصاها رجل لم يتجاوز الأربعين . بالرغم من وجود
مقاعد كثيرة لم يأذن لى بالجلوس ، ولم أر ما يدعونى إلى الاستمرار فى الوقوف
أمام هذا الدحيل ، فقصدت مبعداً جلست عليه .

استمر صامتاً يرمقنى بنظرات حادة لفترة ، وأخيراً قال :

- إذا أنت تدعى أدك قمت برحلة حول ليبيا ؟
- أيا لا أدعى ، إن كل شيء مسطور في لرديات .
- رفع أحد حاجبه الكتيعين لكن صوته لم يتغير .
- ولماذا تريد مقابلة الفرعون ؟
- لأخبره بأن المهمة التي كلفني بها والده العظيم قد تمت بنجاح .
- هل مملك لتكليف ؟
- .. أجل .
- .. أب هو ؟
- سأقدمه للفرعون شخصياً .
- لصره الثانية رفع حاجبيه :
- حسناً ، هل هذا هو كل شيء ؟
- ... كلا إن رجالى لم يقضوا مرتباتهم أو أية مكافآت سوى عن سنة دعتهم مقدماً ، وهم ولا شك أحق الناس بباق أجر الثلاث سنوات ، ومكافأة إضافية أيضاً .
- هذا إذا قرر الفرعون أنك حقاً كنت مكلماً ، وأدك قصيت السنوات الثلاث ، ومعك الرجال في قصائهم .
- أين الذهب الذى تقول عنه إن ملك برارياً أعطاك إيها ؟
- .. إنه قد غرق مع السفينة كما سطرت في لردية .
- .. هل تركه يعرق لتتقد هذه اللرديات فقط ؟
- ظننت أن تريح لرحلة أم ، ولم أكن مكلماً بأحصار ذهب ، وإنما بالالتفاف حول ليبيا .
- لماذا إذا لم تدع الفتاة يعرق ، وتتقد الذهب ؟
- إن الصاة مذك الفرعون ، وأعتقد أن حياة بشرية أم من الذهب .
- لاح شبح إنسامة على شفتيه وقال :
- لقد بقيت مملك لأكثر من سنتين ونصف .. أجل لعل حياتها

بالدسة لك أهم من الذهب ... حينئذ سأحظر الفرعون لأرى إن شاء
مقابلتك .

هذا أنهى المقابلة . لم أرتح لكلامه ، ولا لروده ، وثفته في بعضه ،
وحملت الحقايق ما فعله من تسخ صورته من لرديات
مضى شهر آخر قبل أن يحدوا إلى موعداً خفية للفرعون ، ولم أقض
الشهر حاملاً . استدعيت متوسلين ، وحينئذ بحث ، وأرى ، وعصو ، وعقدت
معهم إجتماعاً . أحزنهم عاتق ، كما قررت هم أرى لا أتصور أن هذا اليوناني
سوف يقول الخيفة كأمه للفرعون ، أو أنه سيدفع مستحققات الجلود
والقصاص ، والبخارة . ظننت بهم أن يلقوا التملكات كما التي تركها لي ،
ويوزعوا نتائجها على الرجال .

دعوتهم ذلك لمقابلة للفرعون . كان جالسا على عرشه ، وإلى جانبه
وقف الوزير ينظر حوله في ملن . قبلت الأرض أمام الفرعون ، ولم أرفع
رأسي حتى أدلى . قبل أن أبدأ حديثي فاجأني الفرعون .

— لقد عرص علينا جناب الوزير موضوعك ، وأحمد الله رب الأرباب
أننا لن نقدمك إلى المحاكمة .

لم أتمكن أن رفعت رأسي دهشاً ، وفتحت فمي لانتكلم لكنه أشار بيده :
— باعتراك أنك بدأت الرحلة بأربع سنين ، وألف وثمانمائة رجل ،
وكل المؤن ، والأموال التي طلبها رئيسك . فقدت كل السنين ، ولم تعد
إلا سبعة وعشرين وثلاثمائة ، رجل أي أنك فقدت كل شيء بالإضافة إلى
أكثر من ألف ومائة وسبعين رجلاً . ليس هذا لحسب بل إنك باعتراك
قد أودعت لديك هدية من ملك بارباريا ، صندوق مليء بالذهب ، وفقدته ،
أذهب إلى منزلك ماكس لرم حطب ، واشكر ظالمك السعيد أما لا بود
أن تقدمك إلى المحاكمة .

وقعت مذهولاً لأنصور أن مثل هذه العقوبة ، تحكم امرى ، وتتحكم ،
و مصائر شعبها ، ومع ذلك فقد رأيت أن من واجبي أن أحاول أن أفعل

شيئا ، على الأقل لا محوتلك الإبتسامة التى ظلت مرتسمة طوال الوقت على وجه اليونانى . تهرأت قائلا .

— أيتها الفرعون لك الحياة والصحة والقوة إن هذه البرديات التى قدمت بها إنما تمثل آفاقا جديدة واسعة ، يمكن أن يستفيد من خبرتها الفرعون ، وشعبه ، لتعود نامرى أقوى دولة فى العالم .

بدا التردد على الفرعون . أطرق يفكر ثم رفع رأسه ليتكلم . قبل أن يقول شيئا تدخل اليونانى .

— وماذا تريدنا أن نفعل ؟ أرسل ، ونجهز رحلة أخرى لتأكد من صدق ماورد فى برديتك ؟ إنك لم تعد بدليل واحد يقنع الفرعون بصحة ما ذكرت . وربما كان كل هذا مجرد أوهام تخيلاتها ، وقصة بالفت فيها لتبرر أفعالك ، وعلى أى الأحوال فإن ميزانية نامرى لا تتحمل مصاريف تجهيز رحلة أخرى ، حتى إن كنت صادقا ، ثم أنه يبدو أنك نسيت أن الفرعون قد تكلم .

كنت أرقب الفرعون ، ووزيره اليونانى يتكلم . رأيت ملامحه تتغير ، وظهرت شخصيته الضعيفة واضحة أمامى . إذا فقد كانت الرحلة جميعها وذهبت حياة الأشخاص الذين ماتوا ، أو قتلوا ، أو فقدوا هباء . بقيت نقطة أخيرة . سألت باقتضاب :

— والفتاة ؟

ورد اليونانى :

ماذا ؟ تلك السمرام من بونت خذها لك هدية ، لدينا مئات من أمثالها ولا أعتقد أن الفرعون له الحياة ، والصحة ، والقوة يهتم بأن تكون فى حاشيته فتاة قضت مع أحد رعاياه أكثر من ستين ونصف .

فهمت أن الحديث لا يريد أن يكون أحدا ممن قاموا بالرحلة قريبا من الفرعون . حتى المصادفة أراد استبعادها ... إنجذبت ، وتراجعت بظهرى تاركا الفرعون ووزيره ... وذهبت إلى مرت سجرة .

فهرست

٣	مقدمة
١٠	الفصل الاول : الاستعداد للرحلة
٢٥	الفصل الثانى : طريق الآلهة
٣٧	الفصل الثالث : قراصنة البحار
٥٢	الفصل الرابع : بلاد بونت
٧١	الفصل الخامس : أمة للفرعون
١٠٣	الفصل السادس : وفاء الميت
١١٨	الفصل السابع : الأعرج
١٣٧	الفصل الثامن : متاعب الفتيات
١٥٢	الفصل التاسع : مدينة الذهب
١٦٩	الفصل العاشر : إلى حيث يعزف الجن
١٨٧	الفصل الحادى عشر : صائدو الروس
٢٠١	الفصل الثانى عشر : التمرد
٢٢٤	الفصل الثالث عشر : فى الأمر
٢٣٨	الفصل الرابع عشر : المملكة
٢٥٦	الفصل الخامس عشر : رأس العواصف
٢٦٩	الفصل السادس عشر : فنانون الكهوف
٢٨٣	الفصل السابع عشر : غاية الأقرام
٣٠٥	الفصل الثامن عشر : ذوو الشعر الكث
٣٢٤	الفصل التاسع عشر : الشعب المرجانية
٣٣٧	الفصل العشرون : اليونانى

رقم الابداع بدار الكتب ٤٩٧٠ / ١٩٨٠
مطبعة الأمانة ٣ ش جزيرة بدران — القاهرة

كتب أخرى للمؤلف

١. القوى الخفية نظرات في تاريخ السحر .
٢. النسر والمقد بداية الصراع .
٣. عبادة الأسلاف .
٤. المرتد .
٥. قصص أخرى .
٦. قصص وأساطير فرعونية
٧. أول السواد .
٨. الرب والد وجوه ترجمته .

الناشر

مؤسسة المصري للكتاب